جامعة عبد المالك السعدي

منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة

الدراسة الأدبية في المغرب

الأستاذ عبد الله كنون نموذجا



أحمد الشايب

جامعة عبد المالك السعدي
منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة

الدراسة الأدبية في المغرب

الأستاذ عبد الله كنون نموذجا

المؤلف أحمد الشايب

الكتـــاب : الدراسة الأدبية في المغرب
الأستاذ عبد الله كنون نموذجا

المـؤلـف : أحمد الشايب

منشورات : مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة

الخـط : الرامي زهير

الطبعة الأولى، 1991، طنجة
مطابع سبارطيل

رقم الإيداع القانوني : 901/91

إهـــداء

الى روح الاستاذين :

***عبـد اللـه كنـون**

و

*** محمد الخمار الكنوني**

مقـــدمـــة

اختار هذا الكتاب* الدراسة الادبية بالمغرب في شخص الأستاذ عبد الله كنون موضوعا له، وقد جاء هذا الاختيار ثمرة لجملة أسباب بعضها ذاتي وبعضها الآخر موضوعي.

ولعل الرغبة في تعميق معارفنا بالأدب المغربي في شخص أحد أعلامه ورواده تعتبر على رأس الأسباب الذاتية، فالدراسات المغربية - على أهميتها - لم تحظ بما تستحقه من أهمية وعناية، سواء أكان ذلك على مستوى تحقيق ونشر النصوص أم على مستوى الدراسة والنقد .

أما الأسباب الموضوعية فتعود الى موضوع البحث وإلى شخصية الأستاذ عبد الله كنون كأديب ودارس للأدب، ويمكن أن نلخصها في جملة من السمات اجتمعت في شخصيته وقلما اكتملت في غيره من معاصريه، وهي :

أ - الثقافة الموسوعية، فالأستاذ عبد الله كنون معلم أجيال وداعية ومصلح ديني، وعالم فقيه وأديب لغوي ناقد، ومن شأن هذه الثقافة الموسوعية أن تبلور وعيا منهجيا ناضجا ومتكاملا على مستوى الدراسة الأدبية.

ب - كتابات الأستاذ عبد الله كنون تجمع بين الهم الثقافي والهم السياسي ولا تكاد تفصل بينهما، فدراساته الأدبية الأولى جاءت تحديا للاستعمار الذي كان ينكر على المغرب أن يكون له كيان علمي وأدبي مستقل، كما كانت مواجهة لكثير من مؤرخي الأدب العربي المشارقة، الذين تجاهلوا المغرب في مصنفاتهم. ومن هنا، يكتسب انتاج الأستاذ كنون مشروعيته

(*) - هذا الكتاب في الاصل رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب، نوقشت في كلية الآداب بالرباط بتاريخ 1989/7/11 بمشاركة لجنة مكونة من السادة الاساتذة، د. عباس الجراري رئيسا، والمرحوم محمد الخمار الكنوني مشرفا ومقررا، ود. أحمد الطريسي عضوا. وقد اسفرت المناقشة منح المرشح د. د. ع. بميزة حسن جدا.

التاريخية إلى جانب مشروعيته الأدبية، ويحق لنا أن نقاربه مدخلين في اعتبارنا هذه الازدواجية التي تحكم مساره.

ج - ما لاحظناه من إهمال الدارسين المعاصرين لإنتاجه الضخم والمتنوع، وقلة ما كتب حوله، عدا مقالات تعد على رؤوس الأصابع، تغلب عليها الانطباعية ولا تفي بالمرام، ارتبط بعضها بمناسبات مخصوصة، بينما ركز بعضها الآخر على الجانب الابداعي عنده وأهمل جانب الدراسة الأدبية وهو الميدان الذي أبان فيه الرجل عن علو كعبه وطول باعه .

فرغم المكانة التي يحتلها الأستاذ كنون في الثقافة المغربية والعربية الاسلامية، ورغم كونه على رأس الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأولى في صرح الدراسة الأدبية بالمغرب وسنوا الطريق في هذا الميدان، فإن التاريخ لم يوفه حقه، فقل أن تجد له ذكرا، ونادرا ما تعثر على تقويم لمصنفاته في تاريخ الأدب .

في مقابل هذا الإهمال المطبق، وهذا التفريط في حق هذا العالم الجليل، سعت هذه الدراسة بما تملكه من عتاد معرفي متواضع، إلى هتك حجاب هذه المعاصرة التي طالما نسجت أستارا وحجبا بيننا وبين علمائنا الأفذاذ، وجعلتنا نغمطهم حقهم ونقصر في إنصافهم، لأنهم يعيشون بين ظهرانينا، ولا نكاد ننتبه إلى إسهاماتهم العلمية والفكرية إلا عندما يرحلون إلى دار البقاء، آنئذ نستفيق من سباتنا، ونندم على تفريطنا وتقصيرنا ولات ساعة مندم .

ولم يكن الطريق أمامنا ونحن نخوض غمار هذا البحث سهلا ذلولا ، فبقدر ما حفزتنا موسوعية الأستاذ كنون الى اختيار البحث والمضي فيه، بقدر ما شكلت عائقا منهجيا أمامنا وشتتت من اهتماماتنا ، ذلك أن اتجاهات الدراسة الأدبية عنده متنوعة متباينة، تعكس شخصيته كعالم مشارك، فكان علينا أن ننتقل من تاريخ الأدب إلى تحقيق التراث إلى المقالة بأضربها المختلفة. هذا إضافة إلى أن هذه التوجهات لم تحظ باهتمام الدارسين والمنظرين العرب الذين انصرفوا في جملتهم الى النقد والى بعض الأجناس الأدبية كالرواية والمسرحية، باستثناء دراسات معدودة.

أمام هذا العائق المنهجي كانت توجيهات الأستاذ الفاضل المرحوم محمد الخمار كنوني نبراسا أنار لنا الطريق واستحثنا على مواصلة السير، كما كانت العروض

التي انجزت تحت اشرافه في سلك التكوين حول تاريخ الأدب والتحقيق، خلفية معرفية أعانتنا على تجاوز الكثير من العقبات، فليتقبل منا أزكى عبارات التقدير والاكبار .

ولم تكن هذه المصاعب لتوهن من عزيمتنا وتزعزع من ثقتنا، فقد واصلنا السير قدما، وكانت النتيجة هذا البحث المتواضع، الذي أنهيناه ونحن مدركون لقصوره، مؤمنون أشد ما يكون الايمان بحاجته إلى النضج والاختمار، غير أن عزاءنا وعذرنا أننا ما زلنا في بداية الدرب ومن سار على الدرب وصل .

ولما كانت التوجهات الدراسية التي خاض فيها الاستاذ كنون متنوعة ومتشابكة، فقد كان علينا أن نلم شعث هذه التوجهات ونجمع شتاتها، وقد اقتضانا ذلك الاعتماد على منهج متكامل نراوح فيه بين الوصف والاستقراء والتحليل، وكان وكدنا من هذا الاختيار أن نكشف عن المنهج الذي يصدر عنه المؤلف في كل ما كتبه والخلفيات التي تحكم هذا المنهج وتؤطره. وقد ابتعدنا في خطتنا هذه عن جاهز الآراء وأحجمنا عن التأويلات التي لا تؤيدها النصوص، وآثرنا بناء استنتاجاتنا وأحكامنا على المعطيات التي تقدمها مؤلفات الاستاذ كنون، وذلك حتى لا نقع في شرك التعسف والإسقاط .

ولقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب، بالإضافة إلى ثلاثة ملاحق .

تناول التمهيد الإرهاصات الأولى للدراسة الأدبية بالمغرب مع بداية هذا القرن وذلك من خلال ثلاثة نماذج تعكس طبيعة هذه الدراسة وتوجهاتها .

وتناول الباب الأول مفهوم تاريخ الأدب عند الأستاذ عبد الله كنون باعتباره التوجه الغالب على اهتماماته، وذلك من خلال فصول خمسة خصصنا الفصل الأول للتحقيب الأدبي والفصل الثاني لتراجم الأعلام والفصل الثالث لعملية الانتخاب والاختيار والفصل الرابع للببليوغرافيا والفصل الخامس للملامح النقدية في تاريخ الأدب عند الأستاذ كنون.

وتناول الباب الثاني الأستاذ عبد الله كنون كاتبا للمقالة، وهذا التوجه في الدراسة الأدبية يأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد تاريخ الأدب، وقد

خصصنا الفصل الأول من هذا الباب - بعد تمهيد عن المقالة - للمقالة النقدية والفصل الثاني للمقالة السجالية والفصل الثالث لمقالة التعريف بالكتب والفصل الرابع للمقالة اللغوية والفصل الخامس للمقالة الإصلاحية .

أما الباب الثالث والاخير من هذه الدراسة فقد تناول جانبا آخر من الجوانب التي ميزت الدراسة الأدبية عند الاستاذ كنون، ويتعلق بتحقيق التراث. وقد جاء هذا الباب في تمهيد وثلاثة فصول، تحدثنا في التمهيد عن اتجاهات التحقيق بالمغرب وركزنا على اتجاه المستعربين الفرنسيين باعتباره اتجاها متميزا سبق تحقيقات الاستاذ كنون، بينما انصرف الحديث في الفصول الثلاثة إلى الخطوات المنهجية التي سلكها الاستاذ كنون في تحقيقه للنصوص وهي بالتتالي : التأصيل،والقراءة،ومكملات التحقيق .

وبعد الخاتمة أضفنا ثلاثة ملاحق،يتعلق الأول منها بحياة الأستاذ كنون والثاني بلقاء كان لنا معه،وخصصنا الثالث للمقالات التي لم يجمعها في كتب خاصة وختمنا البحث بلائحة للمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه التوجهات الثلاثة من الدراسة الأدبية التي توزعت أبواب البحث، هي الغالبة على اهتمامات الأستاذ كنون، وإلا فإن هناك توجها آخر غير أنه لم ينل حظا كبيرا من اهتمامه،ويتعلق بالشروحات الأدبية، فقد أصدر شرحين أحدهما لمقصورة المكودي والآخر للشمقمقية، وقد أسقطنا هذا الجانب من اهتمامنا لاعتبارين أولهما : أن الغاية من هذين الشرحين غاية تعليمية صرفة،ذلك أن المؤلف لم يفصح فيهما عن منهج واضح المعالم، إضافة إلى أن هدفه منهما - كما صرح بذلك - هو تقديم نصوص مفقودة ونادرة للقارئ. والاعتبار الثاني منهجي ويتعلق بعدم انسجام هذا الجانب مع التوجهات الاخرى التي غلبت على اهتمامه سواء تعلق الأمر بالجانب الكمي أم تعلق بالجانب الكيفي .

أما الجانب الإبداعي عند الاستاذ كنون - والمتعلق بالشعر على وجه الخصوص - فقد اعفانا اختيارنا للدراسة الأدبية من الوقوف عنده، وقد أشرنا رغم ذلك إشارة طفيفة الى شاعريته في الملحق المتعلق بحياته .

ومن الواجب علي،وأنا أضع اللمسات الأخيرة في هذا العمل المتواضع،أن

أتوجه بعبارات الإكبار والإجلال إلى أستاذي المرحوم محمد الكنوني، فقد كانت غيرته على هذا البحث كبيرة، وهي غيرة باحث محنك يقدر العلماء حق قدرهم ويحرص أشد ما يكون الحرص على إنصافهم وإيفائهم حقهم. فقد رعاني منذ سنوات التكوين،وسدد خطاي،ووجهني أحسن التوجيه، فليتقبل مني تحية التقدير والإكبار،ومشاعر الشكر والامتنان، وأتمنى بإنجاز هذا العمل أن أكون قد حققت بعض ما كان يطمح إليه .

وجدير بالشكر الجزيل العلامة المرحوم الاستاذ عبد الله كنون، الذي استقبلني في منزله،ومنحني بعضا من وقته رغم ظروفه الصحية القاسية، وشجعني على مواصلة البحث، وأمدني بما احتجته من مراجع.

رحم الله الفقيدين : الاستاذ عبد الله كنون والاستاذ محمد الخمار الكنوني، فقد رحلا عنا قبل أن يرى هذا الكتاب النور، نرجو الله تعالى أن يشملهما بواسع رحمته ويسكنهما فسيح جناته مع الصدقين والصالحين والشهدا ء وحسن أولائك رفيقا .

وإنا لله وإنا اليه راجعون.

تمهيد

الدراسة الأدبية بالمغرب قبل الأستاذ كَنون

المنتخبات العبقرية لمحمد السايح

المسامرات الادبية

الادب العربي في المغرب الاقصى

لمحمد بن العباس القباج

تمهيــد

لم يعرف العرب تاريخ الأدب بهذا المعنى الذي نعرفه اليوم، لكنهم عرفوا مناحي من الدراسة الأدبية تقترب من تاريخ الأدب، في كتب الطبقات والأمالي تارة، وفي كتب التراجم والحماسة والاختيارات تارة أخرى. لكن هذه الدراسات على أهميتها، بقيت في حدود التصور الجزئي للظاهرة الأدبية، فهي تعزل الشاعر أو الأديب عن السياق التاريخي الذي يحكم مساره الإبداعي، كما تعزل عن طريق الاختيار والانتقاء نصوصه الإبداعية عن أشباهها ونظائرها عند معاصري هذا الأديب، وفي جميع الأحوال، ظلت الدراسة الأدبية جزئية، انتقائية، تفتقر الى منهج منظم يلم شعثها، ويجمع شتاتها، في اطار سياق تاريخي يمكننا من ملاحظة التطور الذي لحق القيم الأدبية في رحلتها مع الزمن. فنسبة تاريخ الأدب الى هذه الكتب - حسب تعبير أحمد حسن الزيات - كنسبة الحجارة إلى القصر المشيد، لأنها أخبار مفردة، غير مرتبطة، لا تظهر ما بين الشعراء والكتاب من علاقة في الصناعة، والغرض، والأسلوب، ولا تذكر ما عرا النظم والنثر من تحول وتقلب». (1)

ولعل أول من قام بالمحاولة الأولى لتقديم تاريخ للادب العربي، هو المستشرق النمساوي : "هامر بورجستال" سنة 1850 : «بيد أن أهم مصادر تاريخ الأدب لم تكن قد عرفت في زمانه، كما أنه لم يكن على علم كاف بالعربية، ولذا لم يعد يمكن الانتفاع بكتابه اليوم، على سعته وضخامته، إلا بحذر كبير» . (2)

ولحقت به أعمال "ألفرد ڤون كريمر" سنة 1877، و "إدوارد ڤان ديك".

ولعل أهم أعمال هؤلاء المستشرقين، ما قام به الألماني "كارل بروكلمان" سنة 1898، في كتابه الموسوعي : «تاريخ الأدب العربي»

---

(1) - أحمد حسن الزيات : تاريخ الادب العربي. ص 4.

(2) - كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي. ص 32.

أما بالنسبة للعالم العربي فيمكن التأريخ لعملية الكتابة في تاريخ الأدب، بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر، نتيجة لتأثير الثقافتين الألمانية والفرنسية. وهذا ما تشير إليه أعمال حسن توفيق العدل الذي : «كان يدرس تاريخ آداب اللغة العربية، على طريقة المستشرقين، في السنوات الأخيرة من ق.19 . وكان العدل قبل ذلك يدرس العربية بجامعة برلين لأكثر من خمس سنوات، أتقن خلالها اللغة الألمانية، وتتلمذ على كثير من المستشرقين الألمان، وتعرف عن قرب على أساليبهم في التدريس والكتابة والتأليف،... وقد ألف العدل لهذا الغرض، كتابا بعنوان تاريخ آداب اللغة العربية، طبع عدة مرات، كان آخرها سنة 1906».(3)

وأهمية كتاب حسن توفيق العدل، تكمن في أنه اختط طريقا سار فيه أغلب مؤرخي الأدب الذين جاءوا بعده، كأحمد الاسكندري (1911 - 1912 ، ومحمد نائل المرصفي (1908)، وعبد الله دراز، وكيل مشيخة الجامع الأحمدي (1910)، ثم توالت الكتابات وتنوعت مع الزيات، وجرجي زيدان والرافعي .

وقد صاغ حسن توفيق العدل في كتابه، نظرية تقسيم العصور في شكلها الأول، الذي لم تكد تحيد عنه يقول عن هذا : «فتاريخ الأدب تابع في تقسيمه للتاريخ السياسي والديني في كل آن». (4) ومن ثم صح ما قاله شكري فيصل، في حق هذا الكتاب من أنه : «كان في دار العلوم، كتاب قوم لا كتاب لهم غيره» . (5)

إن هجرة تاريخ الأدب، من أوربا إلى الشرق العربي، لا تهمنا في حد ذاتها، إلا من حيث كونها قناة أساسية، تسرب منها هذا المنهج إلى الثقافة المغربية، فالمثقفون المغاربة لم يتعرفوا على هذا المنهج مباشرة، وإنما عن طريق وساطة مثلها مؤرخو الادب العربي المشارقة. انطلاقا من هذا، فإن هجرة هذا المنهج كانت هجرة مزدوجة، تميزت - ككل النظريات المهاجرة - بجملة من الإضافات والتحويرات، والتغييرات، التي تفرضها المسافة المقطوعة، والشروط الجديدة التي تستقبل بها هذه النظرية. (6)

---

(3) - حمدي السكوت : أعلام الادب المعاصر في مصر. ص 19.

(4) - شكري فيصل : مناهج الدراسة الادبية. ص 17.

(5) - المرجع نفسه. ص 17.

(6) - ادوارد سعيد : عندما تسافر النظرية. مجلة بيت الحكمة. ص 140 .

وتاريخ الادب المغربي، لم يكن مستقلا عما يجري في المجتمع العربي، على المستوى السياسي، والثقافي. فقد كانت العودة إلى التاريخ مطلبا أساسيا، من مطالب الفئات التي أسهمت في إرساء خطاب النهضة، سواء في المشرق أم في المغرب، ونورد فيما يأتي نصا بالغ الأهمية، يؤكد هذا الارتباط بين تاريخ الأدب والنهضة، ويبين الحاجة الماسة التي ظهرت في بداية هذا القرن إلى تاريخ أدبي وطني .

يقول أحد كتاب مجلة السلام، دون أن يوقع مقاله : «كل أديب مغربي يشعر بالحاجة الماسة، إلى تاريخ دقيق لأدبنا القومي، يسجل فيه إنتاجنا الأدبي، ونبوغ رجاله، وما مر على الأدب من أطوار، وبعبارة مختصرة نحن نريد أن نعرف ماهية الرسالة الأدبية التي أديناها وكيف أديت هذه الرسالة. وغير لائق بنا أن نبتدئ هذه النهضة الجادة المسترسلة من غير أن نلتفت إلى رسم حركات تاريخنا الأدبي وفيه نفسيتنا القومية، ووجودنا الفني،... فيما شعر قومنا ؟ وكيف شعروا ؟ هذه أسئلة، نريد أن يجيب عنها تاريخ ممتع، ولعلنا سنجد هذه المتعة في تاريخ الأدب المغربي، الذي ينوي الاستاذ كنون إظهاره قريبا » .(7)

لقد كتب هذا المقال في بداية سنوا ت الثلاثين،أي عقب صدور الظهير البربري، الذي يقضي بتقسيم المغاربة، ، سنة 1930 . وهذا يحمل أكثر من دلالة، كما أن الاستجابة لهذا النداء - ضرورة التعجيل بكتابة تاريخ للأدب المغربي - جاءت عقب هذا بقليل، فقد أصدر عبد الله كنون كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي» سنة 1938.

هذا بالإضافة إلى أن إلحاح الكاتب على البعد القومي لهذا التاريخ، ليس مجرد شعار عاطفي، أو فورة انفعالية، «فكل التواريخ الادبية، قامت على دعائم وطنية وكفاحية» (8)، ولم تقم على قيم فنية خاصة، وأكبر دليل على هذا البعد الوطني الكفاحي، أن المغاربة استقبلوا كتاب النبوغ للأستاذ عبد الله كنون، استقبالا حارا، واعتبروه حادثا خطيرا، على حين أسرعت الحماية إلى إصدار قرار عسكري يمنع رواجه في المنطقة السلطانية. يقول هذا القرار :

---

(7) - السلام. ع1. اكتوبر 1933. ص40 : 41.

(8) - ROBERT ESCARPIT : HISTOIRE DE L'HISTOIRE DE LA LITTERATURE. ENCYCLOPEDIE DE LA PLEIADE : T. III. P 1770.

«أصدر سعادة الجنرال، خليفة سعادة القائد الأعلى للجنود بالنيابة، أمرا يقضي بمنع الكتاب المعنون بالنبوغ المغربي في الأدب العربي، الصادر باللغة العربية في تطوان، من الدخول إلى المنطقة الفرنسية بالمغرب الأقصى،وكذلك بيعه، وعرضه وتوزيعه، ومن خالف يعاقب بمقتضى القوانين المقررة» (9).

وإذا كان التأليف في تاريخ الأدب من أشد الظواهر بروزا في إنتاج المشارقة، مع بداية العصر الحديث، مما جعل بروكلمان، يذكر قائمة تعد أربعة وعشرين مصنفا في هذا المجال ويضيف قائلا : «لا نستطيع أن نسمي هنا إلا بعض هذه الكتب» (10). فإنه في المغرب بدأ بخطى خجولة، اتسمت بالكثير من التعثر، كما سنرى. ولعل السبب في هذا التأخر النسبي هو أن المغاربة لم يتعرفوا على تاريخ الأدب في أصوله الغربية، وإنما عن طريق الوساطة كما سبقت الإشارة إلى ذلك. فالبعثات التي أرسلت إلى بلجيكا وألمانيا وإسبانيا، لم تكن لها مردودية علمية ومعرفية، بقدر ما كانت لها مردودية عسكرية ودبلوماسية (11) يضاف إلى ذلك، أن المهتمين بهذا الميدان، لم يكونوا يتوفرون على مؤهلات معرفية خصبة، تمكنهم من التعرف على المنهج في مظانه وأصوله. ومن ثم فالقناة الوحيدة التي تسرب منها هذا المنهج هي كتابات المشارقة.

ونستشف من بعض المقالات الصحفية، التي أرخت لهذه الفترة من تاريخ الثقافة في المغرب، أن كتابات مؤرخي الأدب العربي الأوائل، كانت محط اهتمام المغاربة. يقول أحمد زياد : «فلقد افتتن المغاربة بآداب مصر كل الافتتان. ففرضوا على الحكومة إدخال كتب مصر في برامج التعليم المدرسي، وقهروا الأساتذة الشيوخ، أن يدرسوا مثلا الأدب العربي في كتاب جرجي زيدان، وهم المتطرفون في المحافظة على تقاليدهم . (12).

كما أن زمن صدور الكتب الأولى، في تاريخ الادب، يسمح بشيوعها داخل المغرب، فتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان صدر سنة 1914. وصدر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب للرافعي سنة 1911، أما تاريخ الادب العربي

---

(9) - النبوغ. ط 3. ص 16.

(10) - كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي. ص 33.

(11) - عبد الله كنون : احاديث عن الادب المغربي. ص 20.

(12) - رسالة المغرب. ع 93. س 9. 30 اكتوبر 1950. ص

للزيات، فقد نشر لأول مرة سنة 1925 - حسب بروكلمان - على حين أن صدور أول كتاب لتاريخ الشعر المغربي، وهو مسامرة النميشي كان سنة 1924، ثم توالت المؤلفات بعد ذلك. بدءا من النبوغ سنة 1938 الذي يعتبر بحق فتحا في هذا المجال.

وإذا كانت الكتابة التاريخية، بشتى أنواعها، على رأس المطالب التي طرحها الفكر النهضوي، كضرورة ملحة، فإن الإهمال والتجاهل الذي واجه به المشارقة الثقافة المغربية في كتاباتهم، يعد حافزا أساسيا عجل بكتابة المغاربة في هذا المجال، إذ لا نكاد نفرغ من قراءة مقدمات الكتب المصنفة في تاريخ الأدب المغربي، حتى نجد لوما ونقدا موجها للمشارقة الذين صنفوا في تاريخ الأدب، يقول الاستاذ عبد الله گنون في هذا السياق: «ونحن نعتقد أننا بتقديم هذا الأثر الضئيل إلى الدوائر العلمية، سنزيل كثيرا من التوهم والتظنن في تاريخ المغرب الأدبي، وسنرفع حجاب الخفاء عن جانب مهم من الحياة الفكرية لأهل هذا القطر، وسوف ينقضي تجني إخواننا من بحاث الشرق على أمجادنا، وتحاملهم على آدابنا، لأن ذلك لم يكن منهم عن عمد وسوء قصد، وإنما هو ارتياء واجتهاد» (13).

---

(13) - النبوغ. ط 1. ص ج.

الدراسة الأدبية في المغرب قبل الأستاذ كنون

من الصعب بمكان الحديث في المغرب عن دراسة أدبية واضحة المعالم، تستند إلى تصور منسجم ومتكامل للإبداع، مع بداية القرن الحالي، وإلى أواخر سنوات العشرين، سواء على مستوى النقد، أم على مستوى تاريخ الأدب. إذ إن أغلب ما نصادفه في هذه المرحلة، لا يعدو بعض الخطرات النقدية، والتحليات، والتقريظات، التي كانت تنشر على أعمدة بعض الصحف كالسعادة.

ولقد لفتت هذه الحقيقة نظر ليفي بروفانسال، فقال في مقال تحدث فيه عن الدراسات الأخيرة في تاريخ الأدب المغربي : «الدراسات المتعلقة بتاريخ الأدب بذاته، أقل بكثير من نشر النصوص وترجمتها، لكن ينبغي أن نسجل أن الأدب الأندلسي هو موضوعها الوحيد تقريبا، في شكل تراجم منفردة، تتعلق بشعراء العصور الوسطى» . (14).

وعلى الرغم من هذه الفاقة في مجال الدراسة الأدبية، فإنه يصح اعتبار ما كتب في هذه المرحلة إرهاصا حقيقيا للدراسة الأدبية التي بدأت مع سنوات الثلاثين، سواء على مستوى النقد مع محمد بن العباس القباج، أم على مستوى تاريخ الأدب مع الاستاذ عبد الله كنون .

وسنحاول في هذا التمهيد، الوقوف عند بعض العلامات البارزة والدالة، التي نفترض أنها عينات ممثلة للدراسة التي كانت سائدة في هذه الفترة، وسنحصر حديثنا في النماذج الآتية :

1 - كتاب : «المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية» لمحمد السايح.
2 - المسامرات الأدبية .
3 - الأدب العربي في المغرب الأقصى "لمحمد بن العباس القباج" .

---

(14) - ليفي-بروفانسال : الدراسات الاخيرة في تاريخ الادب المغربي. في : هسبيريس. ع 4. 1922. ص 441 : 443.

1 - المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية (15).

نشر القاضي محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمان السايح هذا الكتاب سنة 1920، لتلاميذ المدارس الثانوية، وهو يشتمل على : «منتخبات نثرية وشعرية، من كتابة علماء أندلسيين ومغاربة، من مؤلفين، ومؤرخين، وشعراء، ومترسلين، مع الإلمام بنبذ من حياتهم» (16)، وضعه بإشارة من الضابط المستعرب "نيجل" مدير مدرسة الرباط الثانوية الإسلامية، وبدأ القسم الأول منه بمقدمة عن الأحوال السياسية بالمغرب الأقصى، وتقلبات الدول فيه، ثم ترجم لاثنتين وعشرين شخصية، من شعراء ومؤرخين وكتاب تراجم، مرتبين حسب تاريخ الوفاة، مع منتخبات من إبداعاتهم الشعرية والنثرية. أما القسم الثاني من هذا الكتاب، فقد خصصه للادب الأندلسي، وبدأه بفرش تاريخي، تحدث فيه عن فتح الأندلس، وظروف وملابسات هذا الفتح، ثم ألقى نظرة إجمالية على الدول التي تعاقبت على الأندلس، وترجم بعد ذلك لخمس وعشرين شخصية من علماء الأندلس، من شعراء وناثرين، مرتبين أيضا حسب تاريخ الوفاة، وختم تراجمهم بمنتخبات من إبداعاتهم. بعد هذه الإشارة الموجزة إلى موضوع الكتاب، نشير إلى الملاحظات الآتية :

1 - ألف السايح كتابه هذا لغايات تربوية تعليمية، كما يتضح في مقدمته التي أشار فيها إلى جملة من الأهداف التربوية التي يرمي إليها، والطرق التي تسعف على تحققها، يقول عن هذه الغايات : «ولما أنه برسم المدارس، فالملتمس ممن يتناوله من الأساتذة أن يدرسه على نموذج التعليم العصري، وذلك بأن يعنى خلال كل درس بالتنبيه على مرامي ألفاظه، وملامح ألحاظه، ويتخذه ميدانا للمحاورة، وإلقاء الأسئلة على أسلوب المناظرة، ويحثهم كلما سنحت الفرصة على حكايته أو تحريره كتابة بعد مراجعته، ... وأن يوازنوا بين كتابة اثنين، تارة بين مغربيين، وآونة بين أندلسيين، وطورا بين مختلفين، حتى ترتاض أفكارهم على القلم الأدبي، وتتربى فيهم ملكة الذوق العربي» (17).

وتتأكد هذه الغاية التعليمية التي وجهت السايح في كتابه أكثر، في

---

(15) - طبع هذا الكتاب في إدارة المطبعة الرسمية بالرباط سنة 1920.

(16) - المنتخبات العبقرية. ص 2.

(17) - المرجع نفسه. ص 2.

الهوامش الكثيرة التي عادة ما يذيل بها المنتخبات الشعرية والنثرية، والتي تطفح بشرح المفردات الغريبة، والتعريف بأسماء الأعلام والأماكن.

2 - إن ارتباط كتاب السايح بالأهداف التربوية، وبالنظام التعليمي على وجه العموم، ليس شيئا جديدا، فقد عرف التأليف في تاريخ الأدب العربي في بدايته الأولى هذا الارتباط، وذلك ما أشار إليه كارل بروكلمان، حين قال متحدثا عن الكتب الأولى في تاريخ الأدب العربي : «وقد ألف في زماننا هذا كثير من أهل الشام والعراق كتبا في الآداب العربية، ضئيلة القيمة، يقصد أكثرها إلى أغراض التعليم.» (18) وهذا ما نجده حقا عند رواد التأليف في تاريخ الأدب العربي، فقد كان الدافع الحقيقي الذي حذا بجرجي زيدان، ومصطفى صادق الرافعي، إلى التأليف في تاريخ الأدب العربي إنما هو حسب النقاد، ذلك الإعلان الذي نشرته الجامعة المصرية سنة 1905 (19) والذي تطلب فيه كتابا في أدبيات اللغة العربية» وخصصت لصاحبه جائزة مشجعة، فهذا الإعلان هو الذي دعا كلا من زيدان والرافعي إلى الإسراع بالكتابة في تاريخ الأدب.

ونجد الغاية التعليمية نفسها، هي التي وجهت أحمد حسن الزيات في تأليف كتابه «تاريخ الأدب العربي» يقول مفصحا عن هذه الغاية : «ولا نكذب الله، فقد كان لمنهاج التعليم في هذا البلد، وزهادة الناشئين في الإفاضة، أثر قوي في هذا الإيجاز... فإن هذا العلم في العربية وليد، والبحث فيه طريف جديد، ونحن إنما كتبناه لناشئة الأدب لا لفحوله... وكلمتنا للمتعلم، إذا استوعاه بالدرس، واستقراه بالحفظ، ألا يقف في الطلب عنده» (20).

وعلى الرغم من أن كتاب السايح لا يرقى إلى مستوى كتب الزيات، وزيدان، والرافعي، من حيث المنهج، فإنه يلتقي معها في هذه الغاية التعليمية.

3 - يمكن أن نعتبر - مع كثير من التجاوز - كتاب «المنتخبات العبقرية» أولى اللبنات التي وضعت لتاريخ الأدب المغربي فقد احتوى على بعض ملامح النظرية المدرسية التي تقسم الأدب إلى عصور موازية

---

(18) - تاريخ الادب العربي. ص 33.

(19) - الهلال. م س 17 (1908 - 1909). ص 614.

(20) - الزيات : تاريخ الادب العربي. ص 2.

للعصور السياسية، وهذا ما نجده في تمهيده لتراجمه بالحديث عن الدول التي توالت على حكم المغرب والأندلس،وقد أثار هذا المنهج الجديد الذي سلكه السايح في كتابه مجموعة من الاحتجاجات في الأوساط المثقفة، التي لم تتعود على مثل هذا النمط من الدراسة الأدبية. يقول المرحوم عبد الله الجراري عن ذلك : «فرحم الله المترجم على تلك البادرة، رغم ما قوبلت به من بعض الأطراف، ولا عجب فالمعاصرة لا تتورع كعادتها وقوفا في وجه كل جديد ومبتكر، غاضة الطرف عن أبعاده وغاياته» (21).

إذا كان لا يستبعد تأثر السايح في كتابه بمناهج مؤرخي الأدب العربي الأوائل في المشرق - خصوصا وأن أغلب كتبهم صدرت قبل كتابه - فإن الشيء الذي لا يمكن أن ننكره هو أثر الدراسات الاستشراقية في الكتاب، سواء من حيث الغايات التربوية الجديدة التي يرمي إليها، أو من حيث المنهج، فقد ألف هذا الكتاب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، بطلب من الضابط المستعرب "نيجل". ويوضح المرحوم عبد الله الجراري هذا الأثر أثناء حديثه عن تصدر السايح للتدريس والإقراء بقوله : «وما أن بلغ المترجم الثامنة عشرة من عمره، حتى أصبح في عداد المربين من الأساتذة، وكان معهد الدروس العليا في بداية نشأته في الرباط، فعين أستاذا به، وكان من ذلك احتكاكه بالمستشرقين، والمفكرين الغربيين، مقتبسا منهم مناهج البحث والنقاش والمحاضرة، وآخذا معلومات في الثقافة الفرنسية، مستعينا على مطالعة المصادر الغربية والاستشراقية» (22).

2- المسامرات الأدبية :

عرفت فترة الحماية بالمغرب ظهور الأندية الأدبية والمسامرات، وهي تقاليد كانت تسعى إلى ملء الفراغ الثقافي، وتحقيق نوع من التواصل بين رجال العلم، من فقهاء ومؤرخين وشعراء، وكانت تقام هذه التظاهرات الثقافية في منازل بعض الخواص، أو تحت رعاية سلطة الحماية «نادي المسامرات» ألذي أعد كما يدل عليه إسمه :«لإلقاء المسامرات والخطب التي يحوم فيها قائلوها حول مواضيع تكون لها علاقة بالمغرب وأهله، ولذلك فإنه لا يمر أسبوع إلا ويتصدى على منصة الخطابة فيه واحد أو أكثر من كبار العلماء وفطاحلة الكتاب والأدباء، من

---

(21) - عبد الله الجراري : الشيخ المبدع محمد بن عبد السلام السائح. ص 46.

(22) - المرجع نفسه. ص 18 - 19.

الفرنساويين والوطنيين، لإلقاء ما يعن لهم من المسامرات أو شرح ما يعرض لهم من المسائل التي يعتقدون أن إلقاءها وشرحها يعود بفائدة ما » (23).

ومن أشهر الأندية في هذه الفترة كذلك، النادي الجندري نسبة إلى محمد بوجندرا (1345 - 1936) الذي كان ملتقى لرجال الفكر والعلم بالرباط يتبادلون فيه الرأي بمناظراتهم ومساجلاتهم القيمة، يقول محمد بن العباس القباج عن هذا النادي، وكان من بين الذين يترددون عليه : «كان منزل أبي جندار، كناد أدبي يجمع كل أديب، ويلتقي فيه كل مثقف أريب، ودام زمنا مهبط القريض، وموحى الشعر الرصين، ومن هناك كنا نتلقى بدائع في الشعر، وآيات في النظم، مناسبة لذلك الوقت، ومتفقة مع البيئة التي نعيش فيها» (24).

وقد تمخضت هذه التقاليد الثقافية، عن مجموعة من المسامرات، في جميع مناحي المعرفة التي كانت رائجة السوق إبان فترة الحماية، من فقه، وشعر، وتاريخ، ومن أشهر المسامرات الأدبية في هذه الفترة ما يلي :

أ - مسامرة "الكتابة والكتاب" لعبد الحميد الرندي (25)، وقد أعطى المؤلف في هذه المسامرة نظرة موجزة عن تطور الإنشاء العربي في المشرق والمغرب، منذ الجاهلية إلى العصر الحديث، مع الإلمام بأخبار أشهر الكتاب .

ب - مسامرة "الشعر والشعراء" لعبد الله القباج (1364 - 1945).

نشرت هذه المسامرة أولا في جريدة "السعادة" (26)، ثم جمعت بعد ذلك في كتيب تحت عنوان : «مسامرات أدبية، صدر سنة 1928، وهي تقع في 52 صفحة. وقد قسم القباج هذه المسامرة قسمين، تحدث في الأول عن الشعر على وجه العموم، موضحا فضله ومزيته بين سائر العلوم، وانصرف في القسم الثاني لعرض منتخبات لشعراء من الحجاز والمغرب مع تعليقات قصيرة أقرب إلى التحلية والتقريظ منها الى النقد .

---

(23) - عبد الله القباج : مسامرة الشعر والشعراء. المطبعة الرسمية 1341 - 1928. ص 1.

(24) - لذعات بريئة، 2. مجلة المغرب. ع 5. س 3. 4 اكتوبر 1934. ص 12.

(25) - ألقيت بفاس يوم 13 ماي 1923. وطبعت بالمطبعة الحجرية بفاس عام 1924، في 32 صفحة.

(26) - جريدة السعادة. ع 2468. بتاريخ 1923/2/22.

ويصح اعتبار هذه المسامرة من بين الإرهاصات الخجولة للدراسة الأدبية في المغرب في سنوات العشرين، وذلك لما اشتملت عليه من شذرات نقدية تشي بمفهوم القباج للشعر، وتصوره للعملية الإبداعية، وإن اتسمت هذه الشذرات بالانطباعية والجزئية، ويمكن أن نحصر هذه الملامح النقدية في النقط الآتية :

1 - عبر القباج منذ بداية محاضرته عن مفهوم واضح ومتكامل للشعر، يتروح بين التركيز تارة على وظيفته ومهمته وبين النظر إلى طبيعته وماهيته تارة أخرى، غير أن الحديث عن الوظيفة والمهمة كان أسبق من غيره.وقد انطلق في ذلك من العبارة التقليدية التي تصف الشعر بأنه "ديوان العرب" وهي عبارة يمكن أن تشير إلى أكثر من دلالة، غير أن القباج حصر بعض هذه الدلالات في تصوير الشعر للجوانب المعنوية من حياة الامم، يقول في هذا الصدد : «فالشعر كما لا يخفى عليكم ديوان العرب. وهو الذي حفظ لهم الأخلاق والعوائد والنسب. ولو كان الشعر غير نافع كما يزعم بعضهم، لما اشتغل به علماء الآداب، ولما كان في كل لسان» (27).

ونشير في هذا السياق، إلى أن إلحاح القباج في بداية مسامرته على وظيفة الشعر ومهمته، جعله يسقط في مفارقة تتمثل في خلطه بين الشعر والنظم، فحتى يؤكد على هذه الوظيفة النفعية نجده يلح على الدور التعليمي والتربوي الذي يمكن أن ينهض به الشعر، وفي هذا خلط بينه وبين النظم التعليمي الذي غايته إبلاغ مجموعة من المعارف والقواعد، يقول عن ذلك : «وكم ضبط الشاعر بالشعر من فائدة مستفادة، وكم نظم من علم فأجاده» (28) . وسعيا منه لإعطاء تعريف متكامل للشعر، نجده في سياق آخر من مسامراته يتجاوز هذا التعريف الضيق، ويدخل المتلقي في حسبانه، ويقيس جودة الشعر بمقدار تأثيره في السامع وتحريكه لكوامنه. يقول : «أما الشعر فأحسن ما قيل في تعريفه ما قاله الأمير، وما يقوله كل بصير، إنه نوع من الكلام موزون مقفى يؤثر في النفوس، ويصور القلوب بالصورة التي يريدها الشاعر منها، فالشاعر هو الذي يبكي بمراثيه، والشاعر هو الذي يرفع بمدائحه ويضع بأهاجيه، والشاعر هو الذي يطرب بنسيبه... والشاعر هو الذي يسلي المحزون، ويثير

---

(27) - عبد الله القباج : مسامرة الشعر والشعراء. ص 8.

(28) - المرجع نفسه. ص 9.

الشجون. فمن كانت عنده هذه الملكة فهو شاعر، ومن لم توجد عنده فليس بشاعر مهما تكلف في تعبيره وأكثر من تحبيره» (29).

ولن يتأتى هذا التأثير المرتقب من الشعر الحقيقي في رأيه إلا بمراعاة جملة من الشروط في الصياغة والأسلوب، يرتد بعضها الى اللفظ، بينما يرتد بعضها الآخر إلى المعنى، وبإشارة القباج إلى هذه الشروط يكون قد وضع اليد على العوامل الفاعلة في العملية الإبداعية، والتي تؤثر على مخيلة المتلقي أكثر من غيرها، يضيف في تعريفه للشاعر الحق : «فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من المباني، أو صرف معنى من وجه إلى آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له الا فضل الوزن وبئس الطريقة» (30).

ورغم أن هذه الإشارات حول مفهوم الشعر جاءت مقتضبة مسرفة في الإيجاز فإنها تفصح في مجموعها عن تصور ومفهوم لانعدم أصولا له لدى القدماء سواء تعلق الأمر بالتركيز على الوظيفة والغاية النفعية، أم تعلق بالانطلاق من مادة الشعر وطبيعته في محاولة صياغة تعريف له.

2 – بعد الحديث عن مفهوم الشعر ينتقل القباج إلى الحديث عن أسس وشروط صناعة الشعر، ويؤكد في هذا السياق على عنصر الموهبة والاستعداد الفطري الذي يجب أن يدعم ويعزز بالدربة والمراس، فالشاعر الحق مهما توافر له من أدوات فلا مندوحة له من طبع أصيل، ومن ملكة بها يتميز عن غيره، يقول عن هذا : «وليس تعلم الفن وحده كافيا لنظم الشعر، ولذلك قيل : (الشعر بالسجية لا بالخزرجية) فمن قال الشعر بمجرد التعليم، ولم يساعده على تهذيبه الذوق السليم، كان شعره محل الازدراء عند سائر الأدباء» (31).

3 – ويحدثنا عبد الله القباج انطلاقا من تجربته وهو "الشاعر المطبوع" عن بواعث الشعر ومحركاته، فبالاضافة إلى الملكة والحذق بأصول الصناعة، لابد من توافر أنواع من الدواعي والحوافز، تبعث الشاعر على النظم، وتستحثه إلى

---

(29) – المرجع نفسه. ص 14.

(30) – المرجع نفسه. ص 12.

(31) – المرجع نفسه. ص 11.

القول وهذه إشارة منه إلى الجانب النفسي والوجداني الذي يكمن وراء العملية الابداعية. يقول عن فترة أصيبت فيها قريحته بالنضوب، فعجز عن نظم الشعر لانعدام بواعثه : «ولما علمت هنالك ما علمت، ورأيت بالحجاز ما رأيت، حصل لي من الأسف ما لا مزيد عليه، وذلك عندما حاولت بعد الفراغ من الحج مدح أمير مكة الحسين الذي كان متعطشا إلى المدح والثناء، سيما من الشعراء الغرباء. اعصوصبت علي السجية، وحيل بيني وبين الشعر بسور من حديد، ولا عجب في ذلك إذا كانت البواعث مفقودة والأيام معدودة، وكان الممدوح أجدر بالهجاء من المدح والرثاء من الهناء» (32).

4 - من القضايا النقدية التي ألمع إليها القباج في مسامرته، قضية الموازنة بين الشعراء. فالموازنة في رأيه بين شاعرين مجيدين لا تكون موضوعية ومعقولة إلا إذا كانت في مجال واحد، بل في موضوع واحد، كالموازنة بين عمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف في الغزل، أو بين ابن الرومي وابن المعتز في الوصف والتشبيه، أو بين بشار ومسلم بن الوليد في متانة الأسلوب وقوته. يقول موضحا هذا الرأي : «غير أن التفضيل بين المجيدين منهم على وجه القطع واليقين لا يمكن بحال، لأن لكل شاعر من المجيدين مزية يمتاز بها في شعره ربما لا تتفق لغيره من الشعراء، ... فليس معنى قولهم بالأمس إن جريرا أغزل من الفرزدق، أو أن أبا جندار أغزل من القباج اليوم أنه أشعر منه ... كلا. لأن الموازنة كما قال الأمير بين شاعرين مجيدين... لا تتفق إلا إذا كانا على طريقة واحدة ومذهب واحد» (33).

وبهذه الطريقة في الموازنة يتجنب القباج التعميم المخل الذي يفتقر إلى الاستقصاء، ويؤدي بالتالي إلى التفضيل المطلق لشاعر على آخر. وهذا الرأي نجد جذورا له عند الآمدي الذي فصل الحديث عن منهج الموازنة في كتابه حول أبي تمام والبحتري. يقول في هذا السياق : «أنا أذكر بإذن الله الآن في هذا الجزء المعاني، التي يتفق فيها الطائيان، فأوازن بين معنى ومعنى، وأقول أيهما أشعر في ذلك المعنى بعينه، فلا تطلبني أن أتعدى هذا إلى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الإطلاق، فإني غير فاعل ذلك» (34).

---

(32) - المرجع نفسه. ص 15.

(33) - المرجع نفسه. ص

(34) - الآمدي : الموازنة بين الطائيين. ت : محيي الدين عبد الحميد. ص 372.

تلك كانت مجمل الاشارات النقدية التي اشتمل عليها القسم الأول من المسامرة، أما القسم الثاني فقد خصه القباج للحديث عن الشعراء الذين اجتمع بهم أو صاحبهم في الحجاز وفي المغرب، مرتبين حسب الترتيب الالفبائي، والملاحظ أنه لم يكلف نفسه عناء الترجمة لهم، إذ اكتفى بذكر مهن بعضهم والتعليق على مقطوعاتهم الشعرية تعليقا أقرب إلى التقريظ والتحلية منه إلى النقد، من ذلك مثلا قوله عن أحد الشعراء : «ومنهم أديب العدوتين، والمجيد في الصناعتين، مريض الجسم لا مريض الشعور والأشعار، ورقيق القلب والشعر لا رقيق الدين والستار، صديقي أبو عبد الله محمد أبو جندار، وما أدراك ما أبو جندار. ومن شعره الذي يسري مع الصبا، ويذكر الشيخ في عهد الصبا، ويخاطبه الربيع بمرحبا...» (35).

وقد طغى السجع على هذه المسامرة بشكل يذكرنا «برسالة التوابع والزوابع» لابن شهيد، وبالمقامات عموما.

أما الاختيارات التي استشهد بها لشعرائه، فإنها تعبر عن ذوقه أكثر مما تفصح عن الأغراض الشعرية الجديدة التي ظهرت مع بزوغ النهضة الحديثة. فقد طغى الغزل، والمديح، والشعر الإخواني، على هذه المنتخبات. ولانكاد نجد شعرا في المعاني الإصلاحية التي تغنى بها شعراء هذا العهد، باستثناء مقطوعتين في الحث على العلم والدعوة الى مزاولته، الأولى لمحمد بن اليماني الناصري، والثانية للمدني بن الحسني .

وعلى الرغم من اشتمال هذه المسامرة على تلك الشذارات النقدية المقتضبة، فإن القارئ يخرج من قراءتها وهو مقتنع بالفراغ الذي عرفته الدراسة الأدبية في المغرب مع بداية هذا القرن، وبالحاجة الماسة إلى نقاد ودارسين للادب أكثر جرأة وأكثر تمثلا لطبيعة الأدب ووظيفته.

ج - مسامرة «تطور أسلوب الإنشاء في المغرب الأقصى» (36) لمحمد

---

(35) - عبد الله القباج : مسامرة الشعر والشعراء. ص 39 - 40.

(36) - القيت هذه المسامرة في المؤتمر الثامن الذي نظمه معهد الدراسات العليا المغربية بفاس في أبريل 1933، ونشرت في مجلة المغرب الرباطية، كذيل للعدد 9 والعدد 11.

الحجوي. تناول المؤلف في هذه المسامرة تاريخ النثر العربي بالمغرب وتطوره منذ الفتح الإسلامي الى يومه متتبعا في التقسيم الدول المتعاقبة على المغرب .

د - أما مسامرة أحمد النميشي (1967 م) : «تاريخ الشعر والشعراء بفاس» (37) تحدث في القسم الأول منها، عن اللغة العربية، كرمز للعروبة والإسلام، مبينا فضلها، وملحا على ضرورة الحفاظ عليها، شأن الأمم الأخرى في عنايتها بلغاتها، ثم تخلص في القسم الثاني من مسامرته الى الحديث عن الوضع السياسي للمغرب قبيل الفتح، ثم الدول التي تعاقبت على حكمه منذ الفتح الإسلامي إلى العصر العلوي، ويبدأ الحديث عن الحياة الأدبية مع الموحدين، ففي عهدهم نهض الأدب - حسب رأيه - إذ لم يكن لمن سبقهم متسع من الوقت للاهتمام بالعلوم والآداب، فقد شغلتهم الحروب والاضطرابات السياسية عن ذلك. وقد درج النميشي ابتداء من العصر الموحدي، على ذكر النهضة الأدبية التي عرفتها الدول التي حكمت المغرب مشيرا في ثنايا حديثه عن ذلك إلى بعض الشعراء غير الفاسيين، ونبذ من أشعارهم.

أما القسم الثالث من هذه المسامرة فقد خصصه للحديث عن شعراء فاس، يقول عن المنهج الذي سلكه في هذا القسم : «وقد آن لي بعد هذا أن أرجع القهقرى وأشرع في تراجم الشعراء الذين نبغوا بهذه العاصمة الفاسية منذ تأسيسها الى الآن، ولكن مع الاقتصار في هذه العجالة على اسم الشاعر، وتاريخ وفاته، ونتفة يسيرة من شعره لأن الوقت لا يتسع لبسط تراجمهم» (38).

ويمكن اعتبار مسامرة النميشي - بعد المنتخبات العبقرية - ثاني لبنة وضعت لتاريخ الأدب المغربي. فهي تتصل بتاريخ الأدب بأكثر من صلة، من ذلك :

1 - حضور عنصر التحقيب في هذه المسامرة : فقد تحدث النميشي في القسم الثاني من مسامرته - قبل أن يخلص إلى شعراء فاس - عن الأدب

---

(37) - القيت هذه المسامرة بنادي المسامرات من المدرسة الثانوية بفاس في دسمبر 1924. وطبعت بفاس بمطبعة اندري، ويشير المرحوم عبد الله الجراري الى أن النميشي اختصر مسامرته هذه عن كتاب في مجلد ضخم مايزال مخطوطا : التاليف ونهضته بالمغرب. ص 74.

(38) - تاريخ الشعر والشعراء بفاس. ص 40.

بموازاته بالعصور السياسية ، فالحديث عن الأدب لا يتم إلا انطلاقا من الحقب السياسية، ومن الدول التي تعاقبت على حكم المغرب. وقد أدى به هذا التلازم بين العصور السياسية والعصور الأدبية إلى أن يمهد للحديث عن الشعر بفرش تاريخي مركز، يرمي من ورائه إلى تعريف القارئ بالحالة السياسية التي عرفها كل عصر، ومن ثم فإن عنصر التحقيب حاضر في المسامرة وهو الخيط الذي يصل بين مباحثها .

2 - التلازم بين الأدب والسياسة : فمن نتائج التأريخ للشعر انطلاقا من الحقب السياسية، أن أصبحت السياسة هي المؤثر الوحيد في الأدب، بنهوضها ينهض ويرقى ، وبتدهورها يضعف ويجمد، وقد أكد النميشي هذه الحقيقة في أكثر من مقام، من ذلك أنه لم يتحدث عن شعراء قبل عصر الموحدين، بدعوى انعدام الاستقرار السياسي في الدول التي حكمت المغرب قبل هذه الفترة، ومن ثم فدولة الموحدين هي الفاتحة التي يبدأ معها الحديث عن الشعر ونهضته في المغرب. يقول عن ذلك : «وهذه الدولة الموحدية هي التي أنهضت جواد الأدب من كبوته، وأقالته من عثرته، وبظهورها أوائل المائة السادسة، يبتديء تاريخ الأدب والشعر بالمغرب، لأن الدول التي تقدمتها كانت في شغل شاغل، وفي حروب مهولة تشيب لها الولدان، فلم يكن لها متسع من الوقت تشتغل فيه بالعلوم والآداب» (39).

وهذا السبب نفسه، هو الذي جعل النميشي يقفز على الحديث عن شعراء العصر الوطاسي : «الذين لم ير المغرب أقبح من أيامهم، إذ فيها انطمست معالم الأدب، وكثر سفك الدماء، وتعدد الثوار» (40) وكما أن الأدب يزدهر في بداية الدول وفي الفترات التي تمثل أوج قوتها، فإنه يتدهور في آخر الدول وفي فترات الاضطرابات والنزاع حول السلطة، وفي هذا السياق يقول عن أواخر العصر السعدي : «وعصر كهذا يستحيل أن تظهر فيه للأدب صولة، أو يكون له في ميدان الترقي جولة» (41).

ومن المؤشرات كذلك على ارتباط الأدب بالسياسة في مسامرة النميشي،

---

(39) - المرجع نفسه. ص 11 - 12.

(40) - المرجع نفسه. ص 24.

(41) - المرجع نفسه. ص 30.

ما نصادفه من حديث بين الفينة والأخرى، عن عناية الملوك والسلاطين بالأدب، ورعايتهم لأهله، ومشاركتهم الفعلية في تنشيط سوقه، فهذا المهدي بن تومرت : «جال في الأرض، ورحل إلى المشرق، وتلقى به علومه وآدابه ومعارفه، وكان شاعرا مجيدا، فبالضرورة ترسمت الناس آثاره، وتتبعوا اخطاه، إذ الناس على دين ملوكهم» (42).

نخلص أخيرا الى أن مسامرة النميشي رغم الإيجاز الذي يطبعها -وذلك ناتج عن طبيعة الظرف الذي ألقيت فيه - تعتبر من جهة إسهاما مبكرا في تاريخ الأدب المغربي، كما تعتبر من جهة ثانية إعلانا عن الحاجة الماسة إلى هذا التاريخ، وهذا ما أكده النميشي نفسه حين قال : «وقد وضعت اللبنة الأولى في أساس تاريخ الشعر، فعسى أن يأتي من هو أغزر مني مادة، وأكثر اطلاعا، فيشيد صرحه الشامخ، وما ذلك على همة من يقدر خدمة وطنه حق قدرها بعزيز» (43).

3 - «الأدب العربي في المغرب الأقصى» لمحمد بن العباس القباج :

برز محمد بن العباس القباج في الميدان الثقافي بتأليفه لكتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى»، وهو في هذا الكتاب يتحدث عن الأدب العربي من خلال آثار نخبة من الشعراء المعاصرين له، شيوخا وشبابا، والذين وضعوا اللبنة الأولى في صرح الادب المغربي الحديث، وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في جزءين يضمهما كتاب واحد سنة 1929. ثم أعيد طبعه بمبادرة من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في دجنبر من سنة 1979. والكتاب كما هو معروف يضم تراجم الشعراء، ومنتخبات من أشعارهم، جمعها المؤلف ليعطي صورة صادقة عن الشعر المغربي، ويفيد الباحث ويطلعه على تدرج الأدب في هذا القطر وتطوره.

ويمكن أن نحصر الحوافز التي حدت بالمؤلف إلى تصنيف كتابه، في حافزين رئيسيين :

---

(42) - المرجع نفسه. ص 12 - 13.

(43) - المرجع نفسه. ص 40.

أ - تأثره بكتابات المشارقة في مجال تاريخ الأدب، ففي مقابل اهتمام هؤلاء البالغ بأدبهم ورجاله، نصادف إهمالا من لدن المغاربة لأدبهم، على أهمية هذا الأدب وحاجته للتدوين والجمع، وهذا ما عبر عنه محمد بن العباس القباج بقوله : «... هذه النظرة التي ألقيناها على الشعوب العربية فسرتنا أتم سرور، وطفحنا بها بشرا واغتباطا، ولكن لما حانت منا التفاتة إلى قطرنا المغربي، الذي هو جزء من أجزاء الأمة العربية، ونظرنا هل له مثل هذه السمعة الأدبية، والشهرة العالية، وهل أوتي أدباؤه وشعراؤه ذكرا يرفع مقامهم، ويطير شهرتهم، ألفينا من خمول الذكر ما لا ترضى به أمة تنشد الحياة، وتؤمل أن يكون لها مركز في الوجود » (44).

ب - عرف الأدب المغربي عموما، والشعر على وجه الخصوص مع بداية القرن العشرين تحولا مهما لافتا للانتباه، تبعا للتحولات التي نجمت عن الشروط التاريخية والسياسية المستجدة، الشيء الذي جعل هذا الأدب جديرا بالتدوين والتأريخ والدراسة، «فمنذ عهد قريب وصل إلى المغرب الأقصى صدى تلك النهضة الفكرية، التي انبعثت في الشرق العربي، وأحدثت انقلابا في الأفكار والأساليب فعاد أدباؤنا ... إلى أن يشحذوا قرائحهم من جديد، ويوجهوها إلى ما فيه نفع الأمة، ويعود عليها بصلاح هيئتها الاجتماعية من استنهاض الهمم، ولفت الأنظار إلى الحالة التي وصل إليها الشعب من جهل عام، وانحطاط في الأخلاق، وعبث بالدين، ثم نشأت بعد ذلك طائفة من النشء الحي - وإشعار هؤلاء ملء الافواه، وحديث المنتديات - فالتهبت جوانح ذلك النشء، واتقدت أفكارهم، واهتزت عواطفهم فإذا في المغرب الأقصى شعر جديد طلي، فيه من جمال الأسلوب، وسهولة الألفاظ، وصفاء الديباجة، وسمو الخيال، ما يبشر أن لهذا القطر مستقبلا زاهرا » (45).

والجزء الأول من الكتاب يضم ستة عشر شاعرا، بينما يحتوي الجزء الثاني على أحد عشر شاعرا، وتتوزع شخصيات الجزئين معا على ثلاث طبقات هي الآتية :

أ - طبقة الأدباء الكبار، الذين يمثلون أدب الماضي، بطلاوته وجناساته

---

(44) - محمد بن العباس القباج : الادب العربي في المغرب الاقصى. ص أ - ب.

(45) - المرجع نفسه. ص ج - د.

وأمداحه وتغزلاته .

ب - طبقة المخضرمين، الذين جمعوا بين الحسنين، وضربوا بالسهمين، فنالوا من أدب الماضي أوفى نصيب، وأكبر حظ، وأخذوا من الأدب الحديث بعض معانيه ومقاصده، فأفرغوها في قوالب ذلك الأدب .

ج - الطبقة الثالثة، وهي الطبقة النابتة، التي تربت وتثقفت في عصر تحلق فيه الطائرات في الأجواء، وتخترق فيه السيارات شاسع الأطراف، وتشاهد ما تخرجه العقول من الإبداع والاختراع فجاءت أفكارها مطابقة لروح العصر مناسبة لرقيه وحضارته (46).

وسنحاول فيما يلي تجلية منهج القباج في كتابه، انطلاقا من المحاور الآتية :

1- التقسيم إلى طبقات :

رتب محمد بن العباس القباج الشعراء زمنيا من سنة 1298 هـ. وهي سنة ولادة محمد غريط، إلى سنة 1322 هـ وهي سنة ولادة عبد المالك البلغيتي آخر شاعر في الكتاب، وأخضع هذا التسلسل إلى رؤية عامة اعتمد فيها مفهوم "الطبقة". وتقسيم الطبقات إسلامي أصيل، وقد يبدو أنه أقدم تقسيم زمني وجد في التفكير التاريخي الإسلامي، «وليست له أية علاقة في الأصل بطريقة الترتيب تبعا للسنين. التي كانت مألوفة في تقاليد التراجم الإغريقية، ودخلت الأدب العربي في زمن متأخر مع التراجم الإغريقية، إن تقسيم الطبقات هو نتيجة طبيعية لفكرة "صحابة الرسول" والتي تطورت في أوائل القرن الثاني الهجري، بالارتباط مع نقد علم الحديث للاسناد» (47) . وقد انتقل هذا المفهوم إلى كتب التراجم والنقد واكتسب قيمته الإجرائية مع الأصمعي، الذي قسم الشعراء إلى فحول وغير فحول، ومع ابن سلام الجمحي، الذي وسع من حدود فكرة الأصمعي وأعاد صياغتها في كتاب "طبقات فحول الشعراء"، فقد قسم الشعراء إلى طبقات انطلاقا من جملة من الاعتبارات، أولها "الفحولة"، فكل من ذكرهم في كتابه شعراء فحول، وثاني تلك الاعتبارات هو تقارب أصحاب كل طبقة في أشعارهم، وثالثها الكم الشعري، غير أن مفهوم الطبقات، على الرغم

---

(46) - المرجع نفسه، ص د - هـ..

(47) - فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة : د. صلاح أحمد العلي. ص 133 - 134.

من صلاحيته لتصنيف وتبويب رجال بعض العلوم الدينية كالحديث، فإنه في مجال الدراسة الأدبية يظل مفهوما يفتقر إلى الكثير من المرونة المنهجية، ومن ثم : «فإن نظرية الطبقات جليلة حقا، ولكنها تظل قوالب إذا هي لم تعتمد الدراسة التحليلية، وتبيان الأسس المشتركة، والسمات الغالبة، ومن ثم كانت نظرية صعبة، آثر النقاد ومؤرخو الأدب من بعد تحاشيها فرارا من تلك الصعوبة» (48). وعلى الرغم من أن محمد بن العباس القباج بنى كتابه على أساس الطبقات، فإن استعماله لمفهوم الطبقة يقترب كثيرا من مفهوم الجيل الأدبي، إننا نجد أنفسنا في كتابه أمام ثلاثة أجيال وإن لم يصرح بهذا المفهوم، فهناك جيل الشعراء الشيوخ، وجيل انتقالي بين الشيوخ والشباب، وجيل ثالث هو جيل الشعراء الشباب، ولعل مما يؤكد اقتراب مفهوم "الطبقة" عند القباج من مفهوم "الجيل" هو التحول الذي عرفه الشعر المغربي مع بداية هذا القرن بموازاة ثلاث فئات اجتماعية متقاربة في السن وفي تصورها ومفهومها للإبداع، ورؤيتها للعالم، مما يجعلنا نقف بعد قراءتنا للكتاب، على تصور ثلاثة أجيال للشعر ووظيفته.

فالطبقة الأولى يمثلها الشعراء الشيوخ، الذي حصروا إبداعهم في موضوعات تقليدية، كالمديح، والهجاء، والرثاء والغزل، والألغاز، وشعراء هذه الطبقة هم بالتتالي : محمد غريط، أحمد البلغيتي، الطاهر بن محمد بن ابراهيم البكري، الشيخ عبد الله الفاسي، محمد السليماني، الحاج محمد بوعشرين، أحمد سكيرج، أحمد الصبيحي، محمد بوجندار، أحمد النميشي الفاسي، عبد الرحمان بن زيدان، أما الطبقة الثانية، فتشمل الشعراء المخضرمين، الذين يعتبرون صلة وصل بين القيم الأدبية القديمة الآيلة للزوال، والقيم الجديدة المرتبطة بالنهضة وروح العصر، ويعتبر محمد الجزولي على رأس هذه الفئة : «فقد كون أحسن حلقة ذهبية في السلسلة الشعرية التي تصل بين شعرائنا الشبان الناهضين المفكرين، وبين تلك الطبقة الكبيرة المارة التي نحنو رؤوسنا احتراما لمقامها الكريم، وقدرها المنيف، وستشعر أيها القارئ منذ الآن إن كنت أعطيت لهذه التراجم المتقدمة ما تستحقه من إمعان النظر، وإنعام الفكر، أنك دخلت بهذا الشعر الجزولي وما يتبعه، في طور آخر يذكرك بالعصر الذي أنت فيه» (49).

---

(48) - إحسان عباس : تاريخ النقد الادبي عند العرب. ص 82.

(49) - الادب العربي في المغرب الاقصى. ج 1. ص 87.

وشعراء هذه الطبقة بالإضافة إلى الجزولي هم : محمد بن اليمني الناصري، جعفر الناصري، محمد الناصري، محمد جنون، وتبدأ الطبقة الثالثة - وهي التي تجسد التجديد الحق حسب القباج - بعلال الفاسي شاعر الشباب، وشعراء هذه الطبقة هم بالإضافة إلى علال، محمد المهدي الحجوي، عبد الرحمان حجي، عبد الله كّنون، محمد القري، محمد المختار السوسي، محمد المكي الناصري، عبد الكريم سكيرج، عبد الأحد الكتاني، الحسن الداودي، عبد المالك البلغيتي .

إن المتأمل في كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى"، يدرك بسهولة الهاجس النقدي الذي يثوي وراء طريقة تبويب وتصنيف الشعراء وانتاجاتهم الشعرية، ويمكن أن نلمس هذا الحس النقدي في النقط الآتية :

أ - انطلق القباج في تصنيفه للشعراء من مفهوم " الطبقة" وهو مفهوم نجد أصوله في التراث النقدي القديم، عند الاصمعي وابن سلام الجمحي، ومما يؤكد حضور هذا المرجع النقدي القديم عند القباج، استعماله لمصطلح "الفحولة" في أوصافه الفنية لبعض الشعراء، من ذلك قوله عن الشاعر محمد الجزولي : «هو أحد فحول شعراء المغرب الذين يصح أن يطلق عليهم لفظ الشاعر بحق، ويستحق أن ينظر إذا ذكر شعراؤنا من أهل طبقته بعين الإكبار والاعتبار» (50) كما نجد المصطلح نفسه عند حديثه على عبد الله كنون، الذي يقول عنه : «وهكذا بقي ينسج على منوال المتقدمين من فحول الشعراء، ويسايرهم في مناحيهم،حتى ظهرت هذه الحركة الفكرية الحديثة فتطور شعره بكيفية محسوسة» (51).

بالإضافة إلى مصطلح الفحولة، نجد الأساس الثاني الذي اعتمده ابن سلام في قسمة الشعراء إلى طبقات، وهو تقارب أصحاب كل طبقة في أشعارهم يقول ابن سلام : «فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه» (52)، فباستقرائنا لموضوعات المنتخبات التي أوردها القباج، نقف على التقارب الواضح والجلي في أشعار كل طبقة على حدة .

(50) - المرجع نفسه. ج 1. ص 87.

(51) - المرجع نفسه. ج 2. ص 37.

(52) - ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء. ج 1. ص 24. ت : محمود محمد شاكر.

ب - على الرغم من أن كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى" أقرب إلى تاريخ الأدب منه إلى النقد، فإنه إرهاص مبكر عن محمد بن العباس القباج الناقد، الذي أفصح عن نفسه بعد نشر هذا الكتاب بفترة وجيزة، في المقالات النقدية التي كتبها في مجلة المغرب بدءا من سنة 1933. وقد شعر القباج بهذا الميل إلى النقد أثناء كتابته لكتابه، واعتذر عن عدم تمكنه من المزاوجة بين تاريخ الأدب والدراسة المحايثة حين قال: «لقد كنت أود أن أنهض بهذا العبء وأمزج هذا الكتاب بالنقد ولكن لوفور ما عندي من الأشغال، وضيق الوقت تأخرت عن ذلك، وتراجعت عن كل ما كنت أريد. وحسبي الآن أن أقدم للناطقين بالضاد، من أبناء قومي، ثمرة مجهودي منذ سنتين مجردا عن كل نقد» (53) ومن ثم اعتبر ما أنجزه في كتابه مجرد تهييئ وإعداد للممارسة النقدية التي غالبا ما تعقب تاريخ الأدب، يقول عن ذلك: «ولنا رجاء أن يقوم من كتابنا من يرى في نفسه أهلية واستعدادا لذلك الانتقاد، فيكون قد أفادنا كثيرا، وخدم أدب قومه، وصدع بالحق، دون خشية أو ريبة، لا سيما ونحن في الطور الأول من الانتباه والنهوض، وقد أصبحنا نشعر بحاجة ماسة وشدة افتقار إلى النقد الأدبي لنتبين موطن الضعف، وموضع الخلل في أدبنا وتفكيرنا فنسرع لإصلاحه وتقويمه» (54).

ولا يعني هذا الاعتذار أن الكتاب خال من النقد، فإن مجرد اعتماد القباج على مفهوم الطبقة في تصنيفه، كيف التسلسل الزمني الذي يجمع بين الشعراء تكييفا نقديا، مما جعلنا نقف بوضوح على تطور القيم الأدبية، وتدرجها من شعراء الطبقة الأولى إلى قمة ما وصلت إليه عند شعراء الطبقة الثالثة. هذا بالإضافة إلى ما يصادفنا بين الحين والآخر من بعض الأوصاف الفنية والانتقادات العابرة، كما هو الحال في قوله عن شعر أحمد النميشي:

«أما شعره فشعر الحقيقة لا مجال للخيال فيه، وقد تقرأ له قطعا في متنوع الأغراض لا تكاد تجد فيها أثرا للخيال ولا للزخرفة والتنميق كما اعتدناه في أغلب الشعراء، بل يكتفي بتقريب المعنى إليك بلفظ جزل، وأسلوب جميل (55). وهذا حكم نقدي بعيد عن النقد الانطباعي الجزئي، يعبر عن تمثل القباج للخصائص الفنية عند النميشي، والتي تميزه عن بقية شعراء طبقته.

---

(53) - الادب العربي في المغرب الاقصى. ج 1. المقدمة ص و.

(54) - المرجع نفسه. ج 1. المقدمة ص هـ.

(55) - المرجع نفسه. ج 1. ص 77.

11- التـــراجـــم

ترجم القباج في كتابه لسبعة وعشرين شاعرا، وقد كان ينوي إصدار تراجم هؤلاء الشعراء محررة بأقلامهم، لكن أسبابا منهجية جعلته يختصر هذه التراجم، ويتصرف في أغلبها، مخضعا إياها لخطة الكتاب ومنهجه، يقول عن هذا : «وقد كنا أعلنا في الخطاب العام الذي كان موجها إلى المترجمين أننا نثبت التراجم التي يرسلونها إلينا محررة بأقلامهم، وذلك ما عقدنا عليه النية حينئذ لولا أن بعض الأعذار عارضتنا، فاضطررنا إلى اختصارها مرغمين» (56).

وعلى الرغم من هذه الخطة التي أخضع لها أغلب تراجمه، فإنه أذعن لرغبة بعض الشعراء في الابقاء على تراجمهم كما كتبوها، رغم مخالفتها للخطة التي ارتضاها في كتابة تراجمه، يقول عن هؤلاء الشعراء : «بيد أن هناك أفرادا قليلين ألزمونا أن نثبت كل تراجمهم (57)، فنزلنا عند آرائهم، وأثبتناها دون زيادة أو نقص، ونحن نعلم ما في بعضها من المخالفة لخطتنا في الكتاب ومن الهفوات التي لا تخفى على الناقد البصير.» (58)

إن المتأمل لهذا الكلام يدرك بلا شك أن القباج صدر في كتابة أغلب تراجمه عن منهج وخطة واضحة المعالم، كما يدرك من جهة ثانية أن بعض التراجم ندت عن هذه الخطة، واشتملت على مجموعة من الهفوات. ولعل أول اختلاف يميز هذه التراجم الأخيرة عن بقية تراجم الكتاب، هو الطول المفرط، الذي لا يتناسب مع خطة الكتاب، فقد بلغت ترجمة محمد المكي الناصري ثلاث عشرة صفحة، وبلغت ترجمة عبد الأحد الكتاني ثمان صفحات، على حين أن معظم التراجم لم تتجاوز الصفحتين في الغالب الأعم. يظهر الاختلاف أيضا في الأسلوب الذي كتبت به بعض هذه التراجم، مما نأى بها عن أسلوب الترجمة الأدبية، وقربها من أسلوب المذكرات الشخصية، كما هو الحال في ترجمة المكي الناصري، فمن العناوين التي نصادفها في هذه الترجمة : (حياتي في المغرب - حياتي في مصر - حياتي المشتركة). هذا بالإضافة إلى الأسلوب الرومنسي

(56) - المرجع نفسه. ج 2. الخاتمة ص 129.

(57) - هؤلاء الشعراء هم : محمد المهدي الحجوي، محمد القري، المكي الناصري، الحسن الداودي، عبد الملك البلغيتي. والملاحظ أنهم من شعراء الطبقة الثالثة.

(58) - الادب العربي في المغرب الاقصى. ج 2. ص 129.

المغرق في الذاتية، الذي كتب به عبد الأحد الكتاني ترجمته، فغدت أقرب إلى الخاطرة أو المقالة التأملية منها إلى الترجمة الأدبية، فقد بدأ ترجمته بقوله : «أنا ربيب الطبيعة وحفيد الحدوث، وحلقة من حلقات سلسلة القدموس الباقي، ونفثة من نفثات الأزل في روع الوجود الحي. رضيع النبوغ المغربي، وكفيل الشمم العربي الصميم، ووليد فاس، وما أدراك ما فاس، سرير سلطان الإيمان، ومنبر خطيب الذكاء الرائع... وفيه تلقفني البخت الميمون بين احتفاظه لما طوحت بي يد الضرورة وفق إرادة الله المختارة، إلى مجاهل فضاء هذا الوجود...» (59) ولعل هذا الاختلاف البين في هذه التراجم التي كتبها أصحابها، هو الذي أغاظ القباج، فلمح إليه في خاتمة كتابه .

وسنحاول فيما يأتي، تبين الخطة التي تجمع بين التراجم التي كتبها القباج بقلمه، مسقطين من اعتبارنا التراجم الخمس التي كتبها أصحابها بأقلامهم، للاعتبارات السالفة .

1 – اسم الشخصية ونسبها .
2 – مولد الشخصية.
3 – المشيخة.
4 – الرحلة.
5 – الصفات الذاتية والأخبار الشخصية.
6 – الصفات الفنية للشخصية.
7 – التآليف.

1 – اسم الشخصية ونسبها :

اقتصر القباج في تراجمه على ذكر اسم الشخص ولقبه في غالب الأحيان، إلا إذا كان هذا الشخص من بيت يتسم بالعراقة وشرف المحتد، فإنه يطيل في الحديث عن نسبه إطالة تميزه عن غيره. من ذلك قوله عن الحاج محمد بوعشرين : «هو حليف الأدب، الحاج محمد بن الوزير الحاج إدريس، بن الوزير الطيب بن الوزير اليماني، بن الكاتب أحمد بن الكاتب عبد الله بن الكاتب أحمد أبي العشرين الخزرجي الأنصاري، من أسرة عربية شهيرة بالمغرب الأقصى...» (60). وفي أحيان أخرى يبدأ الترجمة بذكر البيت الذي ينتمي إليه

(59) – المرجع نفسه. ج 2. ص 93 - 94.

(60) – المرجع نفسه. ج 1. ص 49.

المترجم، فالبيت الناصري : «هو أحد البيوتات الشهيرة التي كان لها الذكر العطر في العالم الإسلامي، والفخر الكبير والقدح المعلى، من أواسط القرن الحادي عشر الهجري...» (61)، وكأنه بإشارته إلى نسب الشخصية الشريف، يعلل نبوغها في ميدان الأدب، ويلمح إلى الدور الكبير الذي يلعبه عامل البيئة والوسط في تكوين الشخصية، من ذلك ما نجده في حديثه، عن بيت آل غريط : فهو : «من البيوتات المغربية التي لا يزال يتسلسل منها منذ ثلاثة قرون الأدب الغض، والشعر العربي المتين، والمنثور المفصل، الذي لا تكاد تقرأ منه سطرا أو سطرين حتى تستحضر الفتح بن خاقان، وتترحم على ابن بسام» (62).

2 - مولد الشخصية :

على الرغم من أن تاريخ الولادة أصعب ضبطا وأعسر تقييدا من تاريخ الوفاة، «لأن الشخص حين يولد لا يعلم ماذا يكون من شأنه، ولا ما يصير إليه مستقبل أمره، فلا تقوم هناك حاجة إلى حفظ تاريخ مولده» (63) على الرغم من وجود هذه الصعوبة المنهجية التي تواجه كتاب التراجم، ومؤرخي الأدب، فإن التاريخ الذي يصادفنا في تراجم القباج بكثرة، هو تاريخ المولد، والسبب يعود إلى أن القباج ترجم لأشخاص عاصر أغلبهم، مما جعل تاريخ ولادتهم واضحا لديه، غير أنه لم يرتب أعلام طبقاته حسب هذا التاريخ، ذلك أن شعراء الطبقة الواحدة يتفاوتون فيما بينهم من الناحية الإبداعيةوالفنية، وترتيبهم حسب تاريخ الولادة قد يلغي الاختيار المنهجي الذي ارتضاه القباج وهو التصنيف حسب الطبقات،ومن ثم وجدنا تفاوتا في ترتيب الشعراء حسب هذا التاريخ، فأحمد غريط، ولد سنة 1298هـ، هو أول شاعر في الطبقة الأولى، جاء بعده شعراء ولدوا قبل هذا التاريخ كمحمد السليماني 1280 هـ، و محمد بوعشرين، 1297 هـ، وأحمد سكيرج، 1295 هـ، وهذا ما يؤكد أن شعراء الطبقة الواحدة يفضل بعضهم البعض الآخر. ويعلل هذا التفاوت في الترتيب، بسبب آخر ذكره القباج في خاتمة كتابه ويتمثل في أن بعض التراجم ألحقت بالكتاب بعد الانتهاء من تنسيقه وعرضه للطبع، مما جعل المؤلف يلحقها بغير مواضعها الحقيقية، وهذا ما يوضحه أثناء حديثه عن العقبات التي واجهته في تصنيفه لكتابه يقول

(61) - المرجع نفسه. ج 1. ص 109.

(62) - المرجع نفسه. ج 1. ص 01 .

(63) - محمد عبد الغني حسن : التراجم والسير. ص 88.

: «... فإذا بعقبات لم تكن تخطر لنا ببال، صارت تعترضنا واحدة فواحدة، كادت توقفنا على العمل، وتصرفنا عن الجهود، لولا الثبات الذي نتخذه شعارا، فمن ضن بعض الشعراء عن إجابتنا، إلى بطء بعضهم حتى نسقنا الكتاب وعرضناه للطبع، فاضطررنا إلى إلحاقه في غير موضعه». (64).

3 - المشيخة

درج القباج على ذكر شيوخ الشخصية وأساتذتها في بعض تراجمه، وقد أسهم بعمله هذا في تجلية التكوين الثقافي والعلمي للشخصية، ونوعية المعرفة التي كرعت منها، غير أنه أوجز في حديثه عن هذا العنصر الهام في الترجمة، فلم يطلعنا على المراكز العلمية، والبرامج والكتب المقررة - إلا لماما - كما نجد عادة في إشارات كتاب التراجم أثناء حديثهم عن شيوخ الشخصية التي يترجمون لها. يقول عن شيوخ المختار السوسي : «بعدما تلقى القرآن الكريم في قريته، أخذ الدروس الابتدائية العربية عن الاستاذ عبد الله بن محمد، كبير علماء تلك القرية، ثم عن الشاعر الكبير الطاهر البكري. ثم انتقل إلى السعادات في أحواز مراكش، فأخذ فيها عن الاستاذ الكبير مولاي عبد القادر بن العربي مفخرة السباعيين، ثم عن بعض علماء مراكش كقاضي الحمراء العلامة محمد بن الحسن، ثم انتقل إلى فاس فأخذ عن جلة من علمائها وفي مقدمتهم الاستاذ الشهير محمد بن العربي، ثم ولى وجهه نحو الرباط، فلازم دروس المحدث شيخ الاسلام أبي شعيب الدكالي، ودروس فخر الرباط العلامة الجليل مولاي المدني بن الحسني» (65).

وقد ظهر تأثير هؤلاء العلماء حقا في الاتجاه الاصلاحي السلفي عند المختار السوسي، وعند أغلب الشخصيات التي تنتمي إلى طبقته والتي تتلمذت على هؤلاء العلماء المصلحين .

4 - الرحلة

إلى جانب المشيخة، تعتبر الرحلة من أهم مكونات الشخصية عند كتاب التراجم ومؤرخي الأدب، فعن طريقها تتفتح آفاق الشخصية ويتوسع اطلاعها،

---

(64) - الادب العربي في المغرب الاقصى. ج 2. ص 128.

(65) - المرجع نفسه. ج 2. ص 61 - 62.

وقد أولى القباج هذا العنصر عناية خاصة في تراجمه، وأشار إلى أهميته، فمن الشعراء من ارتحل إلى المشرق كمحمد السليماني الذي :

«جال جولة بالمشرق الأدنى، فأمعن النظر، وأنعم الفكر، وإذا بالرجل قد تطور تطورا غريبا، وإذا به يقول الشعر عن شعور حي يستنهض به خامد الهمم» (66).

من هؤلاء أيضا عبد الرحمان بن زيدان، الذي : «ارتحل إلى الشرق ودخل مصر والشام عام 1331 هـ، فاستفاد كثيرا من رحلته هذه ورجع بعلم وافر» (67).

ومن الشعراء من شد الرحال إلى الاندلس كمحمد گنون، فقد سافر إلى الأندلس، فتجول فيها ما شاء الله، ولما عاد منها عادت معه نفس جديدة، وغيرة دينية متقدة فلهج بالحض على التعليم، واسترجاع المجد التليد» (68).

وقد تكون الرحلة إلى أوربا فمحمد الناصري : «رحل إلى الديار الأوربية مرتين ضمن بعثة الشباب المغاربة، واستفاد من رحلتيه هاتين فوائد جمة، اتسعت بها أفكاره، وعلت مداركه. (69)

وسواء كانت الرحلة إلى المشرق أم إلى الأندلس أم صوب الديار الأوربية، فإنها عند القباج حافز لتفتح المدارك، ومناسبة لتوسيع المعارف، واستكمال تكوين الشخصية، هذا بالإضافة إلى أنها رمز للتواصل الثقافي الذي ميز الفترة التي عاش فيها هؤلاء الشعراء، والذي كان وراء دعوتهم للتجديد والاصلاح.

5 - الصفات الذاتية والأخبار الشخصية :

أ - الصفات الذاتية :

عني القباج بتناول الصفات الذاتية، والأخبار الشخصية للاعلام الذين

---

(66) - المرجع نفسه. ج 2. ص 61 - 62.

(67) - المرجع نفسه. ج 1. ص 81.

(68) - المرجع نفسه. ج 1. ص 123.

(69) - المرجع السابق.

ترجم لهم، إمعانا منه في توضيح جوانب الشخصية الأدبية وتجلية مكوناتها. من ذلك ذكره للصفات الدينية والخلقية التي تميز بعض الشخصيات، فقد بدأ ترجمة علال الفاسي بذكر الصفات الدينية التي تميز بها بعض شعراء طبقته، ورغبة هؤلاء في الاصلاح ومحاربة البدع، يقول في هذا الصدد : «في هذا الوطن المغربي شباب يرى من واجباته أن يعتز بدينه، ويفتخر بقوميته، ويتشبث بالفضيلة والمروءة وبكل المبادئ التي دعا إليها الاسلام وجاء بها القرآن...، وفي طليعة هذه الفئة محمد علال الفاسي...» (70)، ونجد الصفات نفسها تتكرر عند ترجمته لعبد الله كنون، وهو من شعراء هذه الطبقة ومن الدعاة المصلحين يقول عنه : «عبد الله كنون من خيرة شباب الأمة المغربية ومن دعاة الفضيلة وأنصار الهداية الإسلامية، الذين تربوا تربية صالحة لم يشبها شيء من أردان المدنية الكاذبة وفساد التقليد» (71)، كما يصف أخلاق المختار السوسي بأنها : «أخلاق مهذبة شبيهة بأخلاق الصوفية المتورعين» (72).

والحق إن هؤلاء الثلاثة، من رواد الإصلاح الديني والاجتماعي الأوائل في بداية النهضة الحديثة بالمغرب.

إضافة إلى الصفات الدينية، يشير القباج إلى الصفات العقلية التي تميز مترجميه، كالذكاء، وسرعة البديهة وغيرها من الصفات التي تنبئ عن المكانة التي يشغلها المترجم في علمه وتصنيفه، وتميزه عمن سواه. فالأستاذ عبد الله كنون : «يمتاز بالذكاء الفطري، ورقة الطبع، وكرامة الخلق، وصفاء الضمير» (73) كما وصف أحمد بن المامون البلغيتي بأنه : «من جهابذة العلم المشهورين بالمغرب، وأحد المتضلعين في الفقه الاسلامي تضلعا فائقا، ولا يوجد اليوم في المغرب من طبقته من يدانيه في استحضار الخلاف العالي...» (74). ويقول في هذا السياق عن عبد الرحمان حجي : «وإني لأذكر له هنا صفات قلما توفرت لغيره : حرية الفكر، وعدم المداجاة، وجرأة في النقد، وكثيرا ما جر عليه نقده ما لم يكن يتوقعه من طعن وأذى» (75).

(70) - المرجع نفسه. ج 2. ص 1.

(71) - المرجع نفسه. ج 2. ص 36.

(72) - المرجع نفسه. ج 2. ص 60.

(73) - المرجع نفسه. ج 2. ص 36.

(74) - المرجع نفسه. ج 2. ص 15.

(75) المرجع نفسه. ج 2. ص 25.

ب - الأخبار الشخصية :

أما الأخبار الشخصية، فهي أكثر العناصر تواترا في تراجم القباج، من ذلك حديثه عن الوظائف التي تقلبت فيها الشخصية والمهام التي اضطلعت بها إلى جانب مشاركتها في الابداع والتأليف. والملاحظ أن مجموعة من الشعراء الذين ترجم لهم تتوزع بين الوظائف الثلاث الآتية :

القضاء، ونظارة الأحباس، وخطة العدلية، وما ذلك إلا لأن ثقافة هؤلاء في أغلبها دينية شرعية، فمن الشعراء الذين ولجوا سلك القضاء : أحمد بن المامون البلغيتي، وعبد الله الفاسي، وأحمد سكيرج، وفي سلك نظارة الأحباس نجد : محمد بوعشرين، وأحمد الصبيحي وفي السلك العدلي، نجد جعفر الناصري، ومحمد السليماني. بينما انصرفت فئة أخرى إلى سلك التعليم والتدريس، كأحمد النميشي ومحمد بن اليمني الناصري، وقد تمكن بعض الشعراء عن طريق الوظائف التي يشغلونها من المشاركة الحقيقية في النهضة والدعوة إلى الإصلاح، خصوصا الذين انخرطوا في سلك التدريس. يقول القباج في هذا الصدد عن أحمد النميشي : «من ذا الذي ينسى موقفه المشهور هو وإخوانه المصلحون، حيث قاموا قومة رجل واحد بالمطالبة بتنظيم كلية القرويين، وإصلاح التعليم فيها، وإدخال العلوم الحيوية التي لا مندوحة عنها للعلماء العاملين، الذين يطمحون إلى قيادة الامة نحو ميدان الفوز، وحتى يسير القرويون مسير أخويه الزيتونة والأزهر» (76).

ومن الذين ربطوا بين التعليم والعمل الوطني محمد بن اليمني الناصري، فقد «افتتح مدرسة وطنية بالدار البيضاء، فوقع عليها إقبال عظيم، نشأت عنه عراقيل، اضطرته إلى الخروج منها... ثم افتتح مدرسة أخرى بالرباط أقبل عليها الناس على اختلاف طبقاتهم ليلا ونهارا، فحدث مثل ما حدث في سابقتها» (77).

ومن الاخبار الشخصية التي لها علاقة بالوظائف التي شغلها الشعراء، ما يصادفنا من حديث القباج عن الأوسمة والنياشين التي حظي بها بعض الشعراء،

---

(76) - المرجع نفسه. ج 1. ص 86.

(77) - المرجع نفسه. ج 1. ص 102 - 103.

والتي تعبر عن قيمة الشخصية في السلم الإداري، فأحمد سكيرج : «قلد بباريز حين دعوته من الحجاز سنة 1916 مسيحية بالنيشان "لا ليجيون دونور"، من رتبة شوفاليي، وطوق من الوسام العلوي برتبة "كومندور"، وطوق أخيرا من نيشان الافتخار التونسي من رتبة "گراند أفيسيي" (78). أما عبد الرحمان بن زيدان، فقد طوقه السلطان المرحوم مولاي يوسف وساما علويا من درجة كمندور» (79).

6 - الصفات الفنية للشخصية :

إلى جانب الصفات الذاتية في تراجم القباج، تصادفنا من حين لآخر بعض الصفات التي تميز الشعراء عن بعضهم البعض، وتحدد خصوصيتهم وفرادتهم، لكن هذه الصفات قليلة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن القباج لم يرد أن يمزج في كتابه بين تاريخ الأدب والنقد، وقد اعتذر عن عدم تمكنه من ذلك.

ومع ذلك تطالعنا بين الفينة والأخرى بعض الصفات الفنية التي تشي بالميول النقدية المبكرة لديه. من ذلك وصفه لبعض الشعراء بالفحولة، أو النسج على منوال المتقدمين. من ذلك أيضا إشاراته إلى المصادر التي أثرت في شعر الشاعر وكانت وراء التحول الذي عرفه، فعبد الرحمان حجي «هو أحد الذين تأثروا بالشعر العراقي وكلفوا بإنشاده، وأولعوا بحفظه ولوعا شديدا» (80).

وقد ينصرف الوصف الفني إلى أسلوب الكاتب وطريقته في الكتابة فمحمد بوجندار هو : «أول مغربي يكتب التاريخ بالأسلوب العصري، والنسق الجديد» (81).

وفي أحيان أخرى، يجمع بين الوصف الفني للشاعر، ووصف إبداعه، فالطاهر بن محمد البكري : «تضلع من المفردات اللغوية، وارتوى بماء البيان المعين، فترشح فكره في حين ابتدائه لصوغ الشعر بقصائد قرطست عين الأدب،

---

(78) - المرجع نفسه. ج 1. ص 57.

(79) - المرجع نفسه. ج 1. ص 82.

(80) - المرجع نفسه. ج 2. ص 25.

(81) - المرجع نفسه. ج 1. ص 66.

وأقصدت أغراض الفصاحة وأصابت من البلاغة ما لا يقصر عن بعض المتقدمين، بل يزحمهم في مزاحم معانيهم البليغة، وفرائدهم المعجبة، ولو قدر له أن يطالع ما للشعراء اليوم من الشفوف الباهر، لربما أمكن اليوم أن يفاخر به المغرب» (82).

7 - التأليف

في ثنايا عرض القباج للصفات الفنية لشخصياته، يعرج على ذكر بعض مؤلفاتها، ويخص بعضها بذكر مستواها، لكن هذا العنصر البيليوغرافي جاء مقتضبا، مسرفا في الإيجاز، بالقياس إلى عناصر الترجمة الأخرى، ولعل السبب في ذلك يعود الى أن القباج ترجم لأعلامه كشعراء، وليس كمؤلفين، فالغاية من كتابه هي تجلية التطور الذي لحق الشعر عند شعراء الطبقات الثلاث، وليس الحديث عنهم كمؤلفين مشاركين في جميع مناحي الإبداع من كتابة شعرية ونثرية .

ومن إشاراته المقتضبة إلى مؤلفات الشخصية قوله عن أحمد سكيرج : «له من التآليف ما يناهز المائة في موضوعات مختلفة، وقد طبع منها نحو العشرين، وترجم منها إلى اللغة الفرنساوية تأليفه المسمى : "إيقاظ المتعلم والناسي في صفة أشكال القلم الفاسي" » (83).

وقد يشير القباج في أحيان أخرى إلى مضمون المؤلف وأسلوبه، فمحمد غريط : «له بعض المؤلفات يهمنا منها كتاب فواصل الجمان، الذي ملأ به فراغا كبيرا في تاريخ الأدب العربي بهذه الديار، حيث ترجم فيه لأكابر الذين درجوا منذ عهد السلطان مولاي سليمان رحمه الله، وقد نجز بالطبع أخيرا، وهناك تطلع على الاسلوب الأندلسي الذي يذكرك ترسل القرطبيين والإشبيليين» (84).

من إشاراته أيضا إلى أسلوب المؤلف، قوله عن محمد بوجندار، «وسيشهد له المستقبل في يوم من أيامه أنه أول مغربي يكتب التاريخ بالأسلوب العصري والنسق الجديد وفي كتابه تاريخ سلا، ومقدمة الفتح،

(82) - المرجع نفسه. ج 1. ص 20.

(83) - المرجع نفسه. ج 1. ص 56 - 57.

(84) - المرجع نفسه. ج 1. ص 3.

وتاريخ الرباط، وغيرها من المؤلفات القيمة أعظم شهادة وأقوى دليل على صحة قولنا» (85).

ونشير في ختام حديثنا عن التراجم عند القباج، إلى أنه على الرغم من القصر النسبي لهذه التراجم، فإنه أتى على ذكر أغلب العناصر التي يمكن أن نصادفها في الكتب المختصة بتراجم الرجال. ولعل العنصر الذي غاب عن هذه التراجم - ولأسباب موضوعية - هو عنصر التحقيق العلمي، والنقد التاريخي والسبب في ذلك يعود إلى أن القباج ترجم لأشخاص معاصرين له في أغلبهم، ومن ثم لم يعد في حاجة إلى ضبط وتحقيق أخبارهم التي أخذ بعضها عنهم مباشرة.

III - المنتخبات :

يوحي عنوان كتاب القباج «الأدب العربي في المغرب الأقصى» بأن المؤلف سيتحدث عن أدباء المغرب من شعراء وناثرين، لكن الحقيقة غير ذلك، فقد ترددت كلمة "أدب" في مقدمة الكتاب كثيرا، وفي تراجم الأعلام، ولكن قصده منها كان ينصرف دائما إلى الشعر، ولم يكن يرمي إلى المعنى العام، الذي عادة ما نصادفه في كتب التراجم وتواريخ الأدب، والذي يشمل الشعراء والناثرين على حد سواء، يقول القباج عن هذا المعنى الخاص لكلمة "أدب" : «مضى على الأدب في الأمة العربية فترة غير قصيرة لا يخرج عن موضوعات معدودة : المديح، والهجو، والرثاء، والغزل، والألغاز» (86). ولعل من الدوافع التي جعلت الشعر يستأثر باهتمام القباج ما يلي :

أ - الاهتمام الكبير الذي حظي به الشعر مع بداية النهضة الحديثة في المغرب، فقد عبر عن هموم الطبقات المثقفة ورغبتها في الإصلاح والتغيير، كما احتوى أغلب الشعارات النهضوية التي عرفتها المرحلة. فقد شارك الخطاب الشعري إلى جانب الخطاب السياسي، كما أن أغلب القادة السياسيين كانوا يتوسلون بالشعر للتعبير عن أهدافهم الإصلاحية، وتتوج هذا الاهتمام بالمهرجانين اللذين أقامتهما الحركة الوطنية لأحمد شوقي والمتنبي في سنوات

(85) - المرجع نفسه. ج 1. ص 66.

(86) - المرجع نفسه. ج 1. ص ب.

1932 و 1935، وقد أقيم هذان المهرجانان بمشاركة أبناء القرويين أولا ثم كتلة العمل الوطني ثانيا. وكانت الغاية منهما «إعطاء المغاربة للاستعمار الفرنسي صورة واضحة أنهم ينتمون إلى العرب والعروبة بشتى الوشائج والصلات» (87)

لقد قام الشعر حقا بدور فعال في إبداع الأفكار الإصلاحية سواء تعلق الأمر بالدين والأخلاق أم بالمجتمع، وقام بهذا الدور شعراء تأثروا برياح النهضة التي هبت عليهم من المشرق العربي.

ب – يمكن أن نعزو هذا الاهتمام بالشعر دون النثر عند القباج، إلى عوامل ذاتية تعود إلى اقتناعاته الخاصة، واختياراته الفكرية، فربما وجد القباج نفسه أميل إلى الشعر من غيره، وقد تأكد هذا الميل أكثر على مستوى النقد، في المقالات التي خصصها لنقد الشعر المغربي والتي نشرها في مجلة "المغرب" ابتداء من سنة 1933 .

ورغم أن القباج لم يشفع المنتخبات التي أوردها في كتابه بأي تعليق أو تحليل، فإن قراءة أولى لهذه المنتخبات تطلعنا على التطور الذي لحق الشعر المغربي مع بداية النهضة الحديثة، سواء تعلق الامر بالمضامين التي نظم فيها الشعراء قصائدهم، أم بمفهوم الشعراء للشعر.

أ – أما من حيث المضامين، فإلى جانب الأغراض التقليدية، بدأنا نصادف لدى شعراء الطبقة الأولى موضوعات جديدة لها علاقة بالنهضة كالدعوة إلى العلم والعمل كما هو الحال عند محمد غريط في نشيد يقول في لازمته:

يا بني العصر أجيبوا ... داعي النصح المنير
واستجدوا ذكر قطر ... كان ذا صيت شهير (88)

ونجد المضمون نفسه عند شعراء آخرين كمحمد السليماني، وأحمد سكيرج... إلخ، ولا نكاد ننتقل إلى الطبقة الثانية حتى تظهر موضوعات أخرى لها علاقة بالأحداث التي يعرفها العصر الحديث، فمحمد الجزولي وهو الحلقة

(87) – عبد الله الجراري : شذرات تاريخية. ص 92 - 98.

(88) – الادب العربي في المغرب الاقصى. ج 1. ص 7.

التي تربط بين الطبقة الأولى والثانية، كتب قصيدة طويلة يتحدث فيها عن الحرب التركية اليونانية، منتصرا فيها للأتراك، كرمز للجامعة الاسلامية، يقول في أول هذه القصيدة :

ضراغمة الإسلام أرعبتم العدى
وأسقطتم شيخا وراهم ترصدا (89).

وقد نبه القباج إلى هذا التجديد الذي عرفه الشعر مع الجزولي حين قال : «وستشعر أيها القارئ... أنك دخلت بهذا الشعر الجزولي، وما يتبعه في طور آخر يذكرك بالعصر الذي أنت فيه» (90).

أما شعراء الطبقة الثالثة فهم حقا رواد التجديد، فقد عرف الشعر معهم مضامين جديدة جاءت صدى للفكر الإصلاحي الذي تبنوه على الواجهة السياسية .

ب – بموازاة المضامين التي لحقها التطور، يعرف مفهوم الشعراء للشعر تطورا مماثلا، فبعد أن كان الشعر مجرد وسيلة لإظهار القدرة التعبيرية، والتفوق في مجال القول، وثقافة مكملة لثقافة العالم والفقيه، أصبح تعبيرا عن الذات، ومن خلالها عن هموم الجماعة ورغبتها في التحرر والانعتاق. وحتى يوقفنا القباج على التطور الذي لحق مفهوم الشعر عند شعراء الطبقة الثالثة فإنه حرص على ذكر منتخبات لأغلب شعراء هذه الطبقة، توضح مفهومهم الجديد للشعر. من ذلك قول علال الفاسي :

الشعر غير ذويه لا يدريه
كالمجد غير الشعر لا يبنيه
الشعر روح في الفؤاد كريمة
يوحي إليها الكون ما يخفيه (91)

ويقول عبد الرحمان حجي في قصيدة بعنوان "نظري في الشعر" :

---

(89) – المرجع نفسه. ج 1. ص 95.

(90) – المرجع نفسه. ج 1. ص 87.

(91) - المرجع نفسه. ج 2. ص 10.

أجلـــي للـــورى ســـدف المغـــازي
واجتلـــب الحقيقـــة فـــي المجـــاز
وليـــس الشعـــر إلا مـــا استنـــارت
معـــانيـــه محـــلـــقـــة كـــبـــاز
إذا طـــرق المســـامـــع تـــرتضيـــه
وعـــنـــد النـــقـــد يـــظـــفـــر بـــامـــتـــيـــاز
ويسري فـــي النهـــى ســـريـــان روح
فتنفعل المشـــاعـــر باهتـــزاز (92)

ويقول محمد القري في قصيدة يعرف فيها الشعر انطلاقا من الدور الإصلاحي الذي يؤديه :

الشعـــــر وحـــــي صـــــادق
وعـــــن الحـــقـــائـــق نـــاطـــق
والشعـــــر كـــــم تبـــــدو بـــــه
للمصلحـــيـــن حقـــائـــق (93)

وبالإضافة إلى هؤلاء الشعراء، أورد القباج منتخبات لشعراء من الطبقة نفسها، تتفق في أغلبها حول هذا المفهوم الجديد للشعر، كمحمد المختار السوسي وعبد الله كنون، وهؤلاء الشعراء يمكن تصنيفهم في الاتجاه التقليدي الجديد الذي يقول عنه الدكتور عباس الجراري إنه : «انطلق من مفهوم آخر للشعر، يجعله معبرا عن الذات والإحساس ومعبرا كذلك عن الشعور العام» . (94).

نخلص في نهاية هذا التمهيد إلى أن حاجة المثقفين المغاربة إلى دراسة أدبية منظمة طرحت بإلحاح مع بداية هذا القرن، وهذا ما لاحظناه في النماذج التي عرضنا لها، والتي تعكس بحق البدايات الخجولة لهذه الدراسة، فعلى الرغم من أن هذه البدايات اتسمت بالكثير من التعثر وارتبطت في عمومها بنظم معينة - إذ ارتبطت المسامرات بنظام الحماية، وارتبط كتاب السايح بالنظام التعليمي - فإنه يصح إعتبارها الشرارة الأولى التي أرهصت بالتوجهات الدراسية التي جاءت فيما بعد .

(92) - المرجع نفسه. ج. 2. ص 30 - 31.

(93) - المرجع نفسه. ج 2. ص 35.

(94) - الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. ص 202.

البـــاب الأول

الاستاذ عبد الله كنون

مـــؤرخـا لــلأدب

تقديم كتب الاستاذ گنون في تاريخ الادب

وحتى نتعرف على مفهوم تاريخ الادب عند الاستاذ گنون، وحدود وعيه بالمنهج الذي سار على هديه فيما كتبه حول تاريخ الادب المغربي، سنبدأ بتقديم المصادر، التي نفترض أنها تحمل سمات تاريخ الادب، والتي تشكل بالنسبة لنا منطلقا لاستكناه مفهوم المؤلف له. وقد راعينا في جمعنا بينها تماسكها المنهجي، فالبعض منها يكمل البعض الآخر، لهذا فلن نقف على تصور المؤلف لتاريخ الادب في كتاب واحد. فقد تكامل هذا التصور في مجموعة من المؤلفات، وعلى امتداد زمني، بدءا من النبوغ وانتهاء بأصغر المقالات في تاريخ الادب.

1 - النبوغ المغربي في الادب العربي :

صدر هذا الكتاب في ثلاث طبعات وهي كالتالي :

أ - الطبعة الاولى، وقد صدرت سنة *1938* عن مطبعة المهدية بتطوان في جزءين، يقع الاول في *260* صفحة، بينما بلغ الجزء الثاني *440* صفحة، وقد أشار المؤلف الى موضوع هذا الكتاب بقوله :"هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم، والادب، والسياسة، ورمينا بذلك الى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب، وتطورها في العصور المختلفة، من لدن الفاتح الاول، الى قريب من وقتنا هذا" (1). وقد اشتمل الجزء الاول من الكتاب على التاريخ السياسي والادبي، وتراجم العلماء والادباء، بينما اشتمل الجزء الثاني على منتخبات من النثر والنظم.

ب - أعيد طبع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، بدار الكتاب اللبناني سنة *1961*، وقد بلغت صفحات هذه الطبعة حوالي *1005* صفحة. ومن دواعي هذه الطبعة الجديدة، حسب ما جاء في مقدمتها :"كثرة الطلب على الكتاب من مختلف الجهات، خصوصا بعد استقلال المغرب ... فإن الحاجة أصبحت جد ماسة، الى إعادة طبعه وتقديمه سندا الى جميع هؤلاء الذين يهمهم الوقوف على تاريخ المغرب الفكري، وماضيه الحضاري" (2).

---

(1) - النبوغ. ط 1. ص ب.

(2) - المرجع نفسه. ط 2. ص 17.

وقد اقتضت هذه الطبعة من المؤلف إدخال تعديلات جوهرية مست محتويات الكتاب، مادة، وفكرة وترتيبا. فالمعلومات التي كانت لدى المؤلف زمن نشر الطبعة الأولى، ليست هي المعلومات التي يملكها زمن إعادة طبع الكتاب، ومن ثم فقد شمل التعديل النقط الآتية :

1) إضافة مواد جديدة سواء فيما يرجع إلى تراجم الأشخاص، أو الآثار الأدبية، فقد ظهرت كتب مهمة من شأنها أن تغني مادة البحث.

2) تصحيح بعض الأخطاء التي وقعت في كتابة بعض التراجم، ونسبة بعض الآثار الأدبية لغير من هي له.

3) تحرير بعض الفصول من التأثير السياسي والعاطفي، الذي كتبت به، نتيجة لما كان المغرب يمر به من ظروف سياسية .

4) تحوير في التصميم الذي وضع عليه الكتاب، فقد فصل في هذه الطبعة العصر المرابطي عن العصر الموحدي، نظرا لتوافر المعلومات الكافية عنهما. يضاف إلى ذلك، تحوير آخر مس قسم المنتخبات، الذي أصبح في جزءين مستقلين، جزء للمنثور وآخر للمنظوم، كما أضاف المؤلف إلى هذه الطبعة زيادات تتعلق بنهضة الفنون، ومشاركة المرأة في مختلف مجالات النشاط الفكري للشعب، ويشير المؤلف إلى أن : «روح البحث المجرد، التي سيطرت على الكتاب في طبعته الأولى، هي التي تتقمصه في طبعته الثانية» (3).

ج - **الطبعة الثالثة** : صدرت هذه الطبعة عن دار الكتاب اللبناني ببيروت سنة 1975، وتقع في ثلاثة أجزاء، في مجلد واحد، وتبلغ صفحاتها حوالي 1045 صفحة، يقول المؤلف عما جد في هذه الطبعة «إني راجعت الكتاب، وصححت بعض الأغلاط المطبعية، التي وقعت في الطبعة السابقة، وأعدت تحرير الفصل الأول من عصر السعديين، واستدركت بعض الآثار الأدبية من شعر ونثر مما وقفت عليه مؤخرا، وقومت خطأ الفهارس» (4).

---

(3) - المرجع نفسه. ط 2. ص 19.

(4) - المرجع نفسه. ط 3. ص 7.

2 - **سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب :**

بدأ الأستاذ كنون نشر هذه السلسلة من التراجم، لما تولى إدارة المعهد الخليفي للباحثين الذين أسس في تطوان سنة 1356 هـ. وقد تولى معهد مولاي الحسن بتطوان نشر هذه السلسلة في البداية، فأصدر منها خمسة وعشرين جزءا، في ظرف خمس سنوات تقريبا، ثم توقف العمل نظرا للأزمة السياسية التي مرت بها البلاد قبل الاستقلال، ثم واصلت "دار الكتاب اللبناني" نشر ما بقي من هذه السلسلة ابتداء من سنة 1960، وأعادت نشر الأجزاء الخمسة والعشرين، وقد بلغ مجموع أجزاء هذه السلسلة، أربعين جزءا.وقد ترجم فيها المؤلف لرجال الأدب، وللعلماء، والساسة، والحق أن هذه السلسلة ما هي إلا تكملة لتاريخ الأدب كما بدأه الأستاذ كنون في كتابه التأسيسي "النبوغ"، وقد أشار إلى هذه الحقيقة في مقدمة أول جزء من هذه السلسلة حين قال : «ذلك أن النبوغ كان كتابا جامعا، ودراسة محيطة بالشاذة والفاذة، وكان لكل فصل منه مقدمات يراد منها الوصول إلى نتائج، فلم يتأت التوسع في باب منه دون باب، وقد بقيت في النفس حاجات متعلقة بتراجم الأشخاص المذكورين فيه، خصوصا المشهورين منهم، والذين يوحي تتبع تراجمهم، بمعاني من السمو النفسي، والفخر الأدبي، هي غاية المراد، ومنتهى القصد، فأردنا استيفاء تلك الحاجات، على حسب الوسع وقدر الإمكان» (5).

3 - **شخصيات مغربية :**

وهي عبارة عن تراجم تقع دون ذكريات مشاهير رجال المغرب، وقد أفرد لها الاستاذ كنون عنوانا خاصا، وفصلها عن الذكريات، يقول موضحا الفرق بينهما : «أما باقي الأشخاص المهمين، فقد خصصنا بهم كتاب الشخصيات، الذي لم نشترط فيه ما اشترطنا في هذا، من التوسع في الترجمة، واستيفاء المعلومات التي عندنا عن الشخص وجمع الآثار كلها، إلا ما كان معروفا جدا، فإنا قد نترك منه، وأقصر ترجمة فيه لا تقل عن بضع صفحات، بينما في الشخصيات لا نأخذ أنفسنا بشيء من ذلك» (6).

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ كنون، كان ينوي إصدار هذا النمط من

---

(5) - عبد العزيز الفشتالي : ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 6 - 7.

(6) - المرجع نفسه. ص 8.

التراجم في كتاب كما يظهر من كلامه، لكنه اكتفى بإصدار عدد يسير منها في بعض المجلات الوطنية، كالسلام مثلا. (7)

4 - أحاديث عن الأدب المغربي الحديث :

طبع هذا الكتاب في أربع طبعات كانت آخرها سنة 1984، وهو يقع في 206 صفحة، وقد كان في الأصل عبارة عن محاضرات ألقاها المؤلف، بطلب من معهد الدراسات العليا، التابع للجامعة العربية، أرخ فيه للأدب المغربي الحديث، ومن ثم فهذا الكتاب حلقة مكملة لما بدأه المؤلف في النبوغ .

5 - أدب الفقهاء :

نشر هذا الكتاب أولا في حلقات، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم صدر بعد ذلك في كتاب مستقل عن دار الكتاب اللبناني، بلغت صفحاته 263 صفحة، ويشير المؤلف إلى موضوع هذا الكتاب وأقسامه بقوله : «هذا بحث طريف في موضوع أدبي شائق، طالما أغفله الكتاب وتجنى عليه النقاد، وهو أدب الفقهاء... وقد قسمته قسمين، قسما تناولت فيه مادته وعناصره الأولى بحسب الزمن والأشخاص، وقسما تعرضت فيه لموضوعاته وأغراضه، على سبيل البسط والتعريف» (8)

6 - أمراؤنا الشعراء :

صدر هذا الكتاب عن مطبعة المهدية بتطوان، وهو من الحجم الصغير، تبلغ أوراقه 68 ورقة، وهو «يجمع شعر أمراء الدول المتعاقبة على المغرب كلها، بدون تخصيص» (9).

7 - المنتخب من شعر ابن زاكوار :

صدر هذا الكتاب أولا عن دار بوسكا بالعرائش، سنة 1942، ثم صدر بعد ذلك ضمن سلسلة ذخائر العرب عن دار المعارف المصرية سنة 1966، وهو يقع في 146 صفحة، وقد أدرجنا هذا الكتاب ضمن كتب تاريخ الأدب، وعيا منا بأن عملية الانتخاب والاختيار هي ممارسة ينهض بها مؤرخو الأدب في الغالب كما

---

(7) - السلام، اعداد 1933 - 1934.

(8) - أدب الفقهاء، ص3.

(9) - أمراؤنا الشعراء، ص5.

سنوضح لاحقا، كما أن الأستاذ كنون نفسه كان على وعي بهذه الحقيقة، حين أشار إلى أنه «لن يخدم الأدب المغربي بمثل وضع مجموعات منتخبة من آثار أعلامه بين أيدي الباحثين الشباب» (10). كما يقول في مكان آخر، بعد أن أوضح طريقته في الاختيار والترتيب : «إننا ما قصدنا نشر الديوان! ومن أراده فعليه به ليرى ما يفيد منه» (11).

8 - مقالات ببليوغرافية :.

أ - أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر:

يقع هذا الكتاب في 105 صفحة من الحجم الكبير. وهو يدخل ضمن اهتمام الأستاذ كنون بالعمل البيبليوغرافي، وشعوره بالمكانة التي يشغلها بالنسبة للدرس الأدبي، وبالبحث في تاريخ الأدب، إذ بدون بيبليوغرافيا يستحيل إقامة دعائم الدراسة الأدبية كيفما كانت مناهجها .

ب - المخطوطات العربية في تطوان :

كتب هذا المقال في الأصل، لمجلة معهد المخطوطات، التابع للجامعة العربية، ونشر بها في العدد الثاني من السنة الأولى، ثم أعيد نشره في كتاب «خل وبقل» ، في 28 صفحة .

وسنحاول انطلاقا من هذه المؤلفات الوقوف عند مفهوم الأستاذ كنون لتاريخ الأدب، والخطوات التي سلكها في ذلك التاريخ، وذلك من خلال الفصول الآتية :

- التحقيب الأدبي.
- تراجم الأعلام.
- الانتخاب والاختيار.
- الببليوغرافيا.
- ملامح نقدية في تاريخ الاستاذ كنون للأداب.

---

(10) - المنتخب من شعر ابن زاكور. ص 7.

(11) - المرجع نفسه. ص 23.

الفصل الأول

التحقيب الأدبي

مظاهر التحقيب

حدود وآفاق نظرية التحقيب الأدبي

مظاهر المرونة المنهجية

التطور في تاريخ الأدب

التحقيب الأدبي

I - مظاهر التحقيب :

غلب تقسيم الأدب، إلى حقب ومراحل موازية للحقب السياسية على كتب تاريخ الأدب، فمنذ أن وضع أندري دوشيسن André Duchesne كتابه «تاريخ فرنسا الأدبي» (1) منتحيا فيه هذا المنهج، ومعظم المؤرخين يأخذون بطريقة التقسيم الزمني في أعمالهم الواحد بعد الآخر.

وقد سار الأستاذ كنون على هذا النهج في تاريخه للأدب المغربي، إذ نجده يقسم هذا التاريخ في كتاب النبوغ إلى الحقب الآتية :

- عصر الفتوح ، ويشمل دولة الأدارسة، كأول دولة عربية مستقلة في المغرب.
- عصر الموحدين.
- عصر المرابطين (2).
- عصر المرينيين .
- العصر السعدي .
- العصر العلوي .

أما الأدب المغربي الحديث، فقد خصه بمؤلف مستقل، هو أحاديث عن الادب المغربي الحديث والذي يعتبر حلقة مكملة لكتاب النبوغ. ونجده يسير على النهج نفسه في كتابه أمراؤنا الشعراء، الذي جمع فيه شعر أمراء الدول المتعاقبة على المغرب كلها بدون تخصيص، والفرق بين هذا الكتاب والكتب السابقة، هو أنه اقتصر فيه على الشعراء الأمراء دون غيرهم من الناس، وقد وقف عند شعر بعض أمراء الدول الآتية :

---

(1) - HISTOIRE DE L'HISTOIRE DE LA LITTERATURE. ENCYCLOPEDIE DE LA PLEIADE. T. III. P 1778 - 1779.

(2) - فصل الاستاذ كنون في الطبعة الثانية من كتاب النبوغ، العصر المرابطي عن العصر الموحدي بعد أن كانا عصرا واحدا في الطبعة الاولى للكتاب.

- الدولة الادريسية .
- دولتا زناتة ولمتونة .
- دولة الموحدين .
- الدولة المرينية .
- الدولة السعدية .
- الدولة العلوية .

ونجد عنصر التحقيب حاضرا في كتاب آخر هو أدب الفقهاء، «فقد اقترن ميلاد هذا الأدب بميلاد الاسلام» (3) ومن ثم كان هذا هو المنطلق الذي بدأ منه الاستاذ كنون التاريخ لهذا الأدب، لكنه لم يلبث أن وقف عند العصر العباسي، منتقلا إلى نهج آخر في الدراسة وجده أنسب لما هو بصدده .

نجد هذا العنصر يحضر أخيرا في أصغر المقالات التي كتبها في تاريخ الأدب، والتي كان يهدف من ورائها إلى إعطاء تصور شامل وسريع، عن الأدب المغربي أو الاندلسي. وهذا ما نجده في مقال تحت عنوان الشعر الاندلسي في كتاب "خل وبقل". وإذا كان العصر هو الوحدة الزمنية التي يقيس بها في كتبه السابقة ما هو سياسي وما هو أدبي، فإن "القرن" في هذا المقال، هو الوسيلة التي مكنته من إعطائنا نظرة موجزة عن الشعر الأندلسي وأهم رجالاته يقول في هذا الصدد : «... فلما دخل القرن الرابع، دخلت الأندلس معه في عصرها الذهبي... وقد أظل هذا العصر كبار شعراء الاندلس من مثل أبي القاسم بن هانئ، وابن دراج القسطلي، والرمادي، وناهيك بهؤلاء الثلاثة... وإذا تخطينا عتبة القرن الرابع إلى الخامس، عصر ملوك الطوائف، وجدنا أن هيبة الخلافة الأموية، وعزة سلطانها، وإن زالا معا، فإن مجدها الأدبي بقي متمثلا في عدة عواصم ... إلخ» (4).

هكذا يحل القرن في هذا المقال محل العصر. ويمكن أن ندرج الملاحظات الآتية حول هذه الطريقة في التحقيب، والتي سيطرت على أغلب مؤلفاته في تاريخ الأدب :

---

(3) - ادب الفقهاء. ص 18.

(4) - خل وبقل. ص 28 - 29 - 30 - 31.

1 - لقد اتبع المؤلف في معالجته للعصور الأدبية - خصوصا في كتاب النبوغ - طريقة تكاد تكون واحدة، إذ نجده يمهد عادة للعصر الأدبي بفرش تاريخي مركز، يهدف من ورائه، إلى إعطاء القارئ صورة عن التاريخ السياسي لهذا العصر، وأهم الأحداث التي عرفها، والحكام الذين كان لهم تأثير في صنع هذه الأحداث، ثم ينتقل بعد هذا إلى الحديث عن الحركة العلمية، وإعطاء تراجم لبعض العلماء، وجرد للكتب المؤلفة في هذا العصر، مرتبة حسب موضوعاتها، ويختم بذكر الحياة الأدبية، وتراجم بعض الأدباء. ونشير إلى أن هذه المنهجية عرفت بعض المرونة من عصر إلى آخر، بحكم الاختلاف الحتمي بين هذه العصور، فكما أن التاريخ السياسي لا يعيد نفسه، بالتفاصيل نفسها، فكذلك التاريخ الأدبي، والثقافي على العموم.

2 - إن عناية المؤلف بعصور الأدب، تتفاوت من عصر إلى آخر، وهذا شيء طبيعي، ما دام التاريخ السياسي والأدبي متفاوتا في الواقع، وما دامت عملية الانتخاب والاختيار هي المسلك الوحيد الذي يمكن المؤرخ من تقديم مادته إلى القارئ، وهي عملية تحكمها عدة ضوابط على رأسها الذوق. فمؤرخ الأدب يجد نفسه أمام ركام من الأحداث والوقائع السياسية والأدبية، عليه أن ينتقي منها ما يخدم موضوعه، وأن ينبذ ما دون ذلك، وعملية الاختيار والنبذ هذه، يصعب أن تمر في موضوعية تامة، بل كثيرا ما تشي بموقفه مما يؤرخ له. انطلاقا من هذه الاعتبارات، نجد الأستاذ گنون يخصص 76 صفحة للعصر الموحدي، يليه العصر المريني بـ : 56 صفحة، وقد كان محقا في هذا الاهتمام الذي أولاه لهذين العصرين، بالقياس إلى العصور الأخرى، فقد عرف الأدب المغربي فيهما نهضة لا مثيل لها، يليهما العصر العلوي بـ : 50 صفحة، فالعصر المرابطي بـ : 42 صفحة فالعصر السعدي بـ : 34 صفحة، فعصر الفتوح بـ : 18 صفحة.

ونلاحظ الموقف الذاتي الذي ألمعنا إليه، في وقوف الاستاذ گنون طويلا عند بعض العصور، التي تحتاج بعض قضاياها الأدبية أو السياسية إلى تجلية حقائق، أو تفنيد ادعاءات، إن في مثل هذا التفاوت بين العصور دلالة على أن المؤلف ينظر إلى عصور الأدب المغربي نظرة لا تخلو من ذاتية. لكننا سنجانب الصواب إن نحن وقفنا عند هذا المستوى من التفسير لهذا التفاوت، فلوفرة المصادر والوثائق، أو قلتها وندرتها، دور حاسم في كتابة التاريخ «إذ بفقدان

الوثائق صار تاريخ عصور متطاولة من ماضي الانسانية مجهولا أبدا، إذ لا بديل عن الوثائق، وحيث لا وثائق فلا تاريخ» (5).

وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لتاريخ الأدب المغربي، فقد بقيت عصور أدبية مغمورة أو كالمغمورة، لانعدام الوثائق عنها، وسندرك هذه الحقيقة أكثر، إذا ما قارنا بين طبعات الكتاب الثلاثة، وهي طبعات تفصل بينها مدد زمنية طويلة، فقد ظهرت الطبعة الأولى للنبوغ سنة 1938، والطبعة الثانية سنة 1961؛ بينما ظهرت الطبعة الثالثة والأخيرة سنة 1975، وهذه الفترة الزمنية الطويلة التي تفصل بين الطبعة الأولى والأخيرة، كفيلة بأن تحمل الجديد إلى ميدان التاريخ الأدبي، فقد ظهرت وثائق جديدة كانت مفقودة أو في حكم المفقودة، كما حققت نصوص جديدة، وقد حدا هذا بالمؤلف إلى أن يعيد تحرير بعض الفصول من كتابه، وأن يوسع بعض العصور بعد أن توافرت المادة عنها، بل أن يفصل بين بعض العصور المتداخلة لانعدام المادة عنها، يقول عن هذا التعديل :

«فنحن لقلة المعلومات التي كانت عندنا عن العصر المرابطي، أو لضعف استعدادنا في استخراج هذه المعلومات من تضاعيف الكتب والمراجع العامة، كنا أدمجنا هذا العصر في العصر الموحدي، والآن وقد توافرت لدينا معلومات قيمة عن المرابطين وعهدهم، فصلنا عصرهم عن عصر الموحدين» (6).

ومن النتائج التي ترتبت عن تقسيم الأدب إلى عصور موازية للعصور السياسية، هذا التطابق الذي نجده بين الأدب والسياسة في كتب تاريخ الأدب التي سلكت هذا السبيل. وفي كتاب النبوغ للاستاذ گنون يطالعنا هذا التطابق منذ البداية حين يقول : «هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم، والأدب، والسياسة». (7) كما يطالعنا أيضا في تلك المقدمات التاريخية، التي أصبحت ضرورية كمدخل لفهم الإنتاج الثقافي في كل عصر، وقد حرص المؤلف فيها، على بيان الصلة التي تربط الساسة، والأمراء، والحكام بالثقافة والفكر، وذلك بذكر مساهمتهم الفعلية في الإنتاج الأدبي، وتشجيعاتهم وعنايتهم بالثقافة

---

(5) - سيتيوبوس ولانگلوا : النقد التاريخي. ترجمة : عبد الرحمن بدوي. ص 6.

(6) - النبوغ. ط 3. ص 18.

(7) - المرجع نفسه. ط 3. ص 37.

وأهلها. فقد أصبح الأدب تابعا للسياسة، فهو قوي إذا قوي السلطان، ضعيف إذا ضعف، «فالمرابطون لم يكونوا أقل برا بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء، وليس أدل على نفي ما يتهمهم به خصومهم في مجافاة الأدب، وعدم الاهتمام به، من هذه الرعاية الكريمة، التي أولاها أمراؤهم، لعلية الأدباء من كتاب وشعراء» (8). ثم يسترسل في الدفاع عن المرابطين، ضد من يتهمهم بالبداوة والجهل، محاولا الربط بين نهضة السياسة والأدب في عهدهم.

أما الموحدون، فتجلت عنايتهم بالأدب، في شخص أحد أمرائهم وهو عبد المومن، الذي أكرم أهل الأدب، ورفع من مكانتهم :

«ففي كل احتفال عيد وغيره، وفي جميع المظاهر العادية وخلافها، والمقابلات الرسمية، والمواقف العامة، كان يجلس إلى الشعراء، وما أكثرهم في دولته، فمن أندلسيين إلى مغاربة إلى أفارقة» (9).

بل نجد المؤلف، يعزو ازدهار بعض الفنون إلى اهتمام ذوي السلطان بها : «فتقريب الموحدين للوشاحين، واحتفالهم بهذا الفن من القول، فيه تشجيع لهم، وتنشيط» (10) أما المرينيون «فقد ساروا في إقامة مراسم الخلافة على سنن لا حب، فكانوا يعقدون المجالس للمناظرة، والمحاضرة، ويطارحون الأدباء، ويحاورون الشعراء. أما العلماء، فلا تسل عن شدة تقريبهم لهم، واختصاصهم بهم» (11).

ويسترسل المؤلف على هذا النهج الذي اختطه لنفسه، أثناء تمهيده لكل عصر أدبي، مما يوحي لنا بأن الأدب تابع للسياسة، متأثر أشد الأثر بها. وقد بلغت عنايته بهذا الربط بين الأدب والسياسة، أن خصص كتابا مستقلا، في تاريخ الأدب، للأمراء الشعراء في الدول المتعاقبة التي حكمت المغرب، فلم يكتف هؤلاء الأمراء بتشجيع الأدباء، والإكثار من صلاتهم، بل إن منهم من قال الشعر وأخذ منه بنصيب، ويحدد أهمية هذا الكتاب قائلا : «وأعظم فائدة متوخاة من

---

(8) - المرجع نفسه. ط 3. ص 86.

(9) - المرجع نفسه. ط 3. ص 120.

(10) - المرجع نفسه. ط 3. ص 138.

(11) - المرجع نفسه. ط 3. ص 195.

عمل هذا المجموع، أن يرى فيه من لازال لم يره جانبا من الانتاج المغربي الخصب الصادر عن طبقة من أبعد الناس عن الكتابة والشعر، وصناعة القلم على العموم، لانشغالها بمهام الرياسة، وهي طبقة الامراء. فلعله بذلك يسلم بما لأبناء هذا القطر السعيد من النبوغ والعبقرية.» (12).

II - حدود وآفاق نظرية التحقيب الادبي

من بين العوائق التي حالت دون قيام تاريخ أدبي، يستمد خصوصيته وفرادته من الادب نفسه، حسب تعبير ريني ويليك «رأي مجحف مفاده أن من غير الممكن وضع *تاريخ الادب*، إلا من خلال تفسير سببي، مستقى من فعالية إنسانية أخرى » (13). إن هذه *الفعالية* بدون شك هي السياسة، فقد عزا لها مؤرخو الادب العربي على طريقة العصور، تقدم الادب وتدهوره، واستحالت في آخر المطاف، إلى بؤرة تمتص كل الفعاليات الاخرى، وتجعلها متأثرة لا مؤثرة، ومنفعلة لا فاعلة.

لقد تبنى مؤرخو الادب المراحل السياسية، دون طرح أي سؤال حول مدى صلاحيتها للأدب كمتوالية نوعية، يستمد خصوصيته من ذاته ومن تسلسل نصوصه، وتأثير بعضها في البعض الآخر. وكان من نتائج هذه التبعية بين الأدب والسياسة، أن أصبحنا أمام *خليط من اللواصق السياسية*، التي يصعب الاتفاق حولها. وحتى نخرج من هذا الارتباك الذي سببه فرط ثقتنا بالتاريخ والسياسة، ينصحنا ريني ويليك بأن «علينا نحن كمؤرخي أدب، أن نلتفت الى أفكار الكتاب أنفسهم ومفهوماتهم، *الى برامجهم* وأسمائهم، وبذلك نقنع بقبول تقسيماتهم ... ينبغي ألا يقنع تاريخ الادب، بأن يقبل مخططا تم التوصل اليه على أساس مواد متعددة، ذات أهداف مختلفة في الذهن، يجب ألا نتصور الادب على أنه مجرد انعكاس سلبي، أو نسخة من التقدم السياسي والاجتماعي، أو حتى الفكري للجنس البشري. وبناء على ذلك، فان المراحل الادبية يجب أن تقام على معايير أدبية ...» (14).

إن هذا النص القيم لريني ويليك، يوضح لنا أن مشكلة التحقيب الادبي

---

(12) - امراؤنا الشعراء. ص 5 - 6.

(13) - نظرية الادب. ص 335.

(14) - المرجع نفسه. ص 348 - 349.

مشكلة طرحت بإلحاح في جميع تواريخ الادب، مما جعلها تصبح موضوع سؤال لدى الباحثين والنقاد.

وعلى الرغم من أن الاستاذ كنون ارتضى هذه الطريقة المدرسية نهجا في الدراسة، فانه كان على وعي بحدودها، وبالامكانات التي تقدمها للدراسة الادبية. ومن ثم فقد وضعها موضع سؤال في أكثر من مقام، وخفف من تحجرها، ولطف من سورتها، عندما كان يطعمها بمناهج أخرى للدراسة الادبية، بين الفينة والاخرى.

ففي الطبعة الاولى من كتاب النبوغ، يطالعنا بكلام يشير فيه الى أن للحركات السياسية أثرا في تكوين الاوساط الادبية والعلمية، ولكن هذا الاثر ليس حاسما، فهو محدود كسائر الفعاليات الاخرى التي تؤثر في الادب، يقول: «لاريب أن للحركات السياسية أثر في تكوين الاوساط الادبية والعلمية، إنما هذا الاثر محدود، ومحدودة مناطقه، فلا يصح اعتباره وحده كوسيلة لهذا التكوين، وإنما هو من جملة الاسباب ومختلف العوامل التي تؤثر تأثيرا عاما» (15).

وقد أدى هذا التصور للعلاقة بين الادب والسياسة بالاستاذ كنون إلى أن يدمج بعض العصور الادبية في بعضها، يقول: «ولذلك فنحن لم نختص كل دولة بعصر، وأدمجنا دولة في دولة، مثلما فعلنا في دولة الادارسة، وبني العافية، ومغراوة، وبني يفرن وغيرها ... وكونا منها جميعا عصرا واحدا، أطلقنا عليه «عصر الفتوح» كذلك أدمجنا الدولة اللمتونية ها هنا في الموحدين... وندمج الوطاسيين في المرينيين، ونكون منهما عصر المرينيين، لهذه النكتة الدقيقة التي يغفل عنها كثير من الكتاب، ومؤرخي الادب، فيجعلون الحركات العلمية والادبية كوليدة للانقلابات الدولية والاتجاهات السياسية، وهو كما علمت غلط مني به كثير من المؤلفين القدماء والجدد» (16).

ورغم أن هذا النص قد حذفه من الطبعات الاخرى للكتاب، لانتفاء دواعي وجوده، إذ نجده يفصل في هذه الطبعات بين العصرين المرابطي والموحدي،

---

(15) - النبوغ. ط 1. ص 30.

(16) - المرجع نفسه. ط 1. ص 30.

لتوافر المادة عنهما، فإنه لا يفقد أهميته ككلام مبكر عن وعي المؤلف بمنهجه وحدود هذا المنهج. ولا يمكن أن نعتبر هذا الحذف تراجعا منه عن هذا الرأي بدليل تأكيده في سياق آخر على محدودية تأثير السياسة في الادب.

ففي مقالة تحت عنوان "النقد والقومية العربية" يناقش قضية تقسيم الادب إلى عصور قائلا : «فالسياسة لا تؤثر هذا التأثير البليغ في تكييف المذاهب الادبية، وهي بالفعل لم تؤثر في أدب هذه العصور بما يجعله يتمايز حتى يستقل عصر عن عصر»(17).

وقبل الوقوف على المواطن التي خرج فيها الاستاذ عبد الله كنون عن سلطة هذه النظرية المدرسية، سنسوق جملة من الملاحظات تبين القصور الذي تعرفه، والحاجة الماسة إلى نظرية أكثر إجرائية:

1 – أشرنا سلفا، إلى أن هذه النظرية عن طريق تبنيها لمفهوم التحقيب السياسي، تربط الادب إلى مركب السياسة، وتجعله ذيلا لها، ينهض إذا نهضت، ويكبو إذا كبت، بل إنها بالغت في تمجيد هذا العامل السياسي، وجعلته محور الدراسة، ونفت كل ما دونه من عوامل لا يمكن أن تفهم الظاهرة الادبية الفهم المصيب إلا عند أخذها بعين الاعتبار، وقد جرت هذه المطابقة بين الادب والسياسة على الادب آفات لا تحصى، منها أنها تجعلنا نأخذ سلفا ببعض الآراء العامة، فنحكم بضعف الادب وانحطاطه، انطلاقا من ضعف السياسة أو انحطاطها، ومن البراهين التي يمكن أن تقوم حجة على فساد هذه التبعية، أن تاريخ المغرب عرف فترات حاسمة اتسمت بالاضطراب الداخلي والخارجي، وانعدام الاستقرار السياسي، لكن كل هذا لم يمنع من ازدهار الثقافة والادب ونفاق سوقهما. بل إن الاضطراب الذي عرفته بعض العصور، استحال إلى حافز على تفتق القرائح، وتأجج ملكات الابداع، يقول الاستاذ محمد بن شقرون عن عصر بني مرين : «ألم تكن هذه الحروب والفتن والاضطرابات السياسية، والاضطهادات الدينية، خليقة بتحريك العواطف وإيقاظ الشعور، وخلق ردود فعل نفسية خاصة، واجتماعية تؤثر في الميدان الادبي وتتأثر به ؟ ألم يكن سببا لفتح أبواب المغرب على مصراعيها، لاستقبال عناصر أجنبية لها ثقافتها الخاصة، ولها دينها، ألم تكن فرصة لاتصال أهل المغرب الاقصى، بأهل المغرب الاوسط

---

(17) – خل وبقل. ص 151.

والادنى، والشرق العربي على العموم»(18) وقد نبغ بالفعل في هذا العصر علماء يعتبرون مفخرة للمغرب كابن آجروم، وابن ابي زرع، وابن بطوطة، وابن رشيد، هذا بالاضافة الى العلماء الوافدين الذين استظلوا بظل الدولة، وأبدعوا أشهر مصنفاتهم تحت رايتها، كابن الخطيب، وابن خلدون، وابن مرزوق.

2 - مما ترتب عن هذه التبعية، أن أصبح الأدب منفعلا بالسياسة متأثرا بها، ومن ثم بقي التأثير أحادي الجانب في الغالب الاعم. بينما العلاقة بين الممارسة الادبية والممارسة السياسية، علاقة جدلية، تنهض على الصراع المتبادل، وعلى التأثير والتأثر. وإذا كان هذا المأخذ ينسحب على أغلب من ارتضوا الطريقة المدرسية نهجا في الدراسة، فان الاستاذ عبد الله گنون فطن في أكثر من مقام إلى هذه العلاقة الجدلية. فلم تكن السياسة هي الطرف المؤثر والفاعل في الادب بل كثيرا ما تتأثر هي أيضا بدورها، وتنصاع لسلطة الفكر والادب.

وإذا سبق لنا أن استشهدنا بكتاب :"أمراؤنا الشعراء" كبرهان، على أن ذوي السلطان من الحكام المغاربة، لم يعيشوا في برجهم العاجي، بعيدا عما تعج به الساحة الادبية من أحداث، بل شاركوا في هذه الحركة الادبية، بإبداعاتهم، وتشجيعاتهم، فان هؤلاء الامراء -أو بتعبير أقرب الى الصواب- هؤلاء الساسة، تأثروا هم أيضا بدورهم بما يجري حولهم، وانصهروا في واقعهم الثقافي والفكري، فتمت بذلك الجدلية بين الممارسة الادبية والممارسة السياسية، وكان من نتائج هذا، أن أصبح لدينا أمراء شعراء، لا تكاد تخلو منهم دولة من الدول المتعاقبة على حكم المغرب، كما كان من نتائجه أيضا أن فطن الساسة لفعالية الادب، وقيمته الحضارية، فشجعوا أهله، وأحلوهم المحل اللائق بهم. ولعل العصر السعدي من بين العصور الادبية التي عرفت هذه الجدلية بين الادب والسياسة «فما جاءت أيام المنصور الذهبي، حتى عاد لدولة الادب سالف مجدها، وسابق عزها، فصرنا نرى أفواج الشعراء تموج في بلاط ذلك السلطان، وبلغاء الكتاب يغص بهم ديوانه، وعدنا نشهد مساجلة السلطان لاهل مجلسه ومطارحته إياهم اللطائف الادبية»(19).

وهذا ما يؤكده ابن القاضي، حين يقول عن المنصور الذهبي : «ومخدومنا أيده الله أبر الناس والامراء بأهل العلم، فقد استخلصهم لنفسه، وجمعهم من

---

(18) - محمد بن شقرون : مظاهر الثقافة المغربية. ص 47.

(19) - النبوغ. ط 3. ص 271.

أقطار مملكته، لمخاطبته وأنسه، فإذا سمع بمن له منزلة في العلم أقدمه الى حضرته العلية، وإمامته العلوية»(20).

3 - من المعضلات الاساسية، التي ترتبت عن التأليف في تاريخ الادب، على طريقة العصور السياسية، الانفصال والقطيعة التي تصادفنا بين هذه العصور، والهوة التي يشعر بها القارئ، وهو يطوي مرحلة تاريخية وثقافية، لينتقل الى أخرى. وإذا كانت القطيعة الإپستمولوجية حتى في مجال العلوم البحثة لا تعني الانفصال التام، بقدر ما تعني الاحتواء والشمولية .(21) فاننا أيضا في مجال العلوم الانسانية لا يمكن أن نفصل فصلا قارا بين مرحلة وأخرى، فأحداث التاريخ تتداخل تداخلا معقدا، يمهد بعضها للبعض الآخر ويرهص بحدوثه، وكذلك الوقائع الادبية : «وهكذا فان أقسام التاريخ السياسي بالمفهوم الذي حدده مؤرخو الادب للسياسة، لا تصلح أقساما لتاريخ الادب، فالادب لا يعرف في تاريخه تلك الانقلابات المفاجئة التي تحدث أحيانا في التاريخ السياسي»(22).

ومن المجافاة للحقيقة أن ندعي أن مؤرخي الادب كانوا يجهلون هذه الحقيقة، فلا شك أن اختيارهم المنهجي جاء عن قناعة راسخة، وعن تصور خاص للادب، وعلاقته بالتاريخ، لكن اليسر المنهجي الذي تمنحه هذه الطريقة في دراسة الادب، كان وراء هذا الاختيار، إذ كيف السبيل للحديث عن أدب يمتد في الزمان قرونا متطاولة، وربما قد يمتد في المكان أصقاعا متباعدة ؟

انطلاقا من هذه الاعتبارات السالفة، نجد أنه من الصعب تكوين أحكام عامة عن أدب عصر معين، دون أن نأخذ بعين الاعتبار أدب العصور السابقة التي مهدت له، إذ لا يمكن أن نقف على العوامل الفاعلة في إبداع مرحلة ما، دون النظر في ما سبقها، مهما بالغنا في التشبث بروح العصر، وإذا صح لنا أن ندعي أن هناك أدبا مرابطيا، وآخر سعديا، فان الاول لم يبدأ مع تولي يوسف بن تاشفين الحكم، واستتباب أمور الدولة له، كما أن الثاني لم ينته مع الصراع على

---

(20) - أحمد بن القاضي : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور. تحقيق : محمد رزوق. ص 146.

(21) - محمد وقيدي : فلسفة المعرفة عند گاستون باشلار. ص 136.

(22) - حسين الواد : في تاريخ الادب، مفاهيم ومناهج. ص 97.

العرش بين أبناء المنصور الذهبي، فالظاهرة الادبية تعرف امتدادات وجذورا في الماضي، كما تشكل استشرافا وإرهاصا بالمستقبل.

ولعل من نتائج هذا الفصل القار بين العصور، أن بقي مؤرخو الادب في حيرة من أمرهم، أمام بعض الادباء الذين عاشوا في المرحلة الانتقالية بين عصر وآخر، هل هم من أدباء العصر الذي انقضى، أم أنهم من أدباء العصر الجديد ؟ وهل يمكن أن نتحدث عن خضرمة جديدة بين عصر وآخر ؟ فمالك بن المرحل، من الشعراء الذين عاشوا في المرحلة الانتقالية بين الدولة الموحدية، والدولة المرينية، نجد الاستاذ عبد الله گنون يؤرخ له في العصر المريني (23). بينما يؤرخ له الاستاذ محمد بن تاويت ضمن العصر الموحدي(24).

4 - وقفت النظرية المدرسية عند عموم المؤرخين للادب العربي عند القمم الشامخة في كل عصر، تلك القمم التي يزعم أنها تمثل روح العصر، وتعكس التحولات التي عرفها، فأغلب المترجم لهم من الفحول المشهورين، ويحدد الاستاذ عبد الله گنون مفهومه للشهرة بقوله : «وواضح أن الشهرة التي نريد هي شهرة المرء في عصره بالصفة التي ميزته عن غيره، لا شهرته عندنا، فقد يكون الشخص غير معروف عندنا بالمرة ونذكره، وبالعكس، قد يكون مشهورا لدينا، ولا يستحق الذكر هنا، لتخلف الموازين في عصرنا عنها في العصور السابقة»(25)، كما أن من هؤلاء من عاش في كنف ذوي السلطان، واشتغل في السلك السياسي أو القضائي. وبهذا الموقف فان النظرية المدرسية فوتت على نفسها فرصة التأريخ للمقلين، والمغمورين من الادباء، الذين يعيشون على هامش الاحداث والمجتمع، ليس عن اختيار دائما، بل ربما عن موقف من هذه الاحداث وهذا المجتمع. ومن ثم فان التاريخ لهذه الفئة، التي لا تدور في فلك السلطان، قد يكون أجدى في التعرف على كثير من القضايا الغامضة، والمستغلقة في تاريخنا الادبي، وحتى عندما يقف المؤرخ عند أديب ينتمي الى الدرك الاسفل من المجتمع، فلا يتم ذلك في الغالب إلا انطلاقا من قصيدة أو مقطوعة لها علاقة بالفوق السياسي. «لقد كان التاريخ الأكاديمي للأدب يفضل

(23) - النبوغ. ط 3. ص 235.

(24) - الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى. ص 338.

(25) - عبد العزيز الفشتالي : ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 8.

أن يبقى مقصورا على الدراسة البيوغرافية والسيكولوجية لكتاب معزولين، ولم يكونوا بالطبع سوى الكبار» (26).

وبالاضافة إلى تجاهل المقلين، -أو بتعبير أقرب الى الحقيقة، انعدام التقصي عن أخبارهم- نجد تجاهلا لادب العوام، والحكايات الشعبية، فقد استحوذ الشعر على اهتمام هؤلاء المؤرخين، وشغلهم عما سواه، وهذا الاهتمام بالشعر، وببعض فنون النثر، يتأطر ضمن الاهتمام بالادب الرسمي، والثقافة الرسمية، التي من غاياتها معاودة الإنتاج الثقافي والفكري.

إن هذا النقد، لا ينطبق على الأستاذ گنون، إلا في حالات جزئية، - رغم أنه انتهج هذه الطريقة المدرسية - فقد أرخ في كتابه النبوغ لأدب العوام إلى جانب أدب الطبقات الراقية، كالملوك والأمراء ومن لف لفهم، كما أشار إلى اهتمام السلاطين بهذه الفنون الشعبية، يقول في هذا الصدد : «فتقريب الموحدين للوشاحين، واحتفالهم بهذا الفن من القول، فيه تشجيع لهم، وتنشيط، إذ الناس على دين ملوكهم كما يقولون» (27). بل إن هؤلاء العامة شاركوا غيرهم في النهضة (28) التي عرفها الأدب المغربي في بعض عصوره، فطوروا فنونا شعرية، كالزجل، والموشح، ووسعوا موضوعاتها. ومن مظاهر هذا الاهتمام بأدب العامة، أن وجدنا الاستاذ عبد الله گنون يدرج منتخبات، ومختارات، لأشهر الزجالين والوشاحين المغاربة، في القسم الثالث من كتاب النبوغ، وبهذا يخرج عن العادة التي درج عليها بعض أصحاب التراجم والطبقات، في عدم إدراج هذه الفنون الشعرية ضمن مصنفاتهم، إلى جانب الفنون الأخرى، ونجد اهتمامه بالأدب الشعبي أخيرا في تقريظ (29) قيم له حول كتاب الزجل في الاندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني، والذي صحح فيه بعض الأخطاء التي وقع فيها هذا الاخير.

---

(26) - بوريس اخنباوم : نظرية المنهج الشكلي. ص 61.

(27) - النبوغ. ط 3. ص 138.

(28) - انظر الصفحة : ص 82

(29) - خل وبقل. ص 151.

III- مظاهر المرونة المنهجية

لئن هيمنت النظرية المدرسية، التي تقيس العصور الأدبية على العصور السياسية في كتاب النبوغ، فإن الأستاذ كنون استطاع أن يحد من سطوتها، ويفلت من عقالها، في باقي مؤلفاته حول تاريخ الأدب. وذلك بانتهاجه سبلا أخرى للدراسة، رأى أنها أنسب وأجدى ، خصوصا عندما يتناول بالتأريخ، ظواهر وقضايا محددة في الزمان والمكان، ومحصورة في الموضوع، كما هو الشأن في أدب الفقهاء، وأحاديث عن الأدب المغربي. فقد اقتضت منه مادة هذه الكتب أن يتصف بالمرونة المنهجية، وألا يبقى أسير توجه منهجي واحد.

أ - أدب الفقهاء :

وكتاب أدب الفقهاء يعتبر إرهاصا بهذا التحول المنهجي، ذلك أنه مزج فيه بين النظرية المدرسية، ونظرية الفنون، فقد تناول في القسم الاول مادة كتابه حسب الزمن والأشخاص، وتحول في القسم الثاني من الكتاب إلى طريقة أخرى في التناول، عرض فيها لموضوعات هذا الأدب وفنونه. يقول عن هذه القسمة المنهجية : «وقد قسمته قسمين، قسما تناولت فيه مادته، وعناصره الاولى، بحسب الزمن والأشخاص، وقسما تعرضت فيه لموضوعاته وأغراضه، على سبيل البسط والتعريف» (30) ويقول في بداية القسم الثاني، مضيفا مزيدا من التوضيح لهذه التعددية التي عرفها منهج الكتاب : « وهكذا نكون قد قدمنا أدب الفقهاء مرتين، قدمناه لمن يعنى بالناحية التاريخية في تراجم أعلامه مرتبة بحسب السنين، ونقدمه لمن يعنى بالناحية الموضوعية، في فصول وأبواب تنتظم الأغراض والفنون التي تناولها الفقهاء في شعرهم» (31) وكأن الأستاذ كنون قد استشعر قصور إحدى الطريقتين بمفردها عن الوفاء بالمطلوب .

ولا شك أن طبيعة المادة هي التي فرضت على المؤلف هذا التوجه الجديد، فنظرية العصور الأدبية التي انتهجها في النبوغ، كانت هي الأنسب لإعطاء صورة شمولية وعامة، عن أدب يمتد في الزمان قرونا متطاولة، عرفت تحولات سياسية كثيرة، بينما استدعت طبيعة موضوع أدب الفقهاء نهجا آخر في الدراسة.

---

(30) - أدب الفقهاء. ص 3.

(31) - المرجع نفسه. ص 88.

مكنت هذه الطريقة الجديدة، المؤلف من الإحاطة بأدب الفقهاء في مختلف الأغراض والفنون التي عرفها، وهي الآتية : شعر العاطفة والوجدان، الشعر الفلسفي، الأخلاق والآداب، المدح، الهجاء، الرثاء، شعر السير والملاحم، فنون شتى، النظم التعليمي. ونحب أن نسجل جملة ملاحظات، على هامش هذه الطريقة :

1 – مكنت هذه الطريقة من الدراسة المؤلف من مزيد من الاستقصاء والاستقراء، وبالتالي مزيدا من التحكم في الظاهرة موضوع الدرس، فهذا الحصر لموضوع أدب الفقهاء، يتيح لنا تتبع مظاهر التطور والتجديد التي اعترت أغراضه عبر الزمن. كما يمكننا من وضع اليد على الخصوصية والفرادة التي تميز بها هذا الأدب. وقد سعى الاستاذ گنون في أكثر من مقام إلى توضيح هذه الخصوصية، فالغزل والنسيب يتميز عند الفقهاء بالتحفظ الذي يقتضيه وقار العلم، وهذا ما جعله يطلق عليه اسم شعر العاطفة والوجدان، حتى ينبه إلى فرادته، يقول عن هذا الشعر :

«ويدخل فيه الغزل والنسيب، وإنما لم نعبر بهما لأنهما في شعر الفقهاء يتميزان غالبا بشيء من التحفظ الذي يقتضيه وقار العلم، وهو تحفظ كثيرا ما بعث أصحابنا الفقهاء على اصطناع الأساليب الرمزية، والاهتمام بالصفات المعنوية» (32).

ومن مظاهر هذه الخصوصية أن فخر الفقهاء يسير على وتيرة غير التي يسير عليها فخر الشعراء الآخرين، الذي يتميز بالادعاء الفارغ والتطاول الذي لا حد له «في حين أن فخر العلماء، ينحو منحى تهذيبيا، ويمثل الاعتزاز بالعلم والهمة العالية والخلق الكريم، ولذلك أدخلناه في الشعر الحكمي، ولم نجعله بابا مستقلا، كما هو في شعر الشعراء غير الفقهاء» (33).

ولا تنحصر خصوصية هذا الشعر في المعاني فحسب، بل تظهر في الصور الشعرية والأخيلة أيضا : «فمن لطائف أدبهم، أوصاف وصور يبرزون فيها المعقول بهيئة المحسوس، ويبسطون فيها المركب حتى يزايله الغموض، وذلك نتيجة لتعودهم على الدرس وتوضيح المسائل».

---

(32) – المرجع نفسه. ص 89.

(33) – المرجع نفسه. ص 121.

نخلص مما سلف إلى أن طريقة الأغراض والفنون في تاريخ الأدب، تضع مؤرخ الأدب في تخوم النقد، وتدفعه إلى الموازنة والمقارنة والبحث عن الخصوصيات فيتحول إلى ناقد فيما هو مؤرخ للأدب (34).

2 - جعلتنا هذه الطريقة على صلة بالنصوص التي كتبها الفقهاء في مختلف الأغراض، فنحن أمام تاريخ للأغراض والفنون أو بالأحرى نحن أمام تاريخ للنصوص، ولا تخفى قيمة تاريخ كهذا، فهو يتيح لنا فرصة الموازنة بين هذه النصوص، كما يوقفنا على مظاهر التأثر والتأثير بينها، وينبهنا إلي مظاهر الأصالة والتقليد فيها .

3 - مكنت هذه الطريقة المؤلف من الجمع بين العاملين الزماني والمكاني، وبذلك جمع بين النظرية المدرسية والنظرية الاقليمية، ففي سياق حديثه عن أغراض شعر الفقهاء، يورد نصوصا لشعراء ينتمون إلى أقطار إسلامية متباعدة، لا يجمع بينهم إلا أنهم قالوا في الغرض نفسه، وهذا يجعلنا نضع اليد على أثر البيئة والإقليم في شعر هذا الشاعر أو ذاك، فعندما نتصفح القصائد والمقطوعات التي أوردها في غرض الهجاء مثلا، نجدُ أنها لشعراء من الاندلس والمغرب ومصر، كالشافعي، ومنذر بن سعيد، واليوسي (35).

وقد نبه الاستاذ كنون إلى هذا المزج بين العاملين الزماني والمكاني الذي تتيحه نظرية الفنون للدارس حين قال : «تلك وجوه ومعالم من أدب الفقهاء، روعي فيها الناحية التاريخية والجغرافية وتنوع الاختصاص في أصحاب هذا الادب.... ونحن نشعر أننا قد اختصرنا الكلام اختصارا شديدا فيما يقتضيه العرض التاريخي، والتقسيم الجغرافي لملامح هذا الأدب والتعريف برجاله، ولكننا مع ذلك، قد قاربنا ما يلتزمه مؤرخو الأدب العربي على العموم، في الوقوف عند نهاية العصر العباسي في عملية التأريخ، وإفراد الأدب المغربي والاندلسي بالذكر، مراعاة لأصحاب النظرية الإقليمية في الادب، الذين يقولون بتأثير العامل الجغرافي في الأعمال الأدبية» (36).

---

(34) - انظر الفصل الخامس من هذا الباب.

(35) - أدب الفقهاء. ص 164.

(36) - المرجع نفسه. ص 87.

ب - أحاديث عن الأدب المغربي الحديث :

أما الكتاب الثاني الذي امتاز بهذه المرونة المنهجية، فهو أحاديث عن الأدب المغربي، وهذا الكتاب يعتبر الحلقة المكملة لما بدأه الأستاذ عبد الله كنون في النبوغ، إذ أرخ فيه للأدب المغربي الحديث .

ومن مظاهر الطرافة المنهجية في هذا المؤلف، استعمال الأستاذ كنون لمفهوم الجيل، فمفهوم العصر لم يعد صالحا للتعبير عن التحول الذي عرفته هذه الفترة من التاريخ الثقافي للمغرب. إذ ارتبط هذا التحول الذي أصاب الأشكال والمضامين الأدبية، بمجموعة من المثقفين المتقاربين في السن، والذين وحدت بينهم الأحداث التاريخية المصيرية، كالظهير البربري، يقول الأستاذ عبد الله كنون : «سواء كان الجيل حصة من الزمن، أو طائفة من الناس، فإننا بعد سنة 1930، أصبحنا نواجه جيلا جديدا» (37) وقد خص هذا الجيل بالقسم الأكبر من الكتاب، متتبعا الحصاد الأدبي الذي أرساه، والذي يتميز بالجدة والحداثة، يقول : «وبتصفح هذه الآثار وتصنيفها، نجد الحصاد الأدبي لهذا الجيل أصبح من الغنى والتنوع، بحيث يمكن القول إنه استتم العناصر الأولية للأدب الحي، وأنه اشتق الطريق للحاق بقافلة البعث الأدبي في العالم العربي» (38).

إن استعمال الأستاذ كنون لمفهوم "الجيل" (39) جاء عن وعي بحدود وقيمة هذا المفهوم الإجرائية، فقد كان الأنسب لهذه الفئة الاجتماعية من المثقفين المغاربة، التي ظهرت بعد سنة 1930، والتي جعلتها الأحداث السياسية، تتكتل حول نفسها، وتكون رؤيا منسجمة للوجود والعالم، تجلت في المواقف السياسية الموحدة من الاستعمار ومن الظهير البربري، وظهرت في الثقافة، في هذه الرغبة في التجديد وارتياد أصقاع جديدة من الإبداع. فالتحول الذي عرفه الأدب المغربي مع بداية العصر الحديث، لم يكن في الحقيقة، إلا من صنع هذا الجيل الجديد، الذي ساهمت عوامل كثيرة في نضجه سياسيا وثقافيا .

---

(37) - أحاديث عن الادب المغربي، ص 81.

(38) - المرجع نفسه، ص 86.

(39) - أخذ بمنهج التقسيم الى أجيال، البير تيبودي في كتابه : تاريخ الادب الفرنسي من 1887 الى أيامنا، باريس 1936. ووضع هنري بير كتابا بعنوان : les Générations Littéraires أنظر :

Encyclopédie de la pleiade. T. III. P 1808 - 1809.

أما المظهر الثاني لهذه المرونة المنهجية، فهو ما نجده في هذا الكتاب من حديث حول الاتجاهات الجديدة في الشعر والنثر، فطريقة تناول المادة الأدبية تغيرت عما كانت عليه في النبوغ، فبعد أن كانت تراجم العلماء والأدباء واللوائح البيبليوغرافية لإنتاجهم، هي أهم خطوات التاريخ الأدبي، نجد الأستاذ كنون هنا يؤرخ لهذه الفترة انطلاقا من الفنون النثرية والشعرية المستجدة. لقد فرض هذا التحول النوعي والكيفي للأدب والثقافة على المؤلف توجها جديدا في الدراسة، وجده هو الأنسب لتوضيح معالم هذا التغير، وملامح هذا التحول .

يقول عن هذا المنهج : «وقد آثرت أن أدرس الأدب – أو أقدمه على الأصح – في آثار أعلامه، بدلا من أن أدرس الأدباء في آثارهم، لذلك فأنا لم أذكر من الاسماء، إلا ما اقتضاه الموضوع، أو تطلبه الشاهد، ولو ذهبت أقدم الأدباء بشخصياتهم، لما وفيت بواحد منهم، ولطال الأمر جدا، من غير أن يمكنني الإلمام بعدد محدود منهم، فهذه الطريقة التي جعلتني أتصرف بحسب الموضوعات المدروسة، لا بحسب الأسماء المقدمة، لم تدع لي اختيارا في الأدباء الذين أذكرهم» (40).

ج – نختم الحديث عن هذه المرونة المنهجية التي لمسناها في تاريخ الأستاذ كنون للادب بالاشارة إلى نظرية أخرى أفاد منها حيث وجبت الإفادة، وهي النظرية الإقليمية، فرغم أنه من المناهضين (41) لهذا التوجه في الدراسة الأدبية، فإنه على مستوى البحث الموضوعي لم يجد غضاضة في الإشارة إلى أثر الإقليم والبيئة في أدب ما، حين يكون هذا الأثر واضحا في هذا الأدب ومن معالم خصوصيته، كالأدب الأندلسي. يقول مميزا هذا الأدب عن باقي آداب الاقطار العربية : «فإن الاقليم في الشرق ولو في العراق، غيره في الغرب ، ولا سيما الاندلس، والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلظة، ولينا وشدة، ما في ذلك شك، وقد كان شعراء العراق كغيرهم يخرجون إلى البادية... فلزمتهم هذه البداوة، وظهر أثرها في شعرهم. وأين هي هذه البادية من شعراء الاندلس، الذين ولدوا في بحبوحة الحضارة، ونشأوا في غضارة الترف، فولد الشعر معهم، ونشأ حضريا مترفا» (42).

(40) – احاديث عن الادب المغربي. ص 15.

(41) – خل وبقل "الشعر الاندلسي". ص 23 - 24.

(42) – انظر في هذا الصدد : مقالة له بعنوان : النقد والقومية العربية في كتاب "خل وبقل" ص 148.
ومقالة أخرى بعنوان : انور الجندي مؤرخ الادب العربي. في : مجلة المجمع العلمي العربي. ج 2. ابريل 1963. ص 337.

غير أن انتهاج الأستاذ گنون لهذه النظرية الاقليمية، بقي جزئيا ومحدودا بالقياس إلى نظرية العصور أو نظرية الفنون. فالظروف السياسية، والوعي الوحدوي الذي عرفه العالم العربي في سنوات الستين من هذا القرن، والذي ضرب فيه الأستاذ گنون بأكثر من بسهم، حد من سطوة هذا التوجه في الدراسة الأدبية. ولعل الضجة التي قامت حول كتاب أمين الخولي «إلى الأدب المصري» خير دليل على عدم صلاحية هذا المنهج، خصوصا عندما يفرغ من جوانبه الإيجابية ويشحن بالايولوجيا .

هكذا نخلص إلى أن الأستاذ عبد الله گنون، لم يبق حبيس توجه منهجي واحد، فقد كان يصدر في تاريخه للأدب عن أكثر من منهج. وقد كانت المادة الأدبية، والوعي بالتحول الذي عرفته هذه المادة في الزمان، هو الموجه له في دراسته، وهو الذي يملي عليه المفاهيم والتصورات المنهجية الجديدة.

IV- التطور في تاريخ الأدب

يعتبر مفهوم التطور من المفاهيم الهامة، التي تطرح على المؤرخ، سواء أكان مؤرخا للأدب أم مؤرخا للسياسة والأفكار، وقد سيطر هذا المفهوم على الدراسات الأدبية منذ أقدم العصور، ففي كتاب فن الشعر لارسطو، نجد حديثا مفصلا عن التطور الذي لحق التراجيديا والكوميديا، وفي الفكر الهيجلي نجد تصورا مغايرا للتطور، حلت فيه الجدلية محل الاستمرارية، وفي فرنسا كان تين، وبرونتيير، من النقاد الأوائل الذين اهتموا بقضية التطور في تاريخ الأدب، وقد تعلم تين من هيگل : «أن ينظر إلى الحقب التاريخية كلحظات، وأن يبحث عن العلل الداخلية، وعن التغير الداخلي، وعن صيرورة الأشياء التي لا تتوقف» (43). غير أن تين لا يفكر في التطور باعتباره تطورا أدبيا منفصلا أبدا، لأن الأدب عنده جزء من مسيرة التاريخ العامة التي ينظر إليها كوحدة منظمة، أما برونتيير فقد كون تصورا خاصا للتطور، انطلاقا من نظرية النشوء والارتقاء، فتاريخ الأدب في رأيه شبيه بتاريخ الكائنات البشرية، فالأنواع الأدبية تولد، وتنمو، وتشيخ، ثم تموت. وتعرف الصراع والتحول، والاصطفاء الطبيعي، شأن الكائنات الحية . وسواء حصل التطور في التاريخ عن طريق الاستمرارية أم الجدلية، عن طريق الطفرة أم القطيعة، فإن من مهام

(43) – ريني ويليك : مفاهيم نقدية. ص 34.

مؤرخ الأدب كباقي المؤرخين، أن يحدد لنا معالم هذا التطور، وأن يستجلي ملامحه، ويرصد لحظاته.

لكن الملاحظ هو أن أغلب تواريخ الأدب العربي - خصوصا التي سلكت طريقة التحقيب - لا تكاد تشير إلى هذه الظاهرة، إما عن جهل بوجودها، أو أن هذا المنهج لا يسعف على استجلاء التطور الذي يعتري الأدب كمتوالية نوعية، بالمقارنة مع مناهج أخرى في الدراسة كنظرية الفنون الأدبية «التي ستتيح لنا تتبع الفنون الأدبية مع الزمن، ودورانها مع العصور، وستنتقل بنا عبر الماضي، فتتناول فنا من فنون الأدب، أو ظاهرة من ظواهره منذ نشأتها الأولى، ثم تمضي بها في مراحلها المختلفة، فتلمح رقيها وانحطاطها، وتبين عن مراحل تطورها التي مرت بها» .(44)

لقد كان من نتائج هذا التغييب لمفهوم التطور في بعض تواريخ الأدب، أن أصبحنا نجد أنفسنا أمام تاريخ للادباء وليس للأدب، أمام حلقات بيوغرافية لا صلة بينها، تتخللها بين الحين والآخر، بعض المنتخبات والمختارات، وفي أقصى الحالات، يصادفنا نقد انطباعي، لإنتاج أديب معزول عن باقي الإنتاجات الأخرى، وكل ما يجمع بين هذه الدراسات البيوغرافية، وتلك النقدات العابرة،هو ذلك الخيط الرفيع، الذي اصطلح عليه بالعصور الأدبية، بل إن هذه العصور الأدبية نفسها، لا تعرف الاتصال الوثيق فيما بينها، ولا يسلمنا بعضها للبعض الآخر، فكثيرا ما نصادف برزخا يفصل عصرا عن عصر، سياسيا وأدبيا، ويمنعنا بالتالي من متابعة التطور الذي قد يعتور الظاهرة الأدبية. إن هذا الارتباط اللامشروط بين الأدب والسياسة، وهذا التصور اللاتاريخي للادب، كان وراء غياب مفهوم التطور عن بعض تواريخ الأدب، لقد أدى هذا الوضع إلى أن غدت «معظم تواريخ الأدب إما تواريخ اجتماعية، أو تواريخ للأفكار كما تتوضح في الأدب، أو أنها انطباعات وأحكام على أعمال معينة، رتبت حسب نظام التسلسل الزمني» (45).

إن من المهام التي على تاريخ أدبي حقيقي أن ينهض بها، هي أن يستجلي مظاهر التطور والتغير والتقدم، في أدب مرحلة من المراحل، أن يوضح

---

(44) - شكري فيصل : مناهج الدراسة الادبية. ص 75.

(45) - ريني ويليك : نظرية الادب. ص 333.

الصلات والعلاقات بين الأدباء، حتى نتبين ملامح الأصالة والجدة، ومظاهر التأثر والتأثير، أن يتتبع القيم الفنية في رحلتها عبر الزمن، ومن خلال النصوص والاعمال الأدبية، «وإن ثبتا عشوائيا بالأعمال الموجودة لا يكفي، بل لا بد من سلسلة هرمية تصاعدية» (46) تمكننا من معاينة التغير، الذي يلحق القيم الأدبية. إن الموضوع الحقيقي لتاريخ الأدب هو «التغيرية " variabilité" أما دراسة النشأة التي يعتبرها الكثيرون موضوعا لتاريخ الأدب، فإننا نبعدها عن حقلنا، ونلحقها بحقول يظهر لنا أنها أكثر اهتماما بها، وهي علم النفس، وسوسيولوجيا الإبداع» (47).

ويمكن أن نتساءل على هامش هذه الملاحظات، حول مفهوم التطور ومكانته في تاريخ الأدب، هل كان الأستاذ عبد الله كنون على وعي بهذا المفهوم، أثناء كتابته لتاريخ الأدب المغربي ؟ ما هي مظاهر هذا الوعي إن وجد ؟

من مظاهر التطور الذي لحق الأدب المغربي عبر العصور، ذلك الحديث الذي يصادفنا بين الحين والآخر عن النهضة، والعصور الذهبية، وقد عودنا الاستاذ كنون على هذا الحديث مع بداية كل عصر أدبي . ومن الأسباب التي يعزو لها هذه النهضة، والتي وقف عندها طويلا، تشجيعات السلاطين للثقافة، ومشاركتهم الفعلية فيها و«النفس على الأندلسيين الذين كانوا قد طلعوا في سماء الأدب بدورا ساطعة، ونجوما لامعة، وكانوا يغلبون أهل البلاد من المغاربة عند المفاخرة ويطاولونهم حين المنافرة» (48).

ولم يكن صرح هذه النهضة دائما من تشييد السلاطين، ومن آووا إلى كنفهم من الأدباء والعلماء، بل شارك فيها السوقة والعوام أحيانا، يقول عن الحياة الأدبية في العصر المريني : «وفوق ذلك فإن الوسط الأدبي في المغرب، لم يبلغ من الرقي، في عصر من العصور، ما بلغ في هذا العصر. فقد اشترك في تكوينه جميع الطبقات، من الملوك، فمن دونهم إلى السوقة، أما الملوك فقد علمت أن أكثر سلاطين بني مرين كانوا من أهل العلم والمعرفة، والمشاركة في فنون الأدب، وبالطبع فإن وزراءهم وحجابهم، فضلا عن كتابهم وقضاتهم، كانوا

---

(46) - ريني ويليك : مفاهيم نقدية. ص 40.

(47) - T. TODOROV : L'HISTOIRE DE LA LITTERATURE. IN : LANGUE FRANÇAISE N° 7, SEPTEMBRE 1970. P 14.

(48) - النبوغ. ط 3. ص 173.

كذلك... ولا يخفى أن في هذا العصر، استفحل ذلك الشعر العامي، الذي يتحدث عنه ابن خلدون في المقدمة، وهو من نظم عوام المغاربة، فيكون من الدلائل القاطعة على تمام استعرابهم، وبالتالي على رقي الوسط الأدبي عندهم» (49).

أما المرأة فقد ساهمت هي بدورها في أسباب هذه النهضة، «ولعل قائلا يقول : ما نصيب المرأة في هذه النهضة الشاملة الكاملة، وهي التي اذا عدمت مشاركتها في عمل ما، يعتبر غير كامل ولا شامل، والجواب أن المرأة المغربية، كانت دائما عنصرا فعالا في تطور البلاد وتقدمها وازدهارها » (50).

وقد خملت هذه المشاركة للمرأة في أسباب النهضة، وسبل التطور، الاستاذ كنون، على أن يخصص لها حديثا في كل عصر أدبي، يذكر فيه مساهمتها العلمية والأدبية.

إن رحلتنا مع المؤلف عبر العصور الأدبية التي أرخ لها، يجعلنا نقف أمام جرد هائل من تراجم الأدباء، والعلماء، ومؤلفاتهم، وانتاجهم العلمي والأدبي، وهذا الوضع يجعلنا نقف عن كثب، على التطور الكمي الذي عرفته الثقافة في هذه العصور. بل إن العبارات والألفاظ التي يستعملها، تفصح في أغلبها عن هذا التطور الكمي من مثل : الرواج، الانتشار، نفاق سوق الأدب، الرقي، الكمال، التضخم، النماء، الازدهار، النبوغ، الانتعاش، يقول في هذا الصدد عن العلوم الأدبية في العصر الموحدي : «أما في هذا العصر، فقد اتسعت دائرة انتشارها، وتخلفت لدينا بعض الآثار التي تدل على أن هناك نهضة حقيقية، تتدرج بهذه العلوم في مدارج التطور والتقدم تماما كما وقع في العلوم الدينية وغيرها » .(51).

ويضرب المثل على هذا التطور ببعض الفنون المستحدثة التي مستها سنة التطور كالزجل، يقول : «فهذه مدرسة جديدة للزجل، نشأت بالمغرب، وعملت على تطوره شكلا ومضمونا، من حيث وضعت له اسما جديدا، وهو عروض

---

(49) - المرجع نفسه. ص 233.

(50) - المرجع نفسه. ص 153.

(51) المرجع نفسه. ص 135.

البلد» (52) وقد تطور موضوع الزجل بالفعل، فأصبح يستوعب أهم الأغراض الشعرية كالحماسة، والحرب، والمدح، والوصف، والوصايا، والحكم، بعد أن كان قاصرا أو يكاد على الحب والخمر والطبيعة.

بل أكثر من هذا، تصادفنا عبارات تفيد التحول الذي عرفته هذه النهضة في فترة من فتراتها. ومن ثم لم يتورع المؤلف من استعمال عبارة كالنشوء والارتقاء، للإفصاح عن هذه الحقيقة، يقول عن علوم الأدب في العصر المريني : «وإنها جارت سنة النشوء والارتقاء، فبلغت إلى قمة المجد والكمال، وكان هذا عصرها الذهبي في المغرب» (53).

لكن الاستاذ گنون، يعود ليشكك في قانون النشوء والارتقاء هذا، فالعلوم والآداب تعرف فترات توقف، وتعطل، ونكوص، والتطور لا يسير دائما، في خط تصاعدي من البسيط إلى المعقد، ومن التخلف إلى التقدم. يقول عن الحركة العلمية في العصر السعدي : «لو صح ناموس النشوء والارتقاء، وكان كل شيء في هذا الوجود مطردا مستمرا، يتصل أوله بآخره، وترتبط أطرافه بعضها ببعض، لكان للمعارف اليوم في بلاد المغرب شأن غير هذا الشأن، إذ قد رأيت ما كانت عليه من التقدم والانتشار في عصر المرينيين... ولا نقصد أنها، في هذا العصر تقصر عما كانت عليه في العصر السابق، أو تقل عنه شأنا، وإنما نتأسف للوقوف الذي اعتراها، في تلك الفترة التي كانت الدولة الوطاسية مسيطرة فيها على المغرب، والتي لم تذق البلاد فيها طعم السلم والراحة» (54).

إن هذه المؤشرات التي تصادفنا بين الفينة والأخرى، والتي تفصح في مجموعها عن حدوث نهضة فكرية، وعن حصول تراكم كمي من المعارف والعلوم من شأنها أن تدفعنا إلى التساؤل عن نتائج هذا التراكم الكمي، وإلى أي حد استطاع أن يبلور تحولا نوعيا وكيفيا ؟ وهل ساهم هذا الإنتاج الفكري الخصب في بلورة قيم ثقافية وفنية جديدة ؟ هل تطور الذوق الأدبي، هل بقيت القيم الفنية هي القيم نفسها المتوارثة عن الماضي ؟.

---

(52) - المرجع نفسه. ص 139.

(53) - المرجع نفسه. ص 205.

(54) - المرجع نفسه. ص 249.

إن القسم المخصص في كتاب النبوغ للحديث عن الحياة السياسية، والعلمية، والأدبية، لن يسعفنا في الإجابة عن هذه التساؤلات، بعد أن مكننا من الوقوف على مظاهر التراكم الكمي للثقافة والأدب. لقد كان من المفروض أن تجيبنا النصوص الإبداعية للأدباء والكتاب عن هذه التساؤلات، لكننا نجد المؤلف يخصص لها الجزءين الباقيين من الكتاب، ويعزلها عن الجزء الأول المتعلق بمظاهر النشاط العلمي والأدبي. وهذا الفصل المنهجي، حرمنا من الوقوف على مظاهر التجديد، والتحول، الذي عرفته هذه النصوص، في سياقها الزماني والتاريخي. لكن رغم هذه الملاحظة، فقد رتب الأستاذ كنون هذه النصوص حسب الأغراض، وحسب التسلسل الزمني، إذ إن قراءة متأنية لهذا الترتيب، ستوقفنا بدون شك على الصلات والعلاقات التي تجمع بينها، ومظاهر الجدة والأصالة فيها، وبالتالي يمكن أن نضع يدنا على التطور الفعلي إن كان هناك تطور حاصل. إن تاريخا حقيقيا للأدب يهدف الى استجلاء مكامن التطور، لن يكون في آخر المطاف، سوى تاريخ للنصوص «فإن من بين كل المؤثرات التي تؤثر في تاريخ أدب ما، فإن المؤثر الأساسي، هو أثر أعمال أدبية على أعمال أخرى» (55). كما يقول برونتيير.

(55) – نظرية المنهج الشكلي، ترجمة ابراهيم الخطيب، ص : 47.

الفصل الثاني

تراجم الأعلام

نسب الشخصية وموطنها

الصفات الذاتية والأخبار الشخصية

الصفات الفنية للشخصية

التراجم بين الطول والقصر

التحقيق في التراجم

تراجم الاعـلام

تعتبر التراجم، أكثر الأنواع الأدبية لصوقا بالتاريخ، بل يمكننا القول إن الحس التاريخي هو نفسه الدافع إلى كتابة تراجم الرجال، والاهتمام بأخبارهم، وملابسات حياتهم، وآثارهم ومخلفاتهم. فالترجمة إذن، تاريخ للرجال حسب منهج معين، وبدافع واضح أو خفي، بل إنها حسب تعبير روزنتال : «أثبت صور التعبير التاريخي» (1).

واهتمام المسلمين البالغ بالأفراد في كتب التراجم والطبقات والأخبار، جاء نتيجة تصورهم وفهمهم للتاريخ فقد «كانوا يعتقدون بأن السياسة كانت كلها من عمل الأشخاص، وأنها لا تفهم إلا على ضوء صفاتهم، وخبراتهم، وبذلك أصبح التاريخ في أذهان كثير من المسلمين مرادفا تقريبا للتراجم وسير الرجال» (2).

وتاريخ الأدب، كغيره من التواريخ الأخرى، اهتم بالرجال وما تركوه من مصنفات وآثار تدل على نبوغهم ونباهتهم، وتعكس ذواتهم، ومن خلالها واقعهم، وشكلت التراجم إحدى ركائزه الأساسية فقد «كانت الصورة الأولى من التاريخ الأدبي، - في رأي "ڤان تيكم" هي الترجمة (سانت بوف)، وإحصاء المؤلفات (لانسون وبديبه)» (3). ولئن كانت التراجم والبيبليوغرافيا، حسب هذا الرأي، هي الصور الأولى لهذا التاريخ، فإن تاريخ الأدب - حسب رأي ريني ويليك - لم يظهر كممارسة مستقلة، وقائمة بذاتها، «إلا عندما اتحدت الترجمة بالنقد. وتحت تأثير التاريخ السياسي، بدئ في استعمال الطريقة السردية في هذا التاريخ» (4) انطلاقا من هذا، فإنه يستحيل إقامة صرح التاريخ الأدبي بالتراجم وحدها، فلابد إلى جانبها من البيبليوغرافيا والنقد، ولابد أخيرا من طريق في سرد هذه المعطيات وترتيبها.

---

(1) - فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صلاح أحمد العلي، ص : 141.

(2) - المرجع نفسه. ص : 142.

(3) - سعيد علوش، اشكالية التيارات والتأثيرات في الوطن العربي، ص : 58.

(4) - ROBERT ESCARPIT, HISTOIRE DE L'HISTOIRE DE LA LITTERATURE ENÇYCLOPEDIE DE LA PLEIADE. T : III; P : 1769

وتعتبر تراجم الرجال، شعراء، وكتابا، وعلماء، أبرز عنصر من عناصر تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث، بل إن اهتمام مؤرخي هذا الأدب بالرجال والأعلام، يكاد يفوق اهتمامهم بالتاريخ السياسي، والتاريخ البيبليوغرافي .

وإذا ما تصفحنا ما كتبه الأستاذ عبد الله كنون، حول تاريخ الأدب، نصادف فيضا هائلا من تراجم الأدباء والعلماء، مما يدل على عناية الرجل بالترجمة واهتمامه بالتعريف بالرجال، حتى لا يطويهم الإهمال والنسيان. ويمكن أن نصنف هذه التراجم تبعا للسياق الذي وردت فيه، وانطلاقا من طريقة التناول فيها إلى ثلاثة أصناف :

أ - التراجم الأدبية الموجزة في ظل الدراسة الأدبية للعضر، كما هو الحال في كتاب النبوغ، وقد بلغت هذه التراجم 125 ترجمة، وهي موزعة على العصور الأدبية كالآتي :

1 - عصر الفتوح : 5 تراجم
2 - العصر المرابطي : 12 ترجمة.
3 - العصر الموحدي : 27 ترجمة.
4 - العصر المريني : 27 ترجمة.
5 - العصر السعدي : 24 ترجمة.
6 - العصر العلوي : 30 ترجمة.

ونجد شبيها بهذا النمط من التراجم، في كتاب أدب الفقهاء، فقد ترجم فيه لـ « 21 فقيها وعالما، إلا أن هذه التراجم اتسمت بالاختصار والإيجاز، إذ الغاية من الكتاب هي شعر الفقهاء بالدرجة الأولى .

ب - تراجم مستقلة، نشرها مسلسلة في حلقات تحت عنوان : ذكريات مشاهير رجال المغرب، وهي مكملة لتراجم النبوغ، وموسعة لبعضها (5)، وقد بلغت أربعين ترجمة. ترجم فيها لرجال الأدب والعلم، والساسة. وقد كانت شهرة هؤلاء هي معيار اختيارهم، وتخصيصهم بتراجم مستقلة، يقول عن هذا : «ولعل القارئ قد فهم أننا إنما ذكرنا في هذا الكتاب المشهورين من رجال المغرب، ولم نذكر كل من يستحق الذكر منهم، وحقا فإننا قد اقتصرنا على أشهر

---

(5) - انظر : عبد العزيز الفشتالي، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص « 6.

المشهورين... وواضح أن الشهرة التي نريد هي شهرة المرء، في عصره، بالصفة التي ميزته عن غيره، لا شهرته عندنا.» (6).

وقد كان الأستاذ كنون، ينوي إخراج هذه السلسلة في طبقات، إلا أنه عدل عن هذه الفكرة، يقول : «وقد كان في النية نشره على هذا المنوال (الأدباء - العلماء - الساسة) أجزاء ثلاثة، محتوية على الطبقات الثلاث، ولكن الصعوبة التي اصطدمنا بها مرارا، كلما حاولنا هذا الأمر، جعلتنا نقبل فكرة نشره في حلقات متسلسلة، كما اقترح علينا كثيرون» (7). ولعل هذه الصعوبة التي ذكرها، تكمن في طبيعة هذه الشخصيات المترجم لها، والمعرفة التي تحملها، إذ يصعب تصنيفها في طبقة معينة، وتحت اختصاص معرفي محدود، فأغلب هؤلاء من العلماء المشاركين، الذين أخذوا بحظ وافر من مختلف العلوم، من شعر، وفقه، وحديث، وتصوف، وكلام، وعلوم كونية، وتاريخ، ومن ثم فإن تصنيفهم تحت إطار معرفي ضيق، قد يؤدي إلى غمطهم حقهم، بالتركيز على الجانب الذي غلب على ثقافتهم.

ج - تراجم من نوع ثالث، نشرها في بعض المجلات المغربية كالسلام تحت اسم "شخصيات مغربية" وهي تقع دون تراجم الذكريات في القيمة والحجم (8) وهي قليلة العدد بالقياس إلى الأنماط التي تقدمت.

وسنحاول فيما يأتي أن نتعرف على المنهج الذي سلكه الأستاذ كنون، في الترجمة لشخصياته، والتعريف بها، وعلى مدى تماسك هذا المنهج وكفايته التفسيرية، وذلك انطلاقا من الخطة الآتية :

1 - نسب الشخصية وموطنها.
2 - الصفات الذاتية، والأخبار الشخصية.
3 - الصفات الفنية للشخصية.
4 - التراجم بين الطول والقصر.
5 - التحقيق في التراجم.

---

(6) - عبد العزيز الفشتالي، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 7 و 8.

(7) - المرجع نفسه. ص : 8 و 9.

(8) - المرجع نفسه. ص : 8.

1 - نسب الشخصية وموطنها :

أولى العرب منذ القديم الأنساب اهتماما خاصا، وحرصوا حرصا شديدا على ضبطها، وعدم اختلاطها، كما افتخروا وتباهوا بها. وصنفوا كتبا متخصصة فيها، من ذلك : «جمهرة أنساب العرب" لابن السائب الكلبي (ت 204 هـ) و"الانساب" للسمعاني (ت 562 هـ) وغيرهما كثير. وأفرد بعضهم فصولا لعلم الأنساب كابن عبد ربه في العقد الفريد، وابن رشيق في العمدة، كما أسهب أصحاب التراجم والطبقات، في الحديث عن أنساب الشخصيات التي ترجموا لها، حتى غدا ذلك تقليدا منهجيا ثابتا.

وعناية الأستاذ عبد الله گنون بالأنساب، لا تعود إلى ما كتبه في تراجم الرجال والنابغين من علماء المغرب وأدبائه فحسب، بل نجدها أيضا على مستوى التأليف والتحقيق، فقد حقق كتاب : «عجالة المبتدئ وفضالة المنتهي» (9) لأبي بكر محمد الحازمي الهمداني. وهو كتاب في أصول الأنساب العربية وتفرعاتها. كما ألف في هذا المجال أيضا كتابا بعنوان : «الجيش المجلب على المدهش المطرب» للرد على الفقيه العالم القاضي عبد الحفيظ الفاسي، الذي نال في كتابه "المدهش المطرب" من نسب آل گنون، وعرض بعدم انتمائهم الى النسب الشريف وإلى البيوتات العلمية التي نعتها. يقول الأستاذ گنون عن هذا الكتاب : «وبعد، فهذا تأليف دعوته "الجيش المجلب على المدهش المطرب" تأليف الفقيه، العالم القاضي، السيد عبد الحفيظ الفاسي... وقد ذكر فيه تراجم أشياخه، وما أخذ عنهم بالسماع أو الإجازة، ولكنه لم يجرده لهذه الغاية الشريفة كما يظهر لمتأمله، بل جعله وسيلة للإعلان عن نفسه، وذويه، وأهل وده، وذريعة للنيل من فضلاء أهل العلم ولمزهم والتقول عليهم بالحق والباطل، متظاهرا بسلامة النية، ونزاهة القصد، مستترا وراء النقد البريئ، ولو صح ذلك لطبق هذا الحكم على كل مترجم له، ممن له به قرابة، وفيه للكلام مجال رحب، وذيل سحب، وممن له عصبة وقوة، يعرفون كيف يجيبون على أقواله، ويذهب محالهم بمحاله، لكنه قصر ذلك على البعداء البغضاء لديه، ومنهم آل گنون الحسنيون، الذين يعرف أن ليس لهم ناصر من دولة ولا سلطان، ولا اعتزاز بجنرال ولا قبطان ...» (10).

دافع الأستاذ گنون، في هذا الكتاب عن نسبه الشريف، وبرهن بالحجج

(9) - عجالة المبتدي وفضالة المنتهي، تحقيق عبد الله گنون 1964.

(10) - الجيش المجلب على المدهش المطرب، نسخة مرقونة، ص : 1.

الدامغة، وبأسلوب الجدل والمحاجة، على تهافت ادعاءات عبد الحفيظ الفاسي، كما أبان من جهة أخرى، على رسوخ قدمه في معرفة أنساب الشرفاء المغاربة والمؤلفات التي تضمنت حديثا عنهم.

وقد حرص في أنساب تراجمه، على رفع نسب الشخصية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، تبعا لأهمية هذا النسب، ولمكانة الشخصية، الأدبية أو العلمية، كما حرص من جانب آخر على ذكر موطنها الأصلي

أ - نسب الشخصية :

تتفاوت أنساب الشخصيات من حيث الطول، تبعا لمكانتها العلمية وأهمية نسبها، ففي الشخصيات التي تنتمي إلى أصل شريف، نجده يستقصي عن نسبها، ويرفعه إلى أعلى جد، ويطيل إطالة واضحة بالقياس إلى الشخصيات العادية، فقد رفع نسب عبد السلام بن مشيش الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، يقول في ذلك : «هو الشيخ العارف الكامل، أبو محمد، عبد السلام، بن مشيش، بن أبي بكر، بن علي، بن حرمة، بن عيسى، بن سلام، بن المزوار، بن حيدرة، بن ادريس، بن ادريس، بن عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط، بن علي، بن أبي طالب» (11). والشيء نفسه، فعله في ترجمته لأبي القاسم الشريف السبتي، يقول عنه : «هو محمد، بن أحمد، بن محمد، بن عبد الله بن محمد، بن محمد، بن محمد، بن علي، بن موسى، بن إبراهيم، بن محمد، بن ناصر، بن خبوز، بن القاسم، بن الحسن، بن علي، بن أبي طالب رضي الله عنه» (12).

وشمل هذه الاستقصاء في النسب أيضا، بعض الشخصيات المشهورة بعلمها وأدبها، والمتميزة بذلك عن غيرها، كمالك بن المرحل الشاعر المشهور، وابن رشيد المحدث والأديب اللغوي، يقول عن نسب هذا الأخير : «أبو عبد الله، محمد بن عمر، بن محمد، بن عمر، بن محمد، بن ادريس بن سعيد، بن مسعود، بن حسن، بن محمد، بن عمر، بن رشيد، الفهري السبتي، الخطيب، المحدث» (13).

---

(11) - النبوغ، ط 3، ص : 160.

(12) - أبو القاسم الشريف، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 10.

(13) - ابن رشيد، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 5.

أما غالبية الشخصيات، فقد اختصر في أنسابها، إذ لا يكاد يتجاوز في أقصى الحالات الجد الثالث، لانعدام دواعي الإطالة، وحتى لا يثقل على القارئ.

هكذا نخلص إلى أن شرف المحتد، ومكانة الشخصية الأدبية أو العلمية، تعتبران على رأس الضوابط، التي تحكم الإطالة أو الإيجاز في سلسلة النسب. هذا بالإضافة الى توافر المصادر عن الشخصية المترجم لها، أو انعدامها.

ولا يفوت الأستاذ كنون، في سياق حديثه عن نسب الشخصية، أن يشير أحيانا إلى أصلها العربي أو البربري، فابن البناء أزدي (14)، وكذلك عثمان بن الملجوم (15)، وعثمان السلاجي قيسي (16)، وعبد الملك المراكشي أنصاري أوسي (17). أما إذا كانت الشخصية ترتد الى أصول بربرية فإنه يشير إلى ذلك، وهذا دليل منه على استعراب البربر، ونبوغهم في لغة الضاد، شأن إخوانهم العرب، فابن الياسمين بربري (18)، وكذلك أبو موسى الجزولي، وأبو علي اليوسي، وابن آجروم.

وقد درج في تراجم هؤلاء الأعلام، على شرح بعض الألفاظ البربرية في أنسابهم، توضيحا منه لهذه الأنساب، وتعميما للفائدة. يقول مثلا عن ابن آجروم: «عرف بآجروم، وهي كلمة بربرية، معناها الفقير الصوفي ... ولا يزال الشلوح يستعملونها بهذا المعنى، أو ما يقترب منه، لكن بلفظ أكرام، وعلى كل حال، فهي لقب تشريف عندهم، وتقوم مقام السيد في العربية» (19).

ولا يقف عند اسم المترجم، بل يتجاوزه الى بعض أجداده، كما هو الحال في ترجمة أبي موسى الجزولي: «فاسم جده الأدنى يلبخت بفتح الياء وتشديد اللام، وهو مركب من يلا والبخت، ويلا في لغة أهل سوس بمعنى له، أو عنده، فهو يعني صاحب البخت،... وذكر ابن عبد الملك اسم أمه أيضا وهو "تيلمان"

---

(14) - النبوغ، ط 3، ص: 223.

(15) - المرجع نفسه، ص: 97.

(16) - المرجع نفسه، ص: 158.

(17) - المرجع نفسه، ص: 216.

(18) - ابن الياسمين، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص: 9.

(19) - ابن آجروم، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص: 9.

بتشديد اللام، بنت "تيفاوت"، ويقول أن "تين" بمعنى صاحبة، فركبت مع الأمان وسميت بها، وأن تيفارت معناها الضياء...» (20).

وهذا التفصيل دليل منه، على الاهتمام بشخصياته، والاستقصاء لأخبارها، ومعاني أسمائها.

ب - موطن الشخصية :

حرص الأستاذ كنون على ذكر الموطن الأصلي للشخصية، بل كثيرا ما يكون عنوان الترجمة مقترنا ببلد المترجم، كما هو الحال في التراجم الآتية : ابن زنباع الطنجي، عبد الجليل القصري، ابن عبدون المكناسي، ابن حبوس الفاسي، عبد الواحد المراكشي. وقد سار على هذه السنة في عدد كبير من تراجمه، وذلك لسببين رئيسيين، أولهما : اشتهار هؤلاء الأشخاص بنسبتهم إلى بلدانهم الأصلية، فعبد الجليل القصري «من أهل القصر الكبير، وبالنسبة إليه اشتهر» (21). وأبو علي اليوسي «نسبة إلى آيت يوسي، قبيلة في عداد بربر ملوية» (22). وثانيهما، درء الاختلاط أو الوهم الذي قد ينشأ في المؤتلف من أسماء بعض الشخصيات كما هو الحال في "ابن عبدون" فهناك شاعر أندلسي بهذا الإسم، وآخر مغربي، ومن ثم فقد خصص المغربي بنسبته إلى بلدته مكناس، يقول في ترجمة هذا الأخير : «نحتاج إلى التنصيص على نسبة مترجمنا لبلده، تخلصا من الاشتراك الواقع في اسمه، إذ نرى أنه لا يكاد يتميز عن غيره ممن اشتهر بهذا الاسم، كابن عبدون الأندلسي... فلا بد من ذكر "مكناسة" مترجما بإزاء كنيته، فإنها هي المخصصة له من غيره» (23).

2 - الصفات الذاتية، والأخبار الشخصية :

دأب الأستاذ كنون في تراجمه، على ذكر الأخبار التي يمكن أن تجلي شخصياته، وتكشف عن السر في نبوغها وشهرتها، وفي هذا الإطار عرض لعدة أمور منها :

---

(20) - أبو موسى الجزولي، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 5 - 6.

(21) - النبوغ. ط 3، ص : 156.

(22) - المرجع نفسه. ص : 295.

(23) - ابن عبدون المكناسي، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 9 - 10.

أ - الأوصاف الجسدية، والنفسية، والعقلية، والديتية .
ب - الأخبار الشخصية، بما فيها المشيخة والرحلة .

أ - الأوصاف الجسدية، والنفسية، والعقلية، والدينية :

يذكر الأستاذ كنون الصفات البدنية، والجسدية، إذا كانت لها علاقة بإنتاج الشخصية، وحياتها العلمية، وكثيرا ما يستقي هذه الصفات من الإنتاج ذاته، عن طريق الاستنتاج والاستنباط، ففي ترجمته لابن بطوطة، يصفه بأنه كان متين البنية، وهذا الوصف يتلاءم مع ما عرف به الرجل من ترحال وارتياد للآفاق، يقول عنه : «ولعل عنصرا آخر ماديا، يكون ضروري الإضافة إلى هذه العناصر المعنوية، وهو متانة بنية الرجل، وشدة أسره، ولانعدم في الرحلة ما يدلنا على ذلك من المشاق والمتاعب، بل والمعارك المسلحة التي اشترك فيها، وواجهها بثبات وشجاعة» (24).

وفي ترجمته لأبي حفص الأغماتي، يستشهد بنص لابن سعيد يتحدث فيه عن بعض الصفات الشخصية لذلك الشاعر، مما انعكس على إنتاجه الشعري، فقد كان هذا الشاعر : «غاية من الظرف، إذا أقبل شمت رائحة الطيب منه على بعد، وإذا غسلت ثيابه، لا يكاد يفارقها» (25) هذا بالإضافة إلى وسامة وجهه، وقد أثار عليه هذا التأنق في الملبس والمسكن، حسد الحساد فاتهم بعدم المحافظة على الناموس الشرعي. وما يهمنا من هذه الأوصاف، هو أنها انعكست على إنتاجه الشعري، فقد أجاد الغزل، وتأنق فيه، فلم يكن بذلك : «بدعا في طبقته من الشعراء المترفين، فإنه يحفل بفنون البديع، من الجناس، والطباق والتلميع، وغيرها أعظم الحفل، ولكنه يتأنق في استعمالها أعظم التأنق كذلك، مما يجعلنا نصفه بالشاعر الأنيق» (26) .

هكذا يربط بين الصفات الجسدية والشخصية، والإنتاج، إيمانا منه بالعلاقة الجدلية بينهما، ولا يذكر هذه الصفات، إلا اذا كان لها أثر في الإنتاج.

---

(24) - ابن بطوطة، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 10.

(25) - أبو حفص بن عمر، مشاهير رجال المغرب، ص : 10.

(26) - المرجع نفسه. ص : 20.

أما الصفات النفسية التي عرض لها، فهي أيضا تساهم في إثراء الترجمة وتجليتها، وهي كثيرة عنده، منها حديثه عن مزاج الشخصية وسرعة بديهتها، وقوة حافظتها، وذكائها وألمعيتها. يقول عن مزاج ابن بطوطة «ومن أخلاقه الأصلية أنه كان سريع التأقلم، إنْ صح هذا التعبير، ونعني به التكيف بطبيعة الإقليم الذي يستقر به والاندماج في أهله» (27). ولا يكتفي بذكر هذا المزاج، بل يجتهد في تعليله وتفسير أسبابه يقول : «ولعل لبلده طنجة التي هي طريق رئيسي بين الشرق والغرب، وطبيعة أهلها المرحة المنشرحة دخلا في ذلك» (28). وهذا تعليل سيكولوجي مصيب.

وإذا كان لانشراح شخصية ابن بطوطة تأثير على إنتاجه كما سلف، فالانزواء والانطواء على الشخصية، قد أدى إلى خمول ذكر ابن زنباغ، فأغفل الناس ذكره، وقلت أخباره، يقول عن هذا الشاعر : «كان ذا أخلاق عالية، وصفات كريمة، يغلب عليه الحياء، وهو يستلزم التواضع والانزواء، ولعله بذلك لم يكن يخالط الناس كثيرا،فأغفلوا ذكره» (29).

أما الصفات العقلية، من ذكاء، وبديهة، وقوة حافظة، فكثيرة في حديثه عن الشخصيات، وكثيرا ما يعلل بها وفرة الإنتاج.فابن زاكور «كان ذا ملكة مطبوعة على الإنتاج، وحافظة قوية، حتى حكى القادري في "النشر" أنه كان يحفظ عدة تآليف...» (30)، وقد يذكر هذه الصفات للكشف عن جوانب شخصياته الواضحة في إنتاجها، فابن بطوطة كان ذكيا قوي الملاحظة، وقد مكنته هذه الخصلة، من تسجيل أشياء كثيرة ومتنوعة، اعترضت طريقه في رحلته، يقول عن هذا : «أضف إلى ذلك، ما كان عليه من شدة الملاحظة، وقوة الذاكرة، فلاجرم أن تمتاز رحلته، بكونها سجلا مهما، للحياة الاجتماعية، بل والسياسية، والاقتصادية» (31).

ومن الصفات التي تزخر بها هذه التراجم، بالإضافة إلى الصفات الجسمية،

---

(27) - ابن بطوطة، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 9.

(28) - المرجع نفسه، ص : 10.

(29) - ابن زنباغ، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 13.

(30) - ابن زاكور، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 12.

(31) - ابن بطوطة، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 10.

والعقلية، تلك المتعلقة بالدين، والعقيدة، والمذهب، وقد جاء هذا نتيجة لتأثير شخصية الأستاذ كنون كفقيه، ومصلح ديني، ولإيمانه بالدين والعقيدة وأثرهما في إنتاج العالم والأديب، فأغلب الشخصيات التي ترجم لها ضربت في الدين بسهم أو بأكثر، وفي هذا الإطار، أشار الأستاذ كنون إلى من سار على منهج السلف في العقيدة، وإلى من خرج عن هذا المنهج، كما أشار من جهة أخرى إلى المتصوفة والزهاد.

فمحمد كنون، يعتبر من رواد الاتجاه السلفي في المغرب، ومن المناهضين الأوائل للطرقية، ولأهل البدع في الدين. فهو «العالم السلفي، الفقيه الحافظ... مجدد القرن الثالث عشر...» (32).

من هذه الصفات كذلك، ما حكاه عن عثمان السلالجي، الشيخ المتكلم النظار، من أنه: «كان راسخ القدم في علم الاعتقاد، على مذهب الإمام الأشعري، وكان المغرب في أيام طلبه، لا يزال يعتنق مذهب السلف في العقيدة... ومن ثم قيل: إنه هو الذي انقذ أهل فاس من التجسيم أي من اتباع مذهب السلف، الذي كان الموحدون يسمون أتباعه مجسمين» (33).

أما المتصوفة والزهاد، فهم كثيرون في تراجمه، وقد درج على توقيرهم، وخلع عليهم ما يناسبهم من الصفات، فعبد السلام بن مشيش: «هو الشيخ العارف الكامل» (34). وأحمد زروق هو «الإمام الأشهر والعارف الأنور» (35).

وفي بعض التراجم، يكون سلوك الشخصية هو المنطلق الذي يستنتج منه عقيدتها ومذهبها، فأبو العباس السبتي، من كبار المتصوفة ومشاهيرهم، أخذ بمذهب غريب في الدين، إذ كان ينفق كل ما يملك على الفقراء والمحتاجين، ويخص الناس على عدم كنز الأموال، وكان يرى أن أهل الجمال من النساء، تجب النفقة عليهن مخافة فسادهن. انطلاقا من هذا السلوك في الحياة والمعاملة،

---

(32) - النبوغ، ط 3، ص: 307 - 308.

(33) - المرجع نفسه. ص: 158.

(34) - المرجع نفسه. ص: 160.

(35) - المرجع نفسه. ص: 217.

استنتج أن هذا الشخص : «هو أول أشتراكي وضع للاشتراكية مبادئ وقوانين كما ترى» (36).

ب - الاخبار الشخصية، بما فيها المشيخة والرحلة

يكاد الحديث عن شيوخ الشخصية يكون متواترا في كل التراجم، لما لذلك من علاقة وطيدة بالتكوين الثقافي والعلمي لهذه الشخصية. وقد تأثر الأستاذ كنون في حديثه هذا، بالفهارس والإجازات وبرامج العلماء، التي يذكر فيها مؤلفوها شيوخهم، وما أخذوه عنهم من علوم ومعارف. وإذا اشتغل المترجم له بالتدريس والإقراء، فإنه يشير إلى ذلك، ويذكر أسماء الآخذين عنه، والمتتلمذين عليه، وهذا الحديث عن الشيوخ والتلامذة الذي تزخر به هذه التراجم، يفيدنا في معرفة النظام التعليمي، والمواد المقررة والمراكز العلمية، كما يفيدنا من ناحية أخرى، في معرفة طرق التدريس التي كانت سائدة من محاضرة، ومناظرة، وسماع، وعرض.

وفي حديثه عن هذه المشيخة، تجده يقرن بين الشيوخ والكتب التي اشتهروا بتدريسها وإقرائها، يقول في هذا الصدد عن ابن البناء العددي : «درس ابن البناء أولا ببلده مراكش، فقرأ القرآن على أبي عبد الله محمد المراكشي، المعروف بابن مبشر، وتلاه بحرف نافع، من طريقتي ورش وقالون، على المقرئ الصالح المعروف بالأحدب... وقرأ على أبي إسحاق إبراهيم بن عبد السلام الصنهاجي المعروف بالعطار جميع كتاب سيبوية، وكراسة أبي موسى الجزولي، قراءة تفهم وتفقه، وحل لمشكلاتهما، وبحث عن غوامضهما... وأخذ علم العروض عن أبي بكر القالوشي... وقرأ الطب على الحكيم المعروف بالمريخ... وأخذ علم العدد على أبي عبد الله محمد بن علي، المعروف بابن حجلة...» (37).

وغالبا ما يأتي الحديث عن المشيخة، مقترنا برحلة الشخصية وارتيادها للآفاق في سبيل التحصيل، أو لأجل أداء فريضة الحج والمجاورة. وفي جميع الأحوال، فإن الرحلة تعتبر في نظره من أهم العوامل المكونة للشخصية، فهي

(36) - المرجع نفسه. ص : 159.

(37) - ابن البناء العددي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 6 - 7 - 8 - 9.

وسيلة لشحذ القرائح، وتفتيق المواهب، والتأثير والتأثر، كما أنها مؤشر على التواصل الثقافي، بين الغرب الإسلامي والشرق العربي، وبين المغرب والأندلس، من ذلك أن ابن زاكور : «رحل إلى تطوان، والجزائر، ومراكش، وأخذ عمن كان بها من أهل العلم،... ومما لا شك فيه أن هذه الرحلات، كانت من العوامل القوية في تكوين شخصية المترجم، وتكميل نفسه، بما لم يكن له، لو اقتصر على الأخذ ببلده، ولزم كسر بيته...» (38).

بل إن الرحلة غالبا ما تكون فرصة للمناظرة، وتبادل الرأي، والتأليف. فمن الكتب التي ألفت في ديار الغربة، والتي يرجع الفضل في تأليفها الى الرحلة، كتاب "المعجب" لعبد الواحد المراكشي، الذي ألفه في بغداد سنة 621 هـ، بطلب من أحد وزراء الخليفة العباسي الناصر لدين الله، (39). من ذلك أيضا، أن أبا الخطاب بن دحية، جاب بلاد الشرق، ودخل الشام والعراق وخرسان، وألف في أربل كتاب «التنوير في مولد السراج المنير» للملك مظفر الدين التركماني، لما وجده مولعا بالاحتفال بالمولد النبوي (40).

ولا يفوت الأستاذ كنون في أخباره عن الشخصيات، أن يذكر ما تقلبت فيه من وظائف حكومية، أو ما مارسته من حرف يدوية، إذا ما كان لذلك علاقة بنبوغ الشخصية، وتفتق عبقريتها، فمالك بن المرحل : «ربما احترف صناعة التوثيق ببلده، وولي القضاء، مرات بجهات غرناطة وغيرها، وكتب للامير أبي مالك بن السلطان يعقوب المنصور المريني، وربما لولده أيضا، ثم للسلطان يوسف بن يعقوب» (41).

والاستطراد إلى الأخبار الخاصة بالشاعر، لا يتم إلا إذا كان لذلك علاقة بتكوينه العلمي، وإنتاجه الأدبي، فأحمد زروق من مشاهير المتصوفة والزهاد، عاش يتيما ولما مات : «خلف نصف فرس، وكانت شركة مع الغير، وبرنسا أبيض، وجبة صوف، وثوبا آخر، وسبحة كانت لشيخه الحضرمي، وأربعة عشر سفرا، هذا هو تراث زروق المادي، فليخجل عند ذكره، كل شيخ يزعم التصوف،

(38) – ابن زاكور، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 7 – 8.

(39) – عبد الواحد المراكشي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 22.

(40) – النبوغ، ط 3، ص : 163.

(41) – مالك بن مرحل : ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 24 - 25.

وهو أغنى من قارون» . (42) وهذه الأخبار تتناسب مع ماعرف به المترجم له، من زهد وورع، بل إنها تعزز ذلك وتؤكده.

3 - الصفات الفنية للشخصية .

عرض الأستاذ كنون أثناء ترجمته لشخصياته، إلى صفاتها الفنية محاولا بذلك تمييزها عن غيرها، وبيان المنزلة الفنية التي تحتلها بين أشباهها ونظائرها، وكثيرا ما ترد هذه الصفات مختصرة في بداية الترجمة، كمفتاح لفهم الفن الأدبي الذي اشتهرت به الشخصية، فأبو العباس الجراوي : «هو الشاعر الخنذيذ والهجاء المقذع» (43). وابن عبد الملك المراكشي «هو الحافظ التاريخي النقاد» (44). وابن أبي زرع «هو المؤرخ الثقة» (45)، وابن البناء هو : «العلامة الفلكي والحاسب المشهور» (46)، وابن الطيب الشرقي هو : «الإمام اللغوي الشهير» (47). وقد يفصل هذه الصفات المجملة خصوصا في التراجم المستقلة، ويدعمها بالاختيارات والشواهد، فأبو حفص الأغماتي هو «الشاعر الأنيق» في مظهره وفي شعره، وتتجلى أناقة شعره، في احتفاله بالمحسنات اللفظية والمعنوية، وتأنقه في استعمالها مما جعله يتميز عن غيره في ذلك .

وفي أحيان كثيرة، تكون هذه الصفات الفنية مناسبة يوازن فيها المؤلف بين الشخصية وبين غيرها ممن اشتهر بذلك الفن الأدبي، أو الأسلوب في الأداء، فيشير في هذا السياق إلى مظاهر التواصل بين الشخصيات، وملامح الاحتذاء والتقليد. وبهذا تصبح الشخصية حلقة متصلة بغيرها في مجال الفن الواحد، في هذا الإطار يشير إلى الصلة التي تربط بين ابن زاكور وأبي علي اليوسي، فقد أثر هذا الأخير في الفن الأدبي للأول، ووسمه بميسمه، مما جعله يعتبر هذا الأثر عاملا من العوامل المكونة لشخصية ابن زاكور الأدبية، يقول عن ذلك : «وهناك عامل آخر أثر جدا في توجيهه الأدبي، وطبعه بهذا الطابع القوي الذي ظهر به كعالم لغوي، يشرح ديوان الحماسة، ولامية العرب، ويفسر غريبها

---

(42) - احمد زروق، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 24 - 25.

(43) - النبوغ، ط 3 ، ص : 179 .

(44) - المرجع نفسه. ص : 216.

(45) - المرجع نفسه. ص : 222.

(46) - المرجع نفسه. ص : 223.

(47) - المرجع نفسه. ص : 301

وإشاراتهما وأمثالهما، إلى غير ذلك من نظم عدة قصائد على مذهب شعراء البادية، ومن نحا نحوهم من علماء اللغة مرتكبا فيها أنواع الغريب، وملتزما للقوافي الصعبة، كالثاء المثلثة، والذال المعجمة، ونحوهما، هذا العامل هو اتصاله بأبي علي اليوسي، وأخذه عنه، وكرعه من حياض معارفه الأدبية واللغوية، ونسجه على منواله» (48) ثم يسترسل في الكشف عن بعض حلقات هذه السلسلة الأدبية موضحا ملامح الاحتذاء، فابن زاكور تأثر باليوسي، وأثر في ابن الطيب العلمي وصاحبه الشرقي، يقول عن ذلك : «كما أن من درس ابن الطيب العلمي، وصاحبه الشرقي، يرى كثيرا من أثر ابن زاكور فيهما» (49).

ولم يقتصر الأستاذ گنون على الكشف عن الصلات الفنية بين الأعلام المغاربة، بل نجده يشير إلى الصلات بين المغاربة والأندلسيين، لكن في أحيان قليلة. فابن حبوس الفاسي، كان ينسج على منوال ابن هانئ الأندلسي، في احتفاله بالألفاظ الفخمة، ذات الإيقاع الصاخب، يقول عن هذا الشاعر : «كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الأندلسي، في قصد الألفاظ الرائعة، والقعاقع المهولة، وإيثار التقعير» (50).

ونشير إلى أن الأستاذ گنون كان حذرا في حديثه عن الصلات بين المغاربة والأندلسيين، خصوصا في الاحتذاء والنسج على المنوال، وذلك حتى لا يتناقض مع الغاية التي وطد نفسه على بلوغها وهي الدفاع عن أدب المغاربة، وتوضيح أصالته وخصوصيته، إذ إن العلاقة بين الأدبين - في رأيه - هي علاقة منافسة، وليست علاقة احتذاء أو تقليد، وهذا ما تشير إليه المناظرة التي وقعت بمجلس والي سبتة، الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء، بين أبي الوليد الشقندي، وأبي يحيى بن المعلم الطنجي، وقد أمر هذا الأمير كلا من الأديب الأندلسي، والأديب المغربي بكتابة رسالة في تفضيل قطره .

وعلى الرغم من وجود صلات كثيرة من هذا النوع بين الشخصيات المغربية والأندلسية، فإن ما ينتهي اليه الأستاذ گنون هو : «أن الأدب المغربي هو غير الأندلسي، وأنه لم يتأثر به إلا نسبيا، لأن الأدباء المغاربة من غير شك

(48) - ابن زاكور، الذكريات، ص : 9.

(49) - ابن زاكور، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 11.

(50) - النبوغ، ط 3 ، ص : 176.

كانوا يتعمدون مخالفة طريقة زملائهم الأندلسيين في الشعر والنثر، قصد مقابلة التحدي بمثله» (51). وهذا رأي ينسجم مع الموقف الدفاعي .

4 - التراجم بين الطول والقصر

تحكمت عدة عوامل في حجم الترجمة عند الأستاذ كنون، يرجع بعضها إلى نمط الترجمة والسياق الذي وردت فيه، بينما يرجع البعض الآخر إلى عوامل موضوعية ساهمت في انتشار الكلام وفي الاستطراد .

فالترجمة الواردة في سياق الدراسة الأدبية للعصر، قصيرة على العموم، نظرا لأن السياق الذي وردت فيه لا يسمح بالإطالة والإسهاب، ولأن المختارات وهي من أسباب الإطالة في الترجمة قد خصها المؤلف بأقسام مستقلة. وأقصر هذا النمط من التراجم، لا يتجاوز سطرين ونصف، كترجمة الصماتي (52) والغول الفشتالي (53) وأطولها بلغ صفحتين، كما هو الحال في ترجمة القاضي عياض (54)، ومحمد كنون (55).

أما التراجم الواردة تحت عنوان شخصيات مغربية، فهي قصيرة نسبيا، إلى جانب أنها قليلة العدد، والسبب في قصرها يعود إلى انعدام المادة الكافية عن حياة أصحابها وأخبارهم، ويتراوح حجمها بين صفحتين وست صفحات، والملاحظ أن الأستاذ كنون، أعاد نشر بعض هذه التراجم موسعة في سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، عندما وجد المادة الكافية لذلك. كما هو الحال في تراجم "أبي جعفر بن عطية" (56)، و"ابن الونان" (57) و"ابن الطيب العلمي" (58)، و"أبي العباس العزفي" (59).

---

(51) - المرجع نفسه. ص : 174.

(52) - المرجع نفسه. ص : 260.

(53) - المرجع نفسه. ص : 265.

(54) - المرجع نفسه. ص : 96.

(55) - المرجع نفسه. ص : 307.

(56) - السلام، ع2، س1، 1933، ص : 30.

(57) - السلام، ع5، فبراير 1934، ص : 22.

(58) - السلام، ع8، مايو 1934، ص : 7.

(59) - السلام، ع10، نوفمبر 1934، ص : 22.

على أن أطول تراجم المؤلف هي التراجم المستقلة، التي كتبها تحت عنوان : «ذكريات مشاهير رجال المغرب» فقد تراوحت صفحاتها بين 14 صفحة و60 صفحة، من الحجم المتوسط، فمن أقصرها ترجمة ابن عبدون في 14 صفحة، وابن آجروم في 15 صفحة. ومن أطولها ترجمة عبد العزيز الفشتالي في 59 صفحة، وأكنسوس في 54 صفحة، وأحمد زروق في 47 صفحة، ومثل هذا العدد في ترجمة الشريف الإدريسي .

ومن عوامل الإطالة في هذه التراجم ما يلي :

أ - أهمية الشخصية المترجم لها ، وشهرتها ومشاركتها في النهضة الأدبية أو العلمية.

ب - توافر المادة عن حياة الشخصية وأخبارها ، فقصر بعض التراجم يعود إلى سكوت المصادر عن أصحابها ، وقلة المادة عن أخبارهم، من ذلك مثلا، ابن زنباع الطنجي، فقد جاءت ترجمته في حوالي 20 صفحة، وهي ترجمة قصيرة بالمقارنة مع بقية تراجم الذكريات، ويعتذر الأستاذ كنون عن عدم الاستقصاء الكافي عن حياته وأخباره بقوله :

«وقد بحثنا جهدنا علنا نعثر على ترجمة في كتاب أو خبر عنه في ديوان فلم نفلح، وألقينا سؤالا على أدباء المغرب ومؤرخيه في الصحافة المغربية أواخر الثلاثينيات من التاريخ الميلادي، طالبين ممن عنده علم بحاله أو وقف على شيء من أخباره، أن يتفضل بالإفادة عنه فلم نظفر بجواب ؟ وها نحن الآن، نضطر إلى إثبات ترجمته في الذكريات، ولا نجد ما نشفي به غليلا منها . . . » (60).

ج - ساهمت الاختيارات والمنتخبات كذلك في هذه الاطالة، بدليل أن التراجم التي تخلو منها قصيرة، كتراجم النبوغ، وكتراجم بعض الساسة، في سلسلة الذكريات، كما نجد في ترجمة الإمام إدريس : 19 صفحة، والسلطان محمد بن عبد الله 18 صفحة.

د - ساهمت كذلك مناقشة الآراء، ورد التقولات، ودفع الشبه، في إطالة

---

(60) - ابن زنباع الطنجي ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 9.

بعض التراجم، ذلك أن الموقف الدفاعي للاستاذ كنون لم يسمح له بغض الطرف عن بعض المطاعن التي وجهت لبعض الشخصيات المغربية، سواء من طرف الأندلسيين كالشقندي، أو المستشرقين كرينهارت دوزي، أو غيرهم من كتاب التراجم والطبقات، ومن امثلة ذلك ما نجده في تراجم أبي العباس الجراوي ويوسف بن تاشفين وأحمد زروق .

5 - التحقيق في التراجم

لم يكتف الأستاذ كنون، في حديثه عن الشخصية في تراجمه بذكر نسبها، وصفاتها الذاتية، والفنية، وأخبارها، بل تجاوز ذلك إلى النقد العلمي لكل تلك المعطيات التي تكون الترجمة، محققا، وموثقا، وممحصا. مما أضفى على منهجه في كتابة التراجم صبغة علمية، نأت به عن مجرد رواية الأخبار وسردها دون تمحيص وتحقيق. وسنحاول تبين معالم التحقيق في تراجمه، من خلال الخطوات الآتية:

1 - تحقيق اسم الشخصية :

أ - تقييد الألقاب وضبطها بالحركات والحروف :

فقد حرص في تراجمه لشخصياته على ضبط ألقابها بالحركات والحروف، وبذلك صحح بعض الأخطاء الشائعة في نطق بعض الأعلام، وسد الطريق أمام أي تصحيف أو تحريف محتمل، معتمدا في ذلك على المصادر التي ضبطت الاسم أو اللقب، فأبو القاسم الزياني : «بالزاي مفخمة أو بالصاد المشممة زايا، كلفظ صراط في قراءة حمزة، كما يقول الناصري، يكتبها هو كذلك، وبتخفيف الياء» (61).

وقد يكون مصدر الضبط في أحيان أخرى، شهرة الاسم أو اللقب، فابن بطوطة «بفتح وضم الطاء الأولى مع التخفيف، وبعضهم يشددها، والجاري علي الألسنة خلافه» (62).

لكن في أحيان كثيرة يضبط الاسم دون إشارة إلى مصادره، حتى لا يثقل على القارئ، فابن المرحل : «بفتح الراء، وتشديد الحاء مع فتحها» (63) ،

(61) - أبو القاسم الزياني، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 7.

(62) - ابن بطوطة، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 5.

(63) - مالك بن المرحل، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 5.

وأدراق : «بفتح الهمزة والدال، وتشديد الراء، بعدها ألف ثم قاف» (64). وگنون، في محمد گنون : «بفتح الكاف المعقودة، وتشديد النون المضمومة» (65).

ب - رد الأنساب في الأسماء إلى أصولها :

لما كانت أغلب أسماء الأعلام في التراجم منسوبة إلى البلدان، أو القبائل، أو الحرف والمهن، فقد قام الأستاذ گنون في أحيان كثيرة برد هذه الأنساب إلى أصولها، فمن الأعلام الذين نسبوا إلى بلدانهم، أبو العلاء العراقي : «الذي اشتهر هو والسادة أهل بيته، بالنسبة إلى العراق، لقدوم سلفهم منه» (66) من ذلك أيضا، عثمان السلاجي : «نسبة إلى بلد سليلجو بقرب مدينة فاس» (67). ومنهم من ينسب إلى قبيلته، فالمكودي : «نسبة إلى بني مكود، إحدى قبائل هوارة، الذين مستقرهم فيما بين فاس وتازة» (68) وأبو علي اليوسي «نسبة إلى آيت يوسي، قبيلة في عداد بربر ملوية» (69). والجراوي «نسبة إلى جراوة، قبيلة من زناتة، كان موطنهم بجبل أوراس» (70). وعبد الله العلوي «نسبة إلى قبيلة إذا وعلي، من إقليم شنقيط» (71).

ويتجاوز الأستاذ گنون هذا المستوى من الضبط والتوثيق إلى مناقشة الروايات، والتعليق عليها، من ذلك، أن القادري في النشر شك في نسب ابن الطيب العلمي حين قال : «كذا كان ينسب نفسه وهو فاسي الدار، والمنشأ والقرار» (72). وعلق على هذا الرأي موضحاً صحة نسب ابن الطيب الى الشرفاء العلميين قائلا : «فما معنى قوله : «كذا كان ينسب نفسه»، ألم يكن الناس ينسبونه كذلك؟ أما مخاطبات إخوانه، وكذا شيوخه التي أثبتها في كتابه الأنيس المطرب، فإنها تكاد لا تخلو واحدة منها من هذه النسبة، وليس ذلك

---

(64) - النبوغ، ط 3، ص : 300.

(65) - المرجع نفسه، ص : 307.

(66) - المرجع نفسه، ص : 302.

(67) - المرجع نفسه، ص : 158.

(68) - المرجع نفسه، ص : 220.

(69) - المرجع نفسه، ص : 295.

(70) - أبو العباس الجراري، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 7.

(71) - النبوغ، ط 3، ص : 324.

(72) - ابن الطيب العلمي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 5.

قاصرا على النثرية منها فقط، التي يمكن أن يقع فيها التبديل والتغيير، بل إن الشعرية كذلك عامرة بهذا الشرف العلمي الذي كان أديبنا ينسب نفسه إليه». (73) ويلتمس بعد هذا الأعذار للقادري بقوله : «وحقيقة فإن النسب العلمي كثير التشعب عظيم الاختلاط، حتى اشتهر بين الناس أن الأدعياء أكثر ما يندسون فيه، لأمنهم من الفضيحة، بسبب عسر التمييز بين فروعه الكثيرة، إلا على المطلع الخبير» (74).

ج - الإشارة إلى المؤتلف والمختلف من الأسماء والألقاب :

التفت الأستاذ كنون، إلى المؤتلف والمختلف من أسماء الأعلام الذين ترجم لهم، حتى لا يقع وهم أو التباس فيها، وحتى لا يختلط أمرها على الباحث، أو القارئ والمؤتلف من الأسماء، هو الاسم أو اللقب الذي يلتقي عليه أكثر من شاعر، أما المختلف فهو الاسم الذي يتقارب مع غيره في اللفظ، أو يتشابه في الخط، أو في الكتابة، ولا يميزه إلا الشكل والنقط، ويعتبر الآمدي (370 هـ) بكتابه : «المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، وكناهم، وألقابهم» من الأوائل الذين صنفوا في هذا الباب .

ومن المؤتلف في تراجم الأستاذ كنون "ابن عبدون"، فقد عرف بهذا الاسم شاعر مكناسي، وآخر أندلسي، وقد نبه إلى هذا الاشتراك في بداية ترجمته لابن عبدون المكناسي بقوله :«نحتاج إلى التنصيص على نسبة مترجمنا لبلده تخلصا من الاشتراك الواقع في اسمه، إذ نرى أنه لا يكاد يتميز عن غيره ممن اشتهر بهذا الاسم، كابن عبدون الأندلسي صاحب القصيدة المشهورة في رثاء بني الأفطس من ملوك الطوائف بالأندلس... فلا ننسى أن هناك كثيرين من أدباء المشرق وغيره لا يعرفون عن مترجمنا شيئا، وربما لم يسمعوا به، فيقع لهم الاشتباه في اسمه، وينسبون ما له لغيره، ومؤلفو الآداب لا يذكرون ابن عبدون حين يذكرونه إلا بكنيته هذه وخصوصا الأندلسي والمكناسي، من أبناء عبدون، فلو أنهم يسمونهما باسميهما الحقيقيين، يقولون : عبد المجيد بن عبدون، ومحمد بن عبدون، لكنا نطمئن قليلا على تراث أديبنا المغربي من السطو الذي عدا كثيرا على آداب المغرب وحضارة المغرب باسم الأندلس» (75).

---

(73) - المرجع نفسه. ص : 5.

(74) - المرجع نفسه. ص : 6.

(75) - ابن عبدون المكناسي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 9 - 10.

من المؤتلف كذلك " ابن بياع" فهناك شاعر مغربي عرف بهذا الاسم أو بابن زنباع وهو طنجي، وقد أشار الأستاذ گنون في ترجمته إلى «أن هناك شاعرا آخر يعرف بابن بياع، ولكنه سبتي، كما نسبه ابن بسام في الذخيرة» (76).

من ذلك أيضا، ابن القابلة السبتي «فثم شاعر آخر يعرف بابن القابلة أيضا، وهو محمد بن يحيى الشلطيسي، من رجال "المغرب" لابن سعيد، وله قرابة أدباء، يعرفون بهذه الكنية، مذكورون في الصلة، وصلة الصلة» (77).

أما المختلف من الأسماء، فمنه «ابن حبوس الفاسي الذي كثيرا ما يختلط بشاعر آخر اسمه «ابن حيوس الدمشقي» وشاعر ثالث اسمه «ابن حيوس الأندلسي» ومن الذين تصحف عليهم اسم ابن حبوس بابن حيوس : «صاحب تاج العروس، فأورده في مادة حاس» (78). كما أن ابن حيوس الدمشقي، قد يتصحف بابن حبوس : «فإن ابن القاضي لما ترجم لأبي بكر بن باجة في الجذوة، أنشد قوله :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا
بأنكم في ربع قلبي سكان

إلى آخر الأبيات المشهورة، ثم قال : ويقال إنها لابن حبوس، فتصحف عليه ابن حيوس الدمشقي، الذي تنسب إليه هذه الأبيات أيضا بابن حبوس الفاسي، فنسب إليه ما ليس له» (79).

ولا يكتفي الأستاذ گنون بالتنبيه إلى المؤتلف والمختلف من الأسماء، وذكر المؤلفين الذين اختلط عليهم أمرها، بل نجده يحقق بعض الأبيات التي نسبت إلى غير قائلها، ويعلل ذلك بعدم الانتباه إلى ما هو مشترك من الأسماء، يقول عن أبيات نسبت إلى أبي العباس الجراوي : «هذا وليس من شعر الجراوي هذان البيتان :

---

(76) - ابن زنباع الطنجي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 10.

(77) - النبوغ، ط 3، ص : 102.

(78) - ابن حبوس الفاسي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 5.

(79) - المرجع نفسه. ص : 5.

وبين ضلوعي للصبابة لوعة
بحكم الهوى تقضي علي ولا أقضي

جنى ناظري منها على القلب ما جنى
فيا من رأى بعضا يعين علي بعض

وقد وردا في البستان لابن أبي مريم، منسوبين لأبي العباس الجراوي فأوهم أنه مترجمنا وليس به، وإنما سبب هذا اللبس اشتراك صاحبهما مع المترجم في الاسم والنسب والكنية، وهو أبو العباس أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي» (80)

2 - تحقيق الولادة والوفاة :

رتب الأستاذ كنون تراجمه في النبوغ حسب تاريخ الوفاة، وأبدى عناية خاصة بهذا التاريخ في تراجمه المستقلة، محققا، وموثقا، ومرجحا بين الروايات المختلفة، وقد سار في ذلك على نهج القدماء من كتاب التراجم، الذين اهتموا بضبط تاريخ الوفاة، بل إن منهم من جعله الأساس الذي بنى عليه كتابه، كابن خلكان في "وفيات الأعيان". أما تاريخ الميلاد في التراجم فإنه : «أصعب ضبطا، وأعسر تقييدا من الوفاة، لأن الشخص حين يولد لا يعلم ماذا يكون من شأنه، ولا ما يصير إليه أمره، فلا تكون هناك حاجة إلى حفظ تاريخ مولده، فإذا مات تكون شهرته أو مكانته، أو علمه، أو أدبه، دالا عليه، ومنبها إليه، فيحفظ المؤرخون تاريخ وفاته» (81).

وعلى الرغم من صعوبة الظفر بهذا التاريخ في المصادر والمظان، فإن الأستاذ كنون كان ينص عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، الشيء الذي ميز تراجمه عن غيرها، ذلك أن «ذكر تاريخ الولادة لابد أن يكون بسبب مصلحة، هي بدورها ناتجة عن وجود أدب تراجم راق جدا» (82). ولم تكن الطريقة التي ورد بها تاريخ الولادة والوفاة في سياق الترجمة موحدة، فالغالب عليه أن يذكر تاريخ الولادة في بداية الترجمة، ويختمها بذكر تاريخ الوفاة. لكن هذا النهج لم

---

(80) - أبو العباس الجراوي : ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 34.

(81) - محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، ص : 88.

(82) فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صلاح أحمد العلي، ص : 144.

يحترم في بعض التراجم خصوصا في كتابه النبوغ، إذ نجده أحيانا، يذكر تاريخ الوفاة إلى جانب تاريخ الولادة مع بداية الترجمة، كما هو الحال في ترجمة أبي العباس السبتي الذي يقول عنه : «أحمد بن جعفر الخزرجي، مولده بسبتة بلده سنة 524 هـ واستوطن مراكش وبها توفي في سنة 601 هـ» (83)، وفي أحيان أخرى يؤخر تاريخ الولادة إلى نهاية الترجمة، ليذكره مقرونا مع تاريخ الوفاة، فابن معط «كانت ولادته سنة 564 هـ، وتوفي سنة 628 هـ رحمه الله» (84).

ولم تحظ التراجم الموجزة، التي وردت في سياق الحديث عن العصر الأدبي، بالتوسع في تحقيق وضبط وفياتها، بالمقارنة مع التراجم المستقلة، ذلك أن السياق الذي وردت فيه، لا يسمح بالتوسع في مناقشة الروايات ونقدها، ومن ثم اكتفى فيها بذكر تاريخ الوفاة متى ظفر به، دون ذكر مصدره في ذلك. بل أحيانا ترد الترجمة خالية من هذا التاريخ كما هو الحال في ترجمة يحيى بن الزيتوني (85)، وعائشة بنت الجيار (86). وفي أحيان أخرى يشير إلى القرن الذي عاشت فيه الشخصية، فالحسن المراكشي كان يعيش في النصف الأول من المائة السابعة (87) وأبو الحسن المسفر لم يتجاوز المائة السادسة (88).

أما في تراجم ذكريات مشاهير رجال المغرب، فغالبا ما يذكر تاريخ الولادة في بداية الترجمة، دون ذكر للروايات المختلفة. أما الوفاة فإنه يتوسع في تحقيقها، مشيرا إلى ظروفها وملابساتها، وذلك لأهمية تاريخ الوفاة، فكثيرا ما يعتمد عليه، في إثبات أو نفي الوقائع والأعمال، وفي الكشف عن التزييف والانتحال، وسنحاول الوقوف على مظاهر الضبط والتحقيق في هذا التاريخ، من خلال الخطوات الآتية :

1 - الاعتماد على المصادر في تحقيق وضبط الوفاة

يشير الأستاذ كنون في غالب الأحيان إلى المصدر الذي استقى منه وفاة

(83) - النبوغ، ط 3، ص : 159.

(84) - المرجع نفسه. ص : 162.

(85) - المرجع نفسه. ص : 101.

(86) - المرجع نفسه. ص : 225.

(87) - المرجع نفسه. ص : 166.

(88) - المرجع نفسه. ص : 165.

الشخصية التي يترجم لها، إذا كان واثقا في رواية هذا المصدر. أما إذا كانت الوفاة مظنة اختلاف واضطراب بين المصادر المتعددة، فإنه يحتكم آنئذ إلى جملة معايير، قصد ترجيح الرواية التي يرى أنها هي الصحيحة، من تلك المعايير :

أ - تفضيل الرواية المفصلة، التي ذكرت اليوم والشهر، فهي أضبط الروايات وأوثقها في رأيه، من ذلك مثلا ما أورده في وفاة أبي موسى الجزولي، ففي "وفيات الأعيان" لابن خلكان أنه توفي سنة 610 هـ، وعند ابن الأبار سنة 606 هـ، أو 607 هـ، وعند ابن قنفذ سنة 616، وفي كشف الظنون أنه توفي سنة 677. لكن التاريخ الصحيح في رأيه هو : ليلة السبت، 13 شعبان 607، وهو ما رواه ابن عبد الملك، ويعلق على هذه الرواية الأخيرة بقوله : «وهذا الذي ذكره في وفاته، هو الذي ينبغي أن يعول عليه، لأنه مبين مفصل باليوم والشهر والمكان والسبب الذي من أجله توفي خارج مراكش» (89).

وفي وفاة أبي القاسم الشريف، احتكم إلى المعيار نفسه، فنبذ رواية ابن قنفذ، من أنه توفي سنة 761 هـ، وفضل رواية أبي الحسن النبهاني لأنه : «ضبطها باليوم والساعة، فقال إنه توفي ضحى يوم الخميس، الحادي والعشرين لشهر شعبان، من عام 760 هـ» (90).

ب - الاعتماد على المصدر المعاصر للمترجم

فهو أضبط لتاريخ وفاته من المصادر المتأخرة، من ذلك مثلا ما وقع من اختلاف في وفاة ابن عبدون، فقد ذكر صاحب الجذوة أنه توفي سنة 658 هـ. وذكر صاحب الذخيرة السنية، أن وفاته كانت سنة 659 هـ، في العشر الأول من ذي القعدة، ويرجح الأستاذ كنون هذه الرواية الأخيرة بقوله : «فنحن لما أن صاحب الذخيرة كان معاصرا أو كالمعاصر لابن عبدون، ولما أنه زاد تعيين الشهر الذي كانت الوفاة فيه، وذلك يدل على مزية التحقيق، ولما أن ابن القاضي كثيرا ما تضطرب نسخه في مثل هذه الأمور، نرجح تاريخ صاحب الذخيرة» (91).

---

(89) - ابو موسى الجزولي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 31.

(90) - أبو القاسم الشريف، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 20.

(91) - ابن عبدون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 22.

ج – الاعتماد على رواية أحد تلامذة المترجَم

فهي أوثق من غيرها، للصلة الوثيقة التي تربط التلميذ بشيخه، فتجعله يهتم بأخباره وأحواله، وغالبا ما تأتي هذه الرواية مفصلة للسبب نفسه، فقد كانت وفاة عثمان السلالجي : «كما قال تلميذه أبو الحسن بن عتيق، حسب ما في شرح المديوني، في ليلة الأحد، لثلث الليل الأخير من ليلة أحد وعشرين من جمادى الأخيرة، عام أربعة وسبعين وخمسمائة» (92).

وإذا لم تسعفه المظان في الوقوف على تاريخ الوفاة فإنه يعطي تاريخا تقريبيا لذلك، فابن زنباع : «عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل السادس، في العصر المرابطي» (93).

2 – ذكر ظروف الوفاة وملابساتها

اهتم الأستاذ كنون في بعض تراجمه، بذكر الظروف والملابسات التي رافقت الوفاة، إمعانا منه في الضبط والتحقيق، بالإضافة إلى أن هذه الظروف، كثيرا ما تشي بأهمية الشخصية وقيمتها وقد ذكر في هذا السياق :

أ – سبب الوفاة : فعبد العزيز الملزوزي : «توفي خنقا بسجن فاس، لسعايةً سعيت به، جناها تهوره، في وسط عام سبعة وتسعين وستمائة، ويا عجبا كيف جوزي بما جنت يده في حق الشاعر البلذودي جزاء وفاقا» (94). وأبو محمد سقين، مات شهيدا، «وكان قد خرج لضريح مولاي بوسلهام، فجلس ذات يوم على شاطئ البحر يقرأ دلائل الخيرات، فخرجت فيه إحدى سفن الإفرنج، فقاتل حتى قتل شهيدا صبرا» (95). ومات ابن الياسمين ذبيحا بداره بمراكش (96). وتوفي عبد المهيمن الحضرمي بتونس، في ذلك الطاعون الجارف، ثاني عشر شوال عام 749 هـ (97).

---

(92) – عثمان السلالجي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 35.

(93) – ابن زنباع، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 12.

(94) – عبد العزيز الملزوزي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 35.

(95) – النبوغ، ط 3، ص : 155.

(96) – ابن الياسمين، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 11.

(97) – عبد المهيمن الحضرمي، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 18.

ب - مكان الدفن، ومراسيمه :

يذكر مكان الدفن، ومراسيمه، إذا كان ذلك مما يعبر عن قيمة المتوفى العلمية، وشهرته بين الناس، فأكنسوس : «توفي في يوم الثلاثاء 29 محرم عام 1294 عن 83 سنة، ودفن قرب ضريح الإمام أبي القاسم السهيلي، خارج باب الرب من مراكش، وحضره الجم الغفير من الناس » (98).

ويجتهد الأستاذ كنون في تحقيق مكان الوفاة، معتمدا على النقد التاريخي واستقراء الوقائع، فابن بطوطة لم يتوف بطنجة وإن كان يوجد بها ضريح ينسب إليه، ويفد الرحالة لزيارته من جميع أنحاء العالم، وذلك لعدة أسباب :

« **أولا** : لأن وفاته لم تكن بطنجة.

ثانيا : لأن اسم صاحب الضريح في ألسنة الناس أحمد بن علال، وليس هو اسم ابن بطوطة.

ثالثا : لأن طنجة خضعت للاحتلال الأجنبي... فيبعد أن يبقى قبره محفوظا ومعروفا بعد هذه المدة الطويلة التي تغيرت فيها معالم المدينة من جميع الوجوه... وعلى كل حال فهو ضريح متواضع جدا لا يتناسب وعظمة الرجل الذي طبقت سمعته الآفاق» (99).

3 - تحقيق الأخبار في التراجم :

لم يقف الأستاذ كنون عند مجرد رواية الأخبار الواردة في المصادر عن مترجميه، بل نجده يمحص هذه الأخبار، ويدقق فيها النظر، ويخضعها للنقد الداخلي، فيبقي على ما يثبت منها أمام التحقيق العلمي الصارم، وينبذ الأخبار التي لا تثبت أمام البرهان،أو التي تعتمد على العصبية أو الذاتية، من ذلك مناقشته لما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن "الآجرومية" لابن آجروم، من أنها موجز ممعن في الإيجاز لجمل الزجاجي، ومن كون ذلك الإيجاز ضحى بالوضوح، وقلل النفع والفائدة للمبتدئين الذين يحتاجون إلى بسط أوفى للقواعد. وقد رد على هذه الادعاءات بالحجج الآتية :

---

(98) - أكنسوس، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 13 .

(99) - ابن بطوطة، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 37 - 38.

أ - فأما كون هذا الكتاب قليل النفع للمبتدئين بسبب إفراط إيجازه، فهذا مردود بقول كاتب المقال نفسه، من أن ذلك الإيجاز أكسبه حظوة لدى العالم العربي كله، حتى أصبح أساسا للدراسة.

ب - أما كونه موجزا ممعنا في الإيجاز لجمل الزجاجي فإنه إسراف في إسراف، وظلم لابن آجروم، نعم هناك ألفاظ متشابهة، وهي ليست حبسا على الزجاجي حتى لا يجوز أن يستعملها ابن آجروم .

ج - افتتاح الأجرومية وترتيبها لا يتوافق مع ترتيب «الجمل» بل إن فيها زيادات.

ويختتم الأستاذ كنون تفنيده لهذا الرأي بقوله : «ولولا خوف الإطالة لتوسعنا في بيان بطلان هذا القول من أن الآجرومية مختصر للجمل» (100) ويناقش رأيا آخر في الآجرومية للجلال السيوطي مفاده أن صاحبها على مذهب الكوفيين في النحو، مستندا في ذلك إلى رأي للعلامة السوداني في شرحه للآجرومية، وخلاصة رأي هذ الأخير : «أنه لا يمكن أن نجزم بأن ابن آجروم كوفي المذهب في النحو، ولا بصريه لأنه جارى المذهبين معا، وأخذ من المدرستين كلتيهما» (101).

نخلص في الأخير إلى أن التراجم في تاريخ الأدب عند الأستاذ عبد الله كنون، لم تكن مجرد رواية وسرد للأخبار فحسب، بل اعتمدت إلى جانب ذلك على التحقيق العلمي، والنقد التاريخي، وقد تجلى هذا التحقيق في :

أ - تحقيق تاريخ الوفيات، لما لهذا التاريخ من أهمية منهجية، تتجلى في أن أغلب كتب التراجم ترتب تراجمها على الوفيات. ومن أهمية علمية توثيقية، إذ نجد المحققين يعتمدون في إثبات الوقائع أو نفيها على تاريخ الوفاة أحيانا.

ب - النقد الداخلي للروايات والأخبار عن طريق المقابلة بينها، وتصحيح خاطئها، «والخطوة الحقيقية في المنهج التاريخي هي عملية النقد الباطن ونقصد بهذه العملية، بيان ما قصده صاحب الوثيقة من هذه الوثيقة ثم معرفة صدقه في الرواية، سواء أكان شاهد عيان أم كان ناقلا عن غيره» (102).

---

(100) - ابن آجروم، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ص : 17.

(101) - المرجع نفسه. ص : 19.

(102) - عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي، ص : 205.

الفصل الثالــث

الانتخاب والاختيار

شروط عملية الانتخلب

ملاحظات حول عملية الانتخاب

الانتخـاب والاختيـار

تعتبر عملية الاختيار والانتخاب من الخطوات الأساسية، في كتابة تاريخ الأدب منذ أقدم العصور، ولم يكن الدافع الفني والجمالي هو الوحيد الذي كان وراء ظهور المنتخبات والمختارات في جميع الثقافات «ففي الوقت الذي تشعر فيه ثقافة بأنها مهددة، فإنها تتهيأ للبقاء، بالتلخيص، والاختيار، إنها وسيلة للدفاع، وبهذا يتقلص الأدب إلى النافع والمفيد فتظهر المنتقيات الأدبية، والمجاميع المختارة» (1) وهذا فعلا ما حدث في الأدب العربي القديم، إذ لم يقتصر الرواة في القرن الثاني الهجري على الرواية الشفوية، بل نجد الكثيرين منهم يعكفون على الجمع والتصنيف والاختيار والانتخاب، «فصنفوا الدواوين، وجمعوا أشعار القبائل، وصنفوا المجموعات الشعرية، وكتب المختارات المنوعة» (2).

ولا يخفى ما عرفه الأدب العربي من تهديد بالضياع، في القرن الأول والثاني الهجريين، من جراء اعتماد هذا الأدب أساسا على الرواية الشفوية. وتعتبر المفضليات للمفضل الضبي (168 هـ) أقدم المختارات الشعرية التي وصلت إلينا، وقد سمى المفضل كتابه الأشعار المختارة. (3) لكن الأدباء بعده أطلقوا عليها اسم المفضليات، تمييزا لها عن كتب المختارات التي صنفت فيما بعد، كالأصمعيات للأصمعي (216 هـ)، وجمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي. ومن خصائص هذه المجاميع الشعرية أنها تثبت القصائد المختارة تامة. تلت هذه المرحلة من الانتخاب، مرحلة أخرى، لا تثبت القصائد المختارة كاملة، وإنما يكتفى منها بالمقطوعات والأبيات القليلة، وتختلف المصنفات من هذا النوع عن سابقتها، بكونها مبوبة حسب المعاني الشعرية المشهورة، وقد اشتهرت بالحماسات، وأشهرها حماسة أبي تمام (231 هـ) وحماسة البحتري (284 هـ)، وحماسة ابن الشجري (542 هـ).

وقد أحببنا أن نشير إلى ظاهرة الانتخاب في الشعر العربي القديم، حتى

(1) – ROBERT ESCARPIT : HISTOIRE DE L'HISTOIRE [redacted] LA LITTERATURE IN : ENCYCLOPEDIE DE LA PLEIADE, T. III, P : 1764 - 1765

(2) – امجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التاليف عند العرب في اللغة والادب، ص : 98

(3) – المرجع نفسه. ص : 102.

نتمكن من معرفة الأصول التي يصدر عنها الأستاذ عبد الله كنون في تاريخه للأدب المغربي، إذ إن هناك أكثر من صلة تشد منهجه إلى مناهج القدماء في التأليف، وطرائقهم في البحث.

إن عملية الانتخاب، كانت دائما مواكبة لعملية التاريخ للأدب، إذ لا نكاد نتصور تاريخا للأدب في غياب نصوص مختارة، تعزز أحكامنا وتصورنا حول هذا الأدب، وهذا ما قام به الأستاذ كنون، فقد خصص للمختارات الأدبية جزأين من كتاب النبوغ. كما تجدها تتخلل كتبه الأخرى كأحاديث عن الأدب المغربي، وأدب الفقهاء، وأمراؤنا الشعراء، والمنتخب من شعر ابن زاكور، وسلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. يقول الأستاذ كنون في الجزء الثاني من النبوغ، وهو المخصص للمنتخبات النثرية، ملخصا أبواب هذا القسم ومحددا ترتيبها «بدأنا بقسم المنثور، لأن النثر أصل الكلام، ونفتتحه بالتحميد والصلاة للتيمن، وبعد ذلك نذكر الخطب لأنها أول المحفوظ من نثر العرب، ثم المناظرات لمزيد شبهها بالخطب في الأسلوب والغرض، ثم الرسائل، وهي أهم أغراض النثر، ثم المقامات، وهي قصص قصيرة تكتب بأسلوب أدبي مسجوع، ثم المحاضرات وهي من موضوع المقامات، لاشتمالها مثلها على القصة والفائدة، ثم المقالات وهو باب جديد في الأدب العربي» (4). ويقول عن أقسام المنتخبات الشعرية، في الجزء الثالث المخصص لها : «ونأتي الآن في قسم المنظوم، الذي هو الجزء الثالث من الكتاب، بالآثار والمنتخبات الشعرية كما وعدنا، مقسمة إلى الأبواب المعروفة، من الحماسة والغزل والوصف والمدح وغير ذلك. إلا باب الهجاء فإننا عوضناه بباب الملح. وأدرجنا فيه نماذج من الهجاء، التي أكثر ما ترد لشكلها، لا لمضمونها، وقد ختمنا بباب خصصناه للموشحات والازجال، جمعاً للنظائر وعناية بهذا النوع من الأدب المنظوم» (5).

ومن مظاهر وعي الأستاذ كنون بأهمية الانتخاب في تاريخ الأدب أن وجدناه يخصص كتابا للمنتخب من شعر ابن زاكور : «فإنه لن يخدم الأدب العربي بمثل وضع مجموعات منتخبة من آثار أعلامه، بين أيدي الباحثين الشباب، فيجد أولائك مادة كاملة تعينهم على مواصلة أبحاثهم، ويجد هؤلاء وسيلة جديدة للمتاع والمباهاة» (6) وسنقف قبل إدراج جملة من الملاحظات، حول

---

(4) - النبوغ، ط 3، ص : 362.

(5) - المرجع نفسه. ص : 710.

(6) - المنتخب من شعر ابن زاكور ص : 7.

عملية الانتخاب، في تاريخ گنون للأدب المغربي، عند شروط هذه العملية، كيف تتم ؟ وما هي معايير الاختيار ؟

أ - شروط عملية الانتخاب.

يمكن أن نوجز الشروط التي اختار على ضوئها الأستاذ گنون منتخباته الأدبية فيما يلي :

❑ التمثيلية :

فقد اهتم بالنصوص التي تمثل إنتاج الأدباء، وتعطي صورة نمطية عنه، يقول في هذا الصدد : «أتينا في قسم المنثور، وهو الجزء الثاني من هذا الكتاب، بالآثار والمنتخبات النثرية، التي رأينا أنها تعطي نظرة صادقة عن إنتاج أدبائنا في ميدان الكتابة الفنية والعلمية، وما يتصل بها من ضروب القول، وأنواع الخطاب» (7).

❑ الجودة الفنية :

فالنصوص والمقطوعات المنتخبة، هي من عيون الشعر المغربي، ومن جيده، وهذا ما لفت انتباه طه حسين في تقريظه لكتاب النبوغ حين قال : «ولم أقل الآن شيئا عما يشتمل عليه الكتاب، من مختارات الشعر والنثر، لأني حرصت قبل كل شيء على أن أؤدي لصاحب هذا الكتاب بعض حقه، والواقع أن الكتاب يشتمل على شعر ونثر أكثره جيد ممتع، وكثير منه رائع حقا» (8).

ويقول الاستاذ گنون عن شعر ابن زاگور مشيرا إلى هذا المعيار الفني في الاختيار : «ونحن بعد أن تخيرنا من شعره كل ما فيه روح، وعليه مسحة من الجمال، وأسقطنا رديئه، ارتأينا أن نرتبه على الأغراض» (9).

❑ الشهـــرة :

يعتبر هذا الشرط مكملا للشرط السالف، إذ إن الأبيات الجيدة والتي عليها مسحة من الجمال الفني، هي الأكثر شهرة، وهي السائرة في الناس أكثر

---

(7) - النبوغ، ط 3، ص : 709.

(8) - المرجع نفسه، ص : 9.

(9) - المنتخب من شعر ابن زاكور، ص 23.

من غيرها، وتعتبر شهرة أصحاب المنتخبات في عصورهم، وشهرة نصوصهم نفسها، وتداول الناس لها من بين معايير الاختيار، وقد صرح الأستاذ كنون بهذا المعيار في أكثر من مقام، خصوصا أثناء تعليقه على بعض المقطوعات الجيدة، والأبيات المفردة، يقول عن ابن زهر : «ولابن زهر موشحات مشهورة يغنى بها وهي من أجود ما قيل في ذلك. ولعل أسيرها على الألسنة الموشح الذي يقول :

أيها الساقي إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع (10)

ويقول عن أبيات القاضي عياض :

رأت قمر الزمان فأذكرتني
ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرا ولكن
رأيت بعينها ورأت بعيني

«لهذين البيتين شهرة كبيرة بين الأدباء» (11)

ويقول عن أبيات لمحيي الدين بن عربي إنهما مما شرق وغرب من شعره (12). ويقول عن ابن الأنباري : «وكان فقيها، صوفيا، واعظا، يتعاطى الأدب، فلذلك ذكرناه مع أدب الفقهاء، ومرثيته هذه هي إحدى ثلاث مراث أو أربع في اللغة العربية ليس لها نظير» (13). ولعل الموقف الدفاعي الذي اشتهر به الأستاذ كنون، والمحاماة عن الأدب المغربي ضد الطاعنين في أصالته كانا أيضا وراء اختيار القطع الجيدة والمشهورة. فهذه المنتخبات تفصح عن نبوغ المغاربة وتدافع عن أدبهم، وتجعل له مكانة إلى جانب الآداب العربية الأخرى، بل إن هذا الموقف الدفاعي كان حاضرا أيضا في أدب الفقهاء «فمن غايات هذا الكتاب،

---

(10) - أدب الفقهاء، ص 80.

(11) - المرجع نفسه، ص 94.

(12) - المرجع نفسه، ص 96.

(13) - المرجع نفسه، ص 187.

المحاماة عن أدب هذه الطائفة «المغموز ظلما بالضعف» (14)، ولن تتم هذه المحاماة وذلك الدفاع، دون الوقوف على منتخبات من أشعارهم الجيدة السائرة على كل لسان.

ب - ملاحظات حول عملية الانتخاب :

1 - إن عملية الانتخاب كانت خطوة أساسية وضرورية في تاريخ الأدب المغربي، بالمقارنة مع بقية تواريخ الآداب العربية الأخرى، فقد كانت المهمة التي على الأستاذ كنون أن ينهض بها، شاقة وعسيرة، إذ عليه إلى جانب تقديم صورة عن الأدب في عصوره المختلفة أن يقدم منتخبات من النصوص الأدبية، تجسد التحول والتطور الذي عرفه هذا الأدب، فالدواوين الشعرية، والمجامع الأدبية متوافرة عن الأدب المشرقي القديم والحديث، وهي في متناول القراء والدارسين، وهذا ما حدا بمؤرخي الأدب المشارقة إلى عدم الاحتفال بظاهرة الانتخاب والاختيار بنفس الحدة كما هو الشأن عند مؤرخنا، ويوضح الأستاذ كنون هذه الخصوصية قائلا :

«وإذا كانت كتب تاريخ الأدب العربي، تشير إلى مجموعات الأدب العربية المعروضة، من نثر وشعر، فإن أدب المغرب مجهول، لا توجد به مجموعات من هذا القبيل، فكان علي أن أقدم دراسة مستوفاة بقدر ما يمكن من هذا الأدب، وأقدم في الوقت نفسه النصوص الأدبية، من الشعر، والنثر المدروسين، فاختلف منهج الكتاب عن الكتب الأخرى في هذا الباب» (15).

2 - إن استقراء أوليا، للنصوص والمقطوعات المنتخبة التي تحفل بها كتابات الأستاذ كنون في تاريخ الأدب، يجعلنا نقسم هذه النصوص قسمين رئيسيين :

أ - النص كوثيقة تاريخية.

ب - النص كوثيقة عن التحول الذي عرفته القيم الأدبية.

---

(14) - المرجع نفسه. ص 3.

(15) - مجلة الفيصل. ع 137. س 12. ص 45.

أ - **النص كوثيقة تاريخية** : فالنصوص من هذا النوع، ترمي إلى ابراز التلاحم الذي كان قائما بين الأدب والأحداث التاريخية المستجدة، ومن ثم نجد الأستاذ كنون يستعمل كلمة "التسجيل" للدلالة على هذه الصلة بين الأدب والتاريخ. يقول عن الشعر في بداية العصر الحديث : «فمن تسجيلاته الأولى لحادث احتلال الجزائر، قول الوزير محمد بن ادريس ت (1264 هـ) يحض على النفير للجهاد :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم
إلى الجهاد فما في الحق من غلط» (16)

«كما سجل الشعر كذلك وقعة تطوان، بلسان أديبها المفضل أفيلال، (ت 1304) في قصيدة مشهورة يقول في أولها :

يا دهر قل لي علامه
كسرت جمع السلامة» (17)

وفي هذا السياق يدرج قصيدة لمحمد الجزولي، في انتصار الاتراك على اليونان (18)، وأخرى حول الثورة الريفية، لأبي بكر بناني (19)، وثالثة لمحمد بن اليمني الناصري (20).

ب - **النص كوثيقة عن التحول الذي عرفته القيم الأدبية :**

والنصوص من هذا النوع، تسعى إلى تجسيد التحول الفني والجمالي، الذي عرفه الأدب المغربي، عبر عصوره المتطاولة، وهي الغالبة على هذه المنتخبات، في الشعر والنثر على حد سواء. وقد وقف الأستاذ كنون عند بعضها، وقفات انطباعية، تبين مظاهر الجمال فيها، وسر شهرتها، وتداول الناس لها. وسنقف عند بعضها، أثناء حديثنا عن ملامح النقد في التاريخ الأدبي للاستاذ عبد الله كنون.

---

(16) - أحاديث عن الادب المغربي. ص 32.

(17) - المرجع نفسه. ص 33.

(18) - المرجع نفسه. ص 69.

(19) - المرجع نفسه. ص 73.

(20) - المرجع نفسه. ص 74.

3 - صدر الأستاذ كنون في عملية الانتخاب، عن معايير نجد أصولها في مصنفات الأدب العربي القديم، وهذا ما اعترف به في مقدمة المنتخب من شعر ابن زاكور حين قال: «وإنما عملنا هذا المنتخب على طريقة أئمة اللغة، وشيوخ الأدب الأقدمين، الذين كانوا يتخيرون دواوين الشعراء، وينتخبون من أشعارهم كل نفيس وغال، قصد ترغيب الناس فيها، وإمدادهم بما يستحق أن يروي منها، موفرين عليهم تعب البحث والتنقيب» (21).

وقد ظهر هذا الأثر بالفعل في ترتيب الأغراض التي قيلت فيها هذه المنتخبات، ففي القسم الثالث من النبوغ، وهو الخاص بالمنتخبات الشعرية، نجد المؤلف يبدأ بغرض الحماسة كما هو الحال في حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، ومن نهج سبيلهما من المتأخرين عنهم.

يتجلى أثر الدراسات القديمة ثانيا، في إعادة ترتيب الأستاذ كنون لديوان ابن زاكور، على الموضوعات والفنون، بعد أن كان مرتبا على حروف المعجم، شأنه في ذلك شأن أبي تمام في حماسته أيضا، فقد رتبها على الأغراض والفنون، وهذا ما نجده في منتخبات النبوغ. وهذه الطريقة في الترتيب تسعف الباحث والقارئ - أكثر من غيرها - على تكوين صورة حول فنون أدب ما، وما لحقها من تطور أو تحول.

4 - يحضر المعيار الأخلاقي بكل ثقله في عملية الانتخاب، سواء في ترتيب الموضوعات والفنون، أو في عملية الحذف والاستبقاء. فقد بدئ قسم المنثور في النبوغ بالتحميد والصلاة "للتيمن" (22) ثم توالت بقية الأقسام الأخرى. بل إن هذا المعيار دفع المؤلف إلى حذف قصائد من ديوان ابن زاكور فيها توسل بالأضرحة والأولياء. وفي المنتخبات الشعرية للنبوغ، نجده يدرج الهجاء ضمن الطرف والملح، ولا يخصه بقسم مستقل كبقية الأغراض الأخرى، رغم أن الأدب المغربي يزخر بالأشعار التي قيلت في هذا الغرض. ويؤكد الأستاذ كنون، أن الأهاجي الواردة في هذا القسم مطلوبة لشكلها، لا لمضمونها (23). وهذا الموقف الأخلاقي من الهجاء، يؤكد لنا مرة أخرى، تأثر الرجل بمعايير القدماء،

(21) - المنتخب من شعر ابن زاكور. ص 23.

(22) - النبوغ. ط 3. ص 362.

(23) - المرجع نفسه. ص 710.

خصوصا النقاد،و أصحاب التراجم، وبعض الشعراء من الأندلسيين الذين حذفوا الهجاء من مصنفاتهم واستعاضوا عنه بالتعريض كابن بسام، والحميدي، وابن خفاجة في ديوانه .

ويمكن أن نجد تفسيرا آخر لحضور هذا المعيار الأخلاقي في عملية الاختيار، في سلفية الأستاذ عبد الله گنون، خصوصا في موقفه من شعر التوسل بالأضرحة والأولياء عند اليوسي وابن زاكور.

5 - لم يبق الأستاذ گنون حبيس هذه المعايير القديمة، التي افصحت عنها طريقته في الانتخاب، بل نجده يخرج عليها، حين أيقن أن هذا الخروج يخدم تاريخ الأدب، وهذا ما نجده في موقفه من الموشحات والأزجال، التي عادة ما يحجم كتاب التراجم والمجاميع الأدبية القدماء عن إدراجها في مصنفاتهم. فقد أدرج هذه الفنون الشعرية المستحدثة في آخر قسم من أقسام المنظوم، من كتاب النبوغ. كما خصها بحديث مسهب كلما تحدث عن مظاهر الخصوصية في الأدب المغربي أو الأندلسي .

6 - تفصح منتخبات الأستاذ گنون - خصوصا الشعرية منها - عن ذوقه المرهف، وإحساسه المفرط بالقيم الجمالية والفنية التي هي أساس الأدب الرفيع. كما تعبر من جهة أخرى عن مفهومه للأدب، وتصوره للأبداع، وليس هذا بالأمر الغريب، فهو شاعر قبل أن يكون مؤرخا للأدب وناقدا. وإذا صح ما قيل في أبي تمام، من أنه في حماسته أشعر منه في شعره (24) ، فإن الأستاذ عبد الله گنون في منتخباته ومختاراته أشعر منه في شعره.

---

(24) - د. أمجد الطرابلسي : نظرة تاريخية في حركة التاليف عند العرب. ص 117.

الفصل الرابع

البيبليوغرافيا

اللوائح البيبليوغرافية واخبار الكتب

فهارس الخزانات والاعلام

البيبليوغرافي

البيبليوغرافيا

لا أحد يشك في أهمية الوثيقة بالنسبة للتاريخ الأدبي، والكتاب في صوره المختلفة، يعتبر على رأس الوثائق التي يمكن أن تنبئنا عن التطور الذي عرفته مرحلة من مراحل التاريخ الأدبي، ومن هنا نجد مؤرخي الأدب يذيلون كلامهم عن الأدباء، بلوائح لمصنفاتهم، ويتحدثون عن النهضة التي عرفتها حركة التأليف، وعن الخزانات ودور الكتب، وما كانت تزخر به من نوادر المخطوطات ونفائسها، بل قد يشيرون إلى رحلة بعض الكتب في الزمان والمكان، وما أثارته من نقاش وجدل، وما تعرضت له من مصادرة أو إحراق، وهم بعملهم هذا، يصنعون تاريخا للكتاب، إلى جانب تاريخ التراجم وأخبار الأدباء .

وتكمن أهمية هذا التاريخ البيبليوغرافي في شيئين أساسيين : في الإخبار عن الكم المعرفي الذي عرفته حقبة تاريخية معينة، وفي الإعلام بأماكن وجود الكتب، وأحجامها، ومواصفاتها. ولا تخفى أهمية هذا الإعلام، بالنسبة للدارسين، ومحققي التراث على السواء.

ويوضح "شارل فكتور لونكلوا" أهمية العمل البيبليوغرافي، والدور المنوط به، في أسئلة مركزة يقول فيها : «كيف العمل ليصبح الجمهور قادرا على الاستعلام، بسرعة ودقة، عن مصادر كل نوع تقدمه المكتبة الضخمة المثقلة بآثار الكتاب من جميع العصور والبلدان، أي بتراث البشرية الأدبي والعلمي ؟ كيف يرتب هذا التراث بطريقة تتيح لأصحاب الشأن التمتع به تمتعا كاملا ومريحا ؟ هذا هو أشمل الإيضاحات للمشكلة البيبليوغرافية» (1).

إن حل هذه المشكلة التي صاغها لونكلوا في أسئلة، يكمن في الاهتمام بالكتب في حد ذاتها، بتاريخها وفهارسها وقيمتها الذاتية. وانطلاقا من هذا، يصبح من مهام البيبليوغرافيا : «دراسة الفهارس التي وصفت فيها الكتب وصنفت، والتي يجب الرجوع إليها باستمرار سواء أكان لتحقيق هوية الكتاب أم للاستعلام عما نشر حول الموضوع» (2).

---

(1) - لويز نويل مالكليس : البيبليوغرافيا. ص 8.

(2) - المرجع نفسه. ص 17.

ومن مؤرخي الأدب العربي الأوائل، الذين لفتوا الانتباه إلى أهمية العمل البيبليوغرافي وضرورته، المستشرق الألماني كارل بروكلمان، في كتابه : تاريخ الأدب العربي، إذ لم يقف في درسه لهذا الأدب عند البحث الموضوعي، بل شاء أن يضيف إليه قسطا من البيبليوغرافيا. فهو في حديثه عن أعلام الفكر والأدب العربي، لا يقنع بأن يعرف بهم، ويشرح آراءهم، بل يحرص على أن يسجل إنتاجهم، مخطوطا كان أو مطبوعا، ويشير إلى الدراسات التي اتصلت بهم قديمة كانت أم حديثة. وبذلك نستطيع أن نعد كتابه دليلا ببليوغرافيا بقدر ما هو كتاب في تاريخ الأدب.

وقد سار مؤرخو الأدب العربي على هذا النهج، الذي سنه لهم بروكلمان، مع اختلاف فيما بينهم في الأهمية الكبيرة التي يعطون لهذا الجانب البيبليوغرافي. أما الأستاذ عبد الله كنون، فإن مؤلفاته تشهد بالأهمية التي أولاها للبيبليوغرافيا، كما تشهد بوعيه بالمكانة التي يشغلها البحث البيبليوغرافي في مجال الدراسة الأدبية، وما يسديه من خدمات لعموم الدارسين.

وإذا كان من المهام التي على البيبليوغرافيا أن تنهض بها حسب لونكلوا، توضيح كيفية ترتيب التراث، بطريقة تتيح الإفادة منه، والإعلام بسرعة ودقة عن مصادر هذا التراث، فإن الأستاذ عبد الله كنون بجهوده المتفرقة في ميدان البيبليوغرافيا، قد ساهم بفهارس ولوائح عن كتب التراث - مجملة تارة ومفصلة تارة أخرى - وعن محتويات بعض الخزانات، كما ساهم من جهة ثانية في الإعلام البيبليوغرافي، بالإخبار عن أماكن وجود الكتب، وعن محتوياتها. وانطلاقا من هذا، يمكن أن نقسم نشاطه في هذا المجال قسمين رئيسيين :

1 - اللوائح البيبليوغرافية وأخبار الكتب.
2 - فهارس الخزانات والإعلام البيبليوغرافي.

1 - اللوائح البيبليوغرافية وأخبار الكتب :

من الجوانب التي عني بها الأستاذ كنون، في تاريخه للأدب المغربي، إثبات مؤلفات الأدباء والعلماء، وقد سلك في ذلك طرائق مختلفة، تبعا لاختلاف مؤلفاته في هذا التاريخ، ففي النبوغ نجد ذكر الكتب والتصانيف في التراجم للأدباء أولا، وفي لوائح خاصة ثانيا، ينهي بها الحديث عن الحركة

العلمية، وتراجم العلماء في كل عصر، وغالبا ما يسمي هذه اللوائح "جريدة" يقول عن آثار العلماء في العصر الموحدي : «وهذه جريدة بأهم آثار العلماء والأدباء في هذا العصر، مما وقفنا على تسميته، من كتب ورسائل ودواوين شعرية منسوبة لأصحابها » (3).

وقد رتبت الكتب داخل هذه اللوائح، حسب الموضوعات، التي قد يلحقها تغير طفيف في بعض العصور، بسبب نشاط حركة التأليف في مجال دون آخر. لكن رغم ذلك، فالمؤلف حاول احترام خطة واحدة في جميع العصور، ففي العصر الموحدي مثلا نجد المواضيع الآتية بالتتابع : كتب التفسير والحديث وتوابعها، كتب الفقه والتصوف،كتب الكلام والأصول، كتب التراجم والسير، كتب التاريخ والجغرافيا، كتب الآداب والدواوين الشعرية، كتب النحو واللغة، كتب حكمية ورياضية. ومما يلاحظ في هذا السياق، أن المؤلف لم يخضع كتب الموضوع الواحد لترتيب معين، كما أنه أبقى على عناوين الكتب الكاملة دون اختصار.

أما الطريقة الثانية، التي سلكها في إثبات الكتب، فهي ما نجده في تراجمه للأدباء، سواء في النبوغ، أم في سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، فقد اعتاد أن يذيل هذه التراجم، بكتب شخصياته، جاعلا إياها الأثر الذي يخلفه الأديب، معلنة عنه بعد وفاته، وبها تختم ترجمته. فمن ذلك مثلا، قوله في خاتمة ترجمة القاضي عياض، بعد ذكر سنة وفاته :

«وللقاضي عياض التصانيف البديعة، منها إكمال المعلم في شرح مسلم، كمل به معلم شيخه المازري. ومنها كتاب الشفافي التعريف بحقوق المصطفى...» (4). وهذه هي السنة التي درج عليها في أغلب تراجمه، لكننا نجده يخرج عنها في بعض الأحيان، فيذكر المصنف أو الكتاب مع بداية الترجمة، مقرونا بالمترجم، خصوصا إذا كان هذا الكتاب مشهورا ذائع الصيت، ومن ذلك ما قاله في ترجمة أبي موسى الجزولي : «كان إماما في النحو، كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، وصنف فيه المقدمة التي سماها بالقانون، فأتى فيها بالعجب العجاب» (5). ثم ينتقل بعد الإسهاب في فضل هذه المقدمة وقيمتها،

---

(3) - النبوغ. ط 3. ص 168.

(4) - المرجع نفسه. ص 96.

(5) - المرجع نفسه. ص 161.

إلى ذكر سفر أبي موسى، وما تقلب فيه من وظائف ويختم حديثه بذكر سنة وفاته. والخطة نفسها سلكها في ترجمة الحسن المراكشي، يقول عنه : «هو العالم الرياضي الشهير مؤلف كتاب المبادئ والغايات في علم الميقات، الذي يقول فيه صاحب كشف الظنون... الخ» (6).

ونخلص من قراءتنا للمواطن التي ذكرت فيها الكتب، سواء في بداية الترجمة أو في نهايتها، إلى جملة من الملاحظات، وهي كالآتي :

1 - حظيت بعض الكتب والمخطوطات بالوصف الموجز لمضمونها، خصوصا المشهورة منها، مما كشف عن محتواها العلمي، كالمعجب (7) لعبد الواحد المراكشي، ومناهل الصفا (8) للفشتالي، وذلك رغبة من المؤلف في إطلاع عموم الناس على محتوى هذه الكتب خصوصا الذين لا تتيسر لهم سبل الاطلاع عليها مباشرة، يقول عن كتاب القرطاس، لابن أبي زرع، موضحا هذه الغاية : «بقي أن نقول كلمة في كتابه القرطاس، وقيمته التاريخية، وإن كان ذلك من الخبر بمعلوم عند المشتغلين بهذا الفن، إلا أنه ليس كل الناس من المشتغلين بالتاريخ، حتى يقدروه حق قدره، ونحن نكتب هذه التراجم لعموم المثقفين، فكم منهم لم يتح له الاطلاع عل هذا الكتاب القيم، ولا أن يتخذ عنه نظرة ولو سطحية» (9).

لقد كان الأستاذ گنون بهذا التصريح، على وعي بالمنفعة التي يمكن أن تسديها هذه النبذ عن مضامين الكتب، التي تتخلل تأريخه البيبليوغرافي .

من مظاهر وصف الكتب أيضا، إشارته أحيانا إلى ترجمة بعضها إلى لغات عالمية أخرى، وهو بهذا الصنيع يلفت النظر إلى أهميتها وقيمتها المعرفية، فالأجرومية ترجمت الى لغات عديدة : «كاللآتينية والأنجليزية، والألمانية، والفرنسية، وكانت أولى طبعة لها بروما، سنة 1592 » (10). كما أن كتاب

---

(6) - المرجع نفسه. ص 166.

(7) - عبد الواحد المراكشي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 22.

(8) - عبد العزيز الفشتالي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 26.

(9) - ابن أبي زرع : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 28.

(10) - ابن آجروم : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 23.

التلخيص في الحساب، لابن البناء العددي : «نقل إلى الفرنسية في القرن الماضي، بمعرفة الأستاذ أريستدمار، وطبع غير مرة، كما نقلت محتوياته، وأطراف من شروحه إلي الفرنسية وغيرها قبل ترجمته كاملا » (11).

2 - ذكر تاريخ وظروف تصنيف بعض الكتب :

إن زمن تأليف الكتاب، وظروف وملابسات هذا التأليف، هي جزء من تاريخه، إذ لا يمكن أن نفهم بعض الكتب الفهم الصحيح، دون أن نضعها في سياقها الزماني والمكاني، ودون أن نتعرف على بواعث تأليفها وظروف هذا التأليف. واستشعارا من الأستاذ كنون بالأهمية التيّ تحتلها هذه الظروف، نجده يقف عندها مرارا أثناء حديثه عن بعض الكتب المشهورة، من ذلك قوله عن كتاب المعجب، لعبد الواحد المراكشي : «وتحل سنة 621 هـ فإذا بصاحبنا في بغداد ، في خدمة أحد وزراء الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ويسأله هذا الوزير أن يؤلف له كتابا في أخبار المغرب، وتقويمه، وسير ملوكه، وخصوصا بني عبد المومن... فيجيب السؤال، ويؤلف كتاب المعجب... وهذه قصة تكررت مرارا ... هكذا كتب أبو عبد الله الحميدي في بغداد نفسها كتابه "جذوة المقتبس"، وكتب أبو الخطاب بن دحية في مصر وفي نفس هذا العصر كتابه : «المطرب من أشعار أهل المغرب»، وكتب أبو العباس المقري في دمشق موسوعته الأندلسية الضخمة : "نفح الطيب" (12).

وقد يشير في بعض الأحيان، أثناء حديثه عن ظروف تأليف الكتاب، إلي مكان وجوده. فمن التآليف التي ألفت باسم أبي الربيع سليمان الموحدي «كتاب في شيوخ ابن وهب ومناقبه، لابن بشكوال، ألفه بطلب منه. وتوجد نسخة منه بخط المؤلف في خزانة الأخ المجاهد ابراهيم الكتاني» (13) ومنها أيضا «شرح ألفية ابن سينا الطبية، لابن رشد الفقيه، فإنه أيضا ألف باقتراح من المترجم، وتوجد نسخة منه بمكتبة أخينا الاستاذ محمد المنوني» (14). وهذه الإشارة إلى مكان وجود الكتب المخطوطة تسدي للمحققين فوائد جليلة، وتخفف عنهم عبء البحث والتنقيب .

---

(11) - ابن البناء العددي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 25.

(12) - عبد الواحد المراكشي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 22.

(13) و (14) - أبو الربيع سليمان الموحدي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 15.

3 - الوصف المادي للكتاب :

أولى الأستاذ عبد الله كنون في حديثه عن الكتب، اهتماما كبيرا للوصف المادي لها. أو ما يصطلح عليه المحدثون : «البيليوغرافيا التحليلية "وهي تهتم" بالوصف المادي للكتاب من حيث ورقه، وطبعاته، ونوع حروفه، وعدد ملازمه، وعلامات الطابعين، وغير ذلك» (15). وقد عرف القدماء البيبليوغرافيا التحليلية تحت اسم الوراقة والوراقين. في هذا السياق وقف الأستاذ كنون عند حجم بعض الكتب وخطها وأشار إلى طبعها إن طبعت، ففي ترجمته لابن زاكور يشير إلى ما هو مطبوع أو مخطوط من كتب هذا الشاعر، فعنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة يقع في ثلاثة أسفار، وهو مخطوط، ومقباس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد مخطوط أيضا. ونشر أزاهر البستان في من أجازني بالجزائر وتطوان، وهي رحلته مطبوعة (16)، ويقول عن رحلة ملء العيبة، لابن رشيد مركزا على هذا الوصف المادي : «... وقد اختلفت كلمة المؤرخين في عدد أسفارها، فمن قائل إنها أربعة، ومن قائل إنها ستة، والموجود منها بمكتبة الإسكوريال بإسبانيا خمسة أجزاء، أربعة منها بخطه، وواحد وهو الخاص بمصر بخط مغاير، وفي بعض هذه الأجزاء خصاص من ورقة أو ورقتين، ... وقد كانت هذه النسخة في ملك الإمام أبي العباس أحمد الونشريسي، والعلامة أبي العباس أحمد المنجور وعليهما خطهما، كما تخللتها خطوط غيرهما من العلماء من أسمعة وإجازات مختلفة» (17) هكذا يجمع المؤلف في هذه الفقرة، مجموعة من الأوصاف المادية، كالحجم، واختلاف الخط، وهذا شاهد على معاينته لهذه النسخة.

4 - الأنساب بين الكتب :

اهتم الأستاذ كنون في تاريخه البيبليوغرافي بالأنساب التي تجمع بين الكتب والصلات بينها، فقد تتكرر المادة الأدبية في مجموعة من التصانيف التي تربط بينها أواصر القربى والنسب، وقد يتتابع جمع من المصنفين ينتمون إلى أجيال متباعدة على مادة بعينها، تصنيفا، وشرحا، وتذييلا، وتقييدا، وتعليقا. في هذا السياق نجده يتحدث في لوائحه البيبليوغرافية عن الكتب

---

(15) - د. عبد الستار الحلوجي : مدخل لدراسة المراجع. ص 77..

(16) - ابن زاكور : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 16 - 17.

(17) - ابن رشيد : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 13.

والمختصرات والشروح والحواشي والذيول والتّقييدات، بل يعمد في أحيان أخرى إلى تتبع سلاسل بعض الكتب الأدبية من الأصل الذي صدرت عنه، إلى آخر ذيل أو تكملة، من ذلك مثلا : إكمال المعلم في شرح مسلم للقاضي عياض، كمل به معلم شيخه المازري. ومن ذلك الآجرومية، التي اعتنى بها العلماء عناية كبيرة، فشرحوها شروحا عديدة، ونظموها، وشرحوا هذه الانظام وحشوا عليها، «فمن أشهر شروحها شرح أبي عبد الله الشريف، من أهل فاس... وشرح الراعي النحوي الأندلسي المشهور... ومن شروحها المختصرة، شرح العلامة المكودي... ومما كتب عليها في غير أسلوب الشروح كتاب متممة الآجرومية للعلامة الحطاب... أما النظم فقد نظمها علي بن حسن الشافعي المقري.» (18).

ولمزيد من توضيح هذه السلاسل البيليوغرافية يقول عن ابن فرتون : «ألف الاستدراك على كتاب السهيلي، المسمى بالتعريف والاعلام، كما ألف كتابه الذيل على صلة ابن بشكوال، فكان أول من فتح باب التذييل عليها الذي تبعه فيه ابن الزبير، وهو تلميذه بكتاب صلة الصلة، وابن عبد الملك المراكشي بكتاب الذيل والتكملة، وابن الأبار بكتاب التكملة، وكان كتاب ابن فرتون مادة لجميعهم» (19).

هكذا يشير إلى الكتب التي توافقت في موضوع واحد، وأسهمت في إغنائه بالإضافة والتكملة، وهذه الطريقة في الربط بين الكتب تنبهنا إلى بعض المجالات الثقافية التي نشطت فيها حركة التأليف، بل ربما أوقفتنا على اتجاه أو مدرسة في التأليف كانت سائدة في عصر معين، ونجد هذه الصلة بين الكتب فيما يسميه المحدثون اليوم بالببليوغرفيا النسقية وهي التي : «تحصي الإنتاج الفكري في موضوع ما... وبعضها تكتفي بالوصف كالذريعة، ومعجم المطبوعات، وإيضاح المكنون، وبعضها الآخر يتجاوز الوصف إلى تقييم الكتب والمؤلفين، كما في مفتاح السعادة، وبعض المواضيع من الفهرست» (20).

2 - فهارس الخزانات والاعلام البيليوغرافي :

---

(18) - ابن آجروم : ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 10 - 21 - 22.

(19) - النبوغ. ط 3. ص 164.

(20) - عبد الستار الحلوجي : المدخل لدراسة المراجع. ص 84 - 87.

أ - المخطوطات العربية في تطوان :

عني الأستاذ عبد الله كنون، في إطار اهتماماته البيليوغرافية، بوضع فهارس للمخطوطات الموجودة في بعض الخزانات، شعوراً منه بأهمية هذه المخطوطات وحاجة الدارسين إليها. وفي هذا الإطار كتب مقالة قيمة نشرها في مجلة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية، في العدد الثاني من السنة الأولى، تحت عنوان : المخطوطات العربية في تطوان .

وقد اهتم في مخطوطات هذه المدينة بما له : «أهمية علمية، أو تاريخية أو فنية» (21)، وترك ما دونها، إذ إن أغلبها من كتب الدراسة الفقهية أو النحوية المتداولة، وأكثرها مطبوع عدة مرات. والخزانات التي توجد فيها هذه المخطوطات، هي خزانة المعهد الديني العالي، والمكتبة العامة، ومكتبة السيد البزيد بن صالح حاكم تطوان آنئذ .

ولئن كان هذا العمل يتصف بالانتقاء، إذ إنه لم يشمل جميع المخطوطات الموجودة في هذه الخزانات، فإنه يصح إدخاله ضمن عمل المفهرسين، لأن صاحبه سلك فيه خطة جلية، ومنهجا واضح المعالم في وصف كل مخطوط وإن لم يصرح بهذا المنهج، ويمكن تلخيص خطواته فيما يأتي :

1 - ذكر اسم المخطوط كاملا، ولا ندري هل وردت أسماء هذه المخطوطات تامة، أم أن المفهرس أهتدى عن طريق التقد الداخلي إلى بعض هذه العناوين.

2 - ذكر اسم المؤلف : حرص الأستاذ كنون على ذكر اسم المؤلف مقرونا بكتابه، فالبيان والتحصيل لابن رشد الفقيه، وفتح المتعال، للحافظ المقري (22)، غير أنه لم يذكر سنة وفاة المؤلفين، ولا العصور التي عاشوا فيها .

3 - الوصف المادي للمخطوط : ذكر في هذا السياق حجم المخطوط، ونوع خطه، كما نبه على البتر والخروم إن حصلت، فالبيان والتحصيل لابن رشد الفقيه، «نسخة في عشرة مجلدات؛ ينقصها الأول والثاني، وبقية المجلدات الثمانية في حجم كبير» (23).

---

(21) - المخطوطات العربية في تطوان، كتاب خل وبقل. ص 120.

(22) - المرجع نفسه. ص 124 - 125.

(23) - المرجع نفسه. ص 124.

كما يشير إلى نوع الخط، وعلاقة ذلك بالصحة والضبط، فالمنزع البديع للإمام أبي محمد القاسم بن محمد "بخط مغربي جميل" (24)، كما يميز بين أنواع الخطوط، فكتاب التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للحسن الصنعاني، "بخط مشرقي واضح" (25). وكتاب المبتدا لمقاتل بن حيان "جزء وسط بخط أندلسي جميل" (26). وما من شك في أن هذه الأوصاف التي يضيفها على الخطوط كالوضوح، والجمال، والضبط، والصحة، ستفيد الدارسين والمحققين، وستدفعهم إلى الإقدام على الإفادة من هذه المخطوطات وتحقيقها ونشرها. بل إن الأستاذ كنون، يفصح عن هذا الأمل أثناء حديثه عن بعض المخطوطات المهمة، فكتاب الكتيبة الكامنة لابن الخطيب «نسخة مغربية على جانب من الصحة، مع ندرة النسخ الصحيحة من هذا الكتاب، خطها دقيق وهي تنفع في نشر الكتاب، الذي كلما حاوله المعتنون لم يتهيأ لهم.» (27).

وفي إطار هذا الوصف المادي للكتاب، نجده يميز بين النسخ العادية والنسخ الملوكية والأميرية، التي كتبت لملك أو سلطان، فنسخة كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني «نسخة أميرية، والذي رأيته منها عدة أجزاء، وهي بخط مشرقي جميل، وقد محي اسم الأمير الذي نسخت له من الورقة الأولى من كل جزء» (28).

وقد جاء اهتمام الأستاذ كنون بالخط وضبطه، وعيا منه بأهمية ذلك في صحة المنقول، والثقة بالمنسوخ، ويعتبر هذا استمرارا لاهتمام القدماء بالخط، خصوصا في عصر المخطوطات والناسخين.

4 - اسم الناسخ وتاريخ النسخ : حرص الأستاذ كنون على ذكر الناسخ ما وجد إلى ذلك سبيلا، كما حرص من جهة أخرى على ذكر تاريخ النسخ، وظروفه. من ذلك مثلا أن نسخة كتاب التوشيح في مشكلات الجامع الصحيح

---

(24) - خل ويقل. ص 126.

(25) - المرجع نفسه. ص 128.

(26) - المرجع نفسه. ص 132.

(27) - المرجع نفسه. ص 140.

(28) - المرجع نفسه. ص 144.

«بخط العربي بن علي بن عمر التطواني كتبها في العشرة الرابعة بعد المائة والألف» (29).

وأن تاريخ نسخ كتاب الأبيات المقصورة للشيخ "عبد القادر بن محمد" حديث جدا : (4 ربيع الأول 1345 ، 11 اكتوبر 1926) وناسخه عبد العزيز عطية خطاب حمودة الطالب بالأزهر الشريف (30) بل نجده في بعض الأحيان، ينوه بضبط الناسخ وصحة نقله. فمصطفى بن علي ناسخ كتاب الفهرست لابن النديم «كان على جانب من الضبط والإتقان، فإنه ينبه على أماكن البياض التي لم يذكر فيها الاسم المطلوب، أو التاريخ أو المكان مثلا» (31).

وإذا كان المخطوط بخط المؤلف، فإنه يشير الى ذلك، ولا تخفى قيمة هذه الإشارة، أثناء المقابلة والمفاضلة بين النسخ المتعددة للكتاب الواحد. فديوان مصباح الشاعر المغربي» بخط الشاعر نفسه وتاريخه سنة 1136 هـ» (32).

5 - ذكر مصدر بعض المخطوطات : يشير المفهرس أحيانا إلى المصدر الذي أتى منه المخطوط إلى الخزانة، عن طريق التحبيس أو الوقف. من ذلك أن كتاب فتح المتعال في مدح النعال «من تحبيس السلطان على الجامع الأعظم بتطوان عام 1084 هـ» (33)، والشيء نفسه في كتاب النوادر لابن أبي زيد القيرواني، في الفقه المالكي، وكتاب التوشيح في مشكلات الجامع الصحيح لجلال الدين السيوطي (34).

6 - ذكر موضوع المخطوط : درج الاستاذ كنون في وصفه للمخطوطات على ذكر موضوعها، فكتاب المنزع البديع «كتاب قيم، في موضوع التجنيس والبديع والبيان، والبلاغة على العموم، ونفسه عال، وتقسيمه مبتكر، وشواهده من شعر الأقدمين وبلغاء المولدين، وبالجملة فإنه حلقة مهمة تنقص الدارسين

(29) - المرجع نفسه. ص 126.

(30) - المرجع نفسه. ص 134.

(31) - المرجع نفسه. ص 134.

(32) - المرجع نفسه. ص 142.

(33) - المرجع نفسه. ص 125.

(34) - المرجع نفسه. ص 126.

للبلاغة العربية وتاريخها وما أحراه بالنشر.» (35)، وكتاب وساطة السلوك في سياسة الملوك للسلطان أبي حمو موسى «يشتمل على أربعة أبواب : الباب الأول في الوصايا والآداب، والثاني في قواعد الملك وأركانه، والثالث في الأوصاف التي هي نظام الملك، والرابع في الفراسة، وفي كل باب فصول» (36).

والمعلومات حول مضمون الكتاب وفصوله، تفيد المحققين وعموم الدارسين فائدة كبيرة، إذ تهديهم إلى المواطن التي تدخل في نطاق اهتمامهم، دون تعب أو عناء، ومن ثم فإننا لا نتفق مع الدكتور صلاح الدين المنجد، الذي يحصر عمل المفهرسين في الوصف ليس غير، حين يقول : «أما طريقتنا التي نراها أقرب إلى السداد... فتهدف إلى التمييز بين دراسة المخطوط ووصفه أي فهرسته، فالفهرسة هدفها بمعناها الذي نقصده هو وصف المخطوط ، وتقديم كل ما يقدم لنا صورة دقيقة عنه، لا دراسة موضوعه، وتبيان أبوابه وفصوله» (37).

7 - الإشارة إلى بعض المخطوطات التي نشرت :

في إطار الإخبار والإعلام البيبليوغرافي، يشير الأستاذ كنون إلى المخطوطات التي طبعت، كفتح المتعال في مدح النعال للحافظ المقري، الذي طبع بالهند (38)، وكتاب وساطة السلوك في سياسة الملوك، الذي طبع في تونس (39). غير أن هذه النسخ يمكن أن تعيننا في إعادة نشر هذه الكتب، وتحقيقها تحقيقا علميا.

وقد حصل الشيء نفسه بالنسبة لكتاب الفهرست لإبن النديم الذي طبع عدة طبعات، غير أن النسخة الموجودة في المكتبة العامة بتطوان لهذا الكتاب «يمكن أن يستعان بها في تصحيحه عند إرادة طبعه طبعة علمية محققة، وإن كانت على ما يلوح تتوافق هي والنسخة المطبوعة، حتى قد يظن أنها منقولة عنها. إلا أن هذه الملاحظات الصغيرة التي بدت لنا عند تصفحها السريع،

---

(35) - المرجع نفسه. ص 127.

(36) - المرجع نفسه. ص 131.

(37) - صلاح الدين المنجد : قواعد فهرسة المخطوطات العربية. ص 60.

(38) - خل وبقل. ص 125.

(39) - المرجع نفسه. ص 132.

تجعلنا نجزم أنها نقلت من أصل آخر. فضلا عن تقدم تاريخها، وهو عام 1327 على تاريخ المطبوعة، الذي هو عام 1348 » (40).

ونشير بعد كشفنا عن الخطة التي سلكها الأستاذ كنون في هذه الفهرسة إلي جملة من الملاحظات وهي كالتالي :

أ - لم يشر المفهرس إلى فاتحة المخطوط، ولا إلى خاتمته، ففاتحة المخطوط تفيدنا في معرفة بدايته، والتأكد تبعا لذلك من صحته، إذا ما قورن بمخطوط آخر للكتاب نفسه، كما تتجلى أهمية هذه الفاتحة في أنها كثيرا ما تتضمن ظروف التأليف. أما خاتمة المخطوط التي تسبق عادة تاريخ النسخ واسم الناسخ، فتفيدنا في معرفة تاريخ النسخ واسم الناسخ «ويفضل أن يذكر ما في الخاتمة دون تلخيص» (41).

ب - لم يذكر عدد أوراق المخطوط، وهذا يفيدنا أيضا في معرفة النسخة الناقصة أثناء المقابلة والمفاضلة بين النسخ، كما لم يذكر مسطرتها، وهذه معلومات تفيد المقبلين على التحقيق.

ج - لم يشر إلى كون المخطوط مشكولا أو مهملا من الشكل، إذ نجده يكتفي بقوله إن الخط جيد أو جميل أو واضح أو دقيق.

د - لم يخضع المخطوطات لترتيب معين ، حسب الموضوعات أو حسب أسماء المؤلفين مرتبة على حروف الهجاء. ولعل سبب ذلك يرجع إلى قلة عدد هذه المخطوطات، إذ إنه اكتفى بالمهم في هذه الخزانات .

ب - أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر :

لم تنحصر جهود الأستاذ عبد الله كنون، في ميدان العمل البيبليوغرافي، في إطار وضع فهرسة للمخطوطات ذات الأهمية كالتي توجد في خزانات تطوان، بل نجده يحقق وثائق شخصية لعلماء من المغرب، تحتوي على تسمية للكتب

---

(40) - المرجع نفسه. ص 135.

(41) - صلاح الدين المنجد : قواعد فهرسة المخطوطات العربية. ص 63.

التي تضمنتها خزائنهم، ما بين مطبوعة ومخطوطة، وإن كانت المخطوطات هي الغالبة عليها. ويحدد فائدة هذه الوثائق فيما يلي :

1 - تفيدنا هذه الوثائق من الناحية الإعلامية في معرفة الكتب النادرة والمفقودة ، أو التي في حكم المفقودة، إذ «ليس ما يهدينا إلى أماكن وجودها المحتمل، إلا مثل هذه الوثائق التي تؤرخ وجودها في فترة من فترات التاريخ، في جهة من جهات الدنيا فقد يهدينا البحث على ضوء هذه الوثائق، إلى العثور عليها في المكان الذي كانت توجد فيه، مدينة أو قرية، أو فيما يقرب منه» (42).

2 - تفيدنا أيضا في معرفة مؤلفات صاحب الخزانة، والتي ربما لا تذكر في ترجمته كاملة، لخفاء أمرها على من ترجموا له.

3 - تجعلنا نتعرف على نوع ثقافة أصحاب هذه الخزائن، وعلى الكتب التي كانت وراء ثقافتهم، وتكوينهم العلمي.

4 - تفيد مؤرخ الأدب أخيرا، في كتابة تراجم هؤلاء العلماء إذ إن «من أهم المقاصد في معرفة محتويات خزائنهم، الاستعانة بها على ترجمتهم، وتحديد اتجاههم العلمي» (43).

وأولى هذه الوثائق، تقييد لكتب العلامة المؤرخ أبي الربيع سليمان الحوات، والملاحظ فيها، أن كاتبها لا يذكر اسم مؤلف الكتاب في بعض الأحيان، والوثيقة الثانية هي للفقيه أبي حامد العربي الزرهوني، وهي شبه فهرسة لمحتويات خزانته، عملها لنفسه على سبيل التذكرة. وثالثة هذه الواثائق، لأبي العباس أحمد الوداني الشنقيطي. أما الوثيقة الرابعة، فهي لأبي عبد الله محمد بن المدني كنون.

ونشير في الأخير، إلى أن هذه الوثائق على أهميتها، لا ترقى إلى مستوى الفهارس البيبليوغرافية المنظمة والمفصلة، لافتقارها أولا إلى شروط

---

(42) - أربع خزائن لاربعة علماء من القرن الثالث عشر. ص 48.

(43) - المرجع نفسه. ص 55..

الفهرسة التي تقدم الحديث عنها، ولأنها ثانيا لم توضع من طرف مفهرسين مختصين، هذا بالإضافة إلى الظروف التي وضعت فيها، إذ إن بعضها، وضع لغايات أخرى غير ببليوغرفية، كإحصاء تركة الهالك بما فيها الكتب. فالوثيقة الثالثة هي إحصاء لمتروك أبي العباس الوداني الشنقيطي بفاس ومراكش وتقويمه، وقسمته بين ورثته، كما أن الوثيقة الرابعة، عبارة عن رسم عدلي، لتركة الفقيه أبي عبد الله محمد بن المدني كنون. غير أن هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة هذه الوثائق، ومن فائدتها التي سلف الحديث عنها، وإلا فلم أقدم الأستاذ كنون على تحقيقها ؟.

ومن مظاهر الإعلام الببليوغرافي عند الأستاذ عبد الله كنون أخيرا، تلك المقالات التقريظية، التي عرف فيها ببعض الكتب الحديثة النشر، ورغم صلة هذه المقالات بما نحن بصدده، فقد آثرنا إرجاء الحديث عنها الى فصل آخر (44) لأسباب منهجية.

نخلص في نهاية هذا الفصل، إلى أن الاهتمام الببليوغرافي لم يكن عرضيا في كتابات الأستاذ عبد الله كنون. فقد شكل دعامة أساسية من دعائم مفهومه لتاريخ الأدب، وجاء موزعا بين التاريخ للكتب في حد ذاتها. لحياتها، ورحلتها في الزمان والمكان، والأنساب والعلاقات بينها، كما تجلى في وضع لوائح وفهارس تمكن الدارسين والمحققين من الوقوف على ما يدخل في نطاق اهتمامهم.

---

(44) - انظر مقالة التعريف بالكتب، الفصل الثالث من الباب الثاني.

الفصل الخامس

ملامح نقدية في تاريخ الأستاذ كنون للأدب

مفهوم الأدب

الظواهر والقضايا الأدبية

المقاييس النقدية

ملامح نقدية في تاريخ الأستاذ كنون للأدب

من القضايا الأساسية التي طرحت بإلحاح في مجال الدراسة الأدبية، قضية العلاقة بين النقد وتاريخ الأدب، والحدود الفاصلة بينهما. فإذا كان النقد الأدبي، ينظر إلى الأدب كنظام غير خاضع لاعتبارات الزمن، فإن الأساسي في تاريخ الأدب، هو النظر إلى الأدب كسلسلة من الأعمال المنظمة حسب نسق زمني تاريخي، واعتباره من جهة أخرى جزءا مكملا للعملية التاريخية. هناك اختلاف اخر بين الناقد ومؤرخ الأدب، يتجلى في طريقة تعاملهما مع النصوص، فعمل مؤرخ الأدب : «هو إبداع النص أو التنصيص :TEXTIFICATION على حين أن عمل الناقد الأدبي هو تحليل النص أو تفكيكه : DETEXTIFICATION (1) . فمؤرخ الأدب يبدع النص، أي يصنعه عن طريق تحقيقه، ونقده نقدا تاريخيا وفيلولوجيا، ووضعه في سياقه الزمني والتاريخي، ليأتي الناقد، فيفك شفرته عن طريق الشرح أو التعليق أو التفسير أو التأويل. لكن على الرغم من هذه الفروقات الجوهرية بين تاريخ الأدب والنقد، وبين عملي كل من الناقد والمؤرخ للأدب. فإن هناك تداخلا بين هذين النمطين من الدراسة الأدبية، إذ من المستحيل إقامة صرح تاريخ الأدب، دون دراسة أعمال أدبية بعينها، وتصنيفها وفق مفاهيم وتصورات خاصة لطبيعة الأدب ووظيفته. فالوقائع التاريخية سواء كانت أدبية أم غير أدبية، ليست شيئا نعثر عليه وإنما هي شيء نصنعه، وصنعها لا ينفصل عن تأويلها، ومن ثم فإن : «أحكام القيمة تدخل في صميم اختيار المواد الأولية، تدخل في التمييز التحضيري البسيط بين الكتب وبين الأدب، وفي مجرد فرز مكان مخصص لهذا الكاتب أو ذاك. حتى إن توثيق تاريخ ما، أو عنوان ما ليفترض مسبقا نوعا من أنواع الحكم، الحكم الذي ينتقي هذا الكتاب أو هذه الحادثة من بين ملايين الكتب أو الحوادث...» (2).

ويتجلى النقد في تواريخ الأدب، بطريقة ضمنية تفصح عن نفسها في الاختيارات والمنتخبات، فعملية الانتقاء تخضع لمعايير قلما يفصح عنها المؤرخ، يرتد بعضها إلى ذوقه وثقافته، بينما يرتد البعض الآخر إلى معايير أخلاقية أو إديولوجية. كما أن الطريقة التي يعرض بها المؤرخ النص، كثيرا ما تشي ببعض المقاييس النقدية، فهو يعرض النص أمام القارئ في وضع مكاني وزماني معين،

---

(1) - آلن دوجلاس : المؤرخ والنص والناقد الادبي. مجلة فصول. ع 1. 1983. ص 96.

(2) - ريني ويليك : نظرية الادب. ص 48.

مع بعض الأحكام القيمية، والتعليقات السريعة التي تؤطر هذا النص. نخلص في الأخير إلى أنه من المستحيل وضع تاريخ للأدب دون بعض أحكام القيمة، ودون الانطلاق من تصور خاص للأدب «ومؤرخو الأدب الذين ينكرون أهمية النقد، هم أنفسهم نقاد دون أن يشعروا ويكونون في العادة نقادا ثانويين، يتخذون الشهرة والمقاييس التقليدية أساسا لأحكامهم.. والناقد الذي يقنع بجهله في حقل العلاقات التاريخية، سرعان ما يضل في أحكامه الأدبية، فليس باستطاعته أن يعرف أي الأعمال أصيل، وأيها منقول...» (3).

وانطلاقا من الإيمان بضرورة وجود بعض المقاييس الضمنية والصريحة في تواريخ الأدب، سنحاول الوقوف على بعض ملامح النقد في تاريخ الأدب عند الأستاذ گنون، وذلك من خلال الخطوات الآتية :

1 - مفهوم الأدب عند الأستاذ گنون.
2 - الظواهر والقضايا الأدبية في تاريخه للأدب .
3 - المقاييس النقدية في تاريخه للأدب.

1 - مفهوم الأدب

يشمل مفهوم الأدب عند الأستاذ گنون، كل أنماط الإبداع الثقافي، من أدب، وفقه وحديث، وعلوم لغوية، وعلوم كونية. ومن ثم نجده يؤرخ لجميع هذه الاختصاصات، ويترجم لأصحابها. ويرجع هذا المفهوم العام للأدب عنده إلى جملة أسباب :

أولها : ثقافة الأستاذ گنون الموسوعية، كأديب وعالم فقيه، وقد تجلى هذا على مستوى التأليف، إذ نجده يكتب في الأدب والفقه والتاريخ والسياسة... الخ.

وثاني هذه الأسباب : نظرته إلى النصوص نظرة واحدة، تخبر عن نبوغ المغاربة، وإبداعهم في جميع مناحي المعرفة، ومن ثم فهي وثائق تاريخية. فهو يسوي بين النص الأدبي، والعلمي، والديني، ما دامت كل هذه النصوص تخبر عن الرقي والازدهار، وما دامت تحتوي على قيم فنية وجمالية راقية.

---

(3) - ريني ويليك : اوستين وارين. نظرية الادب. ص 53 - 54 - 55.

وثالث هذه الأسباب : تأثره بمفهوم القدماء للأدب، وهذا ما يؤكده حين يقول : «لقد كان القدماء يقولون : «إذا أردت أن تكون عالما فعليك بفن من الفنون لا تتعداه الى غيره، وإذا أردت أن تكون أديبا فشارك في الفنون كلها، وهو قول ما يزال صحيحا حتى الآن، فإن الأدب ينتظم جميع أبواب المعرفة» (4) ولم يقتصر هذا المفهوم العام للأدب على ما صنفه في تاريخ الأدب بل نجده في مؤلفاته الأخرى، من ذلك قوله : «ولعل خير ما يمكن أن يعرف به الأدب اليوم،هو أنه كل معنى جميل في عبارة جميلة، فيأخذ الأدب من الدين، والعلم، والفلسفة، والفن، لأن كلا من ذلك يشتمل على معاني جميلة في عبارات جميلة» (5).

2 – الظواهر والقضايا الأدبية :

أثار الأستاذ كنون، في سياق تاريخه للأدب المغربي، جملة من القضايا والظواهر الشائكة في هذا التاريخ، والتي ظلت مثار نقاش وأخذ ورد بين المهتمين بتاريخ الأدب، وبتاريخ المغرب عامة، وبإثارته لهذه القضايا، خفف من سورة نظرية العصور الأدبية، التي تسعى في الغالب إلى حشد ركام من التراجم في كل عصر، دون إثارة للقضايا الأدبية الحقيقية التي تطفو من حين لآخر على سطح التاريخ الأدبي، وقد اكتفي بإثارة بعض قضايا الأدب المغربي، دون التوسع في مناقشتها، كما هو الحال في خطبة طارق ونشأة الأدب المغربي، بينما توسع في قضايا أخري معارضا للآراء، ومفندا للادعاءات والتقولات، ومدافعا عن الأدب والتاريخ المغربيين، كما هو الحال في قصة يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد. وإحراق كتاب الإحياء، وسيطرة الفقهاء في العصر المرابطي، وغيرها من القضايا التي لها مساس بالثقافة والفكر.

انطلاقا من هذا الطرح النقدي، فالأستاذ كنون من مؤرخي الأدب الأوائل الذين أثاروا الظواهر الشائكة في تاريخ الأدب المغربي، وإن لم يرق في طرحه لها إلى مستوى الأستاذ عباس الجراري الذي وضح هذا المنهج وعمق فيه النظر في كتابه : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، وعذر الأستاذ كنون في ذلك، هو أن السياق لم يسعفه على التوسع والمزيد من تعميق النظر، ويكفيه فضلا أنه كان سباقا إلى إثارة هذه القضايا.

(4) – خل وبقل. ص 4.

(5) – التعاشيب. ص 3.

ومنهج الظواهر والقضايا يقتضي من الباحث : «معالجة هذه الظواهر بفكر نقدي، يستند إلى الوقائع المعاصرة، وبجدلية وموضوعية تعتمدان على معطيات استقرائية، واستنتاجات منطقية، بعيدا عن أي توثن، أو معتقدية متزمتة، أو موقف تبريري ...ويقتضي محتوى المنهج، عندي كذلك، أن انظر الى تلك القضايا والظواهر من زاوية تعطي الأسبقية للتمثل العقلي على النقد التأثيري» (6).

والقضايا التي أثارها الأستاذ كنون في تاريخه للأدب المغربي هي الآتية :

1 - نشأة الأدب المغربي :

عرض الأستاذ كنون لإشكالية نشأة الأدب المغربي في مواضيع متعددة، كان أولها ما كتبه في "النبوغ" حول خطبة طارق بن زياد. فقد جزم في الطبعة الأولى لهذا الكتاب بصحة هذه الخطبة، وصحة نسبتها إلى طارق، وذلك في سياق حديثه عن استعراب البربر : «فقد خطب طارق وهو أحد الموالي البربر، خطبته المشهورة في جيشه الذي أناف على الإثني عشر ألف جندي، فيهم ثلاثمائة فقط على أكثر تقدير من العرب، ففهمها الجيش كله، وأثرت فيه تأثيرها البليغ المشهود ... ولا نقل أن مولاه صنعها له، فقد علمنا أنه ذهب إلى فتح الأندلس بلا إذن من مولاه، حتى أنه لما سمع بانتصاره وبفتوحاته العظيمة، أتى غاضبا حاقدا عليه، فكيف يفسر هذا إلا بسرعة انتشار العربية، كالسرعة التي انتشر بها الإسلام» (7).

وفي مقدمة الطبعة الثانية لكتاب النبوغ (8)، يؤكد الأستاذ كنون رأيه في صحة هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق انطلاقا من مجموعة من الأدلة منها :

1 - ان طارق وإن كان أصله بربريا فقد نشأ في حجر العروبة والإسلام بالمشرق، ولم يكن هو الذي أسلم بل والده وجده، فاسمه الكامل هو طارق بن زياد بن عبد الله .

2 - أن نبوغ غير العرب في اللغة العربية منذ اعتناقهم الإسلام أمر غير

---

(6) - د. عباس الجراري : الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. ص9.

(7) - النبوغ. ط1. ص9.

بدع حتى يستغرب من طارق، فهناك سلمان الفارسي، الذي قضى شطرا من حياته في بلاد عجمية، فلما أسلم تفتق لسانه بالعربية إلى أن قال فيها الشعر.

3 - ليس في الخطبة من صناعة البيان ما يمنع نسبتها إلى طارق، وبلاغتها إنما ترتكز أولا وبالذات على معانيها.

ويعود في مقال متأخر كتبه سنة 1968 ليكشف عن مصدر آخر ورد فيه حديث عن الخطبة، معززا به رأيه في صحتها، وصحة نسبتها الى طارق، يقول: «وأنا أضيف إلى هذه المصادر مصدرا آخر لا يقل عن ابن خلكان تثبتا وتحريا وثقة، وهو من أهل القرن الخامس وأوائل السادس، وأعني به الإمام أبا بكر الطرطوشي، صاحب سراج الملوك، وقد ذكر هذا العالم الحجة خطبة طارق مسلما بها، غير شاعر بأدنى شك في صحة نسبتها إليه، وأورد طرفا منها» (9).

ولا يجب أن نغفل السياق التاريخي الذي أثار فيه الأستاذ كنون، صحة خطبة طارق. فهذا الرأي الذي ارتضاه - بالإضافة إلى أن أغلب المصادر القديمة تؤيده - كان إجابة غير مباشرة عن أسئلة طرحها الواقع المغربي زمن الحماية، وبالخصوص إبان صدور الظهير البربري، ومن ثم فهو رد على هذا الظهير واحتجاج على سياسة التفريق بين العرب والبربر.

وبعد أن أثار الأستاذ كنون مشكل الخطبة في الطبعة الأولى والثانية من النبوغ، توالت الدراسات في هذا السياق، فكشف الأستاذ الهراس عن خمسة مصادر سابقة زمنيا عن نفح الطيب، تحتوي كلها على نص الخطبة، مما جعله يفتتح مقاله بكلمات مفعمة بالثقة في صحة الخطبة يقول: «من منا لا يعتز بهذه الخطبة؟ من منا لا يعدها أعرق تراث مغربي يقترن بفجر الإسلام بالمغرب والأندلس...» (10).

بالإضافة إلى هذه الخطبة وعلاقتها بنشأة الأدب المغربي، عرض الأستاذ كنون إلى هذه النشأة في مقالات كتبها حول "سابق البربري" والذي «ربما كان أول من نبغ في هذا المغرب العربي بقول الشعر في لغة الضاد والإجادة

(8) - النبوغ. ط 3. ص 29.

(9) - عبد الله كنون: حول خطبة طارق. دعوة الحق. ع 6 - 7. س 11. 1968. ص 111.

(10) - دعوة الحق. ع 5. س 11. مارس - ابريل 1968. ص 127.

فيه» (11). وكما احتج الأستاذ گنون بالخطبة على سرعة استعراب المغاربة،نجده يربط بين نبوغ سابق البربري في قول الشعر والأصل العربي المحتمل للبربر : «فهذا النبوغ المبكر، على إثر اتصال البربر بالعرب، إن دل على شيء فإنما يدل على صحة انتساب هذه القبائل المغربية إلى الشعب العربي، وصدق النسابة الذين يرجعون البربر إلى أصول عربية من عدنانية وقحطانية» (12)، هكذا فالبحث في تاريخ الأدب لا ينفصل في وعي الأستاذ گنون المنهجي، عن الحاضر وهمومه ومشاكله .

ب – قضية يوسف بن تاشفين والمعتمد.

من بين القضايا التي أثارها الأستاذ گنون أثناء حديثه عن سياسة الوحدة الإسلامية في العصر المرابطي، قضية يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد، ولئن كانت هذه القضية في أساسها قضية سياسية، فإنها تحولت بفضل عوامل متعددة إلى قضية ثقافية وأدبية، فالمعتمد بن عباد وهو الطرف الثاني في هذه القضية، شاعر مشهور، فقد كان على حد قول گارسيا گومث «يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم شعرا يثير الإعجاب، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعرا حيا، وثالثها أنه كان راعي شعراء الأندلس أجمعين، بل شعراء الغرب الاسلامي كله...» (13). هذا بالإضافة إلى أن أصل التحامل على يوسف بن تاشفين كان من الأدباء والشعراء الذين ينادمون ابن عباد، وكانوا يعيشون في نعيمه، فقد خلف هؤلاء الشعراء مراثي مؤثرة في المعتمد، وفي بني عباد عموما كان لها أعمق الأثر في تضخيم هذه القضية .

وقد بسط الأستاذ گنون الرأي في هذه القضية، بعيدا عن التأثر العاطفي، وبحصافة الباحث الموضوعي والمؤرخ النزيه، وانطلاق من قناعاته الفكرية، فابن تاشفين في رأيه من أعظم ملوك المسلمين، الذين أرجعوا المغرب إلى أحضان الخلافة الاسلامية، هذا بالإضافة إلى أنه قضى على ملوك الطوائف، وضم الأندلس إلى المغرب. وبذلك أنقذها من الاضمحلال ومن المصير الذي حاق بها بعد أربعة قرون، ومن ثم : «فالذين ينظرون إلى عمل يوسف من زاوية

---

(11) – خل وبقل. ص 12.

(12) – المرجع نفسه. ص 13.

(13) – غارسيا غوميز : الشعر الاندلسي.

السياسة القومية التي تتطلب الضبط والحزم، وحماية بلاد العرب والاسلام، لا يترددون في أنه عمل شرعي، وأن اعتقاله للمعتمد في أغمات لم يكن منه بد، وهو أقل ما تقضي به الاعراف السياسية والقوانين الحربية» (14).

ومما ترتب عن هذه القضية، اتهام ابن تاشفين بأنه كان يجهل العربية جهلا تاما، ولا يعرف إلا البربرية، وقد أشاع أنصار المعتمد من الكتاب والشعراء هذه الادعاءات وأكثروا التندر على ابن تاشفين في ذلك، وقد رد الأستاذ گنون على كل تلك الادعاءات والتقولات بأدلة منطقية وتاريخية (15).

ج - التيار الفقهي وانعكاساته على الثقافة والأدب في العصر المرابطي :

لم يحد الأستاذ گنون، قيد أنملة، عن المبدإ الذي أخذه على نفسه في تاريخه للأدب المغربي، وهو رفع الضيم عن المغرب وأدبائه (16) وقد دفعه إيمانه بهذا المبدإ إلى الوقوف عند القضايا التي أثارها بعض الدارسين للادب المغربي والأندلسي من مشارقة ومستشرقين، والذين أسلسوا العنان فيها لأهوائهم، بعيدا عن البحث الموضوعي والنزاهة العلمية.

من ذلك اتهام المرابطين بالوقوف ضد أي تقدم للأدب والثقافة، وفسحهم المجال للفقه والفقهاء، ومحاربة ما سوى ذلك، ومن الذين أججوا نار هذه الحملة عبد الواحد المراكشي، والشقندي، ومن المستشرقين دوزي، وأشباخ، وقد تصدى الأستاذ گنون لهؤلاء، وبين أصول الحملة، وكشف الخلفيات التي تحركها.

لقد قامت دولة المرابطين حقا على الفقه والعلوم الدينية «فقد كانت نزعة عبد الله بن ياسين الى علم الفقه والدين أقوى منها الى أي علم آخر، بالطبع لأنه كان عالما دينيا، فغلب هذا الميل على الدولة» (17).

ومن الأحداث التي يحتج بها خصوم المرابطين على تسلط الفقهاء، إحراق

(14) - يوسف بن تاشفين : سلسلة ذكريات مشاهير المغرب. ص 21.

(15) - المرجع نفسه. ص 22 - 23 - 24.

(16) - النبوغ. ط 3. ص 14.

(17) - المرجع نفسه. ص 75.

كتاب الإحياء للإمام الغزالي، أيام علي بن يوسف، ويوضح الأستاذ كنون ملابسات وظروف هذا الحدث انطلاقا من النقط الآتية :

1 - لما وصل هذا الكتاب إلى المغرب نظر فيه رجال الفقه والدين فرأوه محشوا بما لا عهد لهم به من آراء المتكلمين، ومذاهب الصوفية، فقرروا مجافاته لظاهر الشريعة وساذج العقيدة .

2 - قضية الإحياء إنما أثارها وتولى كبرها أبو عبد الله بن حمدين قاضي قرطبة.

3 - عارض بعض العلماء إحراق الإحياء، ومنهم أبو الفضل بن النحوي، وهو من علماء المغرب الأوسط، فقد عارض فتيا ابن حمدين، وانتصر للغزالي، ويخلص الأستاذ كنون إلى أن «هذه الفتنة اندلسية في الأصل، وأن رجال الدولة إنما أخذوا فيها برأي الأغلبية من رجال الفقه».

نخلص بعد استعراضنا لبعض القضايا والظواهر الأدبية التي أثارها الأستاذ كنون في تاريخه للأدب المغربي إلى جملة ملاحظات وهي :

أ - كان الأستاذ كنون سباقا إلى طرح تلك القضايا الجوهرية في التاريخ والأدب المغربيين .

ب - اتسمت مناقضته لهذه القضايا بمنطق الدفاع والمحاماة.

ج - لم يفصل بين الهم الثقافي والهم السياسي، ذلك أن مناقشته لبعض تلك القضايا، كخطبة طارق، وسابق البربري، اتسمت بسمة المرحلة، وما عرفته من نضال ضد المحاولات الاستعمارية التي سعت إلى التفريق بين العرب والبربر. وقد تجلى هذا بوضوح أكثر في بعض القضايا الثقافية العامة والتي ناقشها بحس الباحث الملتزم بقضايا الحاضر، كما هو الحال في مناقشته لعناية الموحدين الزائدة باللهجة البربرية (19).

---

(18) - المرجع نفسه. ص 77.

(19) - النبوغ. ط 1. ص 47 - 48 - 49 - 50.

3 - المقاييس النقدية

أبان الأستاذ كنون في تاريخه للأدب عن مجموعة من المقاييس النقدية الضمنية والصريحة، فاختياراته ومنتخباته لا تقوم على أسس صريحة، بل تعتمد الذوق، وهو ذوق يرتد إلى مسبقات ضمنية توجهه في أخذ ما يثبت وترك ما ينفيه (20). وإلى جانب هذا النقد الضمني الذي تشي به الاختيارات نصادف من حين لآخر، نقدا صريحا من خلال المقارنة والمفاضلة وإرسال الأحكام والتعليقات، ونجمل فيما يلي المقاييس المعتمدة في هذا النقد :

1 - النقد البلاغي :

لم يتجاوز هذا النقد مستوى الإعجاب بالصنعة البديعية، والصور البيانية إلى مستوى تحليل الظاهرة البلاغية، واستكناه مكامن الجمال فيها، وما تحمله من طاقات رمزية وإيحائية، فمن الصور البيانية التي راقت الأستاذ كنون التشبيه العقيم، فقد علق على أبيات أحمد المنصور الذهبي التي يقول فيها :

وورة شفعت لي عند مرتهني بدت وقد سجدت لفاتر الحدق
كأن خضرتها من فوق حمرتها خال على خده من عنبر عبق

علق على هذه الأبيات بقوله :

«ومن يعرف الخال العنبرى الذي يوضع على الخدود، يعلم عقم هذا التشبيه. والمنصور الذهبي في ملوك المغرب، كابن المعتز في ملوك المشرق، فقد كان شاعرا بليغا مكثرا بالنسبة لأهل طبقته، بديع التشبيه، غريب المنزع، مذهب الديباجة» (21).

ويقول في تعليقه على بيت ابن عبدون :

أما ترى النهر في انصبابه
كأنه الصل في انسيابه

«ولا تغفل عن تشبيه انصباب النهر، بانسياب الصل، فإنه غريب» (22)

---

(20) - انظر الانتخاب والاختيار، الفصل الثالث من الباب الاول.

(21) - امراؤنا الشعراء. ص 49.

(22) - ابن عبدون المكناسي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 16.

وقد كانت وقفة الأستاذ كنون عند الصور البيانية، قليلة جدا، بالمقارنة مع إشارته المتعددة إلى الصنعة البديعية التي يرتكبها الشعراء في أشعارهم، لكن هذه الإشارات على كثرتها بقيت جزئية مسرفة في الجزئية، بعيدة عن التعليل والتفسير المسهب.

ومن ذلك قوله في التعليق على أبيات للحافظ بن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، وصفا فيها منارة المدرسة المؤيدية بمصر، وقد مالت على برج باب زويلة : «ولا يخفى ما في قولهما معا من جمال التورية، وحسن التعريض مع أن غرض الشعر في الظاهر هو وصف المنارة ومدح بانيها، وبهذا الاقتدار على الجمع بين غرضين متنافرين، وحسن التصرف في ذلك اشتهر هذا الشعر وتناقلته الرواة، وهو حري بذلك» (23).

وكثرت هذه التعليقات المقتضبة في اختياراته من مثل قوله «قال وفيه تورية» (24)، «قال واستعمل فيه التوشيح من البديع» (25) «وله وارتكب فيه المذهب الكلامي من البديع» (26).

2 - المقارنة :

اهتدى الأستاذ كنون بصفة ملحوظة، إلى أسلوب المقارنة بين الشعراء، كاستراتيجية نقدية يوضح عن طريقها ميزة الشاعر ومكانته بين أشباهه ونظائره، وإن لم ترق هذه المقارنات الى مستوى الموازنة النقدية التفصيلية. وقد كان الموقف الدفاعي عن الأدباء المغاربة من جهة وعن شعر الفقهاء من جهة ثانية وراء هذا المعيار النقدي، إذ من الصعب معرفة فضل هؤلاء الشعراء دون مقارنتهم بأشباههم ونظائرهم. ومن أهداف المقارنة ما يلي :

أ - التماس الأعذار للشاعر وتبرير صياغته الشعرية :

فإذا كان أبو الفضل بن النحوي، قد استعمل عبارة "ما الفرق" وهي من عبارات الفقهاء في بيت له يقول فيه :

---

(23) - أدب الفقهاء. ص 172 - 173.

(24) - مالك بن المرحل : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 32.

(25) - المرجع نفسه. ص 32.

(26) - المرجع نفسه. ص 34.

لم أدر حين وقفت بالأطلال
ما الفرق بين جديدها والبالي

إذا كان هذا حال ابن النحوي «فبماذا نحكم على قول شاعر العرب الأكبر أبي الطيب المتنبي :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم
إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة
وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وقد استعمل عبارة تخالف الناس، ولفظ الخلف، وجملة حتى لا اتفاق لهم، وكلمة فقيل، تلتها وقيل أخرى على سبيل التفصيل، وكل ذلك من عبارات الفقهاء والنحويين وغيرهم من العلماء، وهذا عنده وعند غيره من الشعراء كثير» (27).

ب - بيان منزلة الشاعر ومكانته في صناعته :
فابن الطيب العلمي يشبه في كثرة احتفاله بالبديع والزخارف اللفظية، الصفدي، يقول عن مقطوعات هذا الشاعر : «فهي أشبه بمقطوعات الصفدي وأمثال الصفدي من عباد الزخارف الكلامية، وأنت عندما تتأمل بعضا منها لابد أن تتذكر الصفدي، ولا بد أن تلتمس هذا الشبه بينه وبين مترجمنا» (28).

ج - تأكيد شاعرية الشاعر وبيان فضله :
فقد أحسن أبو بكر بن زهر أيما إحسان في استعماله لصيغة التصغير في أبيات يتشوق فيها إلى ولد له يقول فيها :

ولي واحد مثل فرخ القطا
صغير تخلفت قلبي لديه
وأفردت عنه فيا وحشتي
لذاك الشخيص وذاك الوجيه

(27) - أدب الفقهاء. ص10 - 11.

(28) - ابن الطيب العلمي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 11.

وفي قوله، يتأسف على مآلت اليه حاله :

إني نظرت إلى المرآة إذ جليت
فأنكرت مقلتاي كل ما رأتا
رأيت فيها شيخا لست أعرفه
وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى

ولن نتبين شاعرية ابن زهر إلا بمقارنته في استعماله للتصغير بأبي الطيب المتنبي : «فليقارن القارئ بينه وبين استعمال المتنبي له في مثل قوله : «لييلتنا المنوطة بالتنادي» وقوله : «اذم الى هذا الزمان أهيله» ليزيد بعد معرفة بشاعرية صاحبنا » (29).

د - المفاضلة بين الشاعرين والحكم لأحدهما :

وقد تكون الغاية من المقارنة المفاضلة بين الشاعرين والحكم بالجودة والتفوق لأحدهما ، فمن الأبيات التي استوحى فيها ابن حزم القرآن الكريم قوله :

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي
فروحي عندكم أبدا مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى
له سأل المعاينة الكليم

يقارن الأستاذ كنون هذه الأبيات بأخرى في السياق نفسه، لأبي تمام يقول فيها :

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

ويحكم في الأخير لابن حزم بقوله «ومع توارد الفقيه والشاعر على الاستقاء من معين الدين في أبياتهما هذه، مما يؤكد أن ذلك لا يتعارض وأصالة

---

(29) - أدب الفقهاء، ص76 - 77 - 78 - 79.

الشاعرية، فإن الإنصاف يقتضينا أن نقول إن بيتي ابن حزم أرق معنى وألطف مساقا، وهما فوق ذلك أكثر سيرورة من بيتي أبي تمام» (30).

3 - النقد التأثري الانطباعي :

على الرغم من أن الأستاذ كنون قد سار في نقداته العابرة على هدي بعض المقاييس، كالتي تقدم الحديث عنها، فإن الذوق يطالعنا من حين لآخر في تلك النقدات. فالذوق عنده «معيار النقدات فصاحبه يعرف وجوه الحسن والقبح في الكلام» (31). والحق إن تلك المقاييس إنما تأتي لتعليل ذوقه وتأثره، وخدمة ذلك الذوق الذي يعتبر المصدر النهائي لأغلب أحكامه الأدبية.

فهو يكتفي في التعليق على الأبيات التي راقه جمال صياغتها، وحسن تأتيها باستعمال بعض صيغ التفضيل من مثل قوله «ما أحسن قوله» و«ما أملح قوله»... الخ. من ذلك مثلا قوله في التعليق على أبيات أبي بكر بن عبد الرحمن الزهري التي يقول فيها :

ولما نزلنا منزلا طله الندى
أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه
منى، فتمنينا فكنت الأمانيا

«هذان البيتان من أحسن ما قيل في تمني لقاء الحبيب عندما تجلو الطبيعة محاسنها» (32).

ومن تعليقاته التأثرية الانطباعية، تعليقه على أبيات لليزيدي في هجاء الكسائي يقول فيها :

كنا نقيس النحو فيما مضى
على لسان العرب الأول

---

(30) - المرجع نفسه. ص 51 - 52.

(31) - المرجع نفسه. ص 8.

(32) - المرجع نفسه. ص 92.

فجاء أقوام يقيسونه
على لغى أشياخ قطربل

إن الكسائي وأصحابه
يرقون في النحو إلى أسفل

وما أحسن تعبير الرقي إلى أسفل، فإنه من التخيلات الأدبية البارعة، وكذلك القياس على لغة أهل قطربل» (33).

يمكن أن نضيف إلى المقاييس النقدية السالفة، ملامح أخرى للنقد في التاريخ الأدبي للاستاذ كنون، تتجلى في الصفات الفنية والنقدية التي يخلعها على مترجميه (34) والتي تزخر بها تراجمه الأدبية، كما تتجلى أيضا في التحليات التي يحلي بها هؤلاء المترجمين، والتحلية هي وصف يتضمن معنى الاستحسان، فحلي الشيء في عيني إذا استحسنته كما جاء في لسان العرب (35).

ولئن كانت هذه التحليات تقتصر على الأوصاف الحسنة فإنها تشي بحس نقدي خصوصا وأنه ينقلها عن كبار كتاب التراجم ومؤرخي الأدب، كابن خلكان، وابن الخطيب، والمقري، وابن الأبار.

ندرج في ختام هذا الحديث المقتضب عن ملامح النقد في تاريخ الأدب عند الأستاذ عبد الله كنون، جملة من الملاحظات وهي الآتية :

أ - خضعت الخطرات النقدية للاستاذ كنون للذوق، والانطباع الآني وبذلك فإنها تفتقر إلى الاستقصاء والتفصيل والتعليل، وهذه أشياء قل أن نجدها في كتب تاريخ الأدب، التي غايتها الأولى، العرض والوصف.

ب - على الرغم من اتكاء الأستاذ كنون - أحيانا - على بعض المقاييس

---

(33) - المرجع نفسه. ص 169.

(34) - انظر الصفات الفنية في فصل التراجم (الصفحة 97 من هذا البحث)

(35) - لسان العرب. طبعة مصورة عن طبعة بولاق. ج 17 - 18. فصل الحاء. حرف الواو والياء. ص 208.

النقدية، فإن نقده، بقي نقدا موضعيا، لا يتجاوز البيت المفرد إلى القصيدة ككل .

ج – غابت عن نقدات الأستاذ كنون العابرة، قضية من أهم قضايا النقد، سواء في الكتب الخالصة للنقد، أم في كتب التراجم والأعلام، وهي قضية "السرقات الأدبية"، ولعل الموقف الدفاعي عن الأدب المغربي، والرغبة في الكشف عن أصالة هذا الأدب، كانا وراء هذا الغياب، وتتضح هذه الحقيقة في سياق حديثه عن العلاقة بين هذا الأدب المغربي والأدب الأندلسي، فهذه العلاقة تنهض في رأيه على المنافسة وليس على الاحتذاء، والأخذ، والنسج على المنوال . يقول في هذا السياق : «والخلاصة أن الأدب المغربي هو غير الأندلسي، وأنه لم يتأثر به إلا نسبيا لأن الأدباء المغاربة من غير شك كانوا يتعمدون مخالفة طريقة زملائهم الأندلسيين، في الشعر والنثر قصد مقابلة التحدي بمثله ...» (36) وقد ترتب على هذا الموقف، أن غض الطرف على مظاهر أخذ المغاربة عن الأندلسيين والمشارقة، والتي لا يمكن أن ننكرها بحال من الأحوال، فالشعر ميدان والشعراء فرسان، وقد يقع الحافر على الحافر كما يقال. وعندما يعترض سبيل الأستاذ كنون، مظهر من مظاهر الاحتذاء والأخذ، فإنه يتحاشى استعمال مصطلحات السرقة المشهورة، ويستعمل بدل ذلك عبارات تنسجم مع منطلقاته الدفاعية، كقوله : «يذهب مذهب أبي نواس»، في تعليقه على أبيات لأبي العباس العزفي، يظهر احتذاء أبي نواس جليا فيها، يقول أبو العباس العزفي :

هذا الصباح فغادني بصبوح
وانهض براحك فهي راحة روحي
مالي وللأطلال أسأل صامتا
منها وأعول في مهامه فيح
في الراح والريحان شغل شاغل
لي عن عيافة بارح وسنيح
وأهيم في ورد الخدود وآسها
لا في عرار بالفلاة وشيح

يقول في التعليق على هذه الأبيات : «... وهو في قوله : (مالي

(36) – النبوغ. ط 3. ص 174.

وللأطلال) الأبيات الثلاثة، يذهب مذهب أبي نواس في الإزراء بطريقة القدماء، وما كان بسنة عندهم من الوقوف على الأطلال وسؤالها، والبكاء عندها، ويعوض ذلك بوصف الرياض، ومحاسن الطبيعة» (37).

وأبيات أبي نواس التي أخذ منها أبو العباس العزفي بعض معانيه هي :

عاذلي في المدام غير نصيح
لا تلمني على شقيقة روحي
لا تلمني على التي فتنتني
وأرتني القبيح غير قبيح (38)

وقوله في قصيدة أخرى :

دع الأطلال تسفيها الجنوب
وتبلي عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا
تخب بها النجيبة والنجيب (39)

وقوله :
صفة الطلول بلاغة الفدم
فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ومن الطرائف التي تثبت احتذاء بعض الشعراء المغاربة للأندلسين - وهذا ليس منقصة - القصة الطريفة التي رواها الأستاذ گنون، في سياق حديثه عن حسد الأندلسيين لابن حبوس، واتهامه بالسرقة واهتدام اشعارهم، وقد أخذها عن القفطي الذي يقول : «وأخبرني القرموني أبو عبد الله قال : سرق لابن حبوس في سفره خرج فيه ثيابه، وقصائد له، ونفقة، وكان الشعراء يحسدونه، فعملوا في ذلك زجلا ألفاظه عامية على عادتهم في الأزجال، مطلعه :

(37) - أبو العباس العزفي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 33 - 34 - 35.

(38) - ديوان أبي نواس : الحسن بن هانئ، تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالي. ص 24.

(39) - المرجع نفسه. ص 1.

لقـد جـرت رزيـا عـل ولـد حـبـوس
سـرق لـوما سـرق هـو من شعـر الأندلـوس
سـارق سـرق لسـارق يـعـد فـي ذا عـجـب
سرق لو كل ما اقتنى وكـل مـا اكـتـسـب
ثـيابـو والقصـائـد والـسـلـخ بـالـذهـب
وكـل مـا ذكـرنـا يسـوى ثلاث فلـوس (40)

نخلص في نهاية هذا الباب إلى أن تاريخ الأدب هو المجال الذي غلب على اهتمامات الأستاذ كنون وشغل حيزا كبيرا من مصنفاته، وقد توزع هذا التاريخ الأدبي بين مجموعة من المباحث يكمل بعضها البعض الآخر، فإلى جانب اهتمامه بالتاريخ للأدباء والشعراء والتدقيق في تحقيق أسمائهم وأنسابهم وأخبارهم نجده يولي عناية خاصة للنصوص الإبداعية، وذلك حتى يقف القارئ على التطور الذي يلحق القيم الأدبية في رحلتها عبر الزمن، هذا التطور الذي لن ندركه في غياب الاختيارات والمنتخبات .

وإلى جانب هذا التاريخ للنصوص نجد تاريخا ببليوغرافيا يصب فيه الاهتمام على أخبار الكتب ورحلتها في الزمان والمكان، ولم يكن هذا التاريخ عرضيا في مصنفاته في تاريخ الأدب، فقد شكل دعامة مركزية من دعائم هذا التاريخ .

أما الجانب المنهجي في هذا التاريخ الأدبي فقد اتسم بالمرونة، وذلك أن الأستاذ كنون لم يبق حبيس توجه منهجي واحد، فقد كان يصدر في تاريخه الأدبي عن أكثر من منهج، وكانت المادة الأدبية هي التي تملي عليه المفاهيم والتصورات الجديدة.

وكما أن تاريخه للأدب تاريخ عام، يقترب من تاريخ الثقافة أو تاريخ الأفكار، فإن مفهومه للأدب أيضا مفهوم عام، يشمل كل أنماط الابداع الثقافي، من نصوص أدبية ودينية ولغوية.

وإلى جانب التاريخ للادباء وللنصوص الابداعية، نصادف بين الحين وآخر بعض الملامح النقدية التي تراوحت بين النقد التاريخي والفيلولوجي الذي يتجلى في اهتمامه بتحقيق الانساب والاخبار والنصوص، والنقد الانطباعي والذوقي الذي تفصح عنه الاختيارات والمنتخبات .

---

(40) - ابن حبوس الفاسي : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب. ص 29 - 30.

الباب الثاني

الأستاذ كَنون كاتبا للمقالة

تمهيد :

تعتبر المقالة من بين الأنواع الأدبية التي لم تحظ بالاهتمام الكبير من قبل الدارسين والمنظرين للأدب، شأن الأنواع الأخرى كالرواية والمسرحية، على الرغم من شيوعها وانتشارها، واستقطابها لقطاع عريض من القراء. والمطلع على التعريفات القليلة التي قدمها بعض الدارسين العرب لهذا النوع الأدبي، يفاجأ بالاضطراب الذي يشوبها، والذي يصل إلىْ حد التناقض أحيانا. فقد بقي بعض الدارسين أوفياء للحدود التي رسما "مونتيني" للمقالة، وطالبوا المقاليين المحدثين بالتزامها واحترامها. بينما عاد آخرون الى ما قبل "مونتيني" في محاولة للبحث عن جذور لهذا النوع في التراث العربي القديم. وفي كلتا الحالتين أهمل هؤلاء الباحثون منطق التحول الذي تخضع له الأنواع الأدبية في رحلتها عبر الزمن .

وقد ارتأينا - قبل دراسة مقالات الأستاذ كنون - مناقشة هذه التعريفات ومحاولة الكشف عن الخلل الذي انتاب بعضها، والذي يشكل عائقا معرفيا يجعل الباحث في حيرة من أمره، خصوصا عندما ينطلق من ركام هائل من المقالات، عليه أن يصنفها وفق منطق معين، ثم يدرسها بعد ذلك .

ويكاد يحصل شبه إجماع لدى الباحثين المحدثين على أن المقالة الأدبية نشأت في أوربا، في القرن السادس عشر الميلادي، على يد الكاتب الفرنسي : «ميشيل دو مونتيني M. DE MONTAIGNE (*1533 - 1595*) فقد كتب عددا من الفصول أطلق عليها اسم : Essais بمعنى "محاولات" أو "تجارب"». وتمتاز مقالات مونتيني : «يتألق العنصر الشخصي، ويتسم أسلوبها بالحرية والتدفق والتشعب، والسير على غير أصول مرعية، أو قواعد معينة، ولم تخل هذه المقالات من الأمثال والحكم السائرة خلوا تاما، إلا أنها كانت تأتي عرضا دون قصد أو تعمد، وكانت تقف على هامش العمل الأدبي عنصرا ثانويا، بالنسبة إلى ذلك الفيض من التأملات العميقة، والتجارب الشخصية الصادقة، وقد كان دأبه فيها، أن يمعن في الحديث عن نفسه، وعن ذكريات صباه وشبابه» (*1*). إن المقالة حسب القواعد التي أرساها "مونتيني" نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط أو نظام، إنها قطعة لا تتمشى مع نسق معروف، يكون محورها ذات

(*1*) - د. محمد يوسف نجم : فن المقالة. ص *32 - 33*.

الأديب وتأملاته في الكون والوجود. والملاحظ أن المقالة في الأدب الغربي لم تبق أسيرة هذه الحدود المغرقة في الذاتية، فقد عرفت تحولا جوهريا فيما بعد، خصوصا مع فرانسيس باكون : Francis Bacon (1561 - 1626)، فقد فسح هذا الأخير المجال للجانب الموضوعي، وحد من سورة الجانب الذاتي الذي كان طاغيا عند كتاب المقالة قبله. وبذلك غدت المقالة الأدبية رافدا أساسيا من روافد الدراسة الأدبية، لما تميزت به من عمق في بحث القضايا، وتنسيق في تقديمها للقارئ.

يقول عباس محمود العقاد عن هذا التحول الذي طرأ على المقالة : «فلما تناول "باكون" الكتابة المقالية أقل فيها من الناحية الشخصية، وزاد فيها من الناحية الدراسية، فأصبحت مقالاته أقرب الى التركيز والادماج منها الى التبسط والفكاهة، ولقيت مع ذلك رواجا أي رواج...وانقسمت مواضيع المقالات حسب الصحف والمجلات، فما كان منها للتسلية والقراءة العامة فقد التزمت فيه طريقة مونتاني وتابعيه، وما كان منها للدرس والقراءة الخاصة فقد غلبت عليه صبغة الجد والإتقان» (2).

لقد عرفت المقالة بين "مونتيني" و"باكون" تحولا لا يمكن نكرانه، الشيء الذي يجعل تشبث بعض الباحثين بالحدود التي وضعها منشئها الأول يفتقد الحيطة العلمية، ويعبر عن تجاهل بالتحول الذي تعرفه الأنواع الأدبية في ارتباطها بالشروط التاريخية المستجدة.

وقد آثرنا استخدام كلمة "تحول Transformation" بدل "تطور Evolution" لأن الكلمة الثانية قد تعني السير نحو نظام أكثر تعقيدا، أي نحو الاكتمال. في حين أن "التحول" بالإضافة إلى تضمنه المعنى السابق، يعني أيضا التغير وفق خط مستقيم لا يرتفع نحو صيغة للتعقيد، كما يعني التغير العكسي أو الانحلال.

فالنوع حسب هاري ليفن "مؤسسة" كما أن الكنيسة أو الجامعة مؤسسة، وهو لا يوجد كما يوجد الحيوان، أو حتى كما يوجد البناء أو الأبرشية أو المكتبة أو دار المجلس النيابي بل كما توجد المؤسسة. إن بإمكان المرء أن يعمل من

(2) - محمد خليفة التونسي : فصول من النقد عند العقاد، ص 301.

خلالا المؤسسات القائمة، ويعبر عن نفسه أو يبتكر مؤسسات جديدة،أو يعيش بقدر الإمكان بدون أن يشارك في السياسات أو الشعائر، كما أن بإمكان المرء أن يلتحق بالمؤسسات ثم يعيد تشكيلها بعد ذلك» (3) ويقصد هاري ليفن بهذا التعريف سلطة النوع ونظامه "المؤسساتي"، وأيضا ليونته المبنية على تفتحه على التغييرات الجديدة .

إن النوع حسب هذا الرأي متحول باستمرار، نتيجة لما يحصل في أسلوبه من تغير تحت تأثير السياق الخارجي، التاريخي والاجتماعي والثقافي والإيديولوجي. وهذه الحقيقة غابت عن بعض الدارسين، فوجدناهم يصوغون تعريفات أقرب ما تكون للمقالة كما أنشأها مونتيني أول مرة، ومن هؤلاء الدكتور زكي نجيب محمد الذي يقول : «نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه محدثا لا معلما، بحيث يجد القارئ نفسه الى جانب صديق يسامره لا أمام معلم يعنفه، نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه زميلا مخلصا يحدثه عن تجاربه ووجهة نظره... كلا، ليس للمقالة الأدبية، ولا ينبغي أن يكون لها، نقط ولا تبويب ولا تنظيم، فإن كانت كذلك، فلا عجب أن ينفر القارئون - أيها الأدباء - من قراءة ما تكتبون !» (4).

إن هذا التعريف الذي صاغه الدكتور زكي نجيب محمود يوضح بجلاء التأثير البالغ الذي مارسه مونيتني على كتاب المقالة، فهو ينسحب على المقالة الذاتية فحسب، ولا يطال المقالة الموضوعية التي أصبحت مع مرور الزمن أكثر أنماط المقالة شيوعا وانتشارا.

ونجد شبيها بهذا التعريف الضيق للمقالة، لدى باحث آخر هو الأستاذ محمد بلشهاب، فقد ركز في تعريفه على الجانب الذاتي متغفلا الجانب الموضوعي الذي تنتمي إليه أغلب المقالات التي كانت موضع دراسة في بحثه، يقول : «المقالة الأدبية تنتمي الى الكتابة الغنائية لغتها النثر، تعبر بطريقة تخييلية عن مشاعر الأديب وتصوراته، وتعكس الواقع عكسا حيا خلاقا» (5).

(3) - أوستين وارين / ريني ويليك : نظرية الادب. ترجمة : محي الدين صبحي. ص 295 - 296.

(4) - د. زكي نجيب محمود : جنة العبيط. ص 9 - 10 - 11.

(5) - المقالة الادبية في المغرب من 1930 الى 1955. رسالة جامعية. محمد بلشهاب. ص 35.

هكذا تمحي الحدود بين المقالة والكتابة الأدبية الغنائية، بل إن المقالة تستحيل لدى هؤلاء الباحثين الذين أخلصوا للتعريف الأول إلى قصيدة غنائية ترتبط بوجدان الكاتب، وتعبر عن تأملاته وخواطره. ويبين الدكتور نجيب محمود جوانب هذه الصلة بين المقالة الأدبية والقصيدة الغنائية بقوله : «... إذ لا بد - كما ذكرنا - أن تعبر قبل كل شيء عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر الى نفوس قرائه، ومن هنا قيل إن المقالة الأدبية قريبة جدا من القصيدة الغنائية، لأن كلتيهما تغوص بالقارئ الى أعماق نفس الكاتب أو الشاعر،... وكل الفرق بين المقالة والقصيدة الغنائية هو فرق في درجة الحرارة : تغلو وتتناغم فتكون قصيدة، أو تهبط وتتناثر فتكون مقالة أدبية» (6).

ومن النتائج التي ترتبت أيضا على غياب الشعور بالتحول الذي يلحق الأنواع الأدبية، أن وجدنا بعض هؤلاء الباحثين يفصل فصلا قارا بين المقالة الأدبية، والبحث، على الرغم من أن المقالات الأدبية أصبحت تنحو منحى البحث المتقصي والدراسة الموضوعية المفصلة، الشيء الذي قلل من بروز الجوانب الذاتية وفسح المجال لمزيد من التنظيم والتنسيق الذي افتقدناه في المقالة الذاتية. يقول الأستاذ بلشهاب في سياق حديثه عن مميزات المقالة : «ولها مميزات لعل أولها الاعتدال في الطول وهذه الخاصية تميزها عن البحث والمحاضرة المكتوبة» (7) . ونجد هذا التمييز بين المقالة والبحث لدى دارس آخر هو عبد القادر الصحراوي إذ يقول : «ولكن المقالة ايا كانت، وبالرغم من كل ذلك، ولكي تظل مقالة لا بحثا علميا أو أدبيا خالصا، يجب أن تتسم دائما بمقدار من العفوية يقل ويكثر، ولكنه موجود على أي حال» (8).

إن هذا الفصل الذي صادفناه بين المقالة والبحث لدى هؤلاء الباحثين، يصح في نمط واحد من أنماط المقالة هو المقالة الذاتية، أما المقالة الموضوعية فقد غلب عليها في العصر الحديث طابع الدرس والتمحيص، وصار الكتاب يتنافسون في التعمق في دراسة الموضوعات التي يعرضون لها .

وهذا الشعور بالتحول الذي عرفته المقالة الأدبية الحديثة جعل العقاد

---

(6) - د. زكي نجيب محمود : جنة العبيط. ص 14.

(7) - المقالة الادبية في المغرب من 1930 الى 1955. رسالة جامعية. محمد بلشهاب. ص 36.

(8) - عبد القادر الصحراوي : المقالة في المغرب. العلم الثقافي. 2 ماي 1969. ص 12.

يذهب الى أن المقالة ينبغي أن تكون «مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للاجمال، و لا يتسع للتفصيل، فكل مقالة في موضوع فهي كتاب صغير يشتمل على النواة التي تنبت منها الشجرة لمن شاء الانتظار» (9).

ومن التعميمات الخاطئة التي وقفنا عليها، والتي لا تصمد أمام استقراء التحققات النصية التي انتهت اليها المقالة، ما نصادفه في تعريفات بعض الباحثين من إقصاء للجدل والنقاش من دائرة المقالة، يقول د. محمد يوسف نجم : «وكذلك لا تقوم المقالة على الجدل والنقاش، لأن المجادل يسعى دوما الى عرض الحقائق كما يراها من زوايته الخاصة، وكما ينسقها بمنطقه الخاص.وهو بهذا يدافع عن رأي ارتآه أو مذهب اعتنقه، ولكن المقالة لا تعنى بشيء من ذلك، بل تعنى بالتعبير عن تجربة حيوية تمرس بها الكاتب وتقلب على جمرها» (10).

وذهب الأستاذ بلشهاب المذهب نفسه حين قال : «وأبرز معالم المقالة الأدبية أنها لا تقرر ولا تقدم معرفة معززة بالأدلة والبراهين، لأن الأدلة والبراهين أدوات للبحث، إنها تؤدي إلى المعنى بصورة فنية قوامها اللغة الفنية والتشبيه والاستعارة والرمز... وكاتب المقالة لا يحفل بالجدل وتنسيق معلوماته وتبويبها، وتعزيزها بالمراجع» بل يسترسل في حديثه استرسالا (11).

والحق أن الجدل والاحتجاج يقل في نمط خاص من أنماط المقالة هو المقالة الذاتية، أما المقالة الموضوعية فإنها تأخذ بنصيب من ذلك يقل ويكثر حسب نوع هذه المقالة. فالمقالة السجالية تقوم أساسا على المجادلة والمواجهة الكلامية، وتتوخى الدفاع عن الآراء، ودحض ما يخالفها، كما تهدف الى إفحام الخصم وتفنيد ادعاءاته، وحتى تحقق هذه المقصدية فإنها تتوسل ببلاغة خاصة ترتكز اساسا على البراهين والحجج والأقيسة .

وقد تدارك الأستاذ بلشهاب هذا القصور الذي يحتوي عليه تعريفه، فعاد أثناء حديثه عن «المقالة النزالية» ليؤكد هذا الحضور المتميز للجدل والاحتجاج

---

(9) - محمد خليفة التونسي : فصول من النقد عند العقاد. ص 301.

(10) - د. محمد يوسف نجم : فن المقالة. ص 101.

(11) - المقالة الادبية في المغرب من 1930 الى 1955. رسالة جامعية. محمد بلشهاب. ص 35 - 36.

فيها، يقول في سياق حديثه عن مقالات محمد بن العباس القباج : «وأظهر القباج في مقالاته النزالية تعصبا قويا لمواقفه وآرائه، واستعلاء على محاوريه، كما أبدى فيها مقدرة كبرى على الجدل وهدم حجج الخصوم» (12).

ومن القضايا التي تثيرها تعريفات المقالة التي وقفنا عليها لدى الدراسين العرب - بالإضافة الى ما سبق - ما نصادفه من بحث بعضهم في التراث القديم عن جذور لهذا النوع، في محاولة لإثبات أصالته، وأسبقية العرب له، فكأن رواد المقالة الحديثة حاكوا في كتاباتهم نماذج قديمة كالفصول والرسائل الإخوانية وغيرها. وقد حدا هذا الأمر ببعض الباحثين (13) إلى عقد مقارنات مستفيضة بين هذه النماذج وبين المقالة، في حين حصر البعض الاخر اهتمامه في نموذج واحد هو الرسالة الإخوانية، يقول د. محمد يوسف نجم في هذا الصدد : «فقد ظهرت بذور المقالة في أدبنا منذ القرن الثاني للهجرة، وتمثلت أحسن صورها في الرسائل، وخاصة الإخوانية والعلمية، فلو نحينا جانبا الرسائل الديوانية التي كانت تتحجر في كل عصر، والتفتنا إلى الإخوانيات، وما تدور عليه من مسامرات ومناظرات وأوصاف وعتاب،... لوجدنا أنها تعكس خصائص المقالة، لا كما عرفت في طورها الأول الذي استمر حتى القرن السادس عشر، بل كما عرفت عند رائدها في فرنسا وانجلترا» (14).

وإذا كنا نقر ببعض الصلات التي تربط الرسالة بالمقالة الحديثة، فإننا ننفي التطابق التام بين هذين النوعين الأدبيين، لوجود سمات كثيرة تميز أحدهما عن الآخر، إن على مستوى البناء أو على مستوى الوظيفة. فالرسالة تختلف عن المقالة من حيث نوعية الجمهور، وأداة التوصيل، وبناء الأسلوب، وطبيعة المضمون، بل إنها تكون في الغالب موجهة الى شخص معروف بخلاف المقالة التي توجه الى عموم القراء، ويظهر الاختلاف أيضا على مستوى الوظيفة، فالرسالة - خصوصا السلطانية - تؤدي وظيفة إدارية سياسية تختلف عن الوظيفة التي تؤديها المقالة الحديثة .

ولئن كانت الرسالة الإخوانية - حسب رأي د. محمد يوسف نجم - أقرب

---

(12) - المرجع نفسه. ص 154.

(13) - د. عطاء كفافي : المقالة الادبية ووظيفتها في العصر الحديث. ص 39 - 46.

(14) - د. محمد يوسف نجم : فن المقالة. ص 17.

هذه النماذج الى المقالة في صورتها الحديثة، فإن هناك نمطا من هذه الرسائل تتوارى فيه شخصية المرسل إليه وتبرز شخصية الكاتب، وهذا النمط أقرب الى المقالة الذاتية من غيره، يقول شهاب الدين الحلبي عن هذا الصنف من الرسائل «ومنه الكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه لاحتمال أن يقع. أو فيما تمتحن به قوة القريحة ويعتبر به تصرف الفطنة، ويسير به نحو الذهن، ويعلم به استعداد الفكر، فإن الكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان مخلى بينه وبين قوته فيه أو ضعفه» (15).

وتاريخ المقالة في المغرب يرتبط بتاريخ الصحافة ارتباطا وثيقا، فالمقالة بنوعيها الذاتي والموضوعي لم تظهر أول ما ظهرت على أنها فن مستقل، بل نشأت في حضن الصحافة وتحت رعايتها فخضعت لحكمها، وخدمت أغراضها المختلفة، وحملت الى القراء مواقفها من قضايا السياسة والإبداع، لقد كان هذا النوع الأدبي أحسن قناة تصل النخبة المثقفة في المغرب بالجماهير القارئة، كما كان الوسيلة الأدبية المرنة التي تسعف على بث الفكر الإصلاحي، وإلهاب الحماس السياسي، وتثقيف الملكات الأدبية. يقول سعيد حجي عن نشأة المقالة وهو من روادها الأوائل ومن أشهر المتمرسين بالعمل الصحفي : «وأدب المقال أو أسلوب المقال حديث العهد بين أساليب اللغة العربية، أحدثته الصحافة ولم يعرفه كتابنافي العصور الماضية بصورة محددة كما نعرفه اليوم، إذ هناك فرق كبير بين التأليف والمقال، أو بين فصل ينشر ضمن كتاب، وبين مقال يندرج في صحيفة» (16).

وإلى جانب وعي سعيد حجي بالتحول الذي لحق المقالة الحديثة، وبالفرق بينها وبين الأنماط النثرية القديمة كالرسالة والفصل، نجده يشير في سياق آخر الى ضرورة اشتمال المقالة على فكرة مركزية تكون محور الحديث، وهذه إشارة منه الى المقالة الموضوعية التي بدأت تبسط نفوذها وتحل بالتدريج محل المقالة الذاتية، فالقارئ الحديث أصبح في حاجة الى مزيد من بسط الأفكار وتوضيحها، والتدقيق في طرحها، كما أصبح يتأفف من المقالات المغرقة في الذاتية. يقول موضحا المقاييس الحديثة لكتابة المقالة : «فمن القواعد الحديثة لكتابة المقال أن يتضمن فكرة في عبارات محددة متزنة، ولكنها تؤدي الفكرة

---

(15) - شهاب الدين الحلبي : كتاب حسن التوسل الى صناعة الترسل. ص 116.

(16) - الكتابة المغربية. ص 27. (من الجزء الثاني الذي جمعه أبو بكر القادري).

من غير إجحاف أو فضول فالتطويل في المقال دون أن يشمل فكرة من الأفكار يؤدي بالقارئ العصري الى التأفف، والتأفف يؤدي بطبيعة الحال الى هجر مقالات ذلك الكاتب المطيل... ولعل من الخير أن يتجه الكتاب المغاربة من الآن الى التزود في الكتابة الأدبية من التحليل الدقيق للفكرة أو الموقف الذي ينالون، وفي الكتابة العلمية من الدقة في عرض القضية» (17).

وقد لعبت المقالة دورا أساسيا في تنمية الوعي الوطني والقومي والاجتماعي بالمغرب، وكانت المقالة السياسية الى جانب الخطابة السياسية أمضى سلاح استعملته الحركة الوطنية في مقاومة الاستعمار وتفنيد طروحاته، فأغلب رواد الحركة الوطنية من المثقفين بدأوا حياتهم الفنية مقاليين، واتخذوا هذا النوع الأدبي المرن أداة للتواصل مع الجماهير، وقد خضعت مقالاتهم - خصوصا المنشورة في الجرائد والصحف اليومية - للرقابة مما زاد من وعي القراء بأهميتها، بل إن المقالات المحذوفة كثيرا ما تصبح مثار تساؤلات أكثر من غيرها، يقول عبد القادر الصحراوي في هذا الصدد : «وحتى المقالات التي كان يحذفها الرقيب عندنا على عهد الحماية، يبقى مكانها في الصفحة الوطنية أبيض ناصعا لا تشغله إلا تلك الكلمة التي كانت قد أصبحت عندنا تقليدية، ومثيرة للغضب من جهة، وللسخرية بالمستعمر من جهة أخرى، وهي كلمة (حذفته الرقابة)، نقول حتى هذه المقالات لعبت دورا كبيرا في خلق الوعي الوطني عندنا وتنميته، لأنها كانت تثير التساؤلات الكثيرة لدى القراء، وتترك الباب مفتوحا على مصراعيه لأخيلتهم، وظنونهم، وتأويلاتهم، وتحمل كل واحد على أن ينشيء في نفسه، ودون أن يشعر بذلك، مقالة خاصة به» (18).

وقد اعتمدت المقالة السياسية الأسلوب الخطابي للتأثير على القارئ وإلهاب حماسه، واستندت الى الحجة والبرهان قصد توعية المواطن وإفحام الخصم وركزت على القضايا السياسية الراهنة كمشكلة الحماية، وقضية الظهير البربري، والمطالبة بالإصلاح السياسي، وبذلك «أدت وظيفتها ثابتة ومحذوفة، وعبرت عن أماني الشعب المضطهد في حريته، المغلوب على حقه» (19)، ومن أشهر كتاب

---

(17) - المرجع نفسه. ص 28.

(18) - عبد القادر الصحراوي : المقالة في المغرب. العلم الثقافي. 2 ماي 1969. ص 12.

(19) - عبد الله كنون : أحاديث عن الادب المغربي الحديث. ص 107.

هذا النمط من المقالة نذكر : عبد الخالق الطريس، وعلال الفاسي، ومحمد المكي الناصري، ومحمد الوزاني، وأحمد بالافريج... الخ.

وتأتي المقالة النقدية بعد المقالة السياسية من حيث الأهمية، فقد ازدهرت في سنوات الثلاثين، وكانت خير شاهد على الصراع الذي احتدم في هذه الفترة بين الشيوخ والشباب، حول قضايا الأدب والإبداع. وقد مثل محمد بن العباس القباج هذا النمط بما كتبه في مجلة "المغرب" من مقالات نذكر منها : "ابحث عن شاعر" (20) و"هل يسمع شعراؤنا" (21)، و"ليس هذا بعشك فادرجي" (22) و"الشنجيطي" (23)، و"شعراء الشباب" (24)... الخ.

ويشير سعيد حجي إلى هذه المرحلة الجديدة التي دشنها محمد بن العباس القباج بمقالاته النقدية، والى الصدى الذي تركته هذه المقالات بقوله : «صديقي ابن عباد : أحسنت والله إذ عزمت أن تأخذ بيد معول الهدم، وتقصد هذه الصورة البالية الجامدة من حياتنا، التي توالى سباتها وهي تتزعم تفكيرنا وأدبنا ... فطريقة النقد التي أخذت بأسبابها، وتفكر في الإتجاه إليها، هي الوسيلة الوحيدة لكي تمهد للمستقبل نوعا من الإنتاج الصحيح، فيسري في عرق حياتنا الأدبية دبيب النشاط ودبيب الفتوة والتذوق للجمال في أعمق صورة» (25).

وكانت المقالات النقدية في هذه المرحلة تتراوح بين البحث في ماهية الأدب ووظيفته، وبين طرح بعض القضايا النقدية الشائكة من خلال نماذج شعرية معينة، كقضية بناء القصيدة ولغتها، وقضية الصدق والكذب في الإبداع الشعري... الخ.

ومن أنماط المقالة التي كانت رائجة في السوق إلى جانب المقالة

---

(20) - المغرب. الاعداد 6 - 7 - 9 يناير - فبراير - ماي 1933.

(21) - المغرب. ع3. س3. يوليوز 1934. ص 12 - 16.

(22) - المغرب. ع5. س3. اكتوبر 1934. ص 9 - 16.

(23) - المغرب. ع6. س3. نونبر 1934. ص 6 - 8.

(24) - المغرب. س3. يناير - فبراير 1935. ص 12 - 14.

(25) - مجلة المغرب. ع6. س 1934. ص 11.

السياسية والمقالة النقدية نجد مقالة التعريف بالكتب، وقد كانت غاية كتاب هذا النوع من المقالة دفع القراء إلى المطالعة والتعرف على الجديد في مجال النشر،

كما كانت هذه المقالات من ناحية أخرى خطوة مكملة لما تبذله المؤسسات التعليمية الوطنية والحرة في التثقيف والتوعية. وانصرفت جهود كتاب هذه المقالة إلى التعريف بالكتب على صفحات جريدة "السعادة" : «لقد تعودنا الكتابة على صفحات "السعادة" الغراء التي هي المنبر الأدبي العام، وجليسة الخاص والعام من المفكرين والعلماء والأدباء والشعراء والأعيان، عن مؤلفات العصر ومؤلفيها أنصار البيان، ورجال النهضة الأدبية بهذه الديار المغربية... وسبق لنا نشر كلمات نحو التآليف المفيدة : «(فهرس الفهارس) و(نظام الحكومة النبوية والتراتيب الإدارية) للعلامة المحدث الشيخ سيدي عبد الحي الكتاني، و(اتحاف أعلام الناس) للعلامة المؤرخ النقيب سيدي عبد الرحمان بن زيدان، و(الفكر السامي في تطور الفقه الإسلامي) للعلامة المشارك الوزير سيدي محمد الحجوي الثعالبي» (26) وقد انقسمت جهود كتاب هذه المقالة بين الدواوين الشعرية، وكتب التاريخ والكتب المحققة. ومن الذين اشتهروا بكتابة هذه المقالة نذكر عبد الرحمان الفاسي ومحمد الفاسي ومحمد بن تاويت التطواني، وعبد الله كنون، ومحمد باحنيني .

وإلى جانب هذه الاتجاهات السائدة في كتابة المقالة، في بداية النهضة الحديثة في المغرب، نجد أصنافا أخرى من المقالة لكنها أقل انتشارا، كالمقالة اللغوية التي تهدف الى التصحيح والتصويب اللغوي، وتسعى الي تقريب الشقة بين الفصحى والعامية عن طريق البحث عما في هذ الأخيرة من فصيح. والمقالة الاصلاحية التي كتبها رواد الفكر السلفي في المغرب والتي تسعى الى محاربة البدع وبث الوعي الديني .

وقد اهتم الأستاذ كنون إلى جانب التاريخ للأدب المغربي، وتحقيق التراث، بكتابة المقالة الأدبية، شأنه في ذلك شأن أغلب رواد النهضة الحديثة في المغرب، فقد وجد هؤلاء الرواد في هذا النمط من الكتابة النثرية أحسن وسيلة لبث الأفكار الإصلاحية والتحديثية، سواء أكان ذلك على مستوى السياسة أم على مستوى الثقافة والأدب .

---

(26) - جريدة السعادة. ع 3939. 11 يناير 1933.

والمتصفح للمقالات الكثيرة التي كتبها الأستاذ كنون يلاحظ بجلاء غلبة جانب الدراسة الأدبية والبحث والاستقصاء على هذه المقالات، مما قلص من الجانب الذاتي فيها وفسح المجال للدراسة الموضوعية التي غايتها توضيح الآراء وتفصيل القول فيها، بالاعتماد على الحجج والبراهين، وبالتوسل بطرق خاصة للاقناع.

وإذا كانت المقالة الأدبية قد ارتبطت بظهور الصحافة وخضعت لحكمها، فإن صلة الأستاذ كنون بالصحافة وثيقة جدا، فقد أصدر لمدة ثماني سنوات مجلة شهرية باسم "لسان الدين" كما أشرف على تحرير صحيفة "الميثاق" لسان رابطة علماء المغرب، ومجلة "الإحياء" التي تصدرها هذه الرابطة نفسها، ونشر مقالاته في الصحف الوطنية والعربية والدولية. فمن المجلات العربية التي نشر فيها نذكر : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجلة الرسالة، كما كتب في صحف الجزائر، " كالشهاب"، و"البصائر" و"الإصلاح"، وفي مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

أما في المغرب فنجد مقالاته في مجلة "السلام"، و"رسالة المغرب"، ومجلة "الأنوار"، ومجلة "الثقافية المغربية"، و"المناهل"... الخ.

وقد مكنت هذه الممارسة الصحفية الطويلة الأستاذ كنون من تطوير أسلوب كتابته، ومن تنويع موضوعات مقالاته، فكتب في السياسة، والإصلاح، والنقد الأدبي، والبحث اللغوي، كما دخل في معارك ساخنة مع بعض النقاد من جيله، حول قضايا الأدب والثقافة، وكانت صفحات الجرائد والمجلات خير شاهد على ذلك، وقد جمع أغلب مقالاته في الكتب الآتية : "التعاشيب" "واحة الفكر"، "خل وبقل"، " العصف والريحان"، "أزهار برية"، "معارك".

وحتى نلم بمختلف القضايا التي طرحها في مقالاته، ونتعرف على أسلوبه وطريقته في عرضها، ارتأينا أن نصنف مقالاته التصنيف الآتي :

1 - المقالة النقدية
2 - المقالة السجالية
3 - مقالة التعريف بالكتب.
4 - المقالة اللغوية.
5 - المقالة الإصلاحية.

الفصل الأول

المقالة النقدية

المقالة النقدية

كتب الأستاذ گنون جملة من المقالات النقدية، تدور حول الأدب العربي في المشرق والمغرب والأندلس، وحتى نعطي صورة مجملة عن القضايا التي كانت محور نقده، والمنهج الذي سلكه في هذا النقد، سننطلق من بضع مقالات كتبها حول بعض القضايا الشائكة في حياة المتنبي، انطلاقا مما تركه من أشعار. وقد جاء اختيارنا لهذه المقالات نتيجة لعدة أسباب، أولها اقتناعنا بأنها تبرز أكثر من غيرها تأثره بمعايير القدماء ونسجه على منوالهم في تناوله النقدي. وثانيها ما يمثله المتنبي بالنسبة للدارسين المغاربة في سنوات الثلاثين، فقد استحال هذا الشاعر في كتاباتهم إلى رمز للعروبة وللحس القومي، ومن ثم اختلطت مقالاتهم النقدية بالنزعة الدفاعية. والقضايا التي كانت موضع اهتمام الأستاذ گنون في هذه المقالات هي : تنبؤ المتنبي، وعقيدته، وأخلاقه، وأمنيته التي لم تتحقق. وسنحاول فيما يلي استجلاء ملامح المنهج الذي سلكه في مناقشة هذه القضايا ومدى أصالته في هذا المنهج .

1 - تنبؤ المتنبي :

تراوحت آراء النقاد والباحثين، من قدماء ومحدثين، حول نبوة المتنبي، بين إثباتها، وبين التشكيك فيها ونفيها. وقد حاول الأستاذ گنون في مقالة بعنوان : "المتنبي في ديوانه" (1)، التحقق من هذه القضية، وكان شعر الشاعر هو المنطلق الذي بنى عليه أحكامه ونتائجه، وذلك بالاعتماد على نسخة خطية عتيقة توجد بالخزانة الگنونية، يقول عن ذلك : «هناك هنات لا تزال لاصقة بالمتنبي فتزري بشخصه الكبير، ولا زال البحث العلمي بعيدا عن أن يصل فيها إلى نتيجة حاسمة، فنريد أن نلقي عليها بصيصا من نور التحقيق... وسيكون اعتمادنا في الأكثر على نسخة خطية عتيقة من ديوانه توجد بالخزانة الگنونية» (2). وقد انتهى من مناقشة هذه القضية إلى نتيجة لخصها في قوله : «وصفوة القول إن قضية تنبئه لم تثبت حتى في زمن حياته، وهي إن لم تكن من إشاعات خصومه الكاذبة، فهي على الأصح مما نبز به لتشبيهه نفسه بالأنبياء» (3).

(1) - التعاشيب. ص 22.

(2) - المرجع نفسه. ص 25.

(3) - المرجع نفسه. ص 26.

أما الحجج التي استند إليها في هذه النتيجة فهي الآتية :

أ - شك المعري في صحة هذه النبوة.

ب - ما نستفيده من خبر ابن جني الذي ذكره أبو القاسم الشريف، قال : وحكى أبو الفتح بن جني قال : سمعت أبا الطيب المتنبي يقول :

أنا ترب الندى ورب القوافي
وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله
غريب كصالح في ثمود

ج - أما سبب سجنه في صباه فهو راجع إلى خروجه على السلطان لا إلى ادعاء النبوة كما تفيد ذلك هذه النسخة الخطية.

ونشير قبل مناقشة النتائج التي انتهى اليها الاستاذ كنون، إلى أن الاعتماد على نسخة خطية للديوان : «نسخة الخزانة الكنونية» في مناقشة معضلة كمعضلة "تنبؤ المتنبي"، والحسم فيها بسرعة انطلاقا من تلك الرواية الخطية، يجانب إلى حدما الدقة العلمية وما تقتضيه من حذر وحيطة، وما تستلزمه من استقراء لجميع الروايات والمقابلة بينها. وقد أفادتنا قواعد التحقيق أن كثيرا من النسخ الخطية تعبر عن أهواء ناسخيها، فتتعرض للحذف أو للزيادة، «فالناسخ يقرأ نصا فيعجب به، ولكنه لا يستطيع أن يخرجه للناس على ما هو عليه فيحذف بعض الأشياء، أو يضيف أشياء أخرى، حتى يصير مستساغا مقبولا، وقد يكون الناسخ مغرضا يهدف أن يسوء المؤلف، فيصحف أو يحرف أو يضيف، أو يفعلها معا لتحقيق مآربه، ربما يكون هذا الذي أشرت إليه من بين الأسباب التي تجعل فروقا مهمة بين نسخ النص الواحد» (4). وهذه الأمور واردة بحدة في النسخ الخطية لديوان شاعر كبير كالمتنبي، ملأ الدنيا وشغل الناس، وأثار عداوات بمقدار ما أثار صداقات.

---

(4) - ما وراء التحقيق (تحقيق النصوص الصوفية). د. محمد مفتاح. عرض ألقي في ندوة ثلاثون سنة من البحث الجامعي والعلمي. كلية الآداب. الرباط.

أما الحجج الثلاث التي ساقها الأستاذ كنون لنفي نبوة المتنبي فإنها لا تثبت أمام روايات القدماء التي سنعرض لها بعد حين، والتي تواترت على الإشارة إلى ظروف هذه الدعوى وملابساتها .

فشك المعري في تنبؤ المتنبي أقرب إلى اثبات التنبؤ منه إلى نفيه، وهذا ما نلمسه في قوله : «فأما بالشام فحبسه مشهور، وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة أي المرتفع من الأرض، وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه... وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألها، ومثل غيره من الناس متدلها فمن ذلك قوله : «ولا قابلا إلا لخالقه حكما».

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزي بريته
ولا يصدق قوما في الذي زعموا

قرئت يجزى. وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تدينا، وإنما يجعل ذلك تزينا يريد أن يصل به الى ثناء أو غرض من أغراض الخالية أم الفناء...» (5) فالمعري في هذا الكلام أقرب الى التيقن منه الي الشك، فهو يذكر أن المتنبي طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه، ثم يحاول أن يورد ما يدل على إيمان المتنبي بالله فيأتي ببيتين لكنه لا يلبث أن يقول : «وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان...». فكأنه يرى أن هذين البيتين لا ينبغي أن يعتمد عليهما دليلا على ما يسره في قلبه.

أما رواية ابن جني التي استدل بها الأستاذ كنون أيضا على نفي هذه التهمة عن الشاعر، فيمكن أن نتحفظ في قبولها، إذا علمنا أن ابن جني من المنتصرين للمتنبي، فقد ألف شرحين لديوانه أحدهما سماه " الفسر"، والآخر "كتاب معاني أبيات المتنبي"، وهو فيهما متعصب للشاعر مدافع عنه، سواء أتعلق الأمر بما سمي سرقات المتنبي، أم تعلق بالجانب العقائدي في أشعاره. يقول الدكتور محمد مندور عن هذا الجانب الثاني : «وميل ابن جني إلى أبي

(5) – أبو العلاء المعري : رسالة الغفران. تحقيق : د. عائشة عبد الرحمن. ط 7. ص 418 - 419.

الطيب واضح في دفاعه عنه من الناحية الأخلاقية، خذ لذلك مثلا قوله تعليقا على بيتي المتنبي :

تمتع من سهاد أو رقاد
ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى
سوى معنى انتباهك والمنام

أرجو أن لا يكون أراد بذلك أن نومة القبر لا انتباه لها» (6) أما تأويل حبسه على أنه لا علاقة له بادعائه النبوة كما تفيد ذلك نسخة الخزانة الكنونية فإنه لا يثبت أمام روايات القدماء التي أسهبت في الحديث عن هذا الحبس المشهور، وفي ذكر حيثياته وملابساته، ومن هذه الروايات رواية الثعالبي (429 هـ) الذي يقول : «وقد ترعرع أبو الطيب، وشعر وبرع، وبلغ من كبر نفسه، وبعد همته، أن دعا إلى بيعته قوما من رائشي نبله، على الحداثة في سنه، والغضاضة من عوده، وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره الى والي البلدة، ورفع إليه ما هم به من الخروج، فأمر بحبسه وتقييده، وهو القائل في حبسه قصيدته التي أولها من المتقارب :

أيا خدد الله ورد الخدود
وقد قدود الحسان القدود
تعجل في وجوب الحدود
وحدي قبيل وجوب السجود

... ويحكى أنه تنبأ في صباه، وفتن شرذمة بقوة أدبه، وحسن كلامه» (7) وهذه الرواية تفيدنا أن الشاعر تنبأ في صباه، وفتن جماعة بقوة أدبه. كما يشير الثعالبي إلى هجاء الشعراء له ونبزهم إياه بهذه التهمة، من ذلك قول أحدهم :

ما أرقع المتنبي
فيما حكاه وادعاه

(6) - محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب. ص 235.

(7) - الثعالبي : يتيمة الدهر. ج 1. ص 113 - 115.

ابيع مالا عظيما
حتى أباح قفاه
إن كان ذاك نبينا
فالجاثليق إله [8]

ومن أشار لهذه القضية ابن خلكان الذي يقول : «وإنما قيل له "المتنبي" لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة، وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم، فخرج اليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية، فأسره وتفرق أصحابه، وحبسه طويلا ثم استتابه وأطلقه. وقيل غير ذلك وهذا أصح. وقيل أنه قال : أنا أول من تنبأ بالشعر» [9].

فابن خلكان يرجح نبوته على ما سواها، وهذا ما نفهمه من قوله : «وقيل غير ذلك، وهذا أصح» .

من هذه الروايات أيضا رواية ابن رشيق (456 هـ) إذ يقول : «وكان كافور الأخشيدي قد وعد أبا الطيب بولاية بعض أعماله، فلما رأى تعاظمه في شعره، وسموه بنفسه، خافه، وعوتب فيه، فقال : يا قوم من ادعى النبوة مع محمد (صلى الله عليه وسلم) ألا يدعي المملكة مع كافور ؟ حسبكم. وزعم أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي أن أبا الطيب إنما سمي متنبئا لفطنته. وقال غيره بل قال : أنا أول من تنبأ بالشعر، وادعى النبوة في بني الفصيص» [10].

فهذه الرواية تفيدنا أنه ادعى النبوة في بني الفصيص، وأنه ادعاها شعرا أو أنه أول من ادعى النبوة من الشعراء .

2 - عقيدة المتنبي :

أما ما اتهم به المتنبي من ضعف في العقيدة، فإن الأستاذ كنون يوضح منذ البداية أنه سيقف موقف المدافع والمحامي عنه في هذه التهمة، يقول : «أما

(8) - المرجع نفسه. ص 121.

(9) - ابن خلكان : وفيات الاعيان. ج 1. ص 122. تحقيق : إحسان عباس.

(10) - ابن رشيق : العمدة. تحقيق : محي الدين عبد الحميد. ج 1. ص 75.

عقيدته فهي مما كثر كلام الناس فيه، ولسوء حظ المتنبي لم يتناولها إلا منتقد. وليس هناك معتقد، (أي موال للمتنبي حسن الرأي فيه) فيما نعلم تولى رد ما رمي به من الزيغ والإلحاد، فنحن نبين ما يعتمده متهموه في ذلك، ونعقب عليه بما يلوح لنا منه صحيحا أو باطلا» (11) والملاحظ أن الأستاذ كنون في هذا القسم بدل أن يستقرئ ديوان الشاعر للبحث عن مدى صحة أو خطإ هذه الدعوى، نجده يلتمس الأعذار للشاعر ويقيسه على أشباهه ونظائره من الشعراء الذين اتهموا بسوء العقيدة وكأنه بذلك يسلم بصحة هذه التهمة، ويعتذر للشاعر عنها. ويمكن أن نلمس منهج المقايسة في قوله : «... وعلى كل حال فالحكم على المتنبي بضعف العقيدة لبعض أفكار فلسفية تضمنها شعره يجعلنا لا نقبل في حظيرة الإسلام أكثر علماء الاسلام من الذين لهم مذاهب عقلية وأفكار فلسفية،... ولولا ضيق المجال لعملنا مناظرة بين أقواله وأقوال غيره من الشعراء في هذا الباب، حتى يرى القارئ أن المتنبي لا يزيد على غيره إن لم يقصر في ذلك» (12).

وقد سلك الأستاذ كنون في دفاعه عن المتنبي النهج نفسه الذي سلكه القاضي الجرجاني، الذي لا يناقش الشاعر فيما أخطأ فيه بل يقيسه على أشباهه ونظائره من الشعراء المتقدمين، يقول الجرجاني في هذا السياق : «والعجب ممن ينقص أبا الطيب، ويغض من شعره، لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد الديانة كقوله :

يترشفن من فمي رشفات
هن فيه أحلى من التوحيد

فلو كانت الديانة عارا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم ابي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر... ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر» (13)، هكذا نجد الأستاذ كنون يسوق الحجج نفسها التي ساقها الجرجاني في دفاعه عن المتنبي.

(11) - التعاشيب. ص 30.

(12) - المرجع نفسه. ص 33.

(13) - القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه. ص 63 - 64.

أما الأبيات التي فيها زيغ عن العقيدة، فإن الأستاذ كنون يحاول تخريجها تخريجا آخر يلائم دفاعه عن الشاعر، أو يشير إلى الرواية الأخرى لهذه الأبيات بما فيها رواية نسخة الخزانة الكنونية، يقول في تعليقه على قول المتنبي :

أنا مبصر وأظن أني نائم
من كان يحلم بالإله فأحلما

«فقالوا هذه مبالغة مذمومة، وإفراط وتجاوز حد، ثم هو غلط في إنكار رؤية الله تعالى في النوم، فإن الاخبار قد تواترت بذلك. ونقول : إن للبيت رواية أخرى وهي الأشهر هكذا :

«من كان يحلم ما أراه فأحلما» وهي كذلك في نسختنا، والمعنى عليها أظهر من الأولى، فلا يبعد أن تكون تحريفا» (14).

ونشير على هامش حديث الأستاذ كنون عن عقيدة المتنبي ودفاعه عنه فيما نبز به من سوء الاعتقاد، إلى أن الأبيات الثلاثة التي أوردها له، وحاول تخريجها بما يتلاءم مع ما يذهب إليه، لا يكفي دليلا للحسم في هذه المعظلة، إذ لا بد من استقراء لجميع أشعار الشاعر، مع التخلي عن المنطق الدفاعي الذي ربما يوجه البحث وجهة أخرى تجانب الموضوعية العلمية. وإذا ما رجعنا إلى المصادر القديمة والكتب الحديثة التي عرضت لحياة المتنبي وأشعاره، فإننا نكاد نخلص إلى شبه إجماع على رقة دين الشاعر، وفساد عقيدته، من ذلك ما نجده في خزانة الأدب للبغدادي الذي يذكر نقلا عن كتاب : "إيضاح المشكل لشعر المتنبي" لأبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمان الاصفهاني، وهو معاصر لابن جني، قول أبي القاسم هذا عن المتنبي : «وهو في الجملة خبيث الاعتقاد، وكان في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة. فهوسه وأضله كما ضل...» (15).

وإذا تركنا، أقوال القدماء واستقرأنا أشعار الشاعر، فإننا نلمس رقة في

---

(14) – التعاشيب. ص 31 - 32.

(15) – عبد القادر البغدادي : خزانة الادب. ج 1. ص 382.

العقيدة، وتشككا وحيرة في الكثير من الأبيات، من ذلك قوله في رثاء أخت سيف الدولة :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم
إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة
وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته
أقامه الفكر بين العجز والتعب (16)

فهذه المرثية تختلف عن مراثي الشعراء الإسلامين في عدم ذكرها للحياة التي تعقب الموت، على الرغم من أنها قيلت في أخت أمير مسلم، فكأن الشاعر لا يومن بالبعث، فقد عبر فيها عن شكه وحيرته بكل وضوح وكما أخذنا على الأستاذ كنون عدم استقرائه لأقوال القدماء في عقيدة الشاعر وعدم استقرائه لاشعاره، فإننا نأخذ عليه أيضا تقديمه البحث في نبوة المتنبي عن البحث في عقيدته، والفصل بين هاتين القضيتين، ذلك أن البحث في عقيدة الشاعر هو المنطلق الذي يمكن أن يبدأ منه الباحث ليؤكد النبوة أو ينفيها، لا العكس.

3 - اخلاق المتنبي :

من القضايا الأخرى التي أثارها الاستاذ كنون في مقالته عن المتنبي، قضية أخلاق هذا الشاعر، وقد سلك في طرحه ومناقشته لهذه القضية النهج نفسه، وهو الدفاع عن الشاعر والاعتذار له، وقياسه على أشباهه ونظائره، يقول عن أخلاقه : «وأما أخلاقه فلسنا بحاجة إلى التنويه بما كان عليه من علو الهمة والشجاعة والصدق والوفاء، فإن شعره مملوء بشواهد ذلك» (17)، وإن ثبت أن المتنبي يسرف في بعض أبياته في الاعتداد بالذات فإنه له نظائر وأشباها بين الشعراء، يقول : «والواقع أن المتنبي كان يسرف في التعظم، وإن كان له نظراء في ذلك» (18).

(16) - عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي. ج 1. ص 224 - 225.

(17) - التعاشيب. ص 35.

(18) - المرجع نفسه. ص 35.

وكما سار الأستاذ گنون في دفاعه عن المتنبي على نهج الجرجاني في قياسه الاشباه والنظائر فإنه يتكئ ثانية على معايير النقد القديم في تفضيله المتنبي على سائر الشعراء، انطلاقا من أبياته المفردة، وأمثاله السائرة، وما احتوت عليه من نكت بلاغية، وحكم غالية، يقول عن هذا المعيار : «ومع ذلك فإننا بموجب هذا القياس نحكم للمتنبي بأنه شاعر العربية الأكبر، لأنه لا يوجد شاعر له من الأبيات المفردة السائرة مسير الأمثال، في غالب المعاني التي تخطر في القلب، وتجوس خلال النفس، ما للمتنبي منها. وذلك شيء مشهود معلوم، إذا أردنا التدليل عليه لم تعوزنا عشرات الدلائل، وربما لم نزد الناس به علما» (19). فأصالة المتنبي تعود إلى أمثاله السائرة على كل لسان، وأبياته المفردة، وهذه الناحية من شاعريته التفت إليها القدماء ووضع فيها الحاتمي رسالته : (الرسالة الحاتمية فيما وافق من شعر المتنبي كلام أرسطو في الحكمة).

من مظاهر اتكاء الأستاذ گنون على معايير النقد القديم أيضا، تردد بعض مصطلحات هذا النقد أثناء تقويمه للشعراء. من ذلك مصطلح "الفحولة" والفحل جملا كان أو فرسا، يتميز بما يناقض صفة "اللين" : هذه الصفة التي لا يحبذها الأصمعي في الشاعر، إذ بالفحولة يتفوق الشاعر على من سواه، يقول الاصمعي : «الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل، فإذا دخل في الخير ضعف ولان، هذا حسان فحل من فحول الشعراء في الجاهلية. فلما جاء الاسلام سقط شعره...» (20).

وإذا كان القدماء كما هو واضح في كلام الاصمعي، قد استعملوا هذا المصطلح لوصف الشعر الذي يتميز بصفات تناقض اللين والرقة، والشعر الذي قيل في غير المعاني الدينية - مع شيء من التجاوز - فإن الاستاذ گنون أطلق هذا الوصف على شاعر قال جل قصائده ومقطوعاته التي وصلتنا في أغراض لا تخرج عن نطاق الخير، بما فيه من زهد، وموعظة، وحكمة، ومعان دينية أخرى، يقول عن هذا الشاعر وهو سابق البربري : «وبعد فهذا شاعر فحل من أكبر الشعراء الذين يفاخر بهم هذا المغرب العربي، ويستظهر بهم عند الحديث عن الأدب والأدباء، وقد احتج به أهل العربية وعلماء البلاغة» (21).

(19) - التعاشيب، شاعر العربية الاكبر. ص 53.

(20) - المرزباني : الموشح. جمعية نشر الكتب العربية. 1343 هـ. ص 71.

(21) - سابق البربري : خل وبقل. ص 22.

هكذا نخلص إلى أن مصطلح "الفحولة" ، لا يعني الدلالة نفسها التي نجدها عند ابن سلام أو الأصمعي، وإنما يقصد به الاستاذ كنون مطلق الجودة .

وإذا ما تركنا المقالات التي خصها الاستاذ كنون لبعض قضايا الأدب القديم، وعرجنا على المقالات التي تناول فيها الشعر المغربي، نجد أن المقاييس القديمة حاضرة أيضا على الرغم من اختلاف المادة المنقودة، فقد ركز في هذه المقالات على الهنات اللغوية، والأخطاء العروضية، وعلل وقوع الشعراء في هذه الأخطاء بقلة زادهم من الشعر القديم، وعدم تمكنهم من علوم الآلة، فضعف الشعر المغربي الحديث راجع الى : «قلة الحصيلة اللغوية عند الشعراء، ومنها عدم التمكن من قواعد النحو والصرف والبيان والعروض، ومنها اختلال الذوق الأدبي، ومنها سوء الاسوة التي أوقعتهم في كثير من هذه النقائص. فالشاعر الذي يتخرج على شعر المجلات والصحف، وعلى شعر الدواوين الحديثة المملوء بالأغلاط... هذا الشاعر لا بد أن يأتي مسخا من الشعراء... لذلك فلا جرم أن نلقى شعره مليئا باللحن ومخالفة القياس الصرفي، وفي العروض إن سلم له الميزان فهو غالبا لا يسلم من عيوب القافية» (22) وبناء على هذا يقدم جملة من النصائح لهؤلاء الشعراء تتلخص في قوله : «وإذن فعلى شعرائنا إن أرادوا أن يتمكنوا من ناصية الشعر، أن يقذفوا بانفسهم في ميادينه الرحبة، وأن ينصرفوا إليه بكليتهم،... وأول ما يبدأون به مادة اللغة الواسعة، فيتزودون منها بالزاد الكافي ... ثم يتقنون نحوها وصرفها وبيانها وعروضها، مقبلين أثناء ذلك في نهم شديد على حفظ أشعار العرب العرباء» (23).

ونختم حديثنا عن المقالة النقدية عند الأستاذ كنون، بالملاحظات الآتية :

1 - مما يلفت نظر الباحث، حين يتصفح الكتب التي جمع فيها الأستاذ كنون مقالاته المختلفة، قلة المقالات الخاصة بالنقد الأدبي أو الخالصة له، بالمقارنة مع باقي المقالات الأخرى، كالمقالات اللغوية ومقالات التعريف بالكتب. فقد غلبت على اهتمامه بحوث تتعلق بالتاريخ الأدبي، والبحث اللغوي، والتحقيق، مما قلص من اهتمامه بالنقد الأدبي، فلم يخصه بكتب مستقلة أو بمقالات كثيرة، وإن كنا لا نعدم بعض الخطرات النقدية في سائر بحوثه .

(22) - خل وبقل. جائزة الشعر الملغاة. ص202 - 203.

(23) - المرجع نفسه. ص204 - 205.

2 – سار الأستاذ كنون في أغلب مقالاته النقدية على نهج القدماء، وصدر في أحكامه عن معاييرهم، وهذا ما لاحظناه سواء أكان ذلك على مستوى المنهج : المقايسة، أو قياس الأشباه والنظائر، أم على مستوى المصطلح النقدي : الفحولة. أم على مستوى التركيز على بعض القضايا التي ركز عليها القدماء في تقويمهم للشعر : الابيات المفردة، والأمثال السائرة والنقد اللغوي والعروضي.

3 – اتسم نقد الأستاذ كنون للمتنبي، في المقالات السالفة بالنزعة الدفاعية، فحاول في كل القضايا التي اثارها عن حياة الشاعر، التماس الأعذار له، وتبرئة ساحته مما نبز به، فالمتنبي ليس مجرد شاعر كسائر الشعراء بالنسبة للاستاذ كنون، وبالنسبة لبقية رواد النهضة الحديثة في المغرب. لقد كان هذا الشاعر رمزا للعروبة، وللحس القومي الذي تفجر بعد إعلان الظهير البربري. ونشير في هذا الصدد إلى أن مجلة "المغرب الجديد" (24) خصصت عددين للدراسات المنجزة بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة المتنبي، وقد ساهم في هذه الدراسات نخبة من رواد النهضة الحديثة والحركة الوطنية، كعبد الخالق الطريس، والمكي الناصري، الخ ...

---

(24) – مجلة المغرب الجديد. ع9 - 10. س 1. فبراير – مارس 1936.

الفصل الثاني

المقالة السجالية

التعريف بالمقالة السجالية

التعريف بالسخرية

تحليل مقالة "إن كنت ريحا فقد لا قيت إعصارا"

المقالة السجالية

من أهم المقالات التي كتبها الأستاذ كنون، تلك التي جاءت ثمرة سجال نقدي مع الأستاذ عبد الرحمن الفاسي، والأستاذ محمد بن تاويت التطواني. وأهمية هذه المقالات لا تعود إلى القضايا التي كانت موضع سجال فقط، بل تعود بالخصوص إلى شكل هذه المقالات وبنيتها كما سنرى. وقد كانت المقالات التي كتبها عبد الرحمان الفاسي في جريدة العلم (1)، هي الفتيل الذي أشعل نار هذا السجال، ذلك أنه انتقد فيها كتاب : "امراؤنا الشعراء"، واستطرد فيها إلى ذكر مآخذ على كتاب : "النبوغ"، مما أثار حفيظة الأستاذ كنون، فانبرى للرد على تلك المقالات وما تحتوي عليه من ادعاءات .

وسيقتصر عملنا في هذا الفصل على تحليل مقالة واحدة للأستاذ كنون، هي مقالة : «إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا» (2). واقتصارنا على هذه المقالة لا يعني أن صاحبها لا يملك سواها، إن اختيارنا لها كان ثمرة نظر طويل في كل المقالات الأخرى (3). وسنركز في تحليلنا لها على ظاهرة السخرية، وطريقة حدوثها داخل النص، ذلك أنه من المستحيل الحديث عن المقالة السجالية بمعزل عن السخرية التي تشكل أبرز عناصر هذا الصنف من المقالة، أوتتناول السخرية بمعزل على الخطاب السجالي، فالحديث عن الواحدة دون الأخرى بتر للموضوع .

من هذا المنطلق ارتأينا أن نحارب على واجهتين، أن نتناول في البداية المقالة السجالية بالتعريف، ثم نتناول بعد ذلك ظاهرة السخرية، ونقف عند بعض أنواعها، وقد كان هذا المدخل النظري ضروريا، خصوصا وأنه سيضيء لنا طريق التحليل في المرحلة الثانية، لهذا سنحيل إليه بين الحين والآخر أثناء مقاربتنا لنص المقالة.

---

(1) – ذيل وتعليق على كتاب :أمراؤنا الشعراء". جريدة العلم. الاعداد 52 - 58 - 64. تاريخ 10 - 18 - 24 نونبر، السنة 1946.

* لبيك لبيك. جريدة العلم. الاعداد 79 - 106 - 112. السنة 1947.

* ما أحق الشوهاء أن تتقنع. جريدة العلم. العدد 122. السنة 1947.

(2) – واحة الفكر. ص 133.

(3) – نشر الاستاذ كنون هذه المقالات في جريدة العلم تحت عنوان : "تحقيق مع صاحب الذيل والتعليق". وجمعها في كتاب "واحة الفكر". من الصفحة 100 الى الصفحة 132.

ولا بأس أن نشير قبل تحليل هذه المقالة إلى القضايا التي كانت موضع سجال بين الأستاذ كنون والأستاذ محمد بن تاويت.فقد كتب هذا الأخير مقالة تحت عنوان:نظرة عابرة على كتاب "النبوغ المغربي لعبد الله كنون" (4) ضمنها جملة من المآخذ على هذا الكتاب، ونجمل هذه المآخذ فيما يلي :

1 - عدم ذكر الأستاذ كنون للمصادر التي اعتمدها في كتاب النبوغ : «لقد زود المؤلف كتابه في طبعته الثانية بمعلومات استفادها بعدما بقل عارضه بسنين عديدة، فكان عليه أن يذكر مصادره في ذلك، وفعلا فقد ذكر مصادر واجهها بنفسه، ومصادر أخرى لا شك أنها ترجمت له من كتب لا يفهم لغتها وهي التي أثبتها في "المصادر الأجنبية"» (5).

2 - نقل الأستاذ كنون، عما عربه بن تاويت حول ابن خلدون. يقول الأستاذ بن تاويت في هذا الصدد : «لا ندري ما استفاده من "بروكلمان" في دراسته هذه، اللهم إلا أن يكون قد اطلع على ما ترجم به لابن خلدون، وعربناه في مجلة الانيس... فلا مناص من أن نفهم أن استعانته بالكتب المعنونة بعناوينها الأجنبية. إن كانت فهي بواسطة يجب أن تشكر بعد أن تذكر، إذ لولا الوساطة لذهب - كما قيل - الموسوط» (6).

3 - اشتمال النبوغ على أخطاء لغوية، وأخطاء في الوفيات، يقول الاستاذ بن تاويت بعد أن أحصى هذه الأخطاء وبين أوجه الصواب فيها : «هذه مسائل كان بالإمكان أن يعرض عنها، لولا أن صاحبها يدعي رسميا إلى مجالس اللغة ومحافل الأقحاح، فعار علينا أن نسكت عليه، وهو من هو أمانة من الداخل، وتمثيلا في الخارج» (7).

ولم يكتف الأستاذ كنون بالرد على هذه المآخذ، وتفنيد هذه الادعاءات، ومقابلة السخرية بمثلها، بل نجده يضمن مقالته بعض المآخذ على الأستاذ بن تاويت، وهي الآتية :

---

(4) - البحث العلمي. ع 24. س 12. يناير - أبريل 1975. ص 177.

(5) - المرجع نفسه. ص 177.

(6) - المرجع نفسه. ص 177.

(7) - البحث العلمي. ع 24. س 12. يناير - إبريل 1975. ص : 183.

1 - أغار الأستاذ بن تاويت في كتابه الأدب المغربي على مجموعة من الكتب. يقول الأستاذ گنون عن هذا : «لا نبالغ إذا قلنا ثلاثة أرباعه منقولة من كتابنا في طبعته الأولى، والرابع الباقي من كتاب الدكتور هيكل، بحيث لو قيل لمضمون ذلك الكتاب ارجع إلى مظانك وأماكنك لما بقي فيه إلا أوراق بيضاء ناصعة» (8).

2 - الأستاذ بن تاويت لا يتقن اللغات الأجنبية رغم تبجحه بذلك، يقول الاستاذ گنون في هذا الصدد : «وعلى ذكر الوسط الذي تعلم فيه الإسبانية وهو أكاديمية الشارع، نقول إن دراسة الأستاذ كلها كانت بالعربية، سواء في المغرب أو في مصر، فمن أين جاءته هذه المعرفة الشاملة بالعديد من اللغات، لاسيما التي لا تعد من اللغات الأولى في مصر؟ أما الانجليزية التي ربما يقول أنه درسها هناك، فقد تبين لنا مدى إلمامه بها لما كنا معا في باريز، ولم تنقده حتى في طلب طعام الفطور من عمال الفندق، مع أن الأنجليزية في مطلق الفنادق مستعملة أكثر من أية لغة أخرى فلجأ إلينا لنطلب له فطوره بالفرنسية التي قال إننا نتلمظ بها .

ونلاحظ أن الأستاذ يتحفظ في دعوى المعرفة بهذه اللغة الأخيرة، وذلك لأنه يوجد بين ظهراني من لا يستطيع أن ينسب بينهم بحرف منها، فأحرى أن يدعي معرفتها» (9).

3 - أغار الأستاذ بن تاويت على بحث للأستاذ گنون بعنوان : "هل اسم خلدون وغيره مكبر على الطريقة الإسبانية" يقول الأستاذ گنون : «كعادة الأستاذ حين يغير على بحث أو كتاب أو مقالة لغيره فإنه يغبر ليخفي إغارته، بإضافة بعض الأمثلة وتغيير بعض الألفاظ، وحينئذ يقع على أم رأسه ويفتضح فضيحة نكراء» (10).

4 - الخطأ في اللغة، والضعف في التحقيق، وعدم معرفة العروض. يقول عن جهل الأستاذ بن تاويت بالعروض : «وأخرى نحب أن نلم بها إلماما خفيفا،

(8) - البحث العلمي. ع 25. ص 13، يناير - يونيو 1976. ص : 276.

(9) - البحث العلمي، ع 24، ص : 277 - 278.

(10) - البحث العلمي. ع 25. س 13. يناير - يونيو 1976. ص 273 - 274.

وهي علم الأستاذ بالعروض من متابعه أو من بوالعه، فقد عهدناه يكسر الأشعار التي تقع في كتاباته تكسيرا فظيعا، ويبدد شمل النظم تبديدا» (11).

ننتقل بعد هذا العرض الموجز للقضايا التي كانت موضع سجال بين الأستاذ گنون والأستاذ بن تاويت إلى تحليل مقالة : "إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا" وسنسلك في هذا التحليل الخطوات الآتية :

1 - التعريف بالمقالة السجالية .
2 - التعريف بالسخرية.
3 - تحليل نص المقالة .

1 - التعريف بالمقالة السجالية :

إن المقالة السجالية فرع من جنس المقالة، ولا يتميز هذا الفرع منها إلا بموضوعه، ويبدو من خلال النعت الذي يلصق بها، أن موضوعها قائم على المجادلة، وعندما نقترب منها أكثر يتبين لنا أن هذه المجادلة آتية من خلاف مذهبي، تنتج عنه في أغلب الأحيان خصومة شخصية، خصوصاً حين تتجاوز المجادلة حدود النقض والتفنيد إلى التهاجي وذكر العيوب والمثالب، وبناء على هذا نستطيع أن نخصص ونعين داخل المقالة السجالية فرعين أساسيين :

أ - المقالة السجالية المنطقية

وتتأسس المجادلة فيها على خلاف مذهبي، وتلتزم في شكلها حدود النقض والتفنيد، دون المساس بشخص الخصم، أو إدخاله ضمن أسباب الجدال. ويلتزم هذا الصنف حدود المنطق، ويكتفي بتقويم أقوال الغير بمعيار الخطإ والصواب.

ب - المقالة الهجائية

إننا نكتفي بوصفها بالهجائية اختصارا فقط، وفي هذا الصنف يتخطى المتجادلان حدود البرهان على صحة أو خطإ الآراء، إلى البرهان والاستدلال على سوء أخلاق الآخر، أو على نقص أو عيب في شخصه، وهنا تبرز السخرية كمادة

(11) - المرجع نفسه. ص 278.

فعالة في إلحاق الضرر بالخصم. وعلى هذا فإن مقالة الأستاذ گنون، بالنظر الى موضوعها وشكلها، وحتى بنيتها تنتمي إلى هذا الصنف من المقالة السجالية.

حدود المقالة السجالية بصنفيها :

إن السخرية منتوج لغوي، في المجال الذي يهمنا الآن، أي أنها ثمرة ينتجها النص، ولذلك يجب تحديد مجال ظهورها، لأن تجلياتها تختلف حسب النصوص التي تنتجها، فالسخرية في القصة مثلا ليست هي نفسها في المقالة، ولهذا يجب علينا أن نحاول رسم حدود المقالة السجالية، وسنبدأ بالحديث عن البعدين السيكلوجي والاجتماعي لهذه المقالة .

أ - البعد السيكولوجي :

حينما تندلع نار الخصومة بين شخصين، وكان النزاع بينهما عقائديا، فإن المساجلة الكلامية لا ترمي إلي إفحام الخصم، لأن ذلك لا يحصل إلا بالبرهان العلمي المحض، وهذا الأخير يغلق بدوره أبواب السجال. أما الخصومة العقائدية التي تسير على هذا النحو الذي نحن بصدده، فإنها تكون مشوبة في جل الأحيان بالغضب الملتهب، مما يدخل في كلام المتنازعين عنصرا عاطفيا يضفي على هذا الصنف من المقالة بعدا سيكولوجيا. إن ما يرد في هذا الصنف من كلام ضد الغير، يشبه تمام الشبه ذلك السب والشتم اللذين يسبقان المعركة بالأيدي أو غيرها. فهما بمثابة الضرب واللكم. والمقالة السجالية الهجائية بهذا المعنى، تحقق رغبة نفسية دفينة في أعماق المتكلم في قتل الغير، والفتك به، وهذا هو خلاصة كتاب سيگموند فرويد (12) في هذا الموضوع .

ب - البعد الاجتماعي :

لو كان للمقالة السجالية مغزى نفسي لا غير، لاكتفى صاحبها في بعض الاحيان بكتابتها دون نشرها، ذلك أن مجرد الكتابة يعد تنفيسا عن الرغبات، كما يثبت علماء النفس، ولكن الأمريبدو أكثر من هذا، فالمقالة تنشر على صفحات الجرائد والمجلات حتى يطلع عليها الجمهور العريض من القراء، والمراد لدى كاتبها ليس فقط إفحام الخصم وتعذيبه لأن هذا شيء مستحيل، وإنما كسب

---

(12) - S. Freud : Le mot d'esprit et [illegible] rapports avec l'inconscience. Ed. Gallimard. Paris 1981. Coll. 'Idées' N° 198.

الآخرين إلى جانبه. إنه يطمح الى تحطيم صورة الخصم، وإبطال آرائه، داخل دائرة القيم الاجتماعية المشتركة بين الأطراف الثالثة : الانا - الخصم - الآخرين.

إن التهجم على الخصم هنا هو بمثابة دفاع عن القيم الاجتماعية السائدة، كأن المتكلم يريد إصلاح فساد اجتماعي وأخلاقي، أو الدفاع عن القيم المثلى التي يومن بها المجتمع وبهذا تتخذ المقالة الهجائية صبغة إصلاحية وذلك لرفضها للغموض، وعدم الانسجام، والقبح والشر.

أهداف المقالة السجالية :

إن رسم حدود واضحة لأهداف المقالة السجالية لا يمكن تحققه من خلال إحصاء موضوعاتها لأنها متعددة ولكل مقالة موضوعها الخاص، والذي يهمنا نحن هو تحديد أهداف هذا الشكل الأدبي المتميز وطريقة اشتغاله .إن المقالة السجالية التي قلنا عنها إنها تنتمي الى جنس المقالة عامة، هدفها هو إقناع المستمع أو القارئ، وبهذا تكون جدولا متفرعا عن النهر الكبير الذي هو الخطابة. فالمقالة تستعمل من أجل الأهداف نفسها التي كانت تستعمل لها "الخطابة" الشفوية في العصور القديمة، فاليوميات والدوريات منابر يخاطب فيها الجمهور العريض، قصد التأثير فيه وإقناعه بأفكار أو معتقدات الكاتب، مثلما كان الحال بالنسبة للخطباء قديما .

والمقالة السجالية في هذا الخضم يبدو هدفها معينا وهو تبرير رأي المتكلم وتفنيد رأي خصمه، أو الحط من قيمته، وليس إفحامه بالبراهين العلمية القاطعة، لأن هذا مستحيل في العلوم الانسانية، والعقائد،التي هي ميدان الاختلاف والتمايز .

إن من يكتب مقالة حول موضوع معين، لعرض أفكاره أو نشر مذهبه، يدعم على الدوام أقواله باستدلالات قياسية، وشواهد خارجية تزيد من قوة دعواه. ويجنح كاتب المقالة (مثل الخطيب) إلى اللجوء إلى هذه الدعائم المنطقية أو الحسية لتفنيد الرأي المناقض المحتمل. ذلك أن كاتب المقالة (أو الخطيب) حتى لو لم يكن هناك من يعارضه بصوت جهير، فإنه يتصور دائما ذلك النقيض المحتمل الذي يكون خطرا على معتقداته، أما إذا كان وجو د ذلك الخصم على الساحة وجودا فعليا، ودخل في نقاش مع الكاتب (أو الخطيب) فإننا نكون آنئذ في قلب المقالة السجالية. وإذا احتدت أقوال المتجادلين واشتدت

بينهما الملاسنة، فإن السجال يتخذ صورة الهجاء، وتفتح أبواب السخرية من أقوال الخصم أو من شخصه، وبذلك نلج أعتاب المقالة السجالية الهجائية .

شكل المقالة السجالية :

إن المقالة كرسالة مكونة من مجموعة منسقة من الاشارات يجب فكها حسب إجراءات التواصل داخل مجموعة لسانية وثقافية معينة، تستلزم وجود طرفين تقوم الرسالة بالربط بينهما، وهما المتكلم والمخاطب. والمتكلم إذا لم يكن معروفا لدى الجمهور، فيجب عليه أن يظهر ذاته داخل النص (المقالة) بدون ضجيج، وأن يبتعد ما أمكن عن قول ها أنا ذا ! ويجب عليه أن يراعي قواعد التأدب في الكلام، ويحاول ما أمكنه ذلك، أن يترك أثرا حسنا في نفس المستمع/القارئ. وهذا على حساب الخصم الذي تتناوله المقالة بالنقد في أقواله أو شخصه. وهذا الجانب وثيق الصلة بالأسلوب، فيجب على المتكلم أن يحسن التصرف في اللغة حتى يتوفق في إثارة مشاعر النقمة أو الضحك من الخصم لدى القارئ / المستمع.

والمخاطب الذي هو الجمهور المستهدف، والذي يحاول المتكلم الاستحو على لبه، كان في العصور القديمة يرتبط مع مخاطبه بعرى المعرفة العيانية. ا كان المتكلم / الخطيب، يعرف جمهوره، ويعرفه الجمهور، فليس بينهما حجب ا أستار. أما في عصرنا الحالي، عصر الكتابة - بغض الطرف عن الوسا السمعية البصرية - فإن كاتب المقالة لا يتصل بالجمهور سوى عبر قنوات خاص وهي منابر الصحف المكتوبة. فهو يكتب لقراء جريدة يومية، أو أسبوعية.. الخ. إن "المخاطب" هنا يتحدد من خلال تعامله مع القناة التي تنشر كلا "المتكلم" وتذيعه، فضلا عن هذا فإن الخطاب نفسه يساهم في رسم الجمهو "المستمع" أو "المتلقي" الذي يوجه اليه، وما زال هذا "المتلقي" منذ القديم إلى الآن ينقسم إلى قسمين : المخاطب العالمي، والمخاطب الخاص.

فالمخاطب العالمي (13): L'auditoire Universel يتوجه إليه المتكلم بح كونية قائمة على أسس إنسانية عامة، إن كلامه هنا موجه إلى عموم ال بدون أي تمييز .

والمخاطب المنتقى (14) : L'auditoire sélectionné هو جمهور محدود م

---

(13) و (14) - ...IQUE DU DISCOURS, L. OLBRECHTS-TYTECA, P : [illegible] - 84.

وغالبا ما يكون شريحة اجتماعية، أو طبقة معينة من طبقات المجتمع،أو جماعة مهنية... الخ. وفي المقالة التي تهمنا تبدو صورة الجمهور كما يلي :

أ - **سياسيا** : جمهور وطني له قضية مصيرية، لأن القناة هي جريدة العلم في سنة 1947.

ب - **ثقافيا** : هذا الجمهور ليس من كافة الوطنيين، وإنما هو جزء قليل منهم، وهم النقاد والأدباء، الذين توجه إليهم المتكلم بقوله : «أيها الكتاب في جميع أقطار العالم ! أيها النقاد في سائر أطراف الدنيا لقد فاتكم من العلم بقدر ما ضاع من عمركم في تسويد القراطيس ...» (15).

لقد سبق أن قررنا أن غرض المقالة السجالية هو تبرير رأي المتكلم من ناحية، وتفنيد آراء الخصم ونقض أقواله من ناحية أخرى. وبناء على ذلك فإن هذه المقالة تتخذ شكل التبرير أو التفنيد. والتبرير والتفنيد يقومان على البراهين، وتكون هذه البراهين ايجابية في التبرير وسلبية في التفنيد. إننا لا نعني بالتبرير أن يتعرض المرء للهجوم، فيحاول أن يبرر موقفه؛ وإنما نقصد الاتيان بالبراهين والحجج على صحة الآراء التي يوردها، وذلك بعرض أدلة في مقدورها - حسب ظن المتكلم - أن تقطع الطريق أمام كل متطاول ولقد أشرنا من قبل إلى أن المتكلم في النص يتصور على الدوام معارضا يرد عليه، وكل البراهين التي يوردها موجهة في الأصل ضد هذا المعارض المحتمل، وغالبا ما لا يشير إليه المتكلم مباشرة، وإنما البراهين عينها تجعلنا نستشف الأسئلة المضادة، وهذا هو الأمر المعمول به في المقالة عامة والهجائية خاصة.

أما حين يتعلق الأمر بخصومة ناضجة، فإن باب التفنيد يبقى مفتوحا، ومحاورة الخصم، وتفنيد آرائه يكونان هنا مباشرة وبدون مراوغة. بل يذكر حتى اسمه في النص. إن من يتعرض للتفنيد له طبيعتان، فإما أن يكون واقعة أو قولا. والقول كالفعل، فصاحبه يتحمل تبعاته، مثلما تعود عليه تبعات أفعاله. ومع ذلك فإن تفنيد الأقوال والأفعال لا يتم بالبراهين نفسها فإذا كان الأمر يتعلق بالواقائع فإن المتكلم يعمد الى :

---

(15) - واحة الفكر "إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا"، ص : 135.

أ – التشكيك في الشهود الذين يثبتونها بأقوالهم، ومحاولة الطعن في كفاءتهم .

ب – أن يشكك المستمع في إمكانية حدوث مثل هذا الأمر أو صدوره عن شخص معين.

أما إذا كان الأمر يتعلق بالأقوال فإن تفنيدها يتطلب شكلا آخر من أشكال الحجاج، وتقنية تختلف عن سابقتها، فالمتكلم يقوم بعمليتين مختلفتين متعاقبتين :

أ – **الاختيار** (16) : فهو يختار من خطاب الخصم البراهين التي يلاحظ فيها الضعف .

ب – **التأويل** (17) : وهي المرحلة الموالية، وفيها يؤول المتكلم البراهين التي اختارها، ليظهر الضعف الكامن فيها.وإذا كان من أهل السخرية والظرف فإنه يفضل الضحك من الخصم، والتنقيص من قيمة أقواله بجعلها شاهدا عليه، وهذا لا ريب أفضل من الهجاء المباشر الذي يتخذ له الشتم العلني سلاحا .

ونشير الى أن تأويل الوقائع والأقوال التي يتم اختيارها من لدن المتكلم يحدث حسب مبدأي : الفصل* والوصل** . فمبدأ الفصل يقوم على ملاحظة الفوارق والاختلافات، كأن يفرق المتكلم بين واقعة وصاحبها ويدعي أنها لا يمكن أن تصدر عنه، أو أن يبين الانفصال الواقع في حياته، أو حياة شخص آخر في الزمان، فيلفت الانتباه إلى ما كان عليه الأمر من سوء وما صار إليه من صلاح، هذا إذا كان يريد التبرير، ويقوم بالعكس إذا أراد التفنيد، وليس هذا خاص بالوقائع وحسب، بل هو وارد بالنسبة للأقوال أيضا. ومن ذلك أن يلاحظ المتكلم أن أقوال الخصم كانت على حال ثم تحولت إلى حال مناقض، مما يدل على عدم استقرار ذلك الشخص. ولا ينحصر الانفصال في الوقائع والأقوال وحدها، بل

---

(16) و (17) – L'ARGUMENTATION, PIERRE OLéRON, P : 89 - 98.

* DISSOCIATION

** ASSIMILATION.

يتجاوزها إلى الخطاب، فيستخلص الملاحظ التناقض وعدم التناسب داخل نص الخطاب ككل.

أما مبدأ الوصل فينقسم الى قسمين :

أ - الوصل بعلاقة القرابة والعشابه.

ب - الوصل بالمزج (I).

ففي القسم الأول يضع المتكلم علاقة قرابة أو تشابه بين شيئين، بين قولين، أو بين واقعتين، أو بين واقعة وقول. أما المزج فهو الخلط بين شيئين أو عدة أشياء لا علاقة بينها، ولكن المتكلم يستغل الأساليب البلاغية والإيهام لإدخال بعضها في بعض بالقوة، والتشابه الذي يظهر بين الطرفين الممتزجين غالبا ما يكون ناتجا عن السياق العام الذي يخلقه المتكلم من أجل هذا الخلط .

بنية المقالة السجالية :

لاحظ "ديكرو" Ducrot(O) (II) أن الحديث، حول الخطاب المباشر داخل النصوص - الأقوال المنقولة عن الغير - يصطدم دائما بحاجز منهجي قل من استطاع تجاوزه. ذلك أن الخطاب الواحد لا يمكن أن ينسب إلى مصدرين مختلفين لأن ذلك مستحيل ولا يدركه العقل، لكن هذه الأقوال المنقولة المتضمنة في الخطاب هل هي أقوال المتكلم أم أقوال شخص آخر؟ هذه هي المعضلة ! لقد توصل "ديكرو" إلى حل يفصل فيه بين الناطق* ، والمتكلم** . فالأول هو الذي يتحمل مسؤولية النطق بالخطاب في المحيط الواقعي، والمتكلم هو الذي يتحمل مسؤولية الكلام داخل النص. ويمكن لنص واحد أن يحتوي على عدد من المتكلمين، يحدثون أصواتا متعددة داخل النص، ولذلك يطلق على هذه النصوص : «النصوص متعددة الأصوات» *** ولم يخف في بداية مقالته أنه حذا في عمله حذو نقاد الرواية الذين يفصلون بين المؤلف والراوي، وخاصة منهم "باختين" في نظريته حول تعدد الأصوات في الرواية. وهكذا استطاع "ديكرو" أن يفك مشكلة الأصوات المتعددة التي يحتويها النص، ومشكلة المؤلف الواحد

I - PIERRE OLERON, L'ARGUMENTATION, P : 99 - 105.

II - O. DUCROT, ESQUISSE D'UNE THEORIE POLYPHONIQUE DE L'ENONCIATION, IN : LE DIRE ET LE DIT. P : 171.

* LE LOCUTEUR.

** L'ENONCIATEUR.

*** LES TEXTES POLYPHONIQUES.

ويقول بصدد "تعدد الأصوات" إن هناك مستويات عدة لتجلياتها، فمنها ما هو ضمني، ومنها ما هو بارز، وتعد المقالة السجالية الهجائية من هذا الصنف الأخير. الذي تعلو الأصوات داخله في صخب. إلا أن المقالة الهجائية تنفرد بكونها ثنائية الأصوات فحتى لو كان الخصام قائما بين واحد وجماعة، فإن الجماعة تظهر بلسان واحد. وتنفرد المقالة الهجائية أيضا، بكون علاقات الأصوات فيها غير متكافئة ابدا، إذ لا بد وأن يكون هناك صوت طاغ هو صاحب الكلمة الأخيرة، فصوت المتكلم لا يعطي الصوت الآخر ولو قدرا ضئيلا من الحرية، إنه يقبض بخناقه ويعذبه، إن صوت المتكلم الرئيسي في المقالة الهجائية صوت سادي، يعذب خصمه وينتقم منه بدون رحمة ولا رأفة.

2 - السخـــريـــة . :

منذ البداية ونحن نردد كلمة "سخرية" دون أن نحاول البحث عن دلالتها، فكأنها شيء بديهي يدرك بالحدس ولا يحتاج إلى تعريف أو تعيين.

ونشير في البداية إلى أن السخرية نوعان، منها ما هو متعلق بالحركة كالإيماء، ومنها ما هو متعلق باللغة وهو متنوع وكثير، وهذا النوع الأخير هو الذي يهمنا. وزيادة على هذا فإن هذا النوع المتعلق باللغة يعد أكثر انتشار وأهمية من النوع الناتج عن الحركة أو الرسم، ذلك أن كليهما كثيرا ما يحتاج إلى اللغة كالتعليق والحوار في الكاريكاتور. أما السخرية بالإيماء فلا يمكن إدراكها إلا من خلال سياق حواري تستمد منه دلالتها. وهناك من يدعي أنه حتى الصورة الكاريكاتورية المجردة من التعاليق والحوار تترجم في ذهن المتلقي إلى ألفاظ لغوية (18).

ويرتبط ذكرنا للسخرية عادة بالضحك، فهو الحد الأكبر الذي يرسم حدودها. إن السخرية هي ما يثير الضحك عند المستمع فهي المولدة والمنتجة لهذه الظاهرة الإنسانية، ولذلك تتعدد السخرية حسب أنماط الضحك. والحديث عن الضحك هو بالضرورة حديث عن السخرية، والعكس أيضا صحيح، ومن هنا تختلف السخرية عن القذف لأنه يثير الاشمئزاز، ولا يستدعي الضحك مثل السخرية.

---

(18) - الضحك، هنري برجسون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم، ص : 31.

ويجب علينا أن نفرق بين الضحك الفزيولوجي والضحك الدلالي، فالظاهرة الأولى مجرد حركة جسمية تظهر على مستوى عضلات الوجه دون أية دلالة كضحك القرد مثلا، أما الضحك الدلالي فهو الذي تشوبه معان إنسانية، ويوظف لأغراض خاصة داخل شبكة العلاقات الإنسانية، وهذا هو الضحك الذي يهمنا.

إن ما يثير فينا الضحك هو اكتشاف عدم التناسق وعدم التناسب في العالم المحيط بنا، والذي نحبه مثالا للكمال. إن اكتشاف التناسق والتناغم والتآلف هو اكتشاف لقيم الجمال والخير الكامنة في الحياة وفي أشياء الكون. واكتشاف التنافر، والتناقض والاختلاف، وعدم التآلف عامة هو تعرف وكشف عما تتضمنه الحياة والكون من قيم القبح و الشر، والضحك الذي ينتج عنه هو فضح وتعرية لتلك القيم، إنه انتصار الإنسان على القبح والشر. وهذه هي وظيفة الفنون الساخرة عامة ومنها الكوميديا.

وكل الباحثين الذين أدلوا بدلوهم في موضوع الضحك اتفقوا على أنه لابد أن يكون جماعيا، وإلا انعدم شرط أساسي من شروط تحققه. ولقد ذهب برجسون (19) وهو من أوائل الذين خاضوا في هذا الموضوع إلى أن الضحك - والسخرية من ورائه - له هدف اجتماعي محض، فاكتشاف النقص والعيب في الآخر أو في المجتمع، هو بمثابة دعوة اجتماعية لتغييره، وهذا عين ما تدعو إليه المقالة السجالية الهجائية، وهذا يعضد القول بأن الانطباق بينهما تام، وأن لجوء المقالة الهجائية إلى السخرية ليس تكلفا، وإنما هو أمر طبيعي يرجع إلى التوافق الحاصل بينهما .

وتنقسم السخرية من الناحية الأدبية إلى فكاهة وتهكم. والاختلاف بين الفكاهة والتهكم يكمن في موقف المتكلم من موضوع السخرية. فإن كان المتكلم قد اتخذ موقفا متعاليا من الشخص الذي يتوجه إليه بالخطاب كان ذلك تهكما، أما إذا كان موقفه منه متواضعا، ويتناول موضوعه باللين والهدوء، كان ذلك فكاهة، يقول ابراهيم عبد القادر المازني في هذا المعنى : «ما هو السخر إذا ذهبنا نعتبره من فنون الأدب؟ إن هذه الوجهة هي - بالبداهة - كل ما يعنينا. وهو بهذا الاعتبار، العبارة - بما يناسب ذلك من الكلام - عما يثيره المضحك أو

---

(19) - الضحك، هنري برجسون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم، ص 91.

غير اللائق، من الشعور بالتسلي أو التقزز. على أن تكون الفكاهة عنصرا بارزا والكلام مفرغا في قالب أدبي» (20). إن ما يشير إليه المازني هو الفكاهة التي تتميز عن التهكم بكون هذه الأخيرة مرة، تترك أثرا سيئا في نفس المستمع، رغم ما تثيره من ضحك وابتسام.

وقريب من هذا التمييز بين الفكاهة والتهكم ما نجده لدى بعض البلاغيين من تمييز بين التمليح والتهكم، يقول علي الجندي في هذا السياق : «التمليح لغة : الإتيان بما فيه ملاحة وظرف، يقال : ملح الشاعر بالتشديد كفرح : إذا أتى بشيء مليح، وفلان يتظرف ويتملح، وحدثته بالملح... والتهكم : الاستهزاء، كأن يقول للقبيح : هو يوسف في الحسن. وتهكم به : تهزأ به ... وقد يقع كل من التمليح والتهكم منفردا، وقد يجتمعان معا، والأمثلة كلها صالحة لذلك، فإذا قلت للدميم : أنت يوسف في الجمال أمام من يستملح مثل ذلك الحديث ويستظرفه، وقامت القرائن على أنك لا تقصد الاستهزاء بالمشبه، كان الغرض لا محالة التمليح. وإذا قامت القرائن على قصدك اتخاذه هزؤا ونصبه سخرية، لعدواتك له وسخطك عليه، مع عدم وجود سامع يستملح النكات، ويستظرف النوادر، ويستجيد الملح، تقصده بحديثك، كان الغرض التهكم حتماً» (21).

وقد أسهب الباحثون الغربيون في تناول موضوع السخرية لارتباطه بالملها كجنس أدبي، أما علماء العرب، الأوائل منهم والمتأخرون، فقد أهملوا هذا الميدان وتجاهلوه، غير أن بعض البلاغيين أشاروا إلى بعض المحسنات البديعية التي تقترب معانيها من معاني التهكم والفكاهة. فهناك مثلا من يشير إلى صنف من المحسنات يطلق عليه : المدح الذي يراد به الذم. يقول السجلماسي (ق 8 هـ) في هذا الصدد : «وورود الذم أيضا في صورة المدح هو أشد على المذموم من لفظ الذم بعينه، فإن في ذلك مع الذم نوعا من الهزء، وذلك قولهم لغير العاقل : "يا عاقل"، وللجاهل : "يا عالم"، ومن صورة هذا النوع قوله عز وجل : « **ذق إنك أنت العزيز الكريم**» (22). ويقترب بهذا من بعض دلالات التهكم. وهناك أيضا : الهزل الذي يراد به الجد (23) وهو شديد القرب من معاني كلمة الفكاهة

(20) - حصاد الهشيم، ص : 301 - 302.

(21) - فن التشبيه، علي الجندي، ص : 113 - 115.

(22) - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، السجلماسي، ص : 297.

(23) - انظر : فن التشبيه، علي الجندي، ص : 120.

إلا أن هؤلاء البلاغيين لم يفصلوا القول في هذين الصنفين، وربما كان ذلك راجع إلى أن الثقافة العربية تهتم في المقام الأول بالمعنى الشريف، فكل ما لا يتضمن معنى شريفا يعد من سقط القول، ومن هنا جاءت التفرقة الصارمة بين الجد والهزل. فالمعنى الشريف لا يمكن أن يكون إلا جديا.

إن الغرض من هذا العرض المسهب، هو إظهار مدى الترابط بين المقالة الهجائية والسخرية من حيث الوظائف والأهداف. فإذا كان التهاجي ثمرة عواطف جياشة فإنه يتحول بلا ريب إلى قذف وسباب، لأن المتكلم لا يقدر على التحكم في مشاعره. أما إذا كان صادرا عن عقل متزن فإنه يتحول إلى سخرية لاذعة غير مسفة، وفي مثل هذا يقول المازني : «وقد يفعل الشاعر ذلك جادا أو متفكها مداعبا، أي أنه قد يستوحي إرادته ومشاعره أو يستملي عقله، فإن كانت الأولى فهو هاج منتقم، وإن كانت الثانية فهو ساخر يركب ما بدا له بالدعابة» (24).

ومقالة "إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا" هي خليط من ذا وذاك، فتارة يهيج الكاتب ويعمد إلى السخرية، وتارة أخرى يهجو ويقذف خصمه بأقذع النعوت.

وسنمر فيما يلي إلى المرحلة الثانية من هذا الفصل لنتعرض مباشرة إلى السخرية وتجلياتها في هذه المقالة.

3 - مقالة " إن كنت ريحا فقد لا قيت إعصارا" (25)

يبدو من العنوان الذي هو أول عتبة نضع عليها أقدامنا، أننا مقدمون على صراع قوي بين عنصرين جبارين من عناصر الطبيعة، الريح الصرصر العاتية، والإعصار الذي لا يبقي ولا يذر، إننا بصدد حرب كلامية لا هوادة فيها، وكل الضربات ممكنة ومتوقعة، سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة .

لقد قسم الكاتب مقالته إلى أربعة أجزاء من الصعب الحصول على مواضيعها جاهزة، لتشابك المناقشة الأدبية فيها بالهجاء الشخصي، والطريقة

---

(24) - حصاد الهشيم، ابراهيم عبد القادر المازني، ص : 302.

(25) - واحة الفكر، ص : 133.

السليمة في نظرنا هي البحث داخل النص عن الصوت الآخر، الصوت المضاد الذي أثار حفيظة الأستاذ كنون، حتى نقف على مصدر الخلاف .

إن النص الذي بين أيدينا لا يحاول إخفاء الخصومة، لذلك غالبا ما نجده يشير إلى صاحبه بضمير الغائب، بل باسمه أحيانا كثيرة : (إلى صديقنا عبد الرحمان الفاسي، الناقد الفاضل، ياصديقي عبد الرحمان، حضرتك، يا أستاذ، يا أديب بوقرون، أستاذ آخر الزمان، بومة حسان المجدومة). والمآخذ التي أخذها الأستاذ عبد الرحمان الفاسي على الأستاذ كنون والتي استدعت رد هذا الاخير تتلخص فيما يلي :

1 - عدم ذكر المصادر أثناء الاستشهاد، وإغفال مصادر تاريخية مفيدة، وهذه الفكرة ركز عليها الكاتب في الجزء الثاني من المقالة.

2 - مفهوم الإحاطة والشمول، وقد أسهب الكاتب في الحديث عنه في الجزء الثالث، ويعني به عبد الرحمان الفاسي : تحديد موضوع الدرس واستقصاء جميع أبعاده، هذا ما يغيب في زعمه عن كتاب "أمراؤنا الشعراء". إلا أن الأستاذ كنون قد أخذ الأمر بمعناه الكلي، وهذا ما جعل عبد الرحمان الفاسي يوضح بأن الإحاطة والشمول التي يتحدث عنها الأستاذ كنون من شأن الباري عز وجل، أما ما يرمي إليه هو فرهين بقدرة البشر .

3 - والفكرة الثالثة والأخيرة، تتعلق بمفهوم الأستاذ كنون للأدب، ونجدها مبثوثة في الجزء الرابع من المقالة. فقد أورد الأستاذ ضمن المنتخبات النثرية في كتاب النبوغ، جملة من الأدعية والابتهالات، واعتبرها نصوصا تطفح بالأدبية، شأن النصوص الأخرى. غير أن الأستاذ عبد الرحمان الفاسي عاب عليه ذلك، متوهما أن الدعاء ليس من موضوعات الأدب. يقول الأستاذ كنون في هذا السياق : «وجعل يتغلق بكتاب النبوغ ويقول لماذا ذكرنا فيه الدعوة الناصرية وأمثالها مما سبق بيانه، توهما منه أن الدعاء ليس من موضوعات الأدب» (26). وكان الأستاذ الفاسي يريد من الأستاذ كنون أن يركز على حياة هؤلاء الأمراء الشعراء، وما يعيشونه من بذخ وترف وغرام ومدام: أي أن يتحدث عن علاقة

---

(26) - واحة الفكر، ص : 159.

شعر هؤلاء بذواتهم. ويرد الأستاذ كنون على هذا المأخذ بالتشكيك في دين وأخلاق الفاسي يقول : «إن الأمر واضح، فالأستاذ يريد منا أن نتحدث عن حياة الغرام والمدام التي كان يحياها هؤلاء الأمراء، ونحن مع ما أسلفنا من إعواز مادة ذلك الحديث، نعترف بكل صراحة أننا لا نحسن ذلك، وإذا أحسناه فنحن لا نحب أن نحدث الناس به، ونفضل أن نعظ ونذكر، ونخلي هذا الجانب الخصب من الأدب للناقد، فليجل فيه جولاته البهلوانية فما أولاها به» (27).

إن الخصومة الدائرة حول هذا الموضوع، هي صدى لخصومة تماثلها في المشرق بين المجددين أنصار الحديث والمثقفين التقليديين أنصار الأدب القديم، وهذا هو جوهر الخلاف الذي يثوي خلف هذا السجال.

لقد كانت غاية الأستاذ كنون من كتاب "أمراؤنا الشعراء" غاية دفاعية لا يمكن فهمها إلا بإدراج هذا الكتاب ضمن باقي الكتب التي ألفها في تاريخ الأدب المغربي، وهذه الغاية هي التي حدت به إلى الاختيار والاصطفاء والانتقاء، فعمله يندرج ضمن تاريخ الأدب، وليس ضمن النقد كما كان يريد الأستاذ الفاسي لهذا العمل، يقول موضحا هذه الحقيقة : «ولم اتجمل بهذا الاستكثار الذي يقصد إليه الناقد لأن لي خطة درجت عليها، ونظرا عملت بمقتضاه، فلا ملوك إلا الملوك المعروفون ولا أمراء إلا أمراء الدول الشرعية، والقصد قطع لسان الخصم الذي ينكر على هذا الوطن كل فضل ومزية أدبية، فهذا دليل من نوع آخر يثبت رسوخ قدمه في الشعر والبلاغة، وهو مجموع من شعر الملوك والأمراء الرسميين، متخير منخول لا تزيد فيه» (28).

وهذه الأفكار الثلاثة هي جوهر الخلاف القائم بين الفاسي والأستاذ كنون في هذه المقالة، وهو خلاف يتداخل فيه الذاتي بالموضوعي، وهذا الجانب الذاتي هو الذي يساهم في إضفاء طابع الفنية على النص .

مستويات السخرية في النص :

إن تحليلنا للسخرية نهدف من ورائه إلى إظهار الكيفية التي ينتج بها النص سخريته، ولذلك سنركز فيه على مستويين : المستوى البنيوي، والمستوى

---

(27) – المرجع نفسه، ص : 139 – 140.

(28) – واحة الفكر، ص : 116.

الأسلوبي، فضمن المستوى الأول سنحاول التعرف على الكيفية التي تتغلغل بها السخرية في ثنايا النص. أما في المستوى الثاني فإننا سنتطرق إلى السخرية البلاغية وسخرية الكلمة.

أ - السخرية البنيوية :

يبدو الجزء الأول من المقالة أكثر أجزائها إحكاما، فقد راعى فيه الكاتب طريقة معينة في البناء والرص، وقسمه إلى قسمين، القسم الأول يبدأ بفكرة عامة نستنتجها من القصة التي يعرضها كشاهد خارجي، يقول : «ذكر ابن الخطيب أن القاضي أبا الحسن النباهي المدعو بجعسوس، كان مثلا في الغفلة والغباوة، وكان يكثر في كلامه من ذكر هذه الكلمة : جعسوس، (والجعسوس في اللغة القصير الذميم) فذات مرة قال لبعض عدوله : تنكرون ما يتردد في كلامي من لفظ القرآن الكريم ؟ فقالوا له : أما في كلام العرب فربما، وأما في القرآن فلا نعرفه، فقال : ألم يقل ولا تجعسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ؟! فقالوا والله ما قال ذلك قط، وإنما قال : ولا تجسسوا، قال : استرجع وقال : حفظ الصغر !

ونحن نترحم على روح هذا القاضي المسكين، ونرثي لكل شخص مثله يريد أن يرتفع فيقع، ويحاول ان يستشهد لإصابته فيشهد الناس على خطله» (29).

انطلاقا من هذه القصة يستنبط الكاتب مجموعة من الدلالات يضيفها على الوقائع التي يعددها بعدها. وفي القسم الثاني يبدأ بسرد الأحداث، ليجمع بعد ذلك دلالاتها في فكرة عامة يقدمها مرة أخرى في شكل قصصي : "قصة الفأرة" ، يقول : «وأخيرا يغلي الدم في رأس الناقد ويغتاظ، والغيظ من الشيطان، فيبرق، ويرعد، ويهدد، ويوعد، ونحن لترويحه وتسليته، نحكي له هذه الحكاية التي ضربت مثلا في شبه هذا الموقف : زعموا أن فارة وقعت في دن خمر، فشربت فسكرت فقالت : أين القطط ....؟ فلاح لها هر، فقالت : لا تواخذ السكارى بما يقولون!...» (30) : فالقسم الأول من هذا الجزء استنباطي، والقسم الثاني استقرائي، وأسلوب الكاتب في العرض أسلوب استدلالي، ومن ثم فالسخرية التي ستنتج عنه ستكون حتما ذات طبيعة استدلالية، ويستند

---

(29) - إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا، واحة الفكر، ص : 133.

(30) - المرجع السابق، ص : 140.

الكاتب في أسلوبه هذا على قياس التمثيل، وقوامه أن يستشهد المتكلم بواقعة حقيقية أو خيالية على صحة أقواله، نظرا لعلاقة تماثل أو تشابه بينهما (31).

ويلعب المثل دورا مركزيا في الخطاب الاقناعي جاء في : "البرهان في وجوه البيان" لابن وهب : «وأما الأمثال، فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال، بالنظائر والاشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا، وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله عز وجل : «**ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**»... ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم. ونطقت ببعضه على ألسنة الطير والوحش، وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها» (32).

وإذا كان الغرض من قياس التمثيل هذا، أن يثبت المتكلم صحة أقواله فإنه يكون جديا، أما إذا كان هدفه هو النيل من شأن الغير فإن القياس يكون هزليا ساخرا. لأن العلاقة بين المثل وموضوع الكلام كثيرا ما تكون متعسفة، وتحدث بالمزج والخلط بين المستويات. (33).

نمـط القصـة :

إن القصة التي رواها الأستاذ كنون في بداية مقالته، تتناول في المقام الأول شخصية القاضي جعسوس، فهي محور السخرية،، والعلاقة في هذه القصة هي بين القاضي وأقواله، فقد كان في البداية يثبتها : «تنكرون ما يتردد في كلامي من لفظ جعسوس، كأنه ليس من كلام العرب، بل من ألفاظ القرآن» لكنه في النهاية يفند هذه الأقوال بطريقة غير مباشرة "حفظ الصغر".

ويمكن أن نقيس هذا التحول الذي طرأ في القصة بمقياس الحقيقة كما

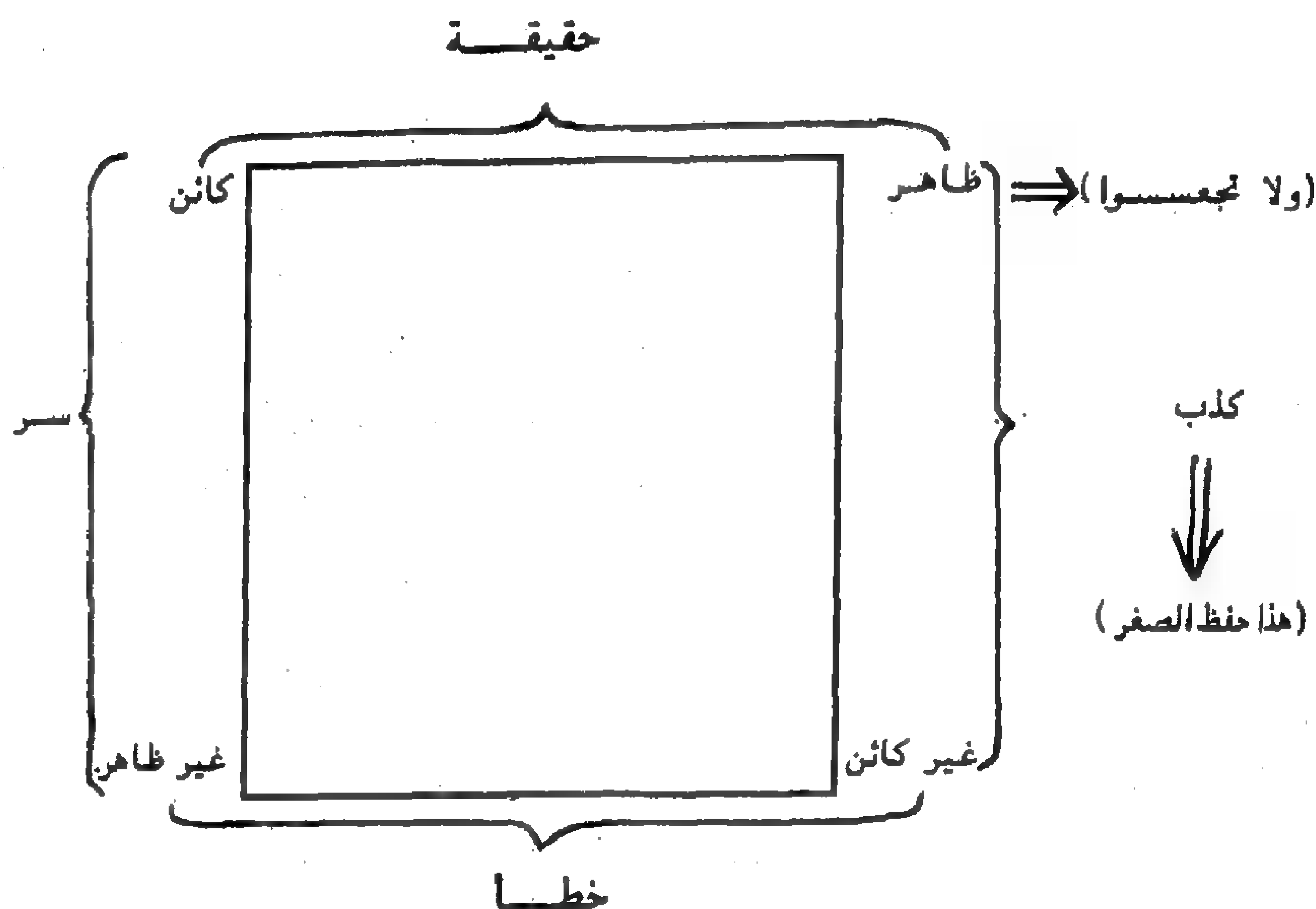
---

(31) – انظر : الوصل بالمزج، في الفصل نفسه.

(32) – البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تحقيق : د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، ط 1، جامعة بغداد، ص : 145 – 146.

(33) – انظر الوصل بالمزج

يسميه كريماس A.J. Greimas (I) ومجمله أن الأحداث والحالات التي ترد في القصة إما أن تكون ظاهرة كائنة، أو ظاهرة غير كائنة، أو كائنة غير ظاهرة، ووضع لذلك الشكل الآتي :



فأقوال القاضي جعسوس تنتمي إلى محور الكذب لأنها ظاهرة غير كائنة. إن الانتقال الذي حدث في القصة هو الانتقال من العلم الى الجهل (علم ←── جهل)، وهذه "الدلالة العميقة" * هي البنية المؤسسة للتحول القصصي، وسنلاحظ أنها تلقي بظلالها على كل النص.

إن بؤرة القصة كلها مركزة على الشخصية والتحول في حالتها، والسخرية المترتبة على هذا الاكتشاف يمكن تصنيفها ضمن سخرية الطباع Le comique du caractère ، مثل تلك السخرية التي تتناول البخلاء والحمقى... الخ. إلا أن هناك جانبا آخر للسخرية وهو متمم لما ذكرناه، ويتمثل في الحجة الخاطئة التي تذرع بها القاضي : "حفظ الصغر".

I- A. J. GREIMAS ET J. COURTES, SEMIOTIQUE, DICTIONNAIRE RAISONNE DE LA THEORIE DU LANGAGE. MODALITES VERIDICTOIRES, P: 419.

* SEMANTIQUE FONDAMENTALE

إن الصراع القائم في القصة جاء على شكل محاورة بين القاضي وخصومه الذين ينعتون أقواله بالخطإ، أي أنها غير موافقة للواقع، وننفجر ضاحكين من تبريره لأنه تبرير غير ملائم للصورة التي بناها لنفسه في البداية (العلم). فهو تبرير يعود ضده اكثر مما يؤيده، بل إنه يفضح " جهله" وسذاجته، وفي هذا الصدد تقول "أولبريش تتيكا" : «إن السخرية تظهر حينما تكون التبريرات المقدمة فعلا لا تمت بأي رباط لتلك التي توهمناها بطريقة غامضة» (34) وتقول المؤلفة نفسها، عن السذاجة : «البساطة والسذاجة يمكنها أن تكون لطفل، أو لرجل أبله، أو لرجل كثير الهزل، أو لرجل لا يملك ناصية البلاغة، إنها غالبا ما تكون جهلا» (35). وهذا هو حال القاضي كما تقدمه القصة أعلاه. ونشير في الأخير إلى أن وقوع المرء في أخطاء حجاجية كثيرا ما يكون مصدرا للضحك والسخرية، خلافا للخطإ البرهاني. فالخطأ الرياضي مثلا لا يبعث على الضحك والسخرية الا إذا كان معتمدا .

وتعتبر بنية الدلالة كما تنتجها القصة أعلاه : (علم ← جهل)، بنية مولدة لكل الدلالات التي سترد فيما بعد في النص. فإثباتها في مستهل المقالة، يجعلنا منذ الوهلة الأولى نشعر بأن المتكلم سيعرض موضوعا له ارتباط منطقي بهذه القصة كعلاقة السبب بالنتيجة. وهكذا كان الأمر، ففي الفقرة الموالية يقول ما نصه : «ونحن نترحم على روح هذا القاضي المسكين ونرثي لكل شخص مثله يريد أن يرتفع فيقع، ويحاول أن يستشهد لإصابته فيشهد الناس على خطله» (36). إن المتكلم يعرض موضوعا شبيها بموضوع القصة في كل أجزائه، وتبدو من خلاله صورة الخصم (الصوت الثاني المخنوق) قريبة من صورة القاضي في تغيير مواقفه، وعدم استقراره على رأي، مما يدل على عدم الثقة فيما يقول. وعلى طول النص تبدو لنا شخصية الفاسي على أنه كان ثم أصبح (37). وسنضع جدولا نقسم فيه مواقفه حسب هاتين الحالتين :

---

(34) - LUCIE OLBRECHT-TYTECA, LE COMIQUE DU DISCOURS, P : 379

(35) - IBID, P : 40

(36) - واحة الفكر، ص : 133.

(37) - انظر مبدأ الفصل، ص : 209.

أصبـــح	كـــــان
- «صار يقول إنه لم يرد الدراسة وإنما أراد العرض الأدبي المنهاجي».	1 - «هذا حضرة الناقد لما ألزمناه بأن شروط دراسة شعر هؤلاء الأمراء غير متوافرة ص: 133»
- «يظهر أن حضرة الناقد غضب علينا فسلب عنا وصف الصداقة».	2 - «كان أول من خلع علينا وصف الصديق ورحبنا به، لأن صداقته مما يرغب فيه، ص: 141».
- «لقد صار الناقد يتراجع عن غلوائه ويرى أننا لم نذكر المقري وابن القاضي فقط»	3 - «ثم يرجع إلينا فيصحح كلامه في الذيل والتعليق الذي كان يقول فيه إننا لا نذكر المصادر، ص: 142».
- «الله أكبر بعد أن كنا لا نذكر المصادر في كتبنا - كما زعم الاستاذ- صرنا الآن مصادر يعتمد عليها، ويكتفى بها في الاستشهاد، ص: 147».	4 - «والنبوغ من الذي زج به في هذا المبحث غير حضرتك ؟ ألم تقل إنه كذلك خال من المصادر، ص : 143».
- «صار يتبرأ منها هو أيضا، يقول إن الاحاطة الشاملة لا تكون إلا لله عز وجل»	5 - «كان حريصا على الإحاطة والشمول، وأخذنا بها، وبنى كل نقده تقريبا على أساسها ص: 148.»

إن المتكلم هنا يقوم باختيار المعطيات التي يريدها، ويفسرها للنيل من خصمه الأدبي (38) إنه لا يعطي لهذه المعطيات دلالات مباشرة، ذلك أننا لا نفتأ نقرنه بالقاضي في القصة الأولى، وهكذا فإن النص في تدرجه وتقدمه ينسج السخرية، وذلك باسقاط صورة القاضي المتذبذب الساذج على صورة عبد الرحمان الفاسي، دون أن يلجأ المتكلم إلى عقد مقارنة علنية بينهما. إن النص يقوم بذلك بكل هدوء دون أن يفطن المستمع إلى لعبة المتكلم، وهذا هو ما نعنيه بالسخرية البنيوية أي تلك التي تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا ببنية النص.

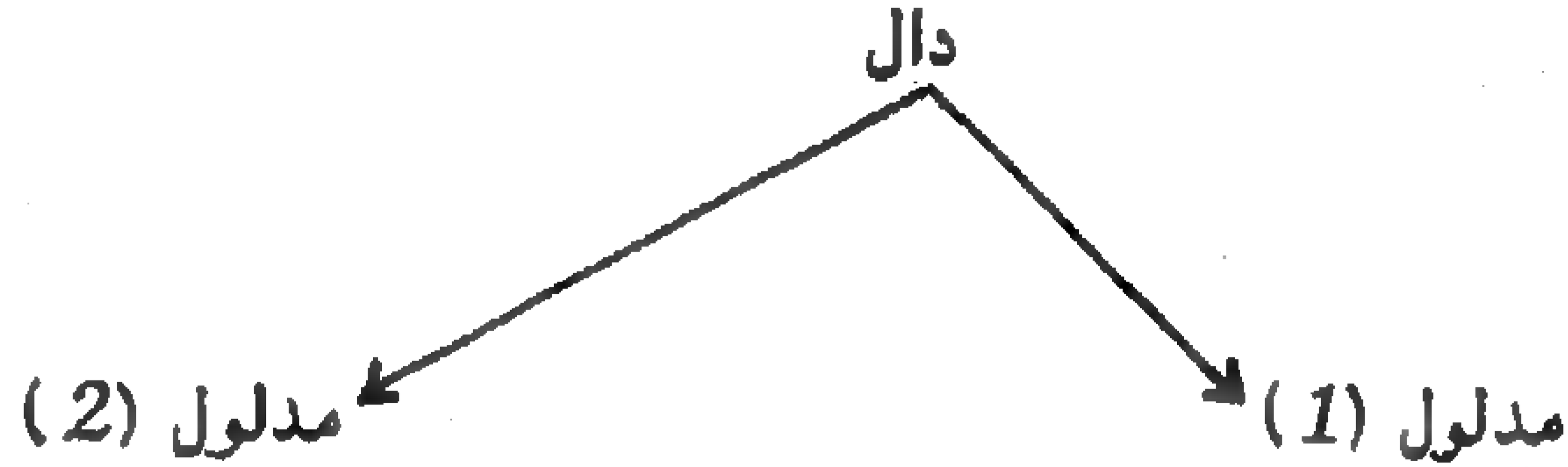
ب - السخرية البلاغية

سنحاول في هذه المرحلة من التحليل أن نعالج السخرية البلاغية، ونقصد

---

(38) - انظر الاختيار والتأويل، ص : 195 من هذا الكتاب.

بها ما اتفق البلاغيون على تسميته بالتهكم : *Ironie* ونعني بها أن يصرح المرء بعكس ما يريد أن يقول، والفرق بينها وبين الكذب، هو أن الكاذب يقصد إخفاء المعنى الحقيقي على المتلقي، على حين يهدف المتهكم إلى اسماع المعنى الخفي معتمدا في ذلك سياق الكلام. لذلك اعتبرها بعض اللغويين (39) دالا لـه مدلولان :



فالمستمع يتلقى في أول أمره (المدلول 1)، ولكن المقام ينفي هذا المدلول ويثبت عكسه الذي هو ، (المدلول 2). كأن تقول أم لطفلها الملطخ بالأوحال ؛ مأنظفك يا بني ! فإن المتلقي يتلقى معنى النظافة أولا، ولكن رؤية الأوحال على ثياب الطفل تثبت عكس قول الأم الذي كان الغرض منه السخرية من ابنها. وهذا الأسلوب من السخرية كثير في مقالة الأستاذ كنون، ونستشفه في الأوصاف الكثيرة التي خلعها على عبد الرحمان الفاسي ؛ (حضرة الناقد، أيها الناقد الكريم والمكتشف العظيم، الناقد الفاضل). كما نستشف هذا الأسلوب من السخرية في قوله : «أما علم أن الجريدة بيد كل واحد، وأن الناس إن لم يحتفظوا بها لمقالاته النفيسة فعلى الأقل يحتفظون بها، لأنها سجل تاريخي للحركة الوطنية في فترة من الزمن» (40) ونجد الأسلوب نفسه في قوله يسخر من أخلاق الفاسي : «أصبح من خواص - الأستاذ كذلك وياللأسف - إذا أعوزته الحجة والدليل والبرهان - وهي دائما تعوزه - أن يستعيض بالسب والشتم والقذع، مما يدل على خلق نبيل، وتربية عالية، ونشأة صالحة وسيرة حميدة» (41)، فالسياق الذي وردت فيه هذه الأوصاف يوضح أن المتكلم يريد عكسها.

كما نستشف هذا النوع من السخرية أيضا في الأبيات والأمثال التي استشهد بها، وهي كلها سم في الدسم، لأنه ينعته فيها بالغرور كما نفهم من السياق، يقول : «أحسب أنك المعنى بقول حسان :

---

(39) CATHERINE KERBRAT-ORECCHIONI, "PROBLEMES DE L'IRONIE, IN LINGUISTIQUE ET SEMIOLOGIE N° 4, PVL. 1978, P: 10-36.

(40) - واحة الفكر، ص : 150.

(41) - المرجع نفسه، ص : 152 - 153.

إذا قال لم يترك مقالا لقائل
بملتقطات لا ترى بينهنا فصلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع
لذي إربة في القول جدا ولا هزلا

وأن المتنبي قصدك بما قال :

من مبلغ الأعراب أني بعدها
جالست رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه
متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
رد الإله نفوسهم والاعصرا

وأن العرب فيك وضعت المثل : «كل الصيد في جوف الفرا» وأن الحسن بن هانئ كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق حين وصفك بقوله :

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد

ثم... ثم ماذا ؟ ثم (0).

وجعلو صفرا علامة الخلا
وهو مدور كحلقة جلا» (42)

من أنواع التهكم أيضا التلميح بالمعنى للخصم دون التصريح به، فالمتكلم يتكلم ببراءة تامة ولكنه يترك كلامه يفهم على عكس المراد منه، فلنتأمل قوله : «وقد تعرضت في القسم الأول من الرد الى شرح طريقة الكتاب الذين عنوا بدراسة آثار الأدباء، وكيف أن بعض المقلدة الذين يهرفون بما لا يعرفون يأخذون تلك الأقوال ويحاولون تطبيقها في غير موضوع، وطرحت بأني قرأت شيئا من ذلك لبعضهم، وأنهم يكثرون من الألفاظ الطنانة التي لا طائل تحتها، بينما هم يعرضون بيتا أو

(42) - واحة الفكر، ص : 136 - 137.

بيتين لأديب أو شاعر لا يعرف له غير ذلك، فظن الناقد أن الكلام موجه له» (43). ومجمل قوله هنا هو أن نيتي حسنة، وإنما أنت الذي قرأت نفسك في أقوالي، وبذلك يشير المتكلم إلى أن خصمه من ذلك الصنف من النقاد الذين أشار إليهم.

من الأساليب البلاغية التي وظفها الأستاذ كنون للسخرية من خصمه : التشبيه بين الضدين الذي يفيد التمليح أو التهكم (44)، يقول عن الأستاذ الفاسي : «ضحك الأستاذ فيا بشرى ! أضحك الله سن من أضحكه ! وإن قال إنه ضحك مقرون بالبكاء، فلا بأس إنه كقول العامة "ضحك مارس وتسلى أبريل"!، بلى إنه ضحك الجوزة تحت الحجر، فيا ما أغربه من ضحك» (45) من التشبيهات التي تفيد السخرية أيضا، تشبيه المقالات السجالية لخصمه بجراب الكردي، في فراغها وعقمها يقول : «وبعد فما نرى الأخ عبد الرحمان الفاسي من خلال هذه المناقشة الطويلة إلا مثل جراب الكردي، فيه كل شيء بزعمه. فلما فتش لم يوجد فيه إلا كسرة خبز يابسة، وقطعة جبن، وحبات زيتون» (46).

ولا يمكن إدراك أسباب الهجوم على الخصم هنا، إلا إذا وضعنا هذه المقالة في السياق العام للثقافة العربية آنئذ، إن الأسلحة الهجومية التي يستعملها هنا الأستاذ كنون، تتلخص في كون عبد الرحمان الفاسي يجهل اللغة العربية ومبادئها التي يعلمها الأطفال الصغار، من ذلك أيضا جهله بالعروض واستشهاده بأبيات مكسورة الوزن. وهذه المعركة النقدية شبيهة بالمعركة الذي دارت في الشرق العربي بين المجددين، وأنصار القديم.

ج - السخرية على مستوى الكلمة الواحدة :

تحدث السخرية في هذه المرحلة على مستوى الكلمة، وهناك سبل متعددة لذلك، والطريقة الشائعة سواء عند الأدباء أم عند العامة في حديثهم اليومي، هي ابتداع الكلمات الغريبة التي ليس لها معنى، وتكون قريبة صوتيا من مفردات اللغة. ويتم ذلك إما بالنحت، أو بإضافة حرف، أو بالنقصان والاختزال،

---

(43) - واحة الفكر، ص : 137.

(44) - فن التشبيه، علي الجندي، ص : 113.

(45) - واحة الفكر، ص : 145.

(46) - واحة الفكر، ص : 60.

أو بالقلب والتلاعب بحروف الكلمة. ومن أمثلة هذا في مقالة الأستاذ گنون ما فعله القاضي حين وضع كلمة "تجعسسوا" محل كلمة "تجسسوا" وتقول "أولبريش-تتيكا" : «إن إحلال كلمة محل كلمة في لغة من اللغات شيء يجري به العمل عادة، ويستبعد أن يكون مضحكا بالضرورة، وحتى لو أنها صارت مضحكة فانها إشارة الى بعض الجهل والحذلقة» (47). وهناك نمط آخر من أنماط سخرية الكلمة المفردة، وهو أهم هذه الأنماط وذلك حين تكون الكلمة من المشترك اللفظي وتحمل عدة معان : (Polysémie) إذ أن الكلمة يصير لها معنى قريب هو الذي يقدمه لنا المتكلم، ومعنى بعيد هو الذي يلمح إليه. ويكمن جمال هذا الصنف من السخرية في سهولة الانزلاق من معنى الى آخر. فالاستاذ گنون كثيرا ما يردد كلمتي :"الذيل والتعليق"، وهما في الحقيقة عنوان مقالة عبد الرحمان الفاسي التي تهجم فيها عليه. غير أن هاتين الكلمتين تحملان معان ساخرة كلما تقدمنا في النص، مما يجعلنا ننسى التذييل والتعليق على الكتاب، ونستحضر "قردا" يثب وثبات بهلوانية ويتعلق بالأغصان وهذا ما نفهمه بالتدرج من الاستشهادات الآتية : «فلا ندري ماذا جنينا عليه حتى كتب (إلى الأستاذ) ولم يكتب (إلى صديقنا) ؟ أهو جوابنا له... أم هو وصفنا له بالناقد - وبينه وبين النقد بون - اجتزأ عن كثرة وصفه بصاحب الذيل، لأن هذين المتضايفين يذكراننا بالحلقة المفقودة للربط بين الإنسان والقرد في مذهب داروين ؟» (48) ويقول أيضا : «وهو مع هذا التتبع والاستيعاب، وهذه الإحاطة والشمول لم "يثب" إلى ذهنه ولا "وثب" هو اليه، وإن كان أصحاب الذيول وثابين، ولهذا الأمير بيت مشهور...» (49) ويقول في سياق آخر مؤكدا المعنى نفسه : «ومهما يكن الأمر فما بال طويل الذيل يستشهد بآخر بيت منها...» (50).

ويصفه في أمكنة أخرى من المقالة بأديب بوقرون، و"بوقرون" اسم لحي بمدينة الرباط، فكأنه يقصد بهذا النعت أديب مدينة الرباط يقول : «وبعد هذه المقدمة نقول لأديب بوقرون أحمد الله يا هذا على أن ليس للأدب محتسب» (51)

---

(47) - LE COMIQUE DU DISCOURS, P: 57.

(48) - واحة الفكر، ص : 141.

(49) - المرجع السابق، ص : 154.

(50) - واحة الفكر، ص : 160.

(51) - المرجع نفسه، ص : 155.

غير أن المعنى الخفي المثير للضحك والذي نستشفه من المقالة ككل هو المعنى الهجائي الساخر، فعبد الرحمان الفاسي أديب له قرون.

وكما قلنا آنفا فإن هذا النوع يعد من جيد السخرية لأنه محكم في صنعته وقريب جدا من التهكم، فكلمة "بوقرون" دال له دلالتان :



نخلص في نهاية هذا التحليل إلى أن المقالة السجالة - رغم قلتها بالمقارنة مع باقي أضرب المقالة - تعتبر من أهم المقالات التي كتبها الأستاذ كنون، فقد تميزت ببنيتها المحكمة المتقنة الصنع، التي تتميز بالمراوحة بين الجدل والاحتجاج من جهة والسخرية والتهكم من جهة ثانية. ولو كتب للسجال النقدي الذي عرفه الأدب المغربي في سنوات الثلاثين بين محمد بن العباس القباج وبين شيوخ الأدب والشعراء التقليديين، وفي سنوات الأربعين بين الأستاذ الفاسي والأستاذ كنون، أقول لو كتب لهذا السجال النقدي أن يستمر لأثمر مزيدا من المقالات السجالية الجيدة، غير أن الصحف والمجلات لم تفطن - للأسف - للقيمة الأدبية لهذا النمط من الكتابة، إذ كانت تسارع أحيانا إلى إغلاق باب السجال.

الفصل الثالث

مقالة التعريف بالكتب

دواوين الشعر

كتب التاريخ

الكتب المحققة

مقالة التعريف بالكتب

استأثرت مقالة التعريف بالكتب أكثر من غيرها من المقالات باهتمام الأستاذ كنون، وباهتمام سائر رواد النهضة الحديثة في المغرب، فقد فطن هؤلاء الرواد الى أهمية الكتاب في التثقيف والتعليم، فلم يفصلوا بين الدعوة الى إصلاح المؤسسات التعليمية، والدعوة إلى القراءة والمطالعة. وقد ساعد ازدهار الطباعة والنشر، وظهور المؤسسات التعليمية الحكومية والحرة، على اتساع قاعدة القراء، مما تمخض عنه اهتمام بالغ بالكتب. ومن الكتاب الذين اشتهروا بكتابة هذا النمط من المقالة، إلى جانب الأستاذ كنون، نجد : عبد الرحمان الفاسي، ومحمد باحنيني، وآخرين .

إن الاهتمام بالكتاب، في رأي الأستاذ كنون، علامة على النضج الفكري والروحي، ومؤشر على المستوى الذي وصلته الأمة في مدارج الرقي، «وأول مقياس لتطور فكر الشعب وتثقفه هو هضمه لما يقرأ، وتمثله له في أساليب تعليمه وتربيته. وأعظم مظاهر عبقرية الشعب ونبوغه، هي كتبه ومنتجات عقول أبنائه. فالكتاب إذن، هو باعث الحركة الأدبية، ودليل الحيوية الفكرية، في كل عصر وفي كل جيل...» (1).

وقد شملت مقالات الأستاذ كنون في هذا الصدد، سائر الإصدارات الجديدة، كدواوين الشعر، والكتب الإسلامية، وكتب التاريخ، وكتب التراجم وتاريخ الأدب، كما شملت بعض التحقيقات الجديدة التي عرفتها الساحة الثقافية المغربية والمشرقية. وقد دلت هذه المقالات مرة أخرى على ثقافته الموسوعية ومتابعته للجديد، ومشاركته في جميع مناحي المعرفة، وقد اختلف منهجه في التناول، باختلاف نوع هذه الكتب ومادتها، فجاء تعريفه بالدواوين الشعرية مختلفا عن تعريفه بالكتب المحققة، أو بكتب التاريخ. ونشير فيما يلي الى أهم المجالات التي شغلت اهتمامه :

1 - دواوين الشعر

لم يكتف الأستاذ كنون بتقديم الدواوين الشعرية للقراء، وإطلاعهم على

(1) - واحة الفكر، في عيد الكتاب، ص : 44.

الأغراض التي تقاسمت أشعارها، وحثهم على قراءتها وتذوقها، بل نجده في حالات كثيرة يجاذب صاحب الديوان الحديث حول مفهوم الشعر، وشروط الشاعرية، ويقف عند الهنات التي لفتت انتباهه أثناء قراءته للديوان. وبهذا يتجاوز حدود التقريظ والتحلية إلى تخوم النقد، أو على الأقل إلى التقريظ النقدي، إذ «لا خير في تقريظ لا يكتب بروح نقدية» (2).

ومن الدواوين التي وقف عندها، ديوان زكي مبارك، فقد بدأ حديثه عن هذا الديوان بالانطلاق من مسلمة أساسية، هي تعارض الشاعرية مع العلم، فقد عهدنا في زكي مبارك، ذلك البحاثة، والناقد الاديب، ولم نعهد فيه شاعراً، ولو قال البيت والبيتين. فكيف يدعي الشعر بنشره لهذا الديوان ؟ وكيف انفرد بين النقاد بهذه المزية ؟. ثم يضرب أمثلة ببعض النقاد والعلماء الذين لم يوفقوا في قرض الشعر، كالجاحظ، والمبزد وابن قتيبة، وطه حسين.

إن الأستاذ گنون، بانطلاقه من هذه المسلمة، في تقديمه لديوان زكي مبارك، يفتح أمام القارئ أفقا للانتظار، ويجعله يخمن تقويمه وحكمه على شاعرية هذا الشاعر، هذه "الشاعرية المغتصبة" (3) كما أحب أن يسميها. ونلخص مآخذه على هذا الشاعر في النقط التالية :

أ - الليونة المصطنعة، والنزعة الرومانتيكية التي تطغى على الديوان، فكأن الشاعرية في عرف هذا الشاعر وعرف أضرابه «هي الوجد والشوق والهيام والأنين والبكاء، فلا تكاد تحملهم إلا هذه الألفاظ، مرهونة بعضها بإزاء بعض... ولعل ديوان زكي مبارك، هو الرابع أو الخامس من الدواوين التي نشرت هذا العام فقط، وكانت تلك صفتها.» (4).

ب - استعمال كلمات في غير محلها، من ذلك قول الشاعر :

ولو فقه النيل المبارك قدرها
لحول ذياك المزيج إلى خمر

(2) - خل وبقل، ص : 180.

(3) - التعاشيب، ديوان زكي مبارك، ص : 178.

(4) - المرجع نفسه، ص : 178 - 179.

يقول في التعليق على هذا البيت : «والبيت من قطعة للشاعر في أحد شيوخه، والمزيج هذا المراد به الماء، ولم نر أحدا أطلق على الماء مزيجا، رغم قول العلماء إنه مركب من الأكسجين والأيدروجين، فلو قال القراح بدل المزيج لكانت أخف» (5).

ج - مخالفة قواعد اللغة والخطأ في الإعراب : من ذلك قول الشاعر (زمان الصبا هلا عن الغي ناهيا). «فأدخل هلا على ما لا تدخل عليه، ونصب ناهيا بما لا دليل عليه في اللفظ، ولا يتجه في التأويل إلا بتمحل» (6).

ونشير إلى أن الأستاذ كنون بنفيه الشاعرية عن زكي مبارك، لغلبة البحث والنقد على اهتماماته، قد أبعد النجعة، وجانب الصواب إلى حد ما. ويتأكد لنا ما في هذا النقد من قسوة على هذا "العالم"، أن الأستاذ كنون عاد في أحد أهم كتبه : (أدب الفقهاء) ليبحث في العلاقة بين الشاعرية والعلم، أو بتعبير أوسع بين الأدبية والعلم، وهو يعني بالفقهاء كل المشتغلين ببحوث غير الشعر، كالنقد، واللغة، والفقه، والفلسفة، وقد ضرب أمثلة لكل هؤلاء ودأب جاهدا على إثبات شاعريتهم، وانتهى إلى قوله : «هؤلاء سبعة من العلماء، ثلاثة منهم كانوا أئمة في علوم العربية من نحو ولغة وغيرها، وبراعتهم في قول الشعر ترد على من يرى أن أهل المعرفة بعلوم العربية وخاصة النحاة، أضعف الناس شعرا، وأقلهم إجادة فيه، كما ترد على من يقول بقصور العلماء على العموم عن قول الشعر والتفوق فيه. والأربعة الباقون كل واحد منهم ممن برز في باب من أبواب المعرفة الإنسانية، كالفلسفة، والطب، والحساب، والجغرافية، ولم يفته أن يسهم بحظ وافر في الأدب والشعر، ويكم أفواه المتقولين عن أدب الفقهاء والعلماء بعامة، ويثبت أن الأمر إنما هو همة واستعداد» (7).

هكذا يخلص الأستاذ كنون بعد استقرائه لأشعار العلماء إلى رأي مفاده أن لا تناقض بين الشاعرية والعلم، وإنما الأمر همة واستعداد.

وقد أثار نقد الأستاذ كنون لزكي مبارك، وما اشتمل عليه من جرأة في الحكم، ردود بعض المثقفين المغاربة، الذين لاحظوا ما في هذا النقد من قسوة

---

(5) - المرجع نفسه، ص : 181 - 182.

(6) - التعاشيب، ديوان زكي مبارك، ص : 181.

(7) - أدب الفقهاء، ص : 83 - 84.

وتجن على هذا العالم الشاعر. من هؤلاء عبد الرحمان الفاسي الذي كتب ردا يقول فيه : «فليسمح لي الأستاذ كنون، إن أنا صارحته بحياده عن جادة الصواب، فيما توهمه غلطا أو غير فصيح» (8)، ويأسف لزكي مبارك الذي أبى عليه القوم لقب شاعريته، وظلموه بانتقاداتهم المرة. كما كتب المرحوم عبد الله الجراري (9) ردا آخر، يناقش فيه الأستاذ كنون في تخطئته لهذا الشاعر. وقد كتب الأستاذ كنون (10) ردا عليهما معا يدافع فيه عن وجهة نظره في هذه الشاعرية المزعومة، ويؤكد ما سبق أن أدلى به.

وبالإضافة إلى هذه الخطرات النقدية، التي تعترض سبيلنا بين الحين والآخر في هذا الضرب من المقالات، نجد الأستاذ كنون يستطرد أحيانا ليعبر عن مفهومه للشعر، وتصوره للعملية الإبداعية، إذ يركز في هذا المفهوم تارة على الأسس الضرورية لتحقيق الشاعرية، وهي الموهبة والفطرة، إلى جانب الحذق بأصول الصناعة، وفي هذا السياق يناقش مفدي زكريا في رأيه الذي يذهب فيه إلى أن : «الشعر الحق إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة» (11) ويؤكد أن الموهبة والاستعداد الفطري لا يكفيان لقول الشعر، إذ لا بد إلى جانبهما من الدربة والممارسة ومعرفة أصول الصناعة.

وتارة أخرى يحدد مفهوم الشعر انطلاقا من الأثر الذي يحدثه في السامع، فالشعر طبقات منه ما يهز المشاعر، ويضرب على أوتار القلب، ومنه ما يبهج ويطرب، ويستشهد على هذا المفهوم الذي يرتضيه بقول الزهاوي :

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس خليقا أن يقال له شعر (12)

والملاحظ أن الأستاذ كنون بمفهومه هذا للشعر، لم يكن بدعا بين شعراء جيله

---

(8) – مجلة "المغرب" ع 17، س 2، فبراير 1934، ص : 15.
(9) – مجلة "السلام" ع 7، س 1، ابريل 1934، ص : 68.
(10) – المرجع نفسه، ص : 69.
(11) – أزهار برية، ص : 143.
(12) – واحة الفكر، ديوان لمحات الأمل للمقدم، ص : 169.

الذين أصلوا هذا التصور للشعر ورددوه في قصائدهم، كالمختار السوسي الذي يقول :

ما الشعر موزون بقافيـة له
معنى بأسماع الجليس سديد
لكنما الشعر الذي إن جا
ل في الأسماع يذهب بالفتى ويعود

وهذا التصور نفسه نجده عند شعراء آخرين، كعبد الرحمان حجي وعلال الفاسي. إن مفهوم الأستاذ كنون للشعر ينسجم مع المفهوم الذي بلوره شعراء جيله وهذا راجع حسب رأي الدكتور أحمد الطريسي «إلى تشبع هؤلاء الشعراء بآراء مدرسة النهضة المشرقية، خصوصا مدرسة البعث والإحياء» (13).

كما لم يفت الأستاذ كنون في هذه المقالات أيضا أن يوضح موقفه من الشعر المعاصر، ومن صرخات التجديد، وهو موقف ينسجم مع رأيه المحافظ، ومع تأثره بمعايير القدماء، وتصورهم للابداع الشعري. يقول في هذا الصدد : «وأما عن التجديد فإنا وإن كنا لا نأباه، إلا أننا لا نرغب في تجديد يكسر عمود الشعر العربي الصلب، الذي قاوم مختلف العوامل، كما قاومت هذه الأمة التي أنتجته كوارث الدهر وعوادي الزمن».

2 - كتب التاريخ

اهتم الأستاذ كنون كسائر رواد النهضة الحديثة في المغرب، بالتاريخ العربي والإسلامي، فقد تجلى هذا الاهتمام في إحياء نصوص التراث، وفي الترجمة للأعلام من قواد، وساسة، وشعراء وأدباء، كما جاء هذا الاهتمام جوابا عن أسئلة الواقع الراهن المتسم بالتخلف والانحطاط، ورد فعل على الاستعمار الذي حاول سلب الإنسان المغربي كل مقومات وجوده، وعمل جاهدا على فصله عن ماضيه الحضاري المشرق، وقيمه الروحية.

ولم يفت الأستاذ كنون بالإضافة إلى الجهود التي بذلها في سبيل تأسيس دعائم تاريخ الأدب المغربي، أن يهتم بالإصدارات الجديدة في مجال التاريخ، تقديرا منه لأهمية هذه الكتب، وتشجيعا لهذا النمط من الدراسة. وفي هذا

(13) - الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب، د. أحمد الطريسي.

السياق نجده يخص مجموعة من الكتب التاريخية بمقالات قيمة، عرف فيها بهذه الكتب، وصحح ما ورد فيها من أخطاء، واستدرك على مؤلفيها ما غاب عنهم من حقائق.

من هذه الكتب كتاب : «فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان» لمحمد غريط، وقد سلك في تعريفه بهذا الكتاب نهجا محكما يلائم موضوعه ومحتواه، يمكن تلخيصه في النقط الآتية :

أ - موضوع الكتاب وأسلوبه.
ب - منهج الكتاب.
ج - فقرات منتخبة من الكتاب.
د - القيمة الأدبية للكتاب.
هـ - مآخذ على الكتاب .

فمن حيث الموضوع، يتناول الكتاب ترجمة حياة عديدة من النوابغ، في الإدارة، والسياسة، والأدب، ممن عاشوا غالبا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري. أما من حيث الأسلوب، فالكتاب «مفرغ في قالب من السجع رصين، وأسلوب من الإنشاء الأندلسي متين. وبه ساغ للمؤلف أن يذكر من الوقائع والحوادث التاريخية تصريحا أو تلويحا، مالولاه لاضطر إلى تحريفه أو تناسيه بالمرة. وبعبارة أوضح، فإن هذه الطريقة مكنته من التعبير عما يكنه فكره من الأنظار والملاحظات بكل حرية وصراحة» .(14)

وإن كنا نتفق مع الأستاذ كنون، في هذا الكلام، على القيمة الأدبية والفنية لهذا الأسلوب، فإننا نختلف معه في قوله إن هذا الأسلوب المسجوع ملائم للكتابة التاريخية، وأن هذه الطريقة التي سلكها المؤلف، مكنته من التعبير عما يريده بكل حرية وصراحة. بل على العكس من ذلك، كان هذا الأسلوب المسجوع عائقا ليس فقط أمام محمد غريط، بل أمام من اعتمده من المؤرخين المسلمين القدماء، إذ حال بينهم وبين التعبير بكل حرية وطلاقة، عن أحداث التاريخ ووقائعه، وما عرفته من تشابك وتعالق. وهذا ما يؤكده روزنتال حين يقول : «ومن الواضح أنه لا يمكن عرض الحقائق المجردة، والأوصاف الدقيقة

---

(14) - التعاشيب، ص : 165.

بهذا الشكل، لأن أسلوب السجع يتجلى فيه دائما الابتعاد عن الحقائق والدقة، فإذا التزم السجع فلابد من إضافة جملة قد تكون مجرد تكرار، وقلما تعين على توضيح صورة الشخصية أو الحادثة، وبذلك تشغل حيزا واسعا ربما كان بالإمكان تخصيصه لحقائق الأخبار... وبالإجمال فإن استخدام السجع إذا كان قد أضاف إلى الكتابة التاريخية جاذبية في نظر القارئ المثقف، فإنه لم يساهم بشيء في تعميق الفهم التاريخي، كما وأن استخدام السجع لم ينتج شكلا جديدا في جوهره من أشكال العرض التاريخي» (15)

وإذا تجاوزنا الأسلوب إلى منهج الكتاب، فإننا نجد للأستاذ گنون ملاحظات وجيهة على الطريقة التي يسلكها المؤلف في تعامله مع مادة كتابه، فمن الخصائص المنهجية لهذا الكتاب :

أ - ذكر الوقائع والحوادث التاريخية التي جرت على عهد المترجمين وما كان موقف الواحد منهم بإزائها، وما عمله من صالح نافع أو سيء ضار .

ب - هناك خاصية أخرى وهي أن المؤلف كثيرا ما يسدد سهام الطعن والملامة إلى الخونة والمنافقين، ويشدد النكير عليهم.

ويختم هذه المقالة بالإشارة إلى مآخذ على الكتاب، وهي الآتية :

أ - أنه لا يتعمق في تحليل نفسيات الشخصيات التي عرض لها.
ب - إغفاله لبعض المشاهير.
ج - سوء التقدير والاختيار في بعض المواضع.
د - فحش الأغلاط المطبعية.

ومن الكتب التي حظيت باهتمام الأستاذ گنون كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني، لما يحمله هذا الكتاب من ارتباط بالمرحلة التي نشر فيها، ذلك أنه شهادة من المؤلف على عروبة الجزائر وإسلامها، وترسيخ منه لهذه القيم، في زمن وجهت فيه بالتحدي الاستعماري، فمما كتب على غلاف هذا الكتاب : "الإسلام ديننا، والجزائر وطننا، والعربية لغتنا". فقد صادف هذا الشعر هوى في نفس

---

(15) - فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلي، ص : 245.

الأستاذ كنون، فأجزل لصاحبه الثناء والتقريظ، غير أنه ختم مقالته كعادته بجملة من المآخذ، إذ «لاخير في تقريظ لا يكتب بروح نقدية» (16) من هذه المآخذ بعض الأخطاء التاريخية وهي الآتية :

1 - زعم المؤلف أن المولى ادريس الأكبر، هو الذي أسس مدينة فاس، على حين أن مؤسسها هو المولى ادريس الأصغر سنة 172 هـ .

2 - زعم المؤلف أن دولة بني الأغلب دولة بربرية، على حين أنها عربية صرفة.

3 - هناك مأخذ آخر تتعلق بضعف في التحقيق، وهو اعتبار المؤلف المؤرخ محمد بن الطيب القادري، من نبغاء الجزائر. على حين أنه مغربي من أهل فاس .

من الكتب التاريخية الأخرى التي سار الأستاذ كنون في التعريف بها على النهج السالف نذكر كتاب: "آسفي وما إليه" لمحمد العبدي الكانوني (17) . وكتاب "قادة الفتح الإسلامي" لمحمود شيث خطاب (18) الخ...

3 - الكتب المحققة

انصرفت اهتمامات الأستاذ كنون إلى جانب التعريف بالدواوين الشعرية وكتب التاريخ والأدب إلى التعريف بالكتب المحققة خصوصا المتعلقة بتاريخ الأدب الأندلسي والمغربي، كـ "الذخيرة لإبن بسام"، و"المغرب في حلى المغرب" لإبن سعيد المغربي، "والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة"، لابن سعيد أيضا... الخ. ولم يكتف في تعريفه بهذه الكتب بالوقوف عند التقريظ والثناء على العمل الذي قام به المحقق، بل تجاوز ذلك إلى النقد، وإلى استدراك ما غاب عن المحقق، وتصحيح بعض الهنات التي وقع فيها أثناء تأصيله للمتن أو قراءته له. وهذه الاستدراكات تعتبر تكملة للجهود التي بذلها في تحقيق

---

(16) - خل وبقل، ص : 180.

(17) - التعاشيب، ص : 195.

(18) - أزهار برية، ص : 116.

التراث، كما تنطوي على فوائد جمة، فقد تساعد على تأصيل النص وإقامة معناه إذا طبعت هذه الكتب طبعة جديدة.

وقد سلك الأستاذ كنون في تعريفه بهذه الكتب الخطوات الآتية :

أ - بيان الأهمية العلمية للكتاب المحقق :

فكتاب المغرب في حلى المغرب : «هو من أمهات كتب الأدب والتراجم التي خلفها الأندلسيون، وقد تعاقب على تصنيفه في مدة مائة وخمس عشر سنة، ستة أعلام من أهل الأندلس... وأهمية هذا الكتاب في التعرف إلى أدب المغرب والأندلس لا تخفى على أحد ممن يعاني هذه المباحث، بحيث يصح وضعه في مقابل المجموعة الكبيرة المؤلفة في هذا الصدد...» (19)

وقد يشير الأستاذ كنون أحيانا إلى منهج الكتاب، وطريقته في عرض المعلومات الأدبية والتاريخية فكتاب الذخيرة : «على نسق كتاب اليتيمة لأبي منصور الثعالبي، وقسمه أربعة أقسام : قسم لولاية قرطبة، وقسم لولاية إشبيلية، وقسم لولاية بلنسية، وقسم للطارئين على الأندلس من مشارقة ومغاربة...» (20)

ب - وصف منهج المحقق :

بعد التعريف بموضوع الكتاب، ومنهج مؤلفه في تصنيفه، ينتقل الاستاذ كنون الى وصف المنهج الذي سلكه المحقق، خصوصا ما يتعلق منه بتأصيل المتن وقراءته. وقد دلت تعليقاته على مناهج المحققين، على معرفته بالخطوات التي يجب أن تتوافر في تحقيق يطمح إلى أن يوصف بالعملية، كما دلت من جهة أخرى على وعيه وتفطنه إلى الفروق بين منهج المحققين العرب ومنهج المستشرقين والمستعربين. وفي هذا الصدد يقول معلقا على عمل اللجنة التي حققت كتاب الذخيرة، وهي مؤلفة من ليفي بروفنسال، وأحمد أمين، ومصطفى عبد الرازق، وعبد الحميد العبادي، وعبد الوهاب عزام، وطه حسين، يقول بعد أن صحح خطأ في ضبط كلمة : «وهذا مما يظهر أن المصححين لم يكونوا

---

(19) - خل ويقل، المغرب في حلى المغرب، ص : 159.

(20) - واحة الفكر، كتاب الذخيرة لابن بسام، ص : 162.

يعتمدون في التصحيح إلا النسخ، أما العلم واللغة والعروض والأدب فإنها كانت منهم دبر الأذان، على طريقة المستشرقين، ونعني بهم المستشرقين القاصرين لا المتمكنين، فإن هؤلاء بعد اعتماد النسخ المختلفة يرجعون إلى النظر والتحقيق العلمي... وهذا أمر يظهر لنا أن أصبع ليفي هو الذي كان يحرك لجنة التصحيح، أو قل إنه هو الذي وضع خطة العمل وأشرف على توجيهه» (21).

ج - استدراك ما فات المحققين، وتصحيح الهنات التي وقعوا فيها : وهذا القسم من مقالة التعريف بالكتب المحققة من الأهمية بمكان، ذلك أنه يتمم الجهد الذي بذله المحقق، وينبه إلى الأخطاء التي يمكن استدراك صوابها إذا ما طبع الكتاب طبعة أخرى، وقد انصرفت جهود الاستاذ كنون في هذا المجال إلى النقط الآتية :

1 - تصحيح الأخطاء اللغوية بالاعتماد غالبا على الحدس والتخمين مع مراعاة السياق، وبالرجوع إلى المعاجم والمظان أحيانا .

2 - تصحيح الخطإ في اسماء الأعلام، خصوصا المغربية منها.

3 - التنبيه الى الانكسار في وزن بعض الأبيات.

هذه ثلاثة نماذج من الكتب التي استأثرت باهتمام الأستاذ كنون، في مقالة التعريف بالكتب، وقد راعينا في اختيارنا لها أنها هي الغالبة على ما كتبه في هذا المجال، وإلا فإن هناك مقالات تند عن هذا التصنيف لكنها قليلة، وقد لاحظنا من خلال عرضنا لطريقة التعريف بهذه الكتب، أن الاستاذ كنون يكيف منهجه دائما حسب موضعها ومادتها، وحسب الغاية المتوخاة من التعريف بها.

---

(21) - واحة الفكر، كتاب الذخيرة لابن بسام، ص : 166 - 167.

الفصل الرابع

المقالة اللغوية

قضايا المقالة اللغوية

وجوه البحث اللغوي وطرائقه

أهداف البحث اللغوي

المقالة اللغوية

إلى جانب اهتمام الأستاذ كنون في مقالته بقضايا الأدب والإصلاح، نجده يولي عناية خاصة للبحث اللغوي، سواء أتعلق الأمر باللغة العربية الفصحى أم بالعامية المغربية. ويمكن أن نرجع اهتمامه بهذا النمط من المقالة إلى سببين رئيسيين :

أ - غيرته باعتباره مصلحا سلفيا على اللغة العربية، فقد اعتبرها دعامة أساسية من دعائم القومية العربية إلى جانب الإسلام، من هنا جاء اهتمامه البالغ بها على مستوى البحث العلمي، بعد أن دافع عنها على المستوى الإصلاحي ضد التغريب والفرنسة.

ب - انتماؤه على مستوى البحث العلمي إلى مجامع لغوية عربية، غايتها إحياء اللغة العربية، وبعث التراث القديم، ووضع الألفاظ المناسبة للمستحدثات والمستجدات، من هذه المجامع : المجمع العلمي العربي بدمشق، مجمع اللغة العربية بمصر، مجمع اللغة العربية الأردني، المجمع العلمي العراقي، مكتب تنسيق التعريب.

وحتى نحيط بمختلف القضايا التي طرحها الأستاذ كنون في مقالاته اللغوية، سنسير في حديثنا عن هذا النمط من المقالة على النهج الاتي :

1 - قضايا المقالة اللغوية .
2 - وجوه البحث اللغوي وطرائقه في هذه المقالة.
3 - أهداف البحث اللغوي وغاياته .

1 - قضايا المقالة اللغوية :

أ - ظواهر لغوية عامة :

تندرج تحت هذا المحور طائفة من المقالات اللغوية، غرضها أن تتعمق اللغة العربية، من خلال التركيز على بعض الظواهر التركيبية والصرفية والمعجمية، وقد تميز البحث في هذه الظواهر بالاستقصاء والاستقراء لكتب اللغة والمعاجم القديمة. ومن المقالات التي تندرج في هذا الصنف "بحث في علم الجنس" (1)،

---

(1) - العصف والريحان، ص : 101.

"الكاف التمثيلية" (2)، "لما به والفاظ أخرى" (3)، "هل إسم خلدون ونحوه مكبر على الطريقة الإسبانية"؟ (4)، "المعزى بفتح الميم" (5)، "البنيس والفاظ أخرى" (6)... الخ. وقد سلك الأستاذ گنون في هذه المقالات سبلا شتى من طرق البحث، سنقف عليها أثناء حديثنا عن وجوه البحث اللغوي وطرائقه.

ب - قضايا الفصحى والعامية :

تعتبر قضية الفصحى والعامية من أهم القضايا الشائكة التي استأثرت باهتمام اللغويين العرب في بداية عصر النهضة، سواء في المشرق أم في المغرب، فقد انصرفت اهتماماتهم إلى جوانب مختلفة من هذه الظاهرة، كالعلاقة والصلة بين الفصحى والعامية، ومستقبل العامية، وما في العامي من فصيح، وما فيه من لحن والكلمات غير القاموسية... الخ .

وقد كان اهتمام الأستاذ گنون بهذا المبحث رد فعل ضد السياسة الاستعمارية التي حاولت تعميق الهوة بين اللهجات الدارجة واللغة العربية الفصحى في سائر بلدان الوطن العربي، تمهيدا لتجريد هذه البلدان من أصالتها وقوميتها، فقد دعا بعض "مستشرقي السياسة لا العلم" كما يسميهم الأستاذ گنون، إلى تعميم الدارجة التي يفهمها الجميع واتخاذها لغة للثقافة، بدعوى قصور اللغة العربية الفصحى عن مسايرة مستجدات العصر، والأزمة التي تتخبط فيها هذه اللغة وسط تعدد لهجي في سائر الأقطار العربية. وقد انبرى الأستاذ گنون للرد على هذه الادعاءات الهشة وانتهى إلى أن : «الشعب المغربي جد متشبث بعربيته، ويقدمها في الطلب على كل لغة أخرى، يساعده على ذلك أساتذة المعاهد الدينية وعلى رأسها "القرويين" وأساتذة المدارس الأهلية التي وإن تكن قليلة فإنها ذات أثر بليغ من هذه الناحية» (7).

أما الادعاء الذي نشرته جريدة "الصباح" المصرية والذي يذهب إلى أن

---

(2) - . أزهار برية، ص : 134.

(3) - العصف والريحان، ص : 37.

(4) - المرجع نفسه، ص : 245.

(5) - خل وبقل، ص : 115.

(6) - العصف والريحان، ص : 209.

(7) - التعاشيب، العامية المغربية، ص : 126.

العامية المغربية أبعد العاميات العربية عن الفصحى، فهو ادعاء يتهاوى أمام استقراء معجم هذه العامية ذلك أن : «عامية المغرب هي من أقرب اللهجات الى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من التراكيب الصحيحة والكلمات الفصيحة، فهي لا تزال محتفظة بتصاريف الفعل على اختلافها، ومراعية الفرق بين المذكر والمؤنث في غالب الاستعمالات، وفي الجمل الاسمية هي أقل العاميات التي سمعناها حشوا وتحريفا للكلم، إلى غير ذلك» (8).

أما السبب في هذا التقارب الملاحظ بين العامية المغربية والفصحى فيعود الى : «استقلال المغرب الذي لم يتطاول إليه الحكم التركي، في حين أن هذا الحكم قد شمل سائر البلاد العربية وعمر فيها قرابة ستة قرون، فقضى على جميع ما كان فيها للعربية من مجد وسمو، وبقيت لا ترفع رأسا إلى زمن الانبعاث في عصر محمد علي» (9).والخلاصة التي ننتهي اليها مع الاستاذ كنون في طرحه لقضية الفصحى والعامية، هي أنه «ليست هناك أزمة لغة، ولكن هناك أزمة استعمار تقتل اللغة وتبعد الشقة بين الدارجة والفصحى، وتدخل الغريب على اللغة (10).

ج - الترجمة أم التعريب

من القضايا المهمة التي عرض لها الأستاذ كنون في مقالاته اللغوية، وأدلى فيها برأيه، قضية الترجمة والتعريب، شأنه في ذلك شأن أغلب المهتمين بالبحث اللغوي من المنتمين للمجامع اللغوية ومن غيرهم، فقد جدت في الحياة حاجات كثيرة، وتطورت العلوم والمعارف، مما أدى الى ظهور مسميات جديدة في حاجة الى أسماء ومصطلحات جديدة، فكان لابد أن يلتفت المهتمون باللغة لهذه الجوانب الطارئة في الحياة قصد التعبير عنها، وضبط مداليلها ومسايرة مستجداتها، لكن كيف السبيل الى ذلك ؟ وهل بالترجمة المعنوية أم بالنقل الحرفي للمصطلحات العلمية والتقنية ؟ وأي هذين السبيلين أولى بالاعتماد لسد حاجة اللغة العربية وإثراء معجمها ؟ وأيهما يوصلنا إلى الغاية دون مساس بقدسية اللغة العربية ودون جرأة على قواعدها وقوانينها ؟

---

(8) - التعاشيب، ص : 127.

(9) - المرجع نفسه، ص : 129.

(10) - المرجع نفسه، ص : 134.

يجيبنا الأستاذ گنون عن هذه الأسئلة بالتمييز بين الترجمة والتعريب والفرق بينهما ومقام كل منهما، يقول : «كلا من الترجمة المعنوية والنقل الحرفي لا غنى عنهما في هذا الصدد، كما أن لكل منهما مقاما لا يصح أن يعدل به عنه، وذلك ما درج عليه العرب الأولون. وهو ما تسير عليه المجامع اللغوية في العالم العربي اليوم» (11).

ولا نصادف في طرح الأستاذ گنون لهذه القضية جديدا إذا ما قارناه بطرح القدماء، فالشروط التي قيد بها المعرب هي الشروط عينها التي نجدها لدى اللغويين القدماء، ذلك أننا لا نلجأ إلى التعريب : «إلا إذا لم نجد كلمة عربية قديمة تؤدي معنى اللفظ المنقول، أو تعذر علينا إيجاد كلمة بمعناه ... والعلماء يشترطون في تعريب اللفظ الأعجمي أن يصاغ على أبنية كلام العرب وأوزانها إلا أن يمتنع ذلك، وبهذا يصبح اللفظ المعرب من جملة ألفاظ اللغة العربية تجري عليه أحكامها ويعامل معاملتها» (12).

وإذا كان القدماء قد أبدوا بعض التحفظ والحيطة فيما ألفوه حول المعرب والدخيل رغم تسليمهم بهذه الظاهرة وضبطهم قوانينها، ذلك أنهم لا يسمون معربا إلا ما عربته العرب في جاهليتها أو في صدر الاسلام، وأما ما عرب بعد عصر السليقة فإنهم يسمونه مولدا، ويعدون المولد من قبيل العامي. إذا كان هذا حال القدماء فإن الأستاذ گنون يبدي أيضا تحفظه أمام هذه الظاهرة، غيرة منه على اللغة العربية وإخلاصا لموقفه المحافظ في دراستها. يقول في هذا الصدد : «هكذا نرى ضيق مجال التعريب لتقييده قديما وحديثا بالضرورة ومساس الحاجة... فدائرته ضيقة جدا، لأن التتايع (بالياء) فيه يؤدي إلى مالا تحمد عقباه من تشويه جمال اللغة العربية، وفقدها لخاصية البيان والوضوح» (13).

والأستاذ گنون بهذا الموقف المتحفظ من ظاهرة التعريب، يفسح المجال واضحا للخيار الثاني وهو الترجمة المعنويةأو ما يوازيها من التوسع في دلالة اللفظ بالمجاز والاستعارة، فهي السبيل الذي سيمكننا من مسايرة المستجد

(11) – ازهار برية، ص : 71.

(12) – المرجع نفسه، ص : 73.

(13) – أزهار برية، ص : 74.

والطارئ، من غير أن نقع في محظور، ومن غير أن نمس جوهر لغتنا ونثقل معجمها بالألفاظ المعربة والدخيلة. وما من شك في أننا سنجد بديلا عن هذه الألفاظ في لغتنا الغنية، إذا ما أحسنا الاستقراء والاستقصاء.

2 - وجوه البحث اللغوي وطرائقه .

إذا كانت قضايا المقالة اللغوية عند الأستاذ كنون متنوعة ومتشعبة كما لاحظنا سلفا، فإن وجوه البحث اللغوي ستعرف بدورها تنوعا مماثلا على مستوى المنهج والطريقة، وعلى مستوى الغاية والمقصد. ويمكن أن نحصر هذه الوجوه من البحث اللغوي فيما يلي :

أ - التصحيح والتصويب :

نشأت حركة التصحيح اللغوي مع نشأة النحو العربي، نتيجة لانتشار اللحن على الألسنة وكانت غايتها الحفاظ على اللغة العربية من الفساد والانحلال الى لهجات، وقد أفرزت هذه الحركة بحوثا كثيرة عرفت بكتب اللحن نذكر منها : "ما تلحن فيه العوام" للكسائي (189 هـ)، "ما يلحن فيه العامة" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (210 هـ)، "إصلاح المنطق" لإبن السكيت (244 هـ).

أما في العصر الحديث فقد استشرى اللحن أكثر من أي وقت مضى، مما حدا بنخبة من المثقفين الغيورين على اللغة العربية الى التصدي لهذه الظاهرة التي تفشت في كل ميدان، في لغة الكتب كما في لغة الصحف، ولغة التخاطب. ومما ألف في هذا الصدد في العصر الحديث : «لغة الجرائد" لإبراهيم اليازجي، "عثرات اللسان في اللغة" لعبد القادر البغدادي، "قل ولا تقل" لمكتب تنسيق التعريب في الجامعة العربية، "قل ولا تقل" لمصطفى جواد... الخ. وتستند هذه الكتب في حكمها بالخطإ في الاستعمال اللغوي الى معايير أشهرها:

1 - عدم القياس.
2 - عدم السماع.
3 - عدم ورود اللفظة في المعاجم.
4 - الاستناد الى تخطيىء أحد اللغويين.
5 - الاستناد إلى اللغة الافصح.
6 - الاستناد الى قواعد النحو والصرف.

أما في المغرب فمن المهتمين بهذا الوجه من وجوه البحث اللغوي، بالإضافة إلي الأستاذ گنون، محمد بن تاويت، وعبد العزيز بن عبد الله.

وقد نشر الأستاذ گنون في إطار التصويب اللغوي جملة من المقالات، دأب فيها على تصحيح بعض الأخطاء التي اشاعتها لغة الجرائد والصحف. من هذه الأخطاء عبارة : "نعي وفاة" يقول : «فكل من يتتبع صحافة تطوان، يلفت نظره في بعض الاحيان هذا العنوان الناشز وهو : (نعي وفاة) للإخبار بموت بعض الفضلاء، فلا حاجة لزيادة كلمة وفاة... فالقائل نعي وفاة كأنه يخبر بوفاة الوفاة، ولا يخفى بطلانه» (14). فمعيار التخطئة هنا هو التناقض في المعنى. وقد يستند إلى معيار آخر في حكمه بالخطإ على الاستعمال اللغوي كمعيار خروج اللفظة عن المقاييس التي ارتضاها اللغويون والنحاة، من ذلك استعمال الكتاب لكلمة "وديان" في جمع "واد" : «فنحن أولاء نرى أن ليس بين هذه الجموع المنصوصة وديان. وأما القياس فقد أشار ابن مالك في الكافية إلى ما يجمع على فعلان... وهي ستة عشر وزنا ليس فيها وزن واد كما نرى... لا شك أن هذا الجمع غلط، ولعله كان قياسا من قائله الأول على مفردات الوزن الثالث، مثل نار ونيران، وغار وغيران، وتاج وتيجان، ولكن هذه ثلاثية صحيحة اللام بخلاف واد» (15) ويرجع سبب انتشار هذا الجمع الى الترجمة، فالمعجم الوحيد الذي أثبته - في رأيه - هو معجم الأب بيلو الفرنسي العربي.

ويستند تارة أخرى في التخطئة إلى عدم ورود الكلمة في معاجم اللغة، كاستعمال المحدثين في لغة الصحافة لكلمة "شجب" بمعنى ندد واستنكر، يقول : «ولعلنا نلاحظ أن المعنى الوحيد الذي يستعمل فيه هذا الفعل بكثرة اليوم، لم يرد في المعاجم، وهو شجب بمعنى انتقد وندد... فينبغي النص عليه في المعاجم اللغوية الجديدة، وإلا وجب (شجبه) أي هلاكه، فعندنا ما يغني عنه مما ذكرناه كندد به وهاجمه وما إلى ذلك» (16).

هكذا يستند الأستاذ گنون في الحكم بالخطإ إلى عدم ورود اللفظة في المعاجم وخروجها عن القياس. لكن ألا يحق لنا أن نبدي بعض التحفظ إزاء

(14) - خل وبقل، ص : 218.

(15) - ازهار برية، ص : 49 - 50.

(16) - ازهار برية، ص : 48.

هذين المعيارين ؟ وهل يجوز لنا أن نخطئ ملايين من الناس يستعملون لفظة معينة كلفظة "وديان" أو "شجب" بحجة أنها لم ترد في المعجم ؟ ألا يمكن أن يكون استقراؤنا ناقصا ؟ ثم ألا يمكن أن نعتبر الشيوع والاستعمال اللغوي معيارا للحكم بالصواب ؟ فمن علماء اللغة من يعرف المستوى الصوابي في اللغة بأنه الاستعمال المطرد لها أو ما يؤيده السلوك اللغوي لمتكلمي اللغة، يقول تمام حسان : «المستوى الصوابي معيار لغوي يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ في الاستعمال، وهو كالصوغ القياسي لا يمكن النظر إليه باعتباره فكرة يستعين الباحث بواسطتها في تحديد الصواب والخطإ اللغوي، وإنما مقياس اجتماعي يفرضه المجتمع اللغوي على الافراد. ويرجع الأفراد إليه عند الاحتكام في الاستعمال» (17). ويرى سايس : «أن مقياس الصواب هو تعود المتكلمين للعبارة، واستعمالهم إياها استعمالا مطردا، وأن ما يصح أن يطلق عليه صواب نحوي، هو ما يؤيده السلوك اللغوي لمتكلمي اللغة» (18).

وإذا كان الأستاذ گنون فيما سبق قد حكم بالخطإ على ألفاظ استنادا إلى معايير فهمناها من كلامه، فإنه سار في مقالات أخرى في اتجاه معاكس لهذا، ذلك أنه حكم بالصواب على ألفاظ كثيرا ما خطئت من طرف بعض اللغويين، مستندا في الحكم عليها بالصواب إلى ورود استعمالها لدى القدماء، وتخريجهم وتوجيههم لهذا الاستعمال الذي يعتقد أنه خطأ. من ذلك كلمة "التقييم" يقول : «أحب أن ألفت النظر الى نص قديم ورد فيه هذا الاستعمال، ولم يثر كبير اهتمام من الذين تناولوه بالشرح، مع أنهم جميعا من أهل العلم الذين لا يخفى عليهم أمره، وهذا النص هو أثر روي في صحيح البخاري عن الزهري... وهو قال الزهري في الأمة البكر، يفترعها الحر، يقيم ذلك الحكم من الأمة العذراء بقدر قيمتها ويجلد» (19)، ويورد نصوصا أخرى ورد فيها هذا الاستعمال. وما نفهمه من كلامه هو أن معيار التصويب ليس إصرار المخدثين على مخالفة القياس في هذه اللفظة وكثرة استعمالهم لها، وإنما هو استعمال بعض القدماء لها، ولو كان هذا الاستعمال قليلا ومرفقا في الغالب بالتخريج والتوجيه .

هكذا نجد الأستاذ گنون يفصح عن موقفه المحافظ والمتحفظ في قضية

(17) - اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، دار الثقافة، البيضاء، ص : 69.

(18) - معجم الخطأ والصواب في اللغة، د. اميل يعقوب، ص : 50.

(19) - خل وبقل، ص : 118.

التصويب اللغوي، فقد حكم بخطإ ألفاظ، ك : "وديان" و"شجب" رغم تواتر استعمالها من قبل المحدثين، وصوب ألفاظا، ك : "التقييم"، رغم ندرة استعمالها في النصوص القديمة فهو إذن مع استعمال القدماء ولو ندر وقل، وضد استعمال المحدثين ولو تواتر.

ومن الكلمات التي حكم عليها بالخطإ من قبل اللغويين، كلمة "المعزى" التي وردت في عنوان كتاب الصومعي : "المعزى في مناقب أبي يعزى" فقد أجمع هؤلاء على أن فتح الميم لا يصح، لأن اسم المفعول من الثلاثي لا يكون على مفعل بل على مفعول، فحقه أن يقال فيه معزو، لكن الأستاذ كنون اجتهد في تصويب هذه الكلمة وتوجيه قراءتها بالفتح يقول : «فالشيخ الصومعي ربما لم يكن يقصد إلى اسم المفعول حين سمى كتابه هذه التسمية، بل قصد المصدر الميمي وهو على مفعل بفتح الميم من الثلاثي المعتل اللام مطلقا، كمرمى ومسعى ومعزى... وعليه فالمعزى هو أنسب من اسم المفعول، فإذا كان الشيخ الصومعي قد أراد هذا فالصواب معه» (20).

ب - الإحياء والانعاش :

اتخذ البحث اللغوي في مقالات الأستاذ كنون - بالإضافة إلى التصحيح والتصويب - مسارا آخر، يتعلق بإحياء اللغة وإنعاشها، عن طريق بعث بعض التعابير والألفاظ التي استعملها العرب،لكن قل استعمالهم لها فلم يكتب لها الشيوع والانتشار. وقد أخذ هذا الإحياء اتجاهات مختلفة تهدف إلى غاية واحدة هذه الاتجاهات هي :

1 - إحياء وإنعاش فصيح العربية .
2 - إحياء وإنعاش الفصيح في العامية .
3 - إحياء وإنعاش الألفاظ ذات الاستعمال المغربي والأندلسي.

1 - إحياء وإنعاش فصيح العربية

من العبارات الفصيحة قليلة الاستعمال عبارة "لما به". وقد وقف عليها الأستاذ كنون لأول مرة، في كتاب "المعجب" لعبد الواحد المراكشي، يقول عن

---

(20) - العصف والريحان، لما به وألفاظ أخرى، ص : 40.

ذلك : «ولا أخفي أن وقوع هذه العبارة في كلام المراكشي هو مما جعلني أتثبت في شأنها، لأنه أديب ماهر وكاتب بليغ،فيبعد أن يقع في كلامه ما ليس صحيحا ولاجاريا على الأصول» (21) ثم وقف عليها في الشعر والشعراء لابن قتيبة، وفي أبيات تنسب لعلي بن أبي طالب يقول في أولها :

إذا اشعملت على اليأس القلوب

وضاق (لما به) الصدر الرحيب

كما وردت في أبيات أخرى لابن زنباع، ويقول عن معناها : «هذا ويخيل إلي في تخريج هذه العبارة أنها من قبيل قولهم في المبالغة أن زيدا مما أن يكتب، في الإخبار عنه بالإكثار من فعل الكتابة... وكذا مثالنا جعل فيه المخبر عنه بحالة من المرض والعياء بالغة الخطورة، أما المرض والعياء فيفهمان من السياق، وأما الخطورة فتوخذ من "ما"، لأن الإبهام يأتي للمبالغة والتهويل" (22).

ولم تكن غاية الأستاذ كنون تنحصر دائما في مجرد إحياء مثل هذه التعابير والألفاظ، بل نجده أحيانا يرمي من وراء هذا الإحياء إلى إحلال بعض هذه الألفاظ محل بعض الكلمات المعربة والدخيلة، ذلك أن التوسع في لفظ عربي قريب المعنى من المراد، هو أولى وأحق. يقول في هذا الصدد عن كلمتي : "السحاءة" و"الكلاء" : «هاتان كلمتان عربيتان ليس عليهما غبار، ولا في معناهما لبس، ولم نوردهما لتصحيح لفظ أو تحديد دلالة، ولكن لاقتراح إطلاقهما على مدلولي لفظين أحدهما لا اسم له عندنا فيما أعرف، والثاني يعرف باسمه الأعجمي معربا في بعض الأقطار العربية» (23).

والسحاءة مأخوذة من سحا الكتاب شده بسحاءة، أي لف عليه بعد طيه قصاصة من الورق كالسير، في عرض رأس الخنصر، ثم يلصق رأسها. وحيث أن هذه الكلمة لم تعد مستعملة، فإن الأستاذ كنون يقترح إطلاقها على نوع من الرسائل البريدية. يطوى على نفسه، ولا يحتاج إلى ظرف يدرج فيه. أما الكلاء فهو مشتق من الكلاءة بمعنى الحراسة والحفظ، ويطلق على ساحل النهر ومرفإ السفن، ويقترح اطلاق هذه الكلمة على ما يسمى في بعض البلاد العربية بالكرنيش، وهو الممشى والرصيف الذي يشاذ على حافة البحر أو النهر .

---

(21) - العصف والريحان، ص : 41.

(22) - المرجع نفسه، ص : 50.

(23) - تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث، عبد العزيز بن عبد الله، ص : 208.

2 - إحياء وإنعاش الفصيح في العامية

لم تكن الغاية من تفصيح العامية المغربية إطلاق العنان لها، وتمييزها عن لغة الضاد، بقدر ما كانت تقريب الشقة بين هذه العامية واللغة العربية، ووضع حد للصراع الواقع أو المتوقع بينهما. وطريق هذا التفصيح هي استصفاء واستخلاص خير ما في العامية، وضمه إلى الرصيد العربي السليم. فتفصيح العامية وتقريبها بين الدول العربية في رأي الأستاذ أمين الخولي : «هو أنجع الأعمال في إحياء الفصحى ونصرها في صراعها مع العامية» (24)، بل إن هذا التفصيح عند البعض يعتبر سبيلا من بين سبل التقارب بين الجماهير العربية، يقول الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله : «وهكذا نرى أن مقومات الوحدة الفكرية بين الدول العربية لا تكمن في توحيد مصطلحات الفصحى في الحقل العلمي وتبسيطها في المجال الحضاري فحسب، بل أيضا في تفصيح العاميات تحقيقا للتقارب بين الجماهير في الوطن العربي» (25).

ويمكن أن نقسم الكلمات العامية المغربية الفصيحة حسب ما جاء في مقالات الأستاذ كنون الي قسمين رئيسيين :

أ - كلمات عامية فصيحة إلا أنها أصبحت تدخل في عداد الغريب الذي لم يعد مستعملا في لغة الكتابة. من هذه الكلمات : البخنق، البنيقة، بنين، تقلق، الزربية، شنق، الشياط، قفقف، نقز، ناض (26).

ب - كلمات من وضع العامية المغربية، غير أنها جاءت مطابقة لقواعد الفصحى، من الاشتقاق والنحت والقياس، على ما وضعته العرب وتكلمت به من صيغ وأساليب ومن هذا الضرب : البوجادي، البراكة، التصبين، الخدية، الخلالة، المشور، مزيان، الطيارة (27).

ونستشف الغاية من إحياء هذين النوعين من الكلمات في قوله : «وإذا كان في التعرف إلى النوع الأول من هذه الكلمات بيان شدة القرب بين العامية

---

(24) - تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث، عبد العزيز بن عبد الله، ص : 208.

(25) - خل وبقل، ص : 63.

(26) - المرجع نفسه، ص : 79.

(27) - خل وبقل، ص : 61 - 62.

المغربية والعربية الفصحى... فإن في عرض النوع الثاني منها وتوجيهه عربية، ما يشعر بأصالة السليقة العربية عند المغاربة وتمكنهم من قواعد اللغة التمكن التام» (28).

3 - إحياء وإنعاش الألفاظ ذات الاستعمال المغربي والأندلسي :

اهتم الأستاذ كنون بهذا الضرب من الكلمات العامية لورودها في بعض مصنفات المغاربة والأندلسيين فقط، ولخفاء أمرها على بعض المشارقة خصوصا المحققين منهم. ومن هذه الكلمات : البنيس، وهي وعاء يستعمل للخمر وللمداد وغيرهما، والشرجب أو الشرجم وهو النافذة، والزليج، ويعني الفسيفساء، والسقط، ويعني حشا الحيوان المأكول (29) الخ...

3 - أهداف البحث اللغوي :

تنوعت قضايا المقالة اللغوية عند الأستاذ كنون، فقد انصرف اهتمامه تارة إلى الفصحى، وتارة إلى العامية، وتارة ثالثة إلى قضية التعريب والترجمة. كما، تنوعت وجوه البحث اللغوي في هذه المقالة، إذ تراوحت بين التصحيح والتصويب من جهة، والإحياء والإنعاش من جهة ثانية. غير أن الغاية التي كان ينشدها من وراء هذا البحث اللغوي كانت واحدة، وتتمثل في المحافظة على اللغة العربية وذلك عن طريق محاولة النهوض بها لتفي بحاجات المجتمع المتعددة، وإعدادها لمسايرة الحياة المعاصرة، وإشاعة الثقة بها. وخير وسيلة تضمن هذه المحافظة، أن تنقح من شائبة العجمة والركاكة، وألا يلجأ إلى الدخيل والمعرب إلا عند العجز عن العثور على ما يراد فهما من الفصيح .

ونلمس هذه الغاية حتى في حديثه عن العامية المغربية، ذلك أن الغاية من دراستها لا تعدو تقريب الهوة بينها وبين الفصحى تمهيدا لإحلال هذه الاخيرة محلها.

---

(28) - العصف والريحان، ص : 209.

الفصل الخامس

المقالة الاصلاحية

الإصلاح الديني

إصلاح التعليم

المقالة الإصلاحية

إن أي حديث عن الفكر الإصلاحي في المغرب، في بداية النهضة الحديثة، لا يمكن أن يتم إلا في إطار الحديث عن التيار السلفي. فقد مثل هذا التيار الخلفية النظرية التي انطلق منها المصلحون الدينيون والاجتماعيون، فالمطالب الإصلاحية كانت دائما تحيل على هذه المرجعية، وتأخذها بعين الاعتبار. ولئن كان ازدهار هذا التيار في المغرب على عهد الحماية يعود الى جملة من المستجدات، كالهجمة الاستعمارية، والمثاقفة مع الشرق ومع رواد هذا الاتجاه بالأساس، فإننا يمكن أن نتلمس جذورا لهذا الاتجاه فيما قبل هذه المرحلة من تاريخ المغرب بزمن طويل.

فهناك من يعود بهذا الاتجاه الى عهد المولى إدريس، مؤسس الدولة الإدريسية، الذي دافع عن السنة، ورحب بالفقه المالكي، وعمل على تعزيز الاتجاه الذي يسير على نهج السلف الصالح. ويمكن أن نتلمس ملامح هذا الاتجاه أيضا عند المرابطين في محاربتهم لانحراف البرغواطيين. غير أن الانبعاث الحقيقي للسلفية بمفهومها الحديث، الذي يتجلى في محاربة البدع، والمحافظة على نقاء العقيدة، وتخليصها من الشوائب، يعود الى القرن التاسع عشر الميلادي، بتأثير من الحركة الوهابية في الحجاز، بواسطة وفود الحجاج، وعن طريق نسخة من المذكرة التي وجهها محمد بن عبد الوهاب الى علماء تونس. يقول الأستاذ ابراهيم حركات في هذا الصدد : «وفي عهد مولاي سليمان بدأت مرحلة جديدة في علاقة المغرب مع الوهابيين. فقد تلقى العاهل المغربي نسخة من مذكرة وجهها محمد بن عبد الوهاب الى علماء تونس، كما وجهها الى أقطار سنية أخرى كمصر والشام» (1) وتدور هذه المذكرة الوهابية حول الدعوة الى اتباع السنة النبوية، واستنكار التوسل بالأموات والأولياء، واستنكار بناء القبب عليهم. وبتأثير من هذا الفكر الوهابي اتخذ المولى سليمان قراره بإلغاء المواسم، وضرورة التمسك بسنة السلف الصالح .

ومن علماء القرن التاسع عشر الذين اشتهروا باتجاههم السلفي الواضح محمد كنون (المتوفى عام 1302 - 1884 م)فقد دعا هذا العالم المصلح الى تنقية العقيدة ومحاربة البدع وكان شديدا في حملته على الطرق الصوفية وأهل البدع

(1) - التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ابراهيم حركات، ص : 82.

المستحدثة، يقول عنه محمد الحجوي «هذا الشيخ من أكبر المتضلعين في العلوم الشرعية الورعين المعلنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...كان فقيها، محدثا، نحويا، لغويا، معقوليا، مشاركا، محققا، نزيها، قوالا للحق، مطبوعا على ذلك، غير هياب ولا وجل، نزيها، مقداما، مهيبا، عالي الهمة... لا يخشى في الحق لومة لائم، يحضر مجلسه الولاة والأمراء أبناء الملوك وغيرهم، وهو يصرح بانكار أحوالهم وما هم عليه» (2).

من الشخصيات المتميزة في الاتجاه السلفي المغربي - بالاضافة الى الشيخ محمد گنون - الشيخ أبو شعيب الدكالي، (1878-1937 م) فقد طاف هذا الشيخ في بلاد المشرق، ورأى الحركات الإصلاحية الناشئة فيها، ولما رجع الى المغرب، بدأ حركته الإصلاحية التي ترمي الى ايقاظ الأمة من غفلتها، وتنبيهها الى سبيل التقدم والنهوض. لقد كان هذا الشيخ بحق "عبده المغرب" (3). ذلك أن أكثر من صفة تجمعه بموقظ الشرق، وقد استمر "يحيي النفوس بدروسه السلفية وعلمه الصحيح يبثه في صدور أبناء هذه القاعدة الرباطية طوال خمسة وعشرين سنة أو تزيد إلى أن فارق الحياة» (4).

ثم حمل لواء الدعوة السلفية بعد ذلك، الشيخ محمد بن العربي العلوي (1880-1964)، فربط بشكل واضح بين السلفية والحركة الوطنية، وكان مرجعا لرواد الحركة.

هكذا، وفي خضم هذا التيار السلفي المغربي نشأ عبد الله گنون، فجاءت مقالاته الدينية والاجتماعية والسياسية مشبعة بهذا الفكر ومبشرة به. وعلى الرغم من إعجابه برواد هذا الاتجاه في المشرق كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، فإن التأثير المباشر لهؤلاء عليه كان ضئيلا بالقياس الى التأثير غير المباشر. فقد بقي المغرب بمعزل عن هذه الحركة التي ضج لها الشرق العربي بسبب محافظته على استقلاله وسيادته، وعدم خضوعه للحكم التركي، بل إن من علماء المغرب من رفض دعوة الشيخ محمد عبده.

---

(2) - محمد الحجوي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي. ج 2. ص 303.

(3) - النعاشيب. ص 110.

(4) - عبد الله الجراري : المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي. ص 12.

ونستثني من ذلك تأثير شكيب أرسلان الذي كان مباشرا، فقد زار هذا العالم الجليل المغرب سنة 1930، بعد زيارته للأندلس. واجتمع في تطوان بجماعة من الوطنيين، كعبد الخالق الطريس، ومحمد داود، والحاج محمد بنونة، والتهامي الوزاني... إلخ، ولم تكن زيارة "أمير البيان" هذه مجرد مصادفة، وإنما كانت «تخضع لبرنامج وضعه الامير نظرا للمركز الذي يحتله بصفته المرشد لجميع الحركات الوطنية في البلاد الإسلامية عموما، والعربية خصوصا" (5).

ونشير قبل مناقشة القضايا التي تضمنتها المقالة الاصلاحية، إلى أننا أدرجنا هذا النمط من المقالة ضمن المقالات الادبية للأستاذ كنون انطلاقا من اعتبارين أولهما : أن مفهوم الاستاذ كنون للادب يشمل كل أنماط الإبداع الثقافي، من فقه وحديث وعلوم لغوية، فقد اهتم في تاريخه للادب بجميع هذه الاختصاصات، وألح في أكثر من مقام على أن الأدبية ليست حكرا على النصوص الفنية الخالصة فحسب، إذ يمكن أن نقف عليها في نصوص دينية وأخرى لغوية أو تاريخية. وقد دافع عن هذا المفهوم العام للأدب في كتاب "النبوغ" و"أدب الفقهاء"، وفي بعض مقدمات الكتب التي جمع فيها مقالاته. يقول في مقدمة "التعاشيب" عن أدبية النصوص الدينية والعلمية والفلسفية : «وأي انسان رزق ذوقا مهذبا ونفسا مطبوعة على إدراك الجمال سواء في المعاني والألفاظ أم في الذوات والصفات، يسمع حديث أم زرع وما فيه من فنون البيان وضروب الكناية... فهذا من أجمل الأدب الواقع في نصوص الدين... وكم يعجبني قول موقظ الشرق الاسلامي السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله : «الحيوان شجرة قطعت رجلها من الأرض فهي تمشي، والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الأرض فهو قائم في مكانه يأكل ويشرب وإن كان لا ينام ولا يغفل «فهذا أدب في العلم ...» (6).

إن إدراجنا للمقالة الإصلاحية ضمن المقالة الأدبية يندرج في إطار إخلاصنا لمفهوم الكاتب للأدب، هذا إضافة الى أن هذه المقالة تطفح بالصور والأخيلة، وتتوسل بطرق البيان المختلفة قصد الإبلاغ والإفهام.

---

(5) - محمد بن عزوز حكيم : وثائق سرية حول زيارة الامير شكيب أرسلان للمغرب. ص 20.

(6) - التعاشيب. ص 4 - 5.

وثاني هذه الاعتبارات يعود إلى الأهمية التاريخية والفكرية لهذه المقالة، فهي خير شاهد على مواقف الأستاذ كنون من مختلف القضايا الإصلاحية التي طرحت بإلحاح مع بداية الاستقلال، وعلى الأطر المرجعية التي تثوي خلف تلك المواقف .

ويمكن أن نصنف القضايا الإصلاحية التي تتضمنها هذه المقالات الى صنفين رئيسيين :

1 - الإصلاح الديني.
2 - إصلاح التعليم .

1 - الإصلاح الديني

إلى جانب اشتهار الاستاذ كنون بالتاريخ للادب المغربي والمحاماة عنه، فإنه اشتهر كذلك كمصلح ديني، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينافح عن العقيدة الإسلامية ضد أهل البدع والمغرضين، من مستشرقين وغيرهم. وتكاد شهرته كمصلح ديني تعادل شهرته كأديب ومؤرخ للادب، يقول عن نفسه : «إنني رجل دين بحق، ولا أعني أني رجل عبادة وصلاح، كما قد يفهم البعض فحسب، بل إني مصلح ديني، أنبه على بعض البدع التي ألصقت بالدين وليست منه، وأشير الى بعض الشوائب التي علقت بالتعاليم الدينية، من جراء التعصب، أو سوء الفهم، وأثير الاهتمام بالتمسك بروح الدين... وأنا لست متطفلا على هذا العمل، فهو ميراث آبائي وأجدادي، وهو عندي عقيدة ومنهج، وسلوك» (7). والجوانب التي انصب عليها إصلاحه الديني هي الآتية :

أ - محاربة البدع :

فمن المعارك التي خاضها في بداية سنوات الستين (1963)، معركة ضد الحركة البهائية (8)، بمشاركة مصلحين سلفيين آخرين كعلال الفاسي، وادريس

(7) - مجلة الفيصل. ع 137. يونيو - يوليوز 1988. لقاء مع الاستاذ كنون. ص 43 - 44.

(8) - تنسب هذه العقيدة الى حسين علي نوري بن عباس بن بزرك "الميزارا" (1817 - 1892)، المعروف بالبهاء، أو بهاء الله، رأس البهائية ومؤسسها، وهو إيراني مستعرب. ظاهر هذه العقيدة الاصلاح الديني والاجتماعي، وباطنها تلفيق عقيدة جديدة من اديان ومبادئ مختلفة. توفي البهاء بالبهجة، من قرى عكة، ودفن في حيفا. من آثاره : الايقان، بالفارسية. والهيكل، والالواح، والاقداس، بالعربية. انظر : الاعلام للزركلي. م 2. ص 249.

الكتاني، فقد حمل في مقالات متعددة على هذه البدعة التي ترمي الي تحريف الدين الإسلامي، وطمس معالمه، ودخل في صراع مع عبد السلام حجي، وهو أحد المنافحين عنها، كما دعا السلطة القضائية الي التشديدفي الحكم على دهاقنة هذه النحلة بمقتضيات الشريعة الإسلامية لا بمقتضى القانون الوضعي، فهؤلاء مرتدون ويلزم في حقهم ما يلزم في حق أولائك. يقول عن شعوره نحو هذه البدعة ونحو أصحابها : «إن شعوري ولا أقول (نشوتي) عند إعدام البهائيين الثلاثة، المجاهدين، الصوفيين، المحبين في الله، والذين ذابوا في ذاته، هو نفس شعور دعاة البهائية... عندما يفرقون بين المرء وزوجه، والأب وابنه، ويفصمون عرى الأخوة بين الاشقاء ويهدمون أسس المجتمع المغربي بنقض بناء الأسرة الآمنة، فإن من المعلوم ضرورة أن أول ما ينشأ عن اعتناق الشخص للبهائية، فسخ عقد الزوجية بينه وبين امرأته، وقد قامت عدة نساء بطلب الفراق من أزواجهن الذين صاروا لا يصومون رمضان، ولا يصلون الصلوات الخمس، ولا يغتسلون من جنابة، ويتحدثون عن محمد (صلى الله عليه وسلم) كما يتحدث أي ملحد أو زنديق» (9).

ب - محاربة المحرمات :

كما ناضل الأستاذ كنون بضراوة في مقالاته الإصلاحية ضد البدع والمحدثات، نجده يناضل بالضراوة نفسها في مقالاته الاصلاحية ضد المحرمات التي تفشت في المجتمع المغربي المسلم، على مرأى ومسمع من الأوساط المسؤولة. ومن هذه المحرمات الخمر التي استشرت في المجتمع إنتاجا، وبيعا، وتعاطيا. والأدهى والأمر أن انتاجها وترويجها محمي بالقوانين وتشجيع السلطة. وفي هذا الإطار نجده يسهب في الحديث عن الأضرار الاجتماعية التي تسببها الخمر، والأمراض المزمنة، والأدواء الخبيثة التي تنشأ عن تعاطيها، ويقترح استئصال هذا الداء ليس فقط عن طريق منع تداول الخمر، بل وبمراجعة السياسة التعليمية اللائكية الموروثة عن الاستعمار، فلها النصيب الأوفى في هذا الاستهتار بالقيم الدينية والخلقية، يقول في هذا الصدد : «إن الاستعمار قد انتزع فكرة الحلال والحرام من نفوس أبنائنا الذين رباهم على يده، والسياسة التعليمية التي وضعها ما تزال متبعة في أكثر خطوطها، فإذا كان هذا الذي عرضناه من نتائج المدرسة الاستعمارية لا يرضي المسؤولين عندنا - واعتقادنا أنه لا يرضيهم - فعليهم أن

---

(9) - معارك، لمن تدق الاجراس ؟. ص 262.

يأخذوا الأمر بجد، وأن يضربوا ببرامج التعليم الاستعمارية عرض الحائط، ويضعوا سياسة تعليمية جديدة قائمة على التربية الاسلامية» (10).

هكذا يصبح اصلاح سبل التعليم، وإقامته على أسس إسلامية هو سبيل الاصلاح الديني، فكيف يتصور الاستاذ كنون إصلاح التعليم ؟

2 - اصلاح التعليم :

تعتبر الدعوة إلى إصلاح التعليم على رأس المطالب التي رفعتها صفوة المثقفين المغاربة في فترة الحماية الفرنسية وبعد الاستقلال. ولا يمكننا أن نفهم هذه الدعوات الإصلاحية، التي ترددت على ألسنة هؤلاء المثقفين، وفي كتاباتهم، دون أن نضعها في سياقها التاريخي، ودون أن نتعرف على الجهاز التعليمي الذي أرساه الاستعمار في المغرب، والذي مارس فعله وتأثيره لفترة طويلة بعد الاستقلال. فقد أنشأت فرنسا في المغرب نظاما تعليميا طبقيا، يخدم المصالح الاستعمارية ويرعاها، ويضمن لها البقاء والاستمرار. وقد تجسد هذا النظام على مستوى الواقع في أربعة نماذج من المدارس هي الآتية :

1 - مدارس أوربية خاصة بأبناء الأوربيين، وهم في الغالب الاعم فرنسيون، ووظيفتها تنحصر في خدمة الوجود الاستيطاني لفرنسا في المغرب.

2 - مدارس أبناء الأعيان، والثانويات الإسلامية. وهي مخصصة للنخبة المغربية، ولأبناء الأعيان وكبار الملاكين والتجار.. ووظيفتها تنحصر في انتاج وإعادة انتاج هذه النخبة نفسها، وإعداد الموظفين الوسطاء بين جهاز الحماية وبين الأهالي.

3 - مدارس ابتدائية مهنية في بعض المناطق الحضرية والقروية، وظيفتها تكوين يد عاملة تخدم الاقتصاد الاستعماري.

4 - مدارس فرنسية بربرية غايتها بث التفرقة، ووضع مقررات الظهير البربري حيز التطبيق والانجاز (11).

---

(10) - المرجع نفسه. ص : 284.

(11) - د. محمد عابد الجابري : من أجل رؤية تقدمية لبعض مشاكلنا الفكرية والتربوية. ص 172.

هذا بالإضافة إلى التعليم الإسرائيلي، الذي رعته الحماية الفرنسية، وخصته بجملة من الامتيازات. أما جامعة القرويين التي كانت منار إشعاع في كل العالم الإسلامي في القرون الوسطى، فإنها عرفت جمودا وتخلفا بالمقارنة مع سائر النماذج التعليمية الأخرى التي بدأت تنافسها. هكذا ارتفعت الأصوات المنادية بالإصلاح وسط جهاز تعليمي طبقي ورث الكثير من المشاكل عن المرحلة الاستعمارية، وكان صوت الاستاذ كنون من بين الأصوات المتميزة التي نادت بضرورة التعجيل بإصلاح التعليم وتخليصه من مخلفات المرحلة الاستعمارية، ويمكن أن نحصر القضايا التعليمية التي انصرف إليها اهتمامه فيما يلي :

1 - إصلاح التعليم الديني.
2 - تعريب التعليم.
3 - توحيد التعليم .

1 - إصلاح التعليم الديني :

يعتبر الأستاذ كنون من أكبر المنافحين والمحامين عن التعليم الديني في المغرب، خصوصا في فترة بداية الاستقلال، وهي الفترة التي عرف فيها هذا النمط من التعليم أزمة خانقة كادت أن تعصف به . وتعتبر جامعة القرويين على رأس المؤسسات التعليمية العتيقة التي حظيت باهتمامه، فقد دعا الى إصلاحها وتحديثها شأن باقي المؤسسات العصرية التي تنافسها، حتى تستعيد دورها الإشعاعي الذي لعبته فيما قبل. وقبل أن نقف على الجوانب التي استهدفها الأستاذ كنون بالإصلاح من هذه الجامعة، نشير الى أن هذه المؤسسة حظيت بإصلاح شكلي في عهد الحماية الفرنسية، وذلك تحت ضغط وإلحاح قادة الحركة الوطنية، لكن هذه الإصلاحات كانت سطحية وجزئية ومفرغة من أي مضمون تحديثي حقيقي، هذا بالإضافة إلى أنها لا تخرج عن الغاية التي يرمي اليها الاستعمار من وراء الجهاز التعليمي الذي أرساه في المغرب، ومن غايات هذا الإصلاح الجزئي الإبقاء على الشبان المغاربة في بلادهم، ومنعهم من أي احتكاك محتمل مع نهضة المشرق وما تعج به من فكر اصلاحي، مما قد يسبب للحماية متاعب في المستقبل. وقد عبر عن هذه الغاية المسيو "بيكي" في كتابه (المغرب) الصادر عام 1920 حين قال : «لقد احتفظت الحماية، دون تردد، بالتعليم القائم في هذه المساجد، وعملت على ترميمه، وعلى إعادة جامعة فاس الى سابق إشراقها، ومن المؤكد أنه من مصلحتنا أن لا يذهب المغاربة للبحث عن

هذا النوع من التعليم (التعليم الاسلامي العالي) في الخارج، كالجامع المشهور جامع الأزهر بالقاهرة» (12).

وبدل أن يتحسن جهاز هذه الجامعة بعد الاستقلال - خصوصا وأن أغلب رواد الحركة الوطنية من خريجيها - نجدها تصل إلى قمة الانحطاط والتردي، وتعرف ركودا وجمودا أكثر من أي وقت مضى، وهذا ما عبر عنه الأستاذ كنون في تعليقه على الاحتفال بمرور أحد عشر قرنا على إنشائها، يقول عن هذه المناسبة التي هي أقرب إلى التأبين منها الى الاحتفال : «أذيع أنه سيحتفل في الربيع القادم 1960، بمرور أحد عشر قرنا على القرويين، وهذا شيء حسن لو لم تكن القرويين اليوم في وضع لا تحسد عليه، ولا أبالغ فأقول إنه وضع لم تكن عليه في أي عهد من عهود الانحطاط التي مرت بالمغرب، كما يقول الإخوان من أساتذة القرويين أنفسهم، وإنما أقول ما هو واقع، وذلك أن القرويين بعدما كانت توصف بأنها جامعة... أصبحت الآن لا تزيد على كونها كلية من كليات جامعة الرباط، بل إنني إذا أردت التدقيق قلت إنها أصبحت مكملة لكلية الحقوق. تلك الضرة القوية التي غطت على القرويين وسلبتها محاسنها جمعاء» (13).

ولم يكتف الأستاذ كنون بوصف الحالة التي آلت إليها هذه الجامعة العتيدة، وتشخيص مواطن الداء في جهازها، بل نجده يقترح بعض المطالب الإصلاحية، ويدخل في "معارك" طاحنة مع المسؤولين عن التعليم، وذلك قصد النهوض بالتعليم الديني وجعله يساير العصر. وهذا ما نقف عليه في سلسلة المقالات التي نشرها تحت عنوان : «معركة القرويين والتعليم الديني» والتي نشرها في صحف مجلات مختلفة وجمعها في كتاب "معارك" وفي كتب أخرى، وتنحصر هذه المطالب فيما يلي :

1 - ضرورة الاعتراف باستقلال جامعة القرويين، وعدم تبعيتها لأية جهة أخرى.

2 - ضرورة تطعيم التعليم الديني عموما بما يفتقر إليه من المواد الحديثة، وعلى رأسها اللغات الأجنبية، ودون المساس بروحه وجوهره وغاياته .

---

(12) - د. محمد عابد الجابري : أضواء على مشكل التعليم بالمغرب. ص 10.

(13) - عبد الله كنون : معارك. ص 198.

3 - عدم إهدار الطالب القروي المتخرج من التعليم الديني حقوقه، وعدم مزاحمته فيما يستحقه - بموجب الشهادات التي ينالها - من وظائف لا حق لغيره في توليتها : «فالقضاء، والتعليم للغة العربية والعلوم الاسلامية، والوظائف الرئيسية وكذا الإدارية في وزارة الأوقاف، ووزارة العدلية، وغير ذلك كله من حق الطالب القروي. وما انتزعت منه الا لما وقع الحيف عليه، وجعلت السادة للقانون الأجنبي على الشريعة الإسلامية التي هي شريعة البلاد، وقدم حملة شهادات الحقوق على حملة شهادة الشريعة، وأنف الاسلام راغم» (14).

2 - تعريب التعليم :

من المبادئ التي ترددت على لسان المنادين بإصلاح التعليم، والتي اتخذت أساسا لما يسمى بالسياسة التعليمية الجديدة، مبدأ التعريب. الى جانب المغربة والتعميم والتوحيد. ولم تكن المطالبة بالتعريب وليدة الظروف المستجدة بعد الاستقلال، بل يمكن القول إن هذا المبدأ طرح منذ عهد الحماية، من قبل رواد الحركة الوطنية. فقد واجهت اللغة العربية بعد صدور الظهير البربري حملة شعواء. وكانت هدفا كبيرا من أهداف الاستعمار الفرنسي. وكان الأستاذ كنون من الأوائل الذين تصدوا للفرنسة الفكرية ودعوا إلى ضرورة تعريب التعليم والادارة فقد كتب في جريدة "الأطلس" يرد على ادعاءات المستشرق "كولون"، وانتهى الى أن «الشعب المغربي جد متشبث بعربيته، ويقدمها في الطلب على كل لغة أخرى، يساعده في ذلك أساتذة المعاهد الدينية وعلى رأسها "القرويين" (15).

كما أكد في مناسبات أخرى صلاحية اللغة العربية لتعليم جميع العلوم في مراحل الدراسة كلها، وقدرتها على التعبير عن جميع ضروب النشاط الفكري. وقد أبانت الحجج التي ساقها الأستاذ كنون في المعركة التي خاضها من أجل التعريب، عن بعد نظره، وعن حسن تفهمه للمشاكل التي يتخبط فيها النظام التعليمي بالمغرب وهذه الحجج هي الآتية :

أ - تعريب التعليم يعتبر تأكيدا على الانتماء القومي للمغاربة. وأي تخل عن اللغة العربية، بافساح المجال للفرنسة والتغريب، يعتبر تخليا عن

---

(14) - المرجع نفسه. ص : 196.

(15) - التعاشيب. ص 126. وجريدة الاطلس. ع 1.

تاريخ مجيد، وعن مقوم من مقومات تماسك الشعوب العربية. كما أن الإمعان في فرنسة التعليم هو خطوة أولى في سبيل الاندماج في المجتمع الفرنسي، وينتهي الأستاذ كنون إلى تأكيد التمسك باللغة العربية ضدا على كل التقولات والادعاءات المغرضة، يقول : «ولذلك فنحن لا نقول إلا أننا نريد العربية، وبكل وجه، سواء كانت بهذه الصفة التي يصفها بها عارفوها، المومنون بها، أم لم تكن. بل حتى لو كانت أحط لغات العالم، وأقصرها عن التعبير عن أي شيء فإننا نريدها، ولا نبغي بها بديلا، لماذا ؟ لأنها لغتنا القومية وكفى !» (16).

ب - تعريب التعليم، وإرساؤه على اللغة القومية، هو سبيل الخروج من التخلف «فالتعليم باللغة الأجنبية يتناقض وسياسة التنمية الاقتصادية التي تنهجها الحكومة وتكاد تخصص لها كل نشاطها، وإذا كان أول ما يخطر بالبال في هذا الصدد هو شهادة البنك الدولي للانشاء والتعمير، التي أوصت بتعريب التعليم، لأن الازدواجية والفرنسة مما يهدم كل جهد يبذل في سبيل التنمية، فإننا نعول على أدلتنا الخاصة في هذا الصدد، وهي مما يدركه كل أحد بتأمل بسيط» (17).

ج - تعريب التعليم طريق التنمية الثقافية، ذلك أن التعليم باللغة الأجنبية قضاء مبرم على التنمية الأدبية والثقافية، فالأدمغة التي تتكون بلغة أجنبية كثيرا ما تتنكر لتراثها وثقافتها. فالنتيجة التي ننتهي إليها من الفرنسة هي «أننا أضفنا متعلما إلى القوم الذين درس بلغتهم، وتثقف بلسانهم، مع تكوين عقليته وطبعها بطابع ما تحمله كل لغة من التعصب لأهلها، والتعالي على غيرهم» (18).

د - التعليم بالفرنسية تعليم لائيكي :

إذا كانت الفرنسة تتنافس مع الانتماء القومي، وتعوق التنمية الاقتصادية والثقافية، فإنها تتناقض كذلك مع الشعور الديني، فهي سبب المروق عن الدين، والشك في القيم الاسلامية النبيلة، هكذا «فالفرنسية التي اخترناها لغة تلقين في تعليمنا، أول ما تتميز به أنها لغة لائيكية ، تفصل الدين عن الدولة

(16) - معارك، التعريب ولا شيء غير التعريب، ص 231.

(17) - معارك، لماذا نطالب بالتعريب. ص 243.

(18) - المرجع نفسه. ص : 242.

ومصالحها العام، وأهم هذه المصالح التعليم. فتعليم أهلها مبني على استبعاد الفكر الديني وعدم التعريج عليه بحال، وإن لم يكن على تجاهله النظر إليه بعين الشك والارتياب» (19).

وهكذا فأمام هذه الحجج الدامغة التي ساقها الأستاذ گنون في سبيل مطالبته بتعريب التعليم، يغدو هذا التعريب ضرورة حتمية للخروج من الأزمة الاقتصادية والثقافية، ولتأكيد وترسيخ الانتماء إلى العروبة والإسلام.

3 - توحيد التعليم :

كانت الغاية من هذا المبدإ عندما اطلق في بداية الاستقلال، إنشاء مدرسة مغربية وطنية واحدة، تذوب فيها كل أنماط التعليم التي تواجدت خلال عهد الحماية، واستمرت إلى بداية الاستقلال، وقد كان من المفروض انطلاقا من هذا المبدإ القضاء على سائر الأنماط التعليمية التي خلفتها المرحلة الاستعمارية والتي كانت تخدم مصالحها الاقتصادية والايديولوجية، كالتعليم الأوربي، والتعليم الاسرائيلي، كما كان من المفروض أيضا التوفيق بين أنماط التعليم الوطنية الأخرى، كالتعليم الرسمي العصري والتعليم الاصيل، والتعليم الحر العربي. لكن الملاحظ هو أن هذا المبدأ بقي مجرد شعار أجوف، خال من أي طابع إجرائي، إذ استمرت جميع هذه الأنماط التعليمية فيما بعد الاستقلال ولمدة طويلة، بصورة تعكس الطبقية التي يعرفها المجتمع المغربي نفسه .

والمحاولة الوحيدة التي سجلت في اطار تطبيق هذا المبدإ، هي محاولة إدماج التعليم الأصلي في التعليم العمومي< «فبعد أن عرف نموا واتساعا في السنوات الأولى من الاستقلال (توسيع قواعده الابتدائية والثانوية)، وإنشاء مراكز جديدة)، تقرر في التصميم الخماسي الأول (1960 - 1964) العمل على حذفه تدريجيا، بأن لا يقبل التلاميذ في دوره الابتدائي، وذلك ضمن خطة عامة، من أجل تحقيق التوحيد» (20).

وقد ضج رواد الفكر الإصلاحي، وخريجو القرويين، لهذا الإدماج الذي يستهدف في رأيهم أكثر النماذج التعليمية ارتباطا بتراثنا الإسلامي والقومية

---

(19) - المرجع نفسه. ص : 243.

(20) - د. محمد عابد الجابري : أضواء على مشكل التعليم بالمغرب. ص 75.

العربية، على حين بقيت نماذج أخرى من التعليم تخدم المصالح الاستعمارية، بل والصهيونية، كالتعليم الإسرائيلي الذي لم يمسسه مبدأ التوحيد. يقول الاستاذ كنون في هذا الصدد : «فما للتوحيد وأبطال التوحيد يقفون مكتوفي الأيدي أمام التعليم الفرنسي والإسباني والإيطالي والأمريكي المنتشر في البلاد، والذي يبث في نفوس ناشئتنا الفكرة الاستعمارية...» (21).

ويقترح الأستاذ كنون أن ينصرف مفهوم هذا المبدإ الى توحيد الأهداف والغايات المقصودة من التعليم، لا الى المواد والبرامج. ذلك أن كل نوع من أنواع التعليم الوطني يسد حاجة لا يمكن أن يسدها غيره.

أما التوحيد بالمفهوم المقترح في السياسة التعليمية فهو : «كقميص عثمان ذريعة لإضعاف التعليم الإسلامي، وتنقيصه من أطرافه، ريثما تسنح الفرصة لإزالته من الطريق... فقد عني به كما قلنا وبالمفهوم المقلوب الذي يعطونه إياه، وهو الإدماج» (22).

ونحب أن نشير في ختام حديثنا عن المقالة الإصلاحية، إلى الخصوصية التي تميز بها الفكر الإصلاحي عند الاستاذ كنون، فأغلب القضايا الإصلاحية التي طرحها في مقالاته تسعى إلى التأكيد على عروبة وإسلام المغاربة. فأي إصلاح كيفما كان نوعه، لا يمكن أن يتم إلا في إطار هذه الثنائية : (عروبة، اسلام). وهذا الالتحام والتكامل بين العروبة والإسلام هو مايميز الفكر الاصلاحي عند الاستاذ كنون، وعند سائر السلفيين المغاربة بالمقارنة مع الفكر الاصلاحي المشرقي. وهذا الالتحام راجع الى سببين رئيسيين :

أ – عدم تبعية المغرب للخلافة العثمانية، وحفاظه على استقلاله التام عنها، بل دخوله أحيانا في صراع معها، في الحدود الشرقية.

ب – خلو المغرب من أية أقلية مسيحية أو غيرها، باستثناء اليهود. فغياب هذين العاملين في المغرب ساهم في ابعاد أي تعارض بين العروبة والإسلام، هذا التعارض الذي عانى منه الفكر النهضوي في المشرق بسبب حضور

---

(21) – مبارك، توحيد التعليم أو قميص عثمان. ص 195.

(22) – المرجع نفسه. ص : 194.

العاملين السابقين. يقول الأستاذ الجابري في هذا الصدد : «إن غياب هذين العنصرين من المحددات التي تؤطر إشكالية : الأصالة/الحداثة، في المغرب قد أبعد من الساحة الفكرية والأيديولوجية ذلك التعارض بين "الاسلام" و"العروبة" الذي عانى منه الفكر النهضوي في المشرق، باعتبار أن "الإسلام" كان يعني الارتباط بالخلافة العثمانية والجامعة الإسلامية - الشيء الذي كانت ترى فيه الأقليات الدينية غير الاسلامية هضما لحقوقها واستبدادا للاغلبية المسلمة عليها - وبالمقابل "فالعروبة" كانت تعني الخروج على الخلافة الإسلامية والتحرر من الحكم التركي واستبدال الجامعة الاسلامية بالقومية العربية» (23).

ونشير في ختام هذه الأنماط الخمسة التي تتوزع المقالة الأدبية عند الأستاذ كنون إلى جملة من الملاحظات نلخصها فيما يلي :

1 - تميزت المقالة الأدبية عنده بالتنوع في موضوعاتها وفي القضايا التي تطرحها. فقد أتاحت له ثقافته الموسوعية التي تطبع كل إنتاجه، أن يخوض في مجالات متعددة، وموضوعات متباينة، فكتب في النقد، واللغة، والإصلاح الاجتماعي والسياسي، ودخل في سجال مع بعض معاصريه حول قضايا الدراسة الأدبية وشروطها. وكان تنوع مقالته الأدبية هذا شاهدا على موسوعيته ومشاركته في أغلب مناحي الدراسة الأدبية .

2 - مما ميز مقالات الأستاذ كنون غلبة الجانب الموضوعي على الجانب الذاتي، فقد كان اهتمامه فيها منصبا على جانب الدراسة وما تتطلبه من تمحيص وبحث واستقصاء، الشيء الذي جعل شخصيته تتوارى خلف الموضوع والفكرة، ولا تكاد تظهر إلا لماما، بل إن المقالات الذاتية التي يطبعها التعبير الحر الطليق تكاد تنعدم في انتاجه .

3 - اختلف أسلوب الأستاذ كنون في معالجة موضوع هذه المقالات اختلافا بينا. فقد تميزت مقالاته النقدية بتعليل الأحكام وتفسيرها، وأبانت عن تأثره بمعايير القدماء ونسجه على منوالهم، سواء أكان ذلك على مستوى المقاييس النقدية أم على مستوى المصطلح. على حين استدعت مقالاته

---

(23) - الانتلجانتسيا في المغرب العربي. (عروض مجموعة باشراف : د. عبد القادر جغلول). ص 49 - 50.

السجالية أسلوب الحجاج والجدل، ومقارعة الحجة بالحجة، والتوسل بأساليب السخرية والتهكم. كما تميزت المقالات اللغوية بطغيان طابع الدرس والتمحيص والبحث، وبوضوح الغاية والهدف من الدراسة اللغوية. وفي جميع هذه المقالات نآى بأسلوبه عن قيود الصنعة والتكلف والزخرف البديعي. وهذه السمات الأسلوبية تشكل مؤشرا مهما على التطور الذي لحق الكتابة النثرية في ارتباطها بالصحافة، عند الأستاذ گنون، وعند سائر المقاليين من ابناء جيله .

الباب الثالث

الأستاذ كنون محققا للتراث

تمهيد :

يعتبر التحقيق من أكثر الممارسات الثقافية لصوقا بالتراث وبالماضي المعرفي والفكري لأية أمة من الأمم، ومن ثم فهو تعامل مباشر مع التراث، بكل ما يطرحه نقل هذا التراث إلى الحاضر من تساؤلات، وما يثيره من نقاشات، قد تصل أحيانا إلى حد التناقض، تبعا لاختلاف تصورات ومواقف المثقفين من هذا التراث نفسه. إن تحقيق نصوص تضرب بجذورها في الماضي، وبعثها إلى حيز الوجود، ونقلها من سياق معرفي أنتجت فيه إلى سياق آخر يعيد قراءتها ومساءلتها وإنتاجها، ليس بالأمر الهين ولا باليسور لأغلب الدارسين، ذلك أن المشكل الأساسي في عملية تحقيق التراث يكمن في نوعية العلاقة التي يقيمها المحقق مع نصوص توجد بينه وبينها مسافة زمنية، نصوص محكومة بأطر مرجعية تاريخية ومعرفية مغايرة للأطر المرجعية التي يتحرك فيها المحقق، ويعيد قراءة التراث في ظلها، فإذا كانت نصوص التراث استجابة لواقعها، وأجوبة عن أسئلة طرحت في هذا الواقع، فإنها بالنسبة للمحقق والمؤرخ تستحيل إلى وثيقة عن الماضي، يعاد بعثها بناء على حاجات يطرحها الحاضر، ومن ثم لن يسلم عمل المحقق والمؤرخ من الانتقائية، مهما حاولا ادعاء الموضوعية، ومهما تحصنا بأطر منهجية تقي من الزلل، وتطمح إلى تحقيق حد أقصى من الكفاية التفسيرية. إن كل محقق يعود إلى ذلك الماضي الذي يجد فيه ذاته الفردية والجماعية، ذلك الماضي الذي يهادن الحاضر ويدخل معه في مصالحة، وفي مقابل هذا، يغض الطرف عن النصوص التراثية التي لا تستجيب لهذه المعايير. هذا بالإضافة إلى أن المحقق لا يقف دائما عند حدود نشر النصوص كما وضعها صاحبها بل يتجاوز ذلك أحيانا إلى التجرؤ على المتن المحقق، ووضعه موضع سؤال، واستفزاز مؤلفه على الرغم من كونه صوتا لاذ بالصمت (1) وذلك عن طريق القراءة التي يقدمها على هامش المتن.

لكن على الرغم من هذه الصعوبات التي يثيرها تعامل المحقق مع التراث، فإن التحقيق يبقى أقل الممارسات الثقافية تعسفا على هذا التراث، وأقربها إلى الموضوعية والحياد. إذ الغاية منه في آخر المطاف تقديمه للقراء وعموم الدارسين، في صورة أقرب الى حقيقته .

(1) – ميشيل فوكو : حفريات المعرفة. ترجمة : سالم يفوت. ص 8.

جاء في لسان العرب : «حَقَّ الأمر، يحق ويحَقّ حقًا وحقوقا : صار حقا وثبت، وحقّه وأحَقّه : أثبته وصار عنده حقا لا يشك فيه. وحقّه وحققه : صدقه، وحقق الرجل : إذا قال : هذا الشيء هو الحق، كقولك : صدق. ويقال أحققت الامر إحقاقا، إذا أحكمته وصححته» (2).

فالتحقيق انطلاقا من التعريف اللغوي لابن منظور: هو الإثبات والإحكام والتصحيح، وفي الاصطلاح الاجتهاد في نشر المخطوطات وإخراجها أقرب ما تكون إلى الصورة التي كتبها مؤلفها، دقة وسلامة، مما يجعل الإفادة منها متأتية ممكنة، ولن يتم ذلك إلا بسلوك الطريق العلمية الخاصة بالتحقيق، والكتاب المحقق : «هو الذي صح عنوانه، واسم مؤلفه، ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه» (3).

ولا يوصف التحقيق بالعلمية إلا بتوافر شرطين أساسيين : تأصيل المتن، وقرائته قراءة صحيحة مضبوطة. المقصود بالتأصيل البحث عن الأصول الخطية للنصوص والمقابلة بينها، والتنبيه في الهامش إلى الاختلافات والزيادات، والنقصان، برموز حرفية ترمز للنسخ. أما القراءة فترتبط باعجام الحروف غير المعجمة مع استحقاقها الإعجام، وشكل الكلمات بوضع الحركات الثلاث، والسكون والشدة والهمزة والوصل. هذا بالإضافة إلى الشرح والتخريج والتعليق، بعبارة مركزة:إن ما يسعى إليه كل محقق يكمن في أمرين اثنين : «تأصيل النص، أو بعبارة أخرى، دراسة رواياته الخطية المختلفة، ودرجة صلة كل منها بصاحبه. ثم ترجيح أعلاها. ومن جهة ثانية، قراءة النص قراءة نقدية تسعى إلى خدمة الرواية الخطية المرجحة... وذلك بواسطة الضبط والشرح والتخريج والتعليق...» (4).

وقد عرف تحقيق التراث في المغرب منذ نشأته إلى الآن ثلاثة اتجاهات رئيسية، تتباين فيما بينها من حيث المنهج المتبع، والمادة المختارة موضوعا للتحقيق. كان أولها : اتجاه المستعربين الفرنسيين والإسبان. وثانيها : اتجاه ضم

(2) - ابن منظور : لسان العرب. ج 10. ص 49. دار صادر. بيروت.

(3) - تحقيق النصوص ونشرها : عبد السلام هارون. ص 33.

(4) - الاستاذ محمد الكنوني تحقيق دواوين الشعر المغربي في الدراسات الجامعية بالمغرب. مقال في جريدة الحوار الاكاديمي والجامعي. ع 4. ابريل 1988. ص 2.

ثلة من الدارسين المغاربة، يختلفون في نوعية النصوص التي انصب عليها اهتمامهم، غير أنهم يتقاربون من حيث المنهج المتبع في التعامل مع تلك النصوص. ومن رواد هذا الاتجاه نذكر : عبد الله كنون، ومحمد الفاسي (5)، وعبد الوهاب بن منصور (6)، والتهامي الراجي (7)، وآخرين، وهذا الاتجاه يشكل حلقة بين اتجاه المستعربين والإتجاه الثالث والأخير الذي تبلور في حرم الجامعة المغربية (8). فقد اتجهت أنظار زمرة من الأساتذة الأفاضل، منذ بداية سنوات السبعين الى ضرورة تحقيق النصوص المغربية والاشتغال بدراستها ضمن الرسائل الجامعية، إذ من العبث أن نحاول التأريخ للادب المغربي ونصدر الأحكام في حق الشعراء والأدباء... في غياب يكاد يكون مطلقا للنصوص الإبداعية والتاريخية.

وقد ارتأينا أن نقف في هذا التمهيد عند الاتجاه الأول فقط، وهو اتجاه

---

(5) - اتجهت جهود الاستاذ محمد الفاسي الى تحقيق مجموعة من الرحلات نذكر منها :* الإكسير في فكاك الاسير، لمحمد بن عثمان المكناسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1965. * الرحلة الإبريزية الى الديار الانجليزية. مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس 1967. * أنس الساري والسارب. لابن مليح السراج، فاس 1968. * رحلة العبدري المسماة :"الرحلة المغربية"، لابن عبد الله محمد بن محمد العبدري، الرباط 1968. * كما حقق بالاشتراك مع : أدولف فور رحلة : "أنس الفقير وعز الحقير"، المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965.

(6) - اتجهت اهتمامات عبد الوهاب بن منصور الى تحقيق كتب التاريخ، ومن الكتب التي حققها نذكر :
* "روضة النسرين في دولة بني مرين". ابن الاحمر. المطبعة الملكية. 1962. * "روضة الآس". المقري. المطبعة الملكية. 1964. * "جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس". علي الجزنائي. المطبعة الملكية. 1967. * "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية". ابن ابي زرع. دارالمنصور. 1972 ... الخ.

(7) - اتجهت اهتمامات الأستاذ التهامي الراجي إلى النصوص اللغوية وكتب القراءات، وفي هذا السياق حقق : * "المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب"، لجلال الدين السيوطي. مطبعة فضالة. * "إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس"، لمحمد بن الطيب الشركي. ج 1. ت : عبد السلام الفاسي والتهامي الراجي. مطبعة فضالة، 1983. * "التعريف في اختلاف الرواة عن نافع"، لابن عمرو عثمان بن سعيد الداني. مطبعة فضالة، 1982.

(8) - بالنسبة لهذا الاتجاه يرجع الى عرض قيم للاستاذ محمد الكنوني بعنوان "تحقيق دواوين الشعر المغربي في الدراسات الجامعية بالمغرب". الحوار الاكاديمي والجامعي. ع 4. ابريل 1988.

المستعربين الفرنسيين (9)، لأهميته القصوى، ولكونه يشكل اتجاها تأسيسيا مهد لما جاء بعده، ولفت عيون الدراسين المغاربة إلى ما تزخر به المكتبات الوطنية من نفائس المخطوطات في مختلف حقول المعرفة، وإلى ضرورة التعجيل بتحقيقها وإنقاذها من الضياع.

ونشير في البداية إلى أن اهتمام المستشرقين والمستعربين بالتراث العربي بدأ منذ القرن الثاني عشر الميلادي، إثر التمهيد للهجمة الاستعمارية، ونتيجة للاحتكاك مع الغرب. ولم يكن هذا الاهتمام في بدايته يهدف إلى إشباع فضول ثقافي ومعرفي بقدر ما كان نتيجة «المطامح التجارية الاقتصادية، التي تملكت، خصوصا، البابوية وسادة المدن التجارية الإيطالية أنذاك تجاه الشرق بخصبه الاقتصادي والتجاري والعلمي الوفير» (10).

ولم يكن هذا الاهتمام متوازنا في الزمان والمكان، فالحقب والفترات المدروسة كانت مرتبطة في الأغلب بلحظات الازدهار الحضاري والثقافي، كما أن مراكز حضارية مثل العراق والشام ومصر والأندلس حظيت بالنصيب الأوفر من هذا الاهتمام. كما أن هذه الحركة على مستوى البحث العلمي لم تكن منسجمة ومتجانسة، فهناك مستشرقون بقوا أوفياء للمنطلقات النظرية والايديولوجية التي وجهتهم أول مرة، بينما رفض آخرون هذه الخلفيات وأخلصوا للبحث العلمي النزيه فحققوا كتب التراث العربي والإسلامي، وفهرسوا المكتبات، ووضعوا اللبنات المنهجية الأولى للتحقيق والبحث العلمي، لقد كان لهم على العموم وبالرغم من الانتقادات الموجهة لبعضهم «أثر في أساليب تعليمنا، وتحقيق تراثنا، وترجمته ودراسته والتصنيف فيه، وتقييمه بالنسبة إلى التراث العالمي، على جرأة في التفكير والتقدير والجهر بالحق أو ما يعتقد حقا، ثم المضي في طريق لا يعرف سالكه الملل ولا الإخفاق ولا الاتجار، مما طبع حياتنا الفكرية بطابع من الجدة، وقد ظهر ذلك الأثر بينا في مناهج التعليم ونشر الذخائر» (11)، ولم تتناول الدراسات الاستعرابية المغرب في بداية الأمر إلا من حيث ارتباط

---

(9) – يرجع بالنسبة لحركة الإستعراب الاسباني التي لن نقف عندها، الى مقال مترجم عن الاسبانية بعنوان "تأملات في الاستعراب الاسباني" لـ : خوان غويتصولو. في العلم الثقافي، بتاريخ 1984/12/15، ع 722.

(10) – د. طيب تيزيني : من التراث الى الثورة. ط 3. دار دمشق. 1979. ص 527.

(11) – نجيب العقيقي : المستشرقون. ج 3. ص 602.

تاريخه وأدبه بالأندلس أو بالشرق، فالعديد من المستعربين كانوا يذهبون إلى أنه لا وجود لأدب مغربي مستقل (12)، ومن هذا المنطلق انصب اهتمام بعضهم على الكتب التاريخية (13) المغربية باعتبارها مصدرا مكملا لدراسة تاريخ الحضارة الإسلامية.

وقد ارتبطت حركة الاستعراب في المغرب بمؤسسات البحث العلمي التي أنشأتها الحماية الفرنسية، وعلى رأس هذه المؤسسات معهد الدرسات العليا المغربية الذي أسس سنة 1920، وقد حل هذا المعهد محل المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية التي أنشأها ليوطي سنة 1912، وقد عمل المستعربون في ظل هذه المؤسسات كباحثين ومحققين ومترجمين، يقدمون تقارير شهرية حول ما أنجزوه من أبحاث كما كان معهد الدراسات العليا المغربية يعقد مؤتمرات سنوية كان أولها في 9 يونيو 1920، وكان الماريشال ليوطي، المقيم العام آنذاك يحضر بعض جلساتها. ومما جاء في خطابه في المؤتمر الثاني لهذا المعهد: «وهكذا يتعاظم مدى أعمالكم حيث لم يعد مجموعة للبحث العلمي فقط، بل مكانا للسلم الاجتماعي، وملجأ دافئا للوحدة بين أمتين نبيلتين. سيكون التعارف الودي القاعدي الأقوى للمستقبل الرائع الذي نحلم به لهذا المغرب الذي استعاد شبابه» (14).

وتحت إشراف هذا المعهد أصدر هنري باسي (15) H. Basset في باريس مجلة هسپريس: Hespéris، مرة كل ثلاثة أشهر ابتداء من سنة 1921، وهي تضم حصيلة البحوث الاستعرابية بالمغرب ومختلف البحوث المتعلقة بالعلوم الانسانية، بالإضافة إلى النصوص التي تنشر لأول مرة تحت رعايتها.

---

(12) – من هؤلاء: ليڤي – بروفانسال، هسپريس. المجلد 2. 1922. ص 441.

(13) – من هذه الكتب على سبيل المثال: * "البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب"، لابن عذاري، ج 1 - 2. نشر: دوزي، ليدن. 1848 - 1851. * "مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية". نشر ليڤي – بروفانسال. الرباط 1941. * "جنى زهرة الاس في بناء مدينة فاس"، للجزنائي. تحقيق: الفرد بيل. الجزائر 1922. * "اختصار الاخبار بما كان بثغر سبتة من الآثار". نشر ليڤي – بروفانسال، هسپريس. ج 12. 1931.

(14) – هسپريس. المجلد 1. 1921. ص 441.

(15) – انظر في ترجمته: المستشرقون. نجيب العقيقي. ج 1. ص 289.

وفي المجال نفسه، أصدرت إدارة الحماية الإسبانية في المنطقة الشمالية مجلة تمودا Tamuda في تطوان سنة *1953* ، وقد توقفت وصدرت فيما بعد مع هسپريس في مجلد واحد وقبل أن نقف عند بعض النماذج من تحقيقات المستعربين الفرنسيين، سنشير بإيجاز إلى القواعد الأساسية لتحقيق ونشر وترجمة النصوص العربية المخطوطة، كما يتصورها هؤلاء من خلال الكتاب الذي نشره "ريجيس بلاشير" و" سوڤاجي" تحت عنوان : قواعد نشر وترجمة النصوص العربية (16) ، ويهمنا التأكيد على البنود الواردة فيه (17) حتى نتبين الفرق بين اتجاه هؤلاء المستعربين في التحقيق والاتجاه الذي أعقبهم، والذي يمثل الأستاذ گنون أحد رواده. فمن هذه البنوذ :

1 - يجب الاعتماد على جميع النسخ المخطوطة المتوافرة، مع ضرورة إخضاعها لعملية التسلسل :

وذلك بتحديد النسخة الأم والنسخ الثانوية أو الفرعية.

2 - ينبغي ان يكون الجهاز النقدي Apparat critique بالفرنسية ويضم مختلف الحواشي والتعليقات.

3 - العلامة الأساسية من علامات الترقيم هي النقطة، وتوضع حيث توجد قطيعة في عرض الفكرة أو تطويرها، أو في البناء النحوي، أما علامات الترقيم الأخرى فليست بذات أهمية.

4 - ينبغي شكل الأبيات الشعرية والآيات والأحاديث والأمثال وما عدا ذلك يشكل إذا خيف الالتباس .

5 - ينبغي الإشارة إلى كل الظواهر اللغوية والنحوية والعروضية المتميزة في النص والجديرة بالاهتمام.

6 - الفهارس الأساسية التي ينص عليها بلاشير، هي فهرس الأعلام،

(*16*) - R. Blachère et J. Sauvaget : Règles pour édition et traduction de textes arabes. Paris 1953.

(*17*) - أصدر معهد الدراسات العليا المغربية كتيبا سنة *1955* حول قواعد النشر يحيل فيه على كتاب بلاشير المذكور.

وفهرس الكتب المذكورة في المتن، وفهرس القوافي مرتبة حسب البحور الشعرية.

وسنحاول استجلاء التطبيق الفعلي لمنهج المستعربين الفرنسيين من خلال النماذج الآتية :

1 - «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» لمؤلف أندلسي مجهول، عاش في القرن 8 هـ. تحقيق : ي.س. علوش، الرباط، 1936.

2 - «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذارى المراكشي، تحقيق ليفي - پروڤانسال و ج. كولان، ليدن 1948.

3 - «التشوف إلى رجال التصوف» لابن الزيات، تحقيق أدولف فور، الرباط 1958.

1 - "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية"
قام بتحقيق هذا الكتاب ي.س. علوش، سنة 1936، الرباط. وكان قد حقق قبل هذه الفترة كتاب : «درة الحجال في غرة أسماء الرجال» لأحمد بن القاضي 960 هـ/ 1553 م - 1025 هـ/ 1616 م) سنة 1934.

وعلوش عمل أستاذا بمعهد العلوم العليا المغربية، ومحافظا بالقسم العربي من الخزانة العامة.

وهذا الكتاب يتناول أخبار الدولتين المرابطية والموحدية، وشيئا من تاريخ بني مرين، على الرغم من أن عنوانه يوحي بأن موضوعه مقتصر على تاريخ مراكش فقط. أما مؤلفه فمجهول وكل ما عرف عنه أنه أندلسي ممن عاشوا في القرن الثامن الهجري، فقد صرح فيه أنه انتهى من تأليفه يوم الخميس، ثاني عشر ربيع الأول، لسنة 783 هـ.

وقد نشر هذا الكتاب أول مرة بتونس سنة 1910، على يد البشير الفورتي. وينبه علوش في مقدمته إلى ما تضمنته هذه النشرة الأولى من تحريف وتصحيف، كما يشير من جهة أخرى إلى الخطإ الذي وقع فيه المحقق

التونسي حيث نسب الكتاب لابن الخطيب. فأسلوب الكتاب ليس أسلوب ابن الخطيب، هذا اضافة أن المؤلف انتهى من تأليفه له ثمان سنوات بعد وفاة ابن الخطيب. وينتهي علوش إلى ان مؤلفه عاش في بلاط غرناطة خلال القرن الثامن الهجري، ويرجح أن يكون أبا عبد الله محمد بن أبي المعالي بن السماك المالقي. أما النسخ التي اعتمدها علوش في نشرته فهي الآتية :

1 - طبعة تونس، وقد جعلها متنا لطبعته محاولا تنقيتها من الأخطاء.

2 - مخطوطة "ليفي - بروفا نسال".

3 - مخطوطة خزانة جامعة الجزائر.

4 - مقطعان من هذا الكتاب نفسه نشرهما "دوزي" في بعض دراساته.

وعلى الرغم من أن المحقق أشار في المقدمة إلى أنه اعتمد في تأصيله للمتن على طبعة تونس كأصل، فإن المتأمل في الهوامش يدرك بسهولة أنه لم يعتمد نسخة معينة أصلا لنشرته، ذلك أنه يثبت في هذه الهوامش كل القراءات المختلفة، كما يشير إلى السقط ومواضعه. وباستثناء هذه الإشارات إلى القراءات المختلفة، فإننا لا نجد هوامش لتخريج الأشعار والنصوص النثرية المختلفة كالرسائل وغيرها، أو تعليقا على الإشارات التاريخية التي يزخر بها النص.

ونشير الى أن المحقق لم يعر علامات الترقيم أي اهتمام يذكر، فالنص يكاد يخلو منها، ولا فصل بين الفقرات، وإنما يميز طباعيا العناوين الأصلية فحسب، كما أن النص خال من الشكل ما عدا الضمة في المبني للمجهول والشدة.
وقد صنع المحقق لهذا الكتاب ثلاثة فهارس : الأول في أبواب الكتاب والثاني في أسماء الرجال، والثالث في أسماء الأماكن والقبائل، وهي مرتبة حسب النظام الألفبائي.

ونشير في الأخير إلى أن هذا الكتاب أعيد تحقيقه سنة 1977، من قبل الأساتذين : سهيل زكار وعبد القادر زمامة، وذلك بالاعتماد على ثلاث نسخ خطية..

2 - "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري. حقق هذا الكتاب في فترات متباعدة، وعلى شكل قطع وأقسام متناثرة، وذلك راجع إلى الاكتشاف المتواصل لأجزائه. فقد حقق "دوزي" سنة 1848 الجزءين الأول والثاني، ثم حقق "ليڤي - بروفانسال" سنة 1930 الجزء الثالث، ثم أعاد "كولان" و "بروفانسال" تحقيق نشرة "دوزي" سنة 1848، ثم قسم ثالث من الكتاب حققه سنة 1963 المستعرب الإسباني "هويثي ميراندا" بمساعدة محمد بن تاويت وابراهيم الكتاني، ثم حقق إحسان عباس قسما رابعا سنة 1987.

"ليڤي بروفانسال" (18) (1894-1956) يعتبر من أهم المستعربين الفرنسيين وأكثرهم اهتماما بتحقيق نصوص التراث المغربي المخطوط، وخاصة المتعلق منه بتاريخ المغرب والأندلس، ولد بالجزائر وبها درس اللغة العربية، انتدبه المشير ليوطي للعمل في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط سنة 1919، وعين أستاذا فيه سنة 1920 ثم مديرا له (1926-1935).

أما "جورج كولان" (1893-1977) (19) فهو من أساتذة مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وأعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وقد اشترك مع "بروڤانسال" في تحقيق الجزء الأول والثاني من كتاب " البيان المغرب".

وقد تم تحقيق هذين الجزءين بالاعتماد على نشرة "دوزي" كأصل، بينما اعتبر المحققان المخطوط الذي عثر عليه "كولان" نصا مساعدا لتصحيح نشرة "دوزي"، ولذا جاءت حواشي هذين الجزءين غنية بالقراءات المختلفة الناتجة عن مقارنة مخطوطة "ليد" التي اعتمدها "دوزي"، بمخطوط "كولان".

ولم يكتف المحققان بإثبات قراءات "دوزي"، بل يناقشانها ويصححانها، كما هو الحال في الصفحة 118 من الجزء الأول، إذ نقرأ في المتن : بإعداد السير والسرى بالليل، ونقرأ في الهامش : تصحيح دوزي : بإغذاذ، يظهر أنه غير صحيح، لأن هذه العبارة متواترة عند المؤرخين العرب المغاربة. والشيء نفسه

---

(18) - يرجع في حياة بروڤنسال الى : المستشرقون. لنجيب العقيقي. ج 1. ص 293. * مقال تابيني في مجلة هسپيريس. المجلد 43. 1956. ص 251. * مجلة "الاندلس". المجلد 21. 1956. * مجلة "أرابيكا". ع 3. 956.

(19) - يرجع في ترجمته الى : المستشرقون. لنجيب العقيقي. ج 1. ص 291. و - هسپيريس - تمودا. المجلد 17. سنة 1977/76. ص 5 - 45.

نجده في الصفحة 131 من الجزء الأول. كما تصحح بعض الألفاظ بالرجوع إلى المعاجم مثل معجم "دوزي" كما نجد في الصفحة 110 من الجزء الأول.

والإشكال الذي يثيره تحقيق هذين الجزءين يتعلق بمدى مشروعية الاعتماد على طبعة سابقة للمخطوط كنص أصلي، واعتبار المخطوطات المكتشفة بعد صدور تلك الطبعة نسخا مساعدة على إصلاح وضبط وإقامة معنى النص، غير أن مكانة "دوزي" العلمية قد تجعل من السائغ الاعتماد على طبعته، رغم أن هذه الطبعة اعتمدت على نسخة مخطوطة وحيدة. كما أن "دوزي" أقحم شذرات من نص "عريب" (20) ابتداء من الصفحة (134) مع مقارنتها بنص "البيان المغرب" كما جاء في المخطوط.

أما الجزء الثالث من كتاب "البيان المغرب" فقد حققه "بروڤنسال" وحده، قبل تحقيق الجزءين الأولين، وذلك سنة 1930، بالاعتماد على نسخة وحيدة (21) عثر عليها، وتتعلق بتاريخ الأندلس حتى القرن الرابع الهجري. وقد صدر هذا الجزء بمقدمة قصيرة بالعربية، شرح فيها مضمون الكتاب، وعرف بمؤلفه تعريفا قصيرا ووصف المخطوط المعتمد.

وقد عمد المحقق في قراءته للمتن إلى تخريج بعض النصوص المستمدة من مصادر أخرى أو الواردة في كتب متأخرة، من ذلك إشارته إلى كتاب "الاحاطة لابن الخطيب في الصفحة 125.

و"المعجب" للمراكشي في الصفحة 119، وابن حيان في الصفحة 176، وابن الأبار في الصفحة 181. كما نجده يشير في الحاشية إلى الاختلافات بين النصوص. ويخرج بعض الأبيات.

ولم يضبط المحقق المتن بالشكل التام باستثناء كلمات قليلة، كما لم يول

---

(20) - هو عريب بن سعد القرطبي، مؤرخ وطبيب أندلسي (369 هـ). انظر : "الاعلام"، للزركلي، م5. ص 227.

(21) - من الكتب التي حققها بروفانسال أيضا بالاعتماد على نسخة وحيدة : القسم الاخير من كتاب "صلة الصلة" لابن الزبير. ومنتخبات من "مفاخر البربر" لمؤلف مجهول الاسم.

كبير عناية لعلامات الترقيم باستثناء الفاصلة التي استعملها في الغالب للفصل بين الفقرات، وقد حرص على تعيين البحر الشعري قبل كل قطعة.

أما الفهارس التي صنعها لهذا الجزء فسبعة، وهي تعكس تنوع مادة الكتاب وخصبها.

3 - "التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات (617 هـ). عمل "ادلوف فور" (22) أستاذا بمعهد الآداب العربية في تونس، وهو من المستعربين الفرنسيين المهتمين بالتاريخ الديني للمغرب، وبتاريخ حركة التصوف على الخصوص، وقد قام بتحقيق هذا الكتاب سنة 1958، غير أن اهتمامه به يعود إلى سنة 1954 حين قدم عرضا حوله في جلسة 28 يناير 1954 (23) من الجلسات الشهرية التي كان يعقدها معهد الدراسات العليا المغربية، وقد أكد في هذا العرض على أهمية الكتاب في التاريخ الديني وحركة التصوف بالمغرب الأقصى، كما أكد من جهة أخرى على أهمية أسماء الأعلام والأماكن الواردة فيه في دراسة تطور اللغة البربرية.

ولعل أهم شيء يميز هذا الكتاب عن أغلب التحقيقات التي ظهرت في فترة الحماية، أنه جاء باللغة العربية، مقدمة وتعليقات وحواشي وفهارس.

وقد اشتملت مقدمة هذا التحقيق على حديث مقتضب عن أهمية الكتاب، ووصف للنسخ المخطوطة المعتمدة وهي ثمانية. أما حياة المؤلف فإنه لا يفصل فيها الحديث وإنما يكتفي بالإحالة على بعض المصادر.

وتضم هوامش التأصيل إشارات إلى الاختلافات بين النسخ الخطية، كما تضم تخريجات للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وإشارات إلى بعض المراجع والمصادر المتعلقة بحياة المترجم لهم في الكتاب. ولم يخرج المحقق الأبيات الشعرية رغم كثرتها. كما لم يضبط المتن بالشكل ما عدا الآيات والأحاديث والأشعار، أما علامات الترقيم فإنه أولاها عناية خاصة، إذ نجده يثبت أغلبها ويقسم النص إلى فقرات ويجعل لتراجم الأولياء أرقاما ترتيبية.

---

(22) - انظر : المستشرقون. نجيب العقيقي. ج 1. ص 349. وهسپريس - تمودا. المجلد 22. 1984.

(23) - هسپريس. المجلد 41. 1954. ص 482 - 484.

أما الفهارس فجاءت متنوعة، وقد حاول فيها الإحاطة بمادة الكتاب المتنوعة، وهي ستة فهارس بالإضافة الى بعض الاستدراكات المتعلقة بالصعوبات الطباعية التي حالت دون اثبات النطق الصحيح لبعض الأعلام البربرية.

وقد أعيد تحقيق هذا الكتاب على يد الأستاذ أحمد التوفيق (24) سنة 1984 . بالاعتماد على نسخ أخرى زيادة على تلك التي اعتمدها "فور" يقول أحمد التوفيق في هذا الصدد : "وليس من الترف في رأينا أن يعتمد على هذا العدد من النسخ بعد التي اعتمدها فور إذ أن الكتاب ... قد كثر فيه الغلط والتصحيف وليس من سبيل إلى تصحيحه إلا بمراجعة عدد أكبر من النسخ، وبينما استعمل "فور" نسخه الثمان ليكثر من اثبات القراءات المختلفة في الحواشي، سعينا إلى إبطال كثير من هذه الحواشي في القراءات التي ثبت فيها وجه لا يتطرق إليه الشك» (25).

نختم حديثنا عن هذه النماذج من تحقيقات المستعربين الفرنسيين للتراث المغربي، بجملة ملاحظات، يتعلق بعضها بالمنطلقات النظرية التي وجهت اختياراتهم، بينما يتعلق البعض الآخر بالسمات التي ميزت منهجهم على مستوى التطبيق. وهذه الملاحظات هي الآتية :

أ - على الرغم من الطابع الموضوعي والعلمي الذي يطبع تحقيقات المستعربين الفرنسيين، والذي يظهر في طريقة تعاملهم مع النسخ الخطية، ومنهجهم في تأصيلها وقراءتها، فإن الأطر النظرية والإيديولوجية التي تثوي وراء عملهم العلمي كثيرا ما تفصح عن نفسها، سواء أكان ذلك على مستوى الهيآت السياسية الاستعمارية التي عمل هؤلاء المستعربون تحت لوائها، أم على مستوى نوعية المادة التي حظيت بعنايتهم أكثر من غيرها. وهكذا فإن الفهم المصيب للمجهود العلمي الذي بذلوه في تحقيق النصوص المغربية لن يتم إلا بإدراج هذا المجهود في حركة علمية أوسع تستهدف دراسة المجتمع المغربي في كل مظاهره ومستوياته، وتلك الحركة العلمية لم تكن - وخاصة في مراحلها الأولى - منفصلة عن حركة فرض السيطرة الاستعمارية - أو عمليات : التهدئة

---

(24) - ابن الزيات : التشوف الى رجال التصوف. تحقيق : احمد التوفيق. منشورات كلية الآداب. الرباط 1984.

(25) - المرجع نفسه. ص : 29.

Pacification على كل المناطق والقبائل المغربية. وهذه الأحداث كانت تؤثر على العمل العلمي نفسه بطريقة أو بأخرى، فتوجه الاهتمام إلى تحقيق كتب التاريخ والتراجم والتصوف على حساب مجالات معرفية أخرى كالأدب واللغة والفقه وغيرها من فروع هي ألصق بتاريخ الثقافة المغربية منها بالتاريخ السياسي.

فلا شيء يمكن أن نفسر به اهتمام "جورج كولان" بترجمة كتاب عبد الحق البادسي : " المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف" (26) سنة *1926* سوى حرب الريف، فالمترجم نفسه يشير إلى أهمية الكتاب في المجال الديني، غير أنه يلح من جانب آخر على أهمية المعلومات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي تهم السوسيولوجي على وجه الخصوص.

كذلك نجد "ليڤي - بروفانسال" ينشر منتخبات من كتاب : "مفاخر البربر سنة *1934* وهو لمؤلف مجهول، ومما ورد في بداية الكتاب : «... أما بعد فإنه لما كانت البربر عند كثير من الناس أخسر الأمم وأجهلها وأعراها من الفضائل وأبعدها من المكارم، رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام، ورؤساءهم، وثوارهم، وأنسابهم وبعض أعلامهم، وتواريخ أزمانهم» (27).والفترة التي صدر فيها هذا الكتاب هي فترة حاسمة في تاريخ المغرب، إذ شهدت نهاية المقاومة المسلحة في جبال الأطلس، وبداية العمل السياسي في المدن، كل ذلك وسط رجة الظهير البربري. وهكذا فإن صلة الاستعراب كحركة علمية بالاستعمار صلة يؤكدها واقع هذه المرحلة التاريخية ولا يمكن أن ننفيها بحال من الأحوال .

ب - انعكس التكوين الفيلولوجي للمستشرقين على منهجهم في التحقيق، فقد حرصوا على إبراز النص المحقق إبرازا فيلولوجيا بالمعنى الضيق، وذلك بالتركيز على ضبطه لغويا ونحويا وعروضيا وتقديمه مادة للدارسين، والدراسة الفيلولوجية لوثيقة ما «تشمل تاريخها، وفك رموزها (بواسطة علم الخطوط أو الورق أو علم الكتب)، ومقابلة النسخ بعضها ببعض، والفحص

(26) - ترجم "كولان" القسم الثالث منه ونشره ضمن سلسلة "الارشيفات المغربية" التي كانت تصدرها إدارة شؤون الاهالي ومصلحة المخابرات (شعبة السوسيولوجيا).

(27) - كتاب "مفاخر البربر" منتخبات منه نشرها وحققها ليفي - بروفانسال. منشورات معهد العلوم العليا المغربية. ج 1. الرباط 1934 .

المقارن والنقدي للقراءات، وتوثيق النص (عن طريق المقابلة بالأصل أو بطبعات أخرى) والتصحيح، وترتيب وتفسير الأغلاط، وتعيين الإقحامات، ووضع مقاييس الأصالة» (28).

ج - انطلاقا من هذا التوجه الفيلولوجي نجد المستعربين يركزون على المتن أكثر من غيره، فمنهجم في التأصيل يقوم في الغالب على المقابلة بين النسخ الخطية ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، بالإضافة إلى الاستعانة بالمصادر والمراجع المساعدة. وفي مقابل هذا الاهتمام بتأصيل المتن لا يعيرون كبير اهتمام للقراءة إلا فيما ندر، إذ نجدهم يغفلون الهوامش المتعلقة بالشرح والتخريج والتعليق. ولعل السبب في هذا الإلحاح على تأصيل المتن يعود إلى أن الكثير من تحقيقاتهم كانت مجرد تمهيد للترجمة إلى لغة أوربية، والترجمة لا بد لها من نص موثق ومصحح .

د - من العناصر التي غابت عن منهجهم في تأصيل المتن - والتي سنجدها لدى بعض المحققين المغاربة الذين جاءوا بعدهم - عنصر التخمين والحدس. ولعل هذا الغياب يعود إلى عاملين رئيسيين أولهما : التزامهم حدود العلمية وما تقتضيه من حياد وموضوعية، فالتصويب والتصحيح انطلاقا من التخمين يعتبر في رأيهم ضربا من المغامرة، كما يعتبر تجرؤا على المتن وانتهاكا لحرمته المعرفية. وثاني هذه العوامل : شعورهم بأن تكوينهم في اللغة والتراث العربيين قد لا يؤهلهم لذلك، على الرغم من أن تكوين بعضهم كان عميقا وموسعا. فقد كانت قراءتهم "علمية" بمعنى أنها تصوب النص اعتمادا على المقابلة والمراجع والمصادر، لا بالاعتماد على الحدس والتخمين الذي قد يخونهم .

هـ - وكما اقتصدوا في القراءة نجدهم يقتصدون في المقدمات التي يمهدون بها لتحقيقاتهم، والتي غالبا ما تكون بالفرنسية.

فهذه المقدمات تتميز بالاختصار الشديد في التعريف بالمؤلف وعصره وموضوع الكتاب ووصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق.

---

(28) - Encyclopedia Universalis. Vol. 12. P. 968.

وعلى العموم فإن اتجاه المستعربين في تحقيق التراث المغربي كان اتجاها تأسيسيا، لفت الانتباه إلى أهمية التراث المخطوط، وفتح عيون المغاربة على ما تزخر به خزاناتهم من نفائس وذخائر. ومن ثم فإن تأثير هذا الاتجاه على الدراسين المغاربة الذين ارتضوا التحقيق منهجا للتعامل مع التراث، بات أمرا حتميا وطبيعيا.

الاستاذ عبد الله كنون محققا للتراث :

شغل التحقيق مكانا مركزيا في الدراسة الأدبية عند الأستاذ كنون، وسار جنبا إلى جنب مع كتاباته التي خصصها لتاريخ الأدب المغربي، وتميزت تحقيقاته بالمقارنة مع بقية المحققين الذين عاصروه بالشمولية والتنوع في موضوعاتها. ذلك أنه حقق كتبا أدبية، وكتبا تزاوج بين الصبغة الأدبية والصبغة التاريخية، كما حقق نصوصا لغوية، وأخرى دينية. وكان في كل صنف يكيف منهجه في التحقيق مع مادة الكتاب المحقق وموضوعه، وهذه التحقيقات تتراوح بين الكتب والنصوص القصيرة، ويمكن تصنيفها إلى ما يلي :

1 - الشعر :

- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث.
- قصيدة أنجم السياسة لأبي عبد الله المالقي.
- قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب عائشة (ض).
- تائية أبي اسحاق الألبيري.
- القصيدة الشقراطيسة في مدح المصطفى (ص)

2 - التاريخ والأدب :

- رسائل سعدية.
- مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا للفشتالي.
- رسالة ابن أبي الخصال التي نال فيها من كرامة المرابطين.

3 - علوم اللغة العربية :

- شرح العلامة البوري على منظومة ابن كيران في الاستعارة.
- شرح جمل المجرادي لميارة.
- رسالة في أحكام الاختصاص للشيخ عبد السلام بن الحاج.

4 - الحديث والفقه :

- ترتيب أحاديث الشهاب للخزرجي.
- كتاب الأربعين الطبية للبغدادي.
- رسالة نصرة القبض في الصلاة للمسناوي.
- الأنوار السنية في الألفاظ السنية لابن جزي
- قواعد الإسلام للقاضي عياض .
- تلقين الوليد الصغير لعبد الحق الاشبيلي

5 - الانســـاب :

- عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب للحازمي.

وهناك كتاب أخير يمكن تصنيفه ضمن الوراقة أو الببليوغرافيا مع شيء من التجاوز، هو كتاب التيسير في صناعة التسفير للشيخ بكر بن ابراهيم الإشبيلي.

وقد آثرنا - بعد معاينتنا لأغلب هذه التحقيقات - أن نقتصر في هذا الباب على تتبع منهج الأستاذ گنون من خلال أربعة كتب وقصيدة واحدة فقط، وذلك انطلاقا من اعتبارين أولهما :

أن هذه الكتب تنتمي إلي فترات زمنية مختلفة، ومن ثم فهي تشكل لا محالة حلقات أساسية في تطور هذا المنهج عبر الزمن. وثانيهما أن موضوعات هذه الكتب مختلفة، الشيء الذي سيجعلنا نقف على التغير الذي يلحق المنهج نتيجة لتغير المادة والموضوع.

وهذه الكتب هي :

1 - رسائل سعدية : 1954.
2 - ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث : 1958 .
3 - مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، لعبد العزيز الفشتالي : 1964.
4 - عجالة المبتدي وفضالة المنتهي للحازمي 1964.
5 - قصيدة أنجم السياسة لأبي عبد الله المالقي، 1973.

وسنسير في استجلائنا لهذا المنهج على هدي الخطوات الآتية :

1 – التأصيل.

2 – القراءة.

3 – مكملات التحقيق :

1.3 – المقدمة.

2.3 – علامات الترقيم.

3.3 – الفهارس.

الفصل الأول

التأصيل

1 - التاصيل :

1 - 1 رسائل سعدية : 1954

يتكون هذا الكتاب من اثنتين وستين رسالة، وتسميتها رسائل إنما هو من قبيل التوسع، ومن باب إطلاق الجزء على الكل، إذ إنه إلى جانب الرسائل نصادف ظهائر وفصولا مختلفة من فنون الكتابة والإنشاء. وأكثر هذه الرسائل صادر عن السلطان السعدي، أبي العباس أحمد المنصور الذهبي (986 هـ - 1012 هـ)، ولذلك جاء في مقدمتها : «تقييد بعض ما عثرت عليه من المكاتبات السلطانيات، والظهائر الإماميات، مما صدر عن كتاب الدولة العباسية المنصورية، قدسها الله» (1). أما الرسائل التي صدرت عن غيره فهي أربعة فقط. وأغلب هذه الرسائل من انشاء عبد العزيز الفشتالي : 33 رسالة. ومحمد ابن علي الفشتالي : 18 رسالة، والبقية لكتاب آخرين.

وتكتسي هذه الرسائل أهمية تاريخية تكمن فيما تقدمه من معلومات عن بعض الوقائع التاريخية التي عرفها العصر السعدي، خصوصا فترة حكم المنصور الذهبي، والعلاقات الدبلوماسية للدولة السعدية، ومن ثم فهي مصدر لتاريخ هذه الدولة. وبالإضافة إلى هذه القيمة التاريخية فإن لهذه الرسائل قيمة أدبية أخرى، فقد كانت من إنشاء كتاب عرفوا بعلو كعبهم في ميدان الكتابة والإنشاء، كعبد العزيز الفشتالي، ولذلك فهي في عرف الناقد ومؤرخ الأدب نموذج يسعف لا محالة في التعرف على حياة اللغة وأسلوب الإنشاء في ذلك العصر.

وجميع هذه الرسائل من النثر المسجوع الذي كان هو الأسلوب الكتابي المرموق في ذلك العصر، وقد نشر الأستاذ گنون هذه الرسائل سنة 1954 بتطوان ضمن مطبوعات معهد مولاي الحسن.

انطلق الأستاذ گنون في تأصيله لهذه الرسائل من نسختين خطيتين :

أ - نسخة أهداها له المختار السوسي عام 1969 هـ : «وهي نسخة أقل ما يقال فيها أن أخذها كان سرقا، على حد تعبير الصديق المختار، وقد كتبت كل كراسة منها بخط غير الذي كتبت به الأخرى، وكان الذين كتبوها جماعة من

---

(1) - رسائل سعدية. ص 13.

الطلبة يتباينون في المعرفة والإدراك، فلذلك كانت كتابتهم تختلف بين النسخ والمسخ» (2).

ب - نسخة أخرى أرسلها له قاضي أبزو، الفقيه أحمد بن منصور البزيوي، وهذه النسخة هي الأصل لهذه الرسائل، بينما النسخة الأولى فرعية مأخوذة عنها، وتقع هذه النسخة الثانية «في : 114 صفحة من القطع الرباعي، كل صفحة منها تحتوي على 19 سطرا، وخطها نسخي دقيق، لا يخلو من خطإ في الرسم، كما أنها لا تخلو من تصحيف... وليس فيها ذكر لاسم الكاتب ولا ما يدل على تاريخ نسخها» (3)، والحقيقة أن هذه النسخة الثانية هي الأصل الذي اعتمد عليه الأستاذ كنون في تحقيقه، إذ لا نجد في الهامش أية إشارة إلى تصحيح أو تصويب انطلاقا من النسخة الأولى، لكن رغم ذلك فإنه استعان في إقامة النص ببعض المصادر غير المباشرة التي أرخت للعصر السعدي، وتضمنت بعض الرسائل والظهائر الصادرة في تلك الفترة، كمخطوط مختصر الجزء الثاني من مناهل الصفا للفشتالي (4)، والاستقصا لأحمد الناصري (5). ونسجل انطلاقا من الطريقة التي سلكها الأستاذ كنون في تأصيله لهذه الرسائل الملاحظات الآتيـة :

1 - اعتمد الأستاذ كنون في تأصيله لهذه الرسائل على نسخة خطية واحدة، وقد أجمع جل المهتمين بالتحقيق على أن تأصيل النص بالاعتماد على نسخة واحدة يعتبر خروجا عن أصول التحقيق العلمي. غير أننا يمكن أن نلتمس بعض الأعذار للأستاذ كنون في هذا المجال، من ذلك أن التحقيق عنده عنصر مكمل لتاريخ الأدب، ومن ثم فإن نشر النصوص المغربية، بهدف التعريف بها، وتقريبها للقراء وعموم الدارسين، يعتبر ضرورة حتمية فرضتها المرحلة، وجزءا لا يتجزأ من عمل مؤرخ الأدب، إذ لا يصح أن نترجم للأدباء أو نتحدث عن حقب من تاريخ المغرب في غياب النصوص والوثائق التي ربما قد يؤدي عدم التعجيل بنشرها إلى ضياعها بالمرة. هذا بالإضافة إلى تعذر الحصول على نسخ أخرى لهذه النصوص، وقد كان الأستاذ كنون على وعي بالمخاطر التي يطرحها

(2) - المرجع نفسه. ص : 13.

(3) - المرجع نفسه. ص : 8 - 9.

(4) - المرجع نفسه. هوامش الصفحات : 40 - 41 - 42 - 43 - 44 - 45 - 46 - 47 - 48 - 49.

(5) - المرجع نفسه. هامش الصفحات 50 - 63.

التحقيق انطلاق من نسخة واحدة حين قال : «إن نشر كتاب ما على أصل واحد مملوء بالأخطاء، مغامرة كبيرة، لا يرتضيها العلم ولا قواعد النشر والتحقيق، ولكن إذا لم يكن هناك أمل في وجود نسخة ثانية للكتاب، وكان الاعتقاد جازما بأن هذا الأصل هو الوحيد الذي أفلت من عوادي الزمن فما العمل إذن ؟ وقد سبق أن امتحنت بمثل هذه المغامرة مرتين : الأولى في نشر مجموعة (رسائل سعدية) والثانية في نشر (ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث) عن أصل واحد من كليهما... فسلم الله ومر الامتحان برفق، فلم ينكر النقد النزيه منهما شيئا، وربحت الخزانة العربية أثرين قيمين من تراثنا الأدبي الخالد» (6).

ونطمئن أكثر إلى هذه التحقيقات إذا ما تعرفنا على الثقافة الموسوعية للأستاذ گنون، من دينية، ولغوية، وأدبية، وتاريخية، والتي مكنته من الوقوف على الصواب في تأصيله للنص غالبا، وجعلت تصويباته وتخميناته أقرب إلى حقيقة النص.

ونشير إلى أن الأستاذ محمد حجي (7) وقف على مجموعة مخطوطة من رسائل سعدية، فيها كثير من الزيادات كما في الرسائل التي حققها الأستاذ گنون، خاصة الظهائر والرسائل الإخوانية، وهذه المخطوطة توجد في الخزانة العامة بالرباط، ورقمها : 278 ك، كما عثر على مخطوطتين أخريين بالخزانة الملكية بالرباط، عدد 1226، وعدد 3766، وتشتملان على مكاتبات سياسية تبادلها الملوك السعديون المتأخرون مع أمراء الولاء وسوس وسجلماسة وحكام الجزائر الأتراك.

2 - إن من بين ما يمكن ملاحظته انطلاقا من هوامش التأصيل أن الأستاذ گنون لم يسلك في تصحيحه للمتن وتأصيله له طريقا موحدا، إذ نجده تارة يبقي على الخطإ في المتن، وينبه إلى الصواب في الهامش، احتراما منه لحقيقة المتن كما كتبه صاحبه، ولدلالة هذه الأخطاء بالنسبة لمستوى الكتابة والإنشاء في ذلك العصر، ومستوى الكتاب الذين دبجوا هذه الرسائل، وتحقيق المتن : «ليس تحسينا أو تصحيحا وإنما هو أمانة الأداء التي تقتضيها أمانة التاريخ، فإن متن الكتاب حكم على المؤلف، وحكم على عصره وبيئته، وهي اعتبارات تاريخية

(6) - مناهل الصفا. ص 8-9.

(7) - محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. ص 30.

لها حرمتها، كما أن ذلك الضرب من التصرف عدوان على حق المؤلف الذي له وحده حق التبديل والتغيير... والمحقق إن فطن إلى شيء من ذلك الخطإ، نبه عليه في الحاشية، أو في آخر الكتاب، وبين وجه الصواب فيه، وبذلك يحقق الأمانة ويؤدي واجب العلم» (8). وتصح هذه القاعدة أكثر عندما يكون المخطوط بخط صاحبه، إذ لا مجال آنئذ للقول بأن الأخطاء من وهم النساخ.

ومن آداب التصحيح عند القدماء وجوب احترام رواية المخطوط التي وصلتنا بخط المؤلف، يقول ابن جماعة العلموي، في المسألة الثالثة من مسائل كتابه : «المعيد في أدب المفيد والمستفيد» :

«لا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه، قلت : وهذا محله في غير القرآن، فإن كان مغلوطا أو ملحونا فليصلحه» (9).

ومن التصحيحات التي نصادفها في الهوامش، والتي من هذا النوع : في الصفحة : 82 نقرأ في المتن : «والمنزلة المعتبرة بأضاحي أكدر» وفي الهامش نقرأ : كذا والصواب بضواحي.

وفي الصفحة 95 ، نقرأ في المتن «وإعمال العزائم في حصد شوكة الأعادي» ، وفي الهامش نقرأ كذا ولعل الصواب خضد. في الصفحة : 120 نقرأ في المتن : «وأرسال الملوك من كل أرض» ، وفي الهامش نقرأ : يعني رسلهم، ولا يجمع رسول على أرسال. في الصفحة 138 تقرأ في المتن : «أوضح من شمس الظهيرة، وأضوى من الكواكب المستنيرة» ، وفي الهامش نقرأ : كذا والصواب أضوأ .

في الصفحة 168 نقرأ في المتن : «فوجهنا عنه فوصل» وفي الهامش نقرأ: الصواب وجهنا إليه .

في الصفحة 199 نقرأ في المتن : «خدامنا الأمجاد المرضيون» وفي الهامش نقرأ : كذا والصواب المرضيين .

---

(8) - تحقيق النصوص ونشرها : عبد السلام هارون. ص 38.

(9) - فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ص 32.

في الصفحة : 262 نقرأ : «ولينم جفن اهتمامكم من ذلك إن شاء الله أهنى وثير ومهاد» وفي الهامش نقرأ : كذا والصواب على أهنإ.

هكذا نجد الأستاذ گنون في هذه الأمثلة يحترم رواية النسخة الخطية ويصحح ما يراه خطأ في الهامش. غير أنه لم يلتزم هذه القاعدة في سائر الكتاب، إذ نجده في أحيان أخرى يتدخل في المتن، ويصحح أخطاء لغوية ونحوية نعتقد أنها من عمل بعض كتاب هذه الرسائل. ويتأكد هذا الرأي عندما نعرف أن هذه الرسائل تتفاوت من حيث مستوها في الإنشاء والبلاغة. «فبعضها يرقى في البلاغة إلى أن يكون مثالا يحتذى، من حيث الانسجام، والتلاعب بالألفاظ، والتصوير، وصدق التعبير، وبعضها الآخر يسف حتى لا يعدو أن يكون هو التكلف بعينه» (10) .ومن الأخطاء التي صححها المحقق في المتن، على حين كان عليه أن يثبت ما يراه صوابا في الهامش، ويحتفظ برواية النسخة الخطية كما هي، احتراما للآمانة العلمية، ولما لهذه الأخطاء والهنات من دلالة على مستوى هذه الرسائل في الإنشاء، ومستوى كتابها ومحرريها : في الصفحة 15 نقرأ في المتن : «لما توفي الخليفة المنصور بالله أبو العباس» وفي الهامش نقرأه : بالأصل أبي.

في الصفحة 89 نقرأ في المتن : «فليلقه من قبولكن وإيثاركم ما يناسب ذلك، ونقرأ الهامش : بالأصل فيلقاه.

في الصفحة 90 نقرأ في المتن : «وعن صحابته مقيمي جدار الدين» ونقرأ في الهامش:بالأصل مقيمين، والدليل على أن هذا الخطأ من عمل الكاتب، أننا نجد خطأ آخر شبيها له في الصفحة 10، إذ نقرأ في المتن : «السلطان محمد بن السلاطين العظام ناصري ملة الإسلام»، ونقرأ في الهامش : بالأصل ناصرين. وفي الصفحة 144 نقرأ في المتن : «عمارة تنشأ أو أسطولا»، وفي الهامش نقرأ : بالأصل أو أسطول .

وفي الصفحة 174 نقرأ في المتن : «النصارى خذلهم الله لا يفلتونه من أيديهم أويسلمونه»، وفي الهامش نقرأ : بالأصل يفلتوه ويسلموه، في الصفحة

---

(10) - رسائل سعدية. ص 10.

221 نقرأ في المتن : «فهو بركة الوقت وزاهده، وصلة موصول العدالة وعائده» ونقرأ في الهامش : بالأصل زاهدها وعائدها.

انطلاقا من هذه الملاحظات، نجد الأستاذ گنون متذبذبا في تأصيله بين احترام الرواية الخطية والإبقاء على الأخطاء يظهر جليا أنها تعود إلى وهم الناسخ. لذلك لم يجد غضاضة في إصلاحها من ذلك :في الصفحة 31 نقرأ في المتن : «حتى يستوي الجانبان، ويتحد الفريقان» وفي الهامش نقرأ : بالأصل : ويتحدى.

في الصفحة 55 نقرأ في المتن «واستاق إليه حمامه ومنيته» ونقرأ في الهامش : بالأصل واشتاق.

وفي الصفحة 74 نقرأ في المتن : «فرسان البلاغة ونقاد البيان»، وفي الهامش نقرأ : بالأصل نقود، ونظن أنها تصحفت عن نقاد.

في الصحفة 134 نقرأ في المتن : «وكبحت عنكم عنان الكفر»، ونقرأ في الهامش : بالأصل وكفحت.

في الصفحة 171 نقرأ في المتن : «وتقيم أعلام الحنيفية البيضاء»، ونقرأ في الهامش : بالأصل الحنفية.

3 - بالإضافة إلى هذه الهوامش المتعلقة بتصحيح المتن نقف أحيانا على إشارات إلى زيادات اقتضتها صحة المعنى، وقد اعتمد المحقق فيها على تخميناته وحدوسه، وأثبتها في المتن حتى يستقيم المعنى كما هو الحال في، الصفحات : 31، 39، 166، 179 . كما أثبت في هامش الصفحة 50 زيادة وجدها في مناهل الصفا.

4 - من الهوامش التي لها علاقة بتأصيل المتن، ما نصادفه من إشارات إلى مواضع السقط الذي يسبب غموضا في المعنى، كما هو الحال في ص : 37 ، 101 وإشارات أخرى إلى الانقطاع الذي حصل في سياق بعض الرسائل، ص 3. وإلى البياض ومقداره كما هو الحال في ص : 153.

5 - مما يمكن أن نستدركه على المحقق ما يلي : نقرأ في الصفحة 136 : «فصل من آخر من إنشائه» ونقرأ في الهامش : كذا بالأصل ، ولعل الصواب من أخرى. ونعتقد أن الصواب يكون بحذف "من" الأولى وذلك بقولنا «فصل آخر من إنشائه» .

أما الأخطاء المطبعية فهي كثيرة جدا ، لكن المحقق أحسن صنعا حين ألحق بكتابه جدولين لإصلاحها ، أولهما للأخطاء الناتجة عن التصحيف أو التحريف، وثانيهما للأخطاء التي وردت في شكل الألفاظ.

2.1 - ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث : 1958

حقق الأستاذ كنون هذا الديوان ونشره في تطوان، ضمن منشورات معهد مولاي الحسن سنة 1958 ، وتكمن أهميته في أربعة أشياء.

أ - كونه يعرف بشاعر أندلسي ضرب في الشعر بسهم صائب، وهو ملك.

ب - كون هذا الشاعر الأندلسي الملك ساهم في جميع أغراض الشعر العربي، وخاصة الشعر الحماسي والسياسي.

ج - كون شعر هذا الملك الأندلسي مجموعا كله في ديوان كبير يبلغ عدد صفحاته في نسخته المخطوطة 365 صفحة.

د - كونه من العصر الذي تنكرت فيه الأندلس للعروبة، وكان تلفظ فيه نفسها الأخير (11).

وقد اعتمد المحقق في تأصيله لهذا الديوان على نسخة واحدة أهداها له المختار السوسي، في ربيع سنة 1369 هـ، وتقع في 365 صفحة، من طول 26 س، وعرض 19 س، وفي كل صفحة 13 سطرا ، كتبت بخط واضح جميل بين المغربي والأندلسي، وقد تنوق في كتابة عناوين بعض القصائد ، كما أن قوافي بعض القصائد الأخرى استقلت في سطر تحت سطر البيت الذي هي منه وهذا الاعتناء والتنميق دليل على أن هذه النسخة "ملوكية". أما عن الضبط فيها ،

---

(11) - ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث. ص : ر.

فإنها لا تخلو من أخطاء في الشكل واللغة والعروض، ونسجل الملاحظات الآتية على هامش تأصيل الأستاذ گنون لهذا الديوان :

1 - إن الاعتماد على نسخة واحدة - كما هو الحال في مناهل الصفا - يعتبر مغامرة محفوفة بالكثير من المخاطر، كما يعتبر من جهة أخرى خروجا عن قواعد التحقيق العلمي كما سطرها الباحثون من مستشرقين وعرب، وقد ركن الأستاذ گنون إلى رأي المختار السوسي من أن هذه النسخة «لاثاني لها في العالم» فخلد للراحة، ولم يبحث عن نسخ أخرى محتملة الوجود في الخزائن الوطنية العامة والخاصة، وفي الخزائن غير الوطنية. كما لم يحدثنا في مقدمة التحقيق عن أية محاولة للبحث عن نسخ إخرى، لقد أنسته أهمية الديوان - إذ وصفه بأنه كشف خطير في عالم الأدب العربي - البحث عن نسخ أخرى، فعجل بنشره علي نسخة فريدة، مليئة بالبياضات والبتور، والحقيقة أنه من المستبعد ألا تكون لهذا الديوان إلا نسخة فريدة، على أهمية صاحبه في مجال السياسة والأدب .

وبالإضافة إلى اعتماد المؤلف على هذه النسخة الفريدة، فإننا لا نصادف في هوامش التأصيل أية إشارة إلى مصدر من مصادر تاريخ الأدب تعتمد في المقابلة أو التصويب، وهذا نقص ثان يضاف إلى الأول.

2 - يتروح تصحيح المحقق للأخطاء الواقعة في المتن، بين احترام رواية النسخة الخطية وعدم التدخل، إذ يبقي على الخطإ ويشير إلى الصواب في الهامش، وبين التدخل في المتن، وإثبات ما يعتقد أنه الصواب والإشارة إلى الأصل الخاطئ في الهامش، والحالة الأولى - عدم التدخل - قليلة، وقد أبقى فيها المحقق على الأخطاء اعتقاداً منه أن نسخة الديوان كتبت في زمن الناظم، وربما بإشارته، ووفاء للأمانة العلمية، يقول عن هذه النسخة : «وربما ورب للتكثير، كانت مكتوبة في زمن الناظم وبإشرافه، على أنها لا تخلو من خطإ في الشكل والضبط، إلى خطإ لغوي قليل يقع فيه الشاعر نفسه ... إلى خطإ ثالث في العروض في بعض الأبيات» (12). ومن ثم فبعض الأخطاء من عمل الناظم، وهي دلالة على مستواه في النظم والقريض، ومن هذه التصحيحات :

(12) - ر المرجع نفسه. ص : ظ.

نقرأ في مثل الصفحة 155 :

أأرضاهم وما منهم رضيا
سأوسعهم بعادا وانصراما

ونقرأ في الهامش : كذا بالأصل والصواب رضي.

نقرأ في متن الصفحة 180 «ولا تخبأ مصابيحها»، وفي الهامش نقرأ : كذا بالأصل والصواب تخبو.

ونقرأ في متن الصفحة 189 :

عين مسهدة و قلب يخفق
هذا يصوب وذاك دأبا يحرق

ونقرأ في الهامش : كذا بالأصل والمناسب هاذي تصوب.

من بين الأخطاء التي لم يصححها المحقق تلك التي نتجت عن تأثير العامية في لغة الشاعر، ففي متن الصفحة 95 نقرأ البيت الآتي :

في رياض تجني الأماني منه
وتطيل لله حمدا وشكرا

ونقرأ في الهامش : جرى الاصطلاح العامي في إفراد الرياض وهو جمع. أما التصحيحات التي تدخل فيها المحقق فإنها لا تعد اعتداء على المتن وانتهاكا لحرمته، ذلك أن أغلبها كان تصحيحا إما لخطإ واضح لا يمكن التغاضي عنه، أو لتصحيف، أو لتحريف، ولا شك أن هذه الأخطاء من عمل الناسخ.

فمن الأخطاء الواضحة التي اهتدى المحقق إلى تصحيحها ما يلي : نقرأ في متن الصفحة 19 :

ويا عجبا ممن يذم طريقها
على إثر ما أبدات له كل معجب

ونقرأ في الهامش : بالأصل يدوم.

ونقرأ في الصفحة 56 : «وددتم بالشرع والطبع أن تكونوا أشد وطأة».
ونقرأ في الهامش : بالأصل بالشر، ونجد شبيها بهذه التصحيحات في الصفحات : "66،74 ، 84... الخ.

هناك صنف آخر من الأخطاء اهتدى المحقق إلى تصحيحه، وهو المتعلق بالتصحيفات، وهي كثيرة على امتداد الديوان، نجدها في الصفحات : 30، 53، 92، 96،، 113، 120، 148، 222، 238. من الأخطاء التي صححها المحقق أيضا التحريفات. نقرأ في متن الصفحة 111 :

تخليط أمريهما إن صح ما زعموا
مما يهيج يوم الروع أخلاطه

ونقرأ في الهامش : في الأصل الورع.
ومن التصحيحات التي نعتقد أن المحقق جانب فيها الصواب، ما نجده في الصفحة : 7، حيث يقرأ في المتن :

منعمة ريا الروادف أودعت
جمال رواء في بهاء شباب

ونقرأ في الهامش : بالاصل ممنعة والوصف يقتضي ما ذكرناه. ونعتقد أن الصواب ما جاء في الأصل "ممنعة" لأن الشاعر يريد التمنع، ولأن هذه اللفظة تكررت في بيت آخر للشاعر، للدلالة على المعنى نفسه، وذلك في الصفحة 58 إذ يقول :

وممنع الأرجاء منتصر
باللحظ يحمي وردة الخد

3 - تضمنت هوامش تأصيل المتن بالإضافة إلى التصحيحات بمختلف أضربها، إشارات إلى الانكسارات الحاصلة في أوزان بعض الأبيات، وقد بلغت هذه الإشارات حوالي 15 إشارة، هذا بالإضافة إلى بعض عيوب القافية كالإيطاء، والإقواء. أما الغموض الحاصل في بعض الأبيات فعادة ما يشير إليه المحقق بقوله : كذا في الأصل، وقد وردت الإشارة إليه في حوالي 47 صفحة، كما اشتملت هذه الهوامش على إشارات الى البياضات الكثيرة الحاصلة في المتن،

وبعضها ربما تركه الناسخ لاستدراك الأبيات التي قد يحصل عليها مستقبلا، بينما أغلبها جاء إشارة إلى كلمات أو أشطار أبيات سقطت من الأصل، وقد بلغت هذه البياضات حوالي 30 بياضا. إن ما يمكن أن نخلص إليه من تتبعنا لهوامش التأصيل بمختلف أنواعها، هو كثرة الهوامش، فهناك هوامش للتصحيح، وأخرى لبيان الانكسار الحاصل في الوزن، وثالثة للاشارة إلى الغموض ورابعة للإشارة إلى البياض وتقدير حجمه، وهذا دليل على الاضطراب الحاصل في المتن، وعلى ضعف تأصيله، والسبب في هذا الضعف يعود بدون شك إلى انطلاق المحقق في التأصيل من نسخة فريدة، وفي غياب المصادر التي قد تساعد على هذا التأصيل، لهذا تبقى المقابلة بين النسخ الخطية هي أحسن السبل وأسلمها لتأصيل النص، فمهما اتصف المحقق بالحصافة وبعد الرأي والموسوعية في الثقافة، فإن هذه الصفات لا تغنيه في تأصيل المتن عن المقابلة بين النسخ. يقول روزنتال عن أهمية هذه المقابلة : «إن أسلم طريقة، بل الطريقة الوحيدة للتثبت من صحة نص مخطوطة ماهي معارضة المخطوطة المراد التحقق من صحتها، بمخطوطة أو مخطوطات آخرى من نوعها معارضة دقيقة» (13).

3.1 - مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا : 1964

يعتبر هذا الكتاب مصدرا أساسيا من مصادر تاريخ الدولة السعدية، ألفه عبد العزيز الفشتالي متولي تاريخ هذه الدولة، ووزير القلم الأعلى في بلاط أحمد المنصور الذهبي، ليكون وثيقة رسمية يعتمدها المؤرخون المشارقة في كتاباتهم عن الدولة السعدية، وذلك على إثر تلقي المنصور من المؤرخ التركي مصطفى بن حسن الحسني الجنابي النسخة الأصلية من كتابه : «العليم الزاخر، في أحوال الأوائل والأواخر»، فقد لاحظ المنصور نقصا وخلطا في الباب المخصص للمغرب، فكتب إلى المؤرخ التركي، يشكره على هديته القيمة وينبهه في الوقت نفسه إلى ما في كتابه من خلط، يقول المنصور : «عثرنا لكم في ذلك أكرمكم الله على غلط واضح وضوح النهار... إذ سلك شعبا وسلكت الدولة واديا وجرى على غير سمتها فلم يجد هاديا، فكم من خبر قد زحزح عن محله، ونسب إلى غير أهله، وآخر مجهول الأصل والمبنى، زائد اللفظ والمعنى، وعلمنا لذلك، أن هذه الدولة الكريمة قد غابت عنكم رأسا حقائقها.... ولما أنفنا أن يبقى ذلك الخبال، والغلط المنبت الحبال، فيكون في تأليفكم وصمة، وفي جانب الدولة

(13) - مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ص 72.

العلية ثلمة، توجهت إشارتنا الإمامية المشرفة إلى أحد كتابنا... بتلخيص موضوع يكون لاخبار هذه الدولة الشامل المستوعب» (14).

وقد اشتهر عند المؤرخين أن "المناهل" يقع في ثمانية أجزاء، منذ حدد ذلك المقري في "نفح الطيب" لكن الأستاذ كنون في مقدمة تحقيقه لمختصر هذا الكتاب يستبعد أن يكون في أكثر من ثلاثة أجزاء، ما دام الجزء الأول في نشأة الدولة السعدية، وأخبار ملوكها الأولين، والثالث في بقية أخبار المنصور، وربما حتى ابنه زيدان الذي أخلص له الفشتالي، وتوفي في أيامه، وقد دعم الأستاذ كنون رأيه هذا بما ذهب إليه اليفرني، يقول: «فلم يبق إذن صحيحا إلا قول اليفرني إنه في عدة أجزاء، وأقل الجمع ثلاثة كما يقولون» (15). أما مختصر هذا الكتاب فمجهول، افترض المحقق أن يكون أحد كتاب السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله الذي كان معجبا بالمناهل، نظرا لما يتميز به هذا المختصر من حذف عبارات التعظيم المبالغ فيها، والاقتصار على سرد الأخبار وتلخيصها.

ويعتبر هذا المختصر وثيقة هامة عن تاريخ السعديين عموما، وواسطة عقدهم أحمد المنصور على وجه الخصوص، فالمؤلف لا ينقل عن كتاب وإنما يؤرخ لأحداث قريبة العهد، يستقيها ممن عرفوها أو عاينوها، أو يتحدث عن حوادث عاشها، ووثائق كتبها بنفسه.

وقد انطلق الأستاذ كنون في تأصيله لهذا المختصر من نسختين خطيتين :

أ - نسخة أولى اقتناها من تركة أحد طلبة فاس، وهي تقع في 82 ورقة، أي 184 صفحة، من القطع الكبير، ومسطرة 24 سطرا، وخطها مغربي جميل، إلا أنه كثير التصحيف والخطإ، وفيها بياضات كثيرة لا سيما الفصل المختص بوصف قصر البديع.

ب - نسخة تونس، وهي نسخة تامة للجزء الثاني، تقع في 504 صفحة، من القطع الكبير، ومسطرة 19 سطرا، وهي مكتوبة بخطوط متنوعة واضحة،

---

(14) - رسائل سعدية. ص 239 - 240.

(15) - مناهل الصفا. ص 12.

لكنها كلها مغربية، ويمكن أن يقال عنها إنها "نسخة ملوكية"، ولا تحمل أي تاريخ للنسخ، وقد جاء وصف هذه النسخة في هامش الصفحة 14 من المقدمة لأنها في نظر المحقق «مرجع لا أصل للطبع» (16).

بالإضافة إلى هاتين النسختين : النسخة الأصل والنسخة الفرع، أشار الأستاذ گنون إلى أنه رجع إلى نسختين أخريين في الخزانة الملكية لكن بعد أن أشرف الكتاب على نهاية الطبع، وهما لأصل الجزء الثاني، يقول عن ذلك : «ولزيادة التحقيق، اهتممنا بالاطلاع على نسختي الخزانة الملكية... فإذا بالدهشة تأخذ منا كل مأخذ، إذ وجدنا صورة الخبر في النسختين هي صورته في مختصرنا وأصل تونس، ثم حرصنا في مقابلة أماكن البياض الموجودة في وصف البديع بمخطوطتينا على نسختي القصر، فإذا الأمر فيهما يتشابه ويكثر، البياض بهما أيضا كثرة تجعل المقابلة عليهما قليلة الجدوى» (17).

ولم يكتف المحقق في تأصيله للمتن بالنسختين، الأصلية، والفرعية، بل نجده في أحيان كثيرة يعرض المتن على بعض المصادر التي اهتمت بتاريخ الدولة السعدية، وأخبار ملوكها وشعرائها .

وهذه المصادر هي الآتية :

1 - نزهة الحادي لليفرني في الصفحات : 210، 211، 249، 251، 258، 268، 271، 277، 281، 282.

2 - روضة الآس للمقري، في الصفحات : 210، 238، 249، 281، 282، 292، 293، 294.

3 - رسائل سعدية في الصفحات : 192، 193، 194، 195 .

4 - الاستقصا لأحمد الناصري، في الصفحات : 249، 252، 258.

5 - البيان المغرب لابن عذاري في الصفحات : 119، 120، 121 .

---

(16) - المرجع نفسه. ص 14.

(17) - المرجع نفسه. ص 14 - 15.

6 - نفح الطيب للمقري، في الصفحات 281، 282.

وحتى نحيط ببعض ملامح المنهج الذي سلكه الأستاذ كنون في تأصيل متن "المناهل" نسجل الملاحظات الآتية :

1 - إن ما يميز تحقيق هذا الكتاب عن الكتابين السابقين، هو أن المحقق لم يكتف في تأصيله للمتن بنسخة واحدة كما عودنا على ذلك في تحقيقاته السابقة، بل انطلق من نسختين، نسخة أصلية وأخرى فرعية، كما استعان بمصادر تاريخية وأدبية، فعارض عليها الأخبار الواردة في المتن، وصوب انطلاقا منها الأخطاء، ومن ثم تميز تحقيقه لهذا الكتاب عن تحقيقاته السالفة، فقد مكنته المقابلة من تصحيح النص وملء البياضات، الشيء الذي لن يتسنى له لو انطلق من نسخة خطية واحدة. ويمكن أن نتعرف على مقدار ما أفادته المعارضة بين النسختين لهذا التحقيق، إذا ما نحن قارناه بتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم، لأصل الجزء الثاني من الكتاب نفسه، فقد انطلق هذا المحقق من نسخة واحدة هي نسخة المكتبة الملكية بالرباط، ولم يقابلها مع بقية النسخ، فجاء عمله أقرب إلى المسخ منه إلى التحقيق العلمي، وسنقتصر في هذه المقارنة على بعض الأبيات فقط :

- كنـــــون :

جيش الصباح على الدجى متدفق
فبياض ذا لسواد ذاك ممحق (18)

- كـريـــم :

جيش الصباح على الدجى متدفق
فياض ذا لسواد ذاك ممحق (19)

- كنـــون :

وكأنه رايات عسكرك التي
طلعت على السودان بيضا تخفق

---

(18) - مناهل الصفا. تحقيق : عبد الله كنون. ص 72.

(19) - مناهل الصفا. تحقيق : د. عبد الكريم كريم. ص 139 - 140.

- كـريــم :

وكأنه رايات عسكرك التي طلعـــ
ت على السودان بيضا تحقق

- كنـــون :

لاحت وأفقهم ليـال كلـه
كعمود صبح في الدجى يتألـق

- كـريــم :

لاحت وأفقهم ليال كله كعـ
ـمود صبح في الدجى يتألـق

- كنـــون :

صعقت بهن رعود نارك صعقة
رجت لصيحتها العراق وجلق

- كـريــم :

ضعفت بهن رعود نارك صفقـ
ـة رجت لصيحتها العراق وجلق

2 - تشتمل أغلب هوامش التأصيل على إشارات تخص التصويبات والتصحيحات التي وقف عليها المحقق بالمقابلة مع نسخة تونس، كما تراوحت التصويبات في أحيان أخرى بين احترام الرواية الخطية رغم خطئها، وإثبات الصواب في الهامش، وبين التدخل لتصحيح الخطإ والإشارة إلى الأصل الخاطئ في الهامش، فقد أبقى المحقق على بعض الأخطاء لدلالتها بالنسبة لمستوى الكاتب، ولأن بعضها جاء نتيجة لتأثير العامية المغربية على الفصحى ومن هذه الأخطاء :

نقرأ في متن الصفحة 20 : فاغترسوا بها أجنات، ونقرأ في الهامش : يريد جنات، فزاد الهمزة مجاراة لبعض المثقين. نقرأ في متن الصفحة 22 : ورفع منزلته وأعده من بطانته، ونقرأ في الهامش : كذا والصواب عده

نقرأ في متن الصفحة 23 : فتطارحوا إليه يرغبوه متضرعين، وفي الهامش نقرأ : استعمل هذا الفعل استعمال العامة متعديا بنفسه، غير أن المحقق لم يلتزم هذه القاعدة أمام جميع الأخطاء التي وقف عليها في المتن، إذ نجده يتدخل في أحيان أخرى للتصحيح والتصويب، خصوصا عندما يعتقد أن

الخطأ من عمل المختصر أو الناسخ، وهذا ما نجده في الصفحات 18 ، 40 ، 58 ، 65 ، 149.

اشتملت هوامش التأصيل بالإضافة إلى التصحيحات إشارات إلى مواطن البياض، وأخرى إلى غموض بعض العبارات، لكن هذه الإشارات قليلة بالمقارنة مع تحقيقات الأستاذ كنون السابقة، خصوصا تأصيله لديوان يوسف الثالث، وهذا مؤشر جديد على التطور الذي لحق منهج التحقيق عنده على مستوى التأصيل.

4.1 - عجالة المبتدي وفضالة المنتهى للحازمي : 1964

يعتبر تحقيق هذا الكتاب من أهم تحقيقات الأستاذ عبد الله كنون وأدقها إن على مستوى التأصيل أو على مستوى القراءة، فقد جاء متأخرا، بعد أن قطع المحقق مرحلة طويلة في تعامله مع نصوص التراث، فكان مؤشرا على التطورالذي لحق منهج التحقيق عنده، وعلى النضج الذي عرفه هذا المنهج، والذي سيتبلور أكثر في النصوص القصيرة التي حققها بعد هذه المرحلة.

وموضوع هذا الكتاب يدور حول أصول الأنساب العربية وتفرعاتها، وهو لذلك بمثابة المعجم أو المفتاح لمعرفة المشاهير من الرجال، وقد رتبه مؤلفه على حروف المعجم، وأرجع كل نسب إلى أصله، وذكر في كل نسب شخصا أو أكثر ممن ينتسبون إليه من الصحابة والتابعين والعلماء والشعراء والفرسان وغيرهم.

نشر هذا الكتاب من طرف مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1964 ، وسنحاول فيما يلي التعرف على طريقة المحقق في التأصيل، واستجلاء ملامح النضج المنهجي الذي تبلور في تحقيقه لهذا الكتاب.

أصل الأستاذ كنون هذا الكتاب انطلاق من ثلاثة نسخ خطية هي التالية :

أ - نسخة أولى، استنسخها المحقق من أصل مغربي مظنون الصحة، لحقتها بعض التصحيفات والأخطاء، ليست فيها طرر، باستثناء طرة واحدة، وتقع هذه النسخة في ثلاثين ورقة.

ب - نسخة مغربية صحيحة بالجملة، ناسخها هو الرحالة أبو عبد الله

محمد بن رشيد الفهري السبتي، وتمتاز بأن عليها سماعا، وعدة طرر وتعاليق تتعلق بضبط الأسماء، وتحقيق بعض الأنساب، والتعريف ببعض الأعلام، ومن خصائصها أيضا أن غالب الأسماء فيها قد ضبطت بالقلم، ولم تخل هي بدورها من التصحيف والحذف، وتحتوي هذه النسخة على ست وعشرين ورقة.

ج - نسخة شرقية مكتوبة بخط نسخي جميل توجد ضمن محفوظات مكتبة فيض الله بالأستانة، وهذه النسخة على وضوحها لا تخلو من تحريف وبتر وسقط في بعض الأسماء والعبارات، وليست بها طرر ولا تعاليق، وتقع في إحدى وأربعين ورقة.

ولم يكتف المحقق في تأصيله وضبطه للنص بهذه النسخ الثلاث، بل نجده يستعين في ضبط الأسماء بكتب الأنساب والمعاجم والموسوعات اللغوية. وقد بلغت هذه المراجع ثلاثة وعشرين مرجعا حسب ما جاء في آخر الكتاب. وندرج على هامش تأصيل المحقق لهذا الكتاب، الملاحظات الآتية :

أ - لم يحدد المحقق النسخة التي اعتمدها كأصل من بين هذه النسخ الثلاث، والنسختين المعتمدتين كفرع، ومن الأخطاء المنهجية في التحقيق اعتماد النسخ دفعة واحدة وقد علل هذا الإختيار المنهجي بكون هذه النسخ «كل واحدة منها لها محاسنها ومساويها التي لا يمكن غض الطرف عنها، ولولا الاستعانة عليها بنظيرتيها لما استطعت أن أخرج منها نسخة تامة صحيحة، وكذلك فإني أخذت بعين الاعتبار أن أجمع بين النسخ ما أمكن" (20).

ب - اشتملت هوامش تأصيل المتن على إشارات إلى الاختلافات بين النسخ، سواء تعلق الأمر بزيادة أم تعلق بسقط ونقص، كما اشتملت على إشارات إلى التصحيحات التي أفادها المحقق من المراجع المساعدة، ومما يمكن ملاحظته في هذه الهوامش - بالمقارنة مع هوامش التحقيقات السالفة - الغياب المطلق للفظة التكذية "كذا" التي تفيد الإبهام والغموض، الذي يحصل في بعض عبارات المتن، والناتج عن السقط أو النقص أو التحريف، كما اختلفت الإشارات الى البياض وحجمه، وهذا مؤشر على المستوى الجيد الذي بلغه المحقق في

---

(20) - عجالة المبتدي وفضالة المنتهي. ص : هـ.

تأصيله وضبطه للمتن، عكس ما نجده في الكتب التي اعتمد في تأصيلها على نسخة واحدة، كما هو الحال في ديوان ملك غرناطة.

من الملاحظ أيضا غياب التصحيحات التخمينية إلا فيما ندر " ص 13 فقد أغنت المقابلة بين النسخ الثلاث المحقق عن هذا التصحيح ومكنته من تقديم نص صحيح أقرب الى ما تركه المؤلف .

ج - حرص المحقق على الإشارة إلى الفروق بين النسخ في الهامش، مهما كبرت أو ضؤلت هذه الفروق، ومن ثم فهو "محقق محايد" (21). يهتم بإخبار القارئ بمختلف رويات النساخ .

د - لم يكتف المحقق بتأصيل وضبط المتن فحسب، بل شمل هذا الضبط الطرر التي وقف عليها في النسخة الثانية. وهي بخط مالك هذه النسخة، يقول عن هذا الضبط : «ومسألة الطرر والتعاليق الموجودة بهوامش النسخة الثانية كانت مما اقتضاني مجهودا كبيرا لأني رأيت من المفيد إثباها، ولكن كان علي أن أتحقق منها وأعود إليها في مصادرها الأصلية، وكثير منها مأخوذ من القاموس المحيط للفيروزبادي، كما أن منها ما لا يذكر له الكاتب مصدرا ولا مرجعا... وقد تأكدت من ذلك بالرجوع إلى كتب الطبقات والأنساب وغيرها كالإصابة والاستيعاب واللباب والجمهرة وسواها، وعلى هذا الأساس أثبتت جميع الطرر التي بهذه النسخة»

وبتحقيق الأستاذ كنون لهذه الطرر، يتميز عن بعض المحققين الذين يحذفونها من تحقيقاتهم، أو يشيرون لها في الهامش دون ضبطها والتأكد من صحة ما تحتوي عليه من معلومات .

5.1 - قصيدة أنجم السياسة لأبي عبد الله المالقي : 1973.

انصرف الأستاذ كنون بعد مرحلة تحقيق الكتب إلى مرحلة أخرى تميزت

---

(21) - د. محمد مفتاح : ما وراء التحقيق (تحقيق النصوص الصوفية) ص 4. عرض ألقي في ندوة ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب.

بالتركيز على النصوص القصيرة، خصوصا القصائد الشعرية، ويمكن أن نرجع هذا التوجه الجديد في التحقيق إلى ثلاثة عوامل :

1 - العامل الأول منهجي، ويتمثل فيما يمكن أن يتميز به تحقيق هذه النصوص، من دقة في الضبط، وسرعة في الإنجاز، بالقياس إلى تحقيق الكتب.

2 - عامل منهجي آخر. ويتمثل في توافر نسخ خطية متعددة لهذه النصوص، ومن ثم فالطموح إلى تقديم نص صحيح أقرب إلى ما تركه الشاعر، غدا في إمكان المحقق ولم يعد شيئا صعبا.

3 - عامل أخير يعود إلى طبيعة هذه النصوص نفسها، فهي من عيون الشعر، أو من "أروع الشعر" حسب تعبير المحقق، سواء تعلق الأمر بمستوى صياغتها أم بطرافة موضوعها. فتحقيقها وتقديمها للقارئ يدخل في باب الاختيارات والمنتخبات التي حرص الأستاذ كنون على الاهتمام بها فيما كتبه في تاريخ الأدب وفي بعض الكتب المستقلة كالمنتخب في شعر ابن زاكور.

ويطالعنا الحديث عن طرافة الموضوع، منذ السطور الأولى التي قدم بها المحقق لهذه القصائد. فقصيدة أنجم السياسة : «قصيدة فريدة في موضوعها، لا نعرف لها نظيرا فيما تناولته من مادة السياسة وتدبير الملك بأسلوب شعري جميل» (22).

وقد أصل الأستاذ كنون نص هذه القصيدة انطلاقا من ثمان نسخ وهي الآتية :

1 - نسخة المكتبة الكنونية، خطها مغربي واضح مشكول شكلا صحيحا، وتقع في خمس صفحات، ويمكن أن تكون كتبت في القرن الماضي .

2 - نسخة الخزانة العامة بالرباط، وهي بخط جميل، وفي أولها زخرفة مكتوب داخلها : أنجم السياسة للقاضي أبي عبد الله المالقي، وعلى هذه النسخة طرر وتعاليق، ويظهر أنها مما كتب في أوائل هذا القرن، وتقع في إحدى عشرة صفحة.

(22) - قصيدة أنجم السياسة. مجلة الثقافة المغربية. ع 9. س 1973. ص 7

3 - نسخة تحمل عنوان : أنجم السياسة للقاضي أبي عبد الله المالقي، بخط مغربي، وهي حديثة كذلك.

4 - نسخة أخرى كتب بهامشها : «وهذه القصيدة لعلها لأبي عبد الله المالقي، تسمى أنجم السياسة » تقع في أربع صفحات، وربما كانت مما نسخ في القرن الماضي، وهي من محتويات الخزانة العامة.

5 - نسخة لا تحمل عنوانا ولا نسبة، وخطها مغربي جميل، وربما رجعت الى القرن الماضي، وهي للخزانة العامة ايضا.

6 - نسخة تلوح عليها أمارة القدم، خطها لا بأس به، وتبتدئ من البيت الخامس عشر، وبآخرها هذه الجملة «انتهت القصيدة العجيبة... للإمام العلامة الأديب البارع لسان الدين بن الخطيب» وهي بالخزانة العامة أيضا.

7 - 8 - نسخة شرح الدمناتي، ونسخة مقامة حضرة الارتياح، وهذه مطبوعة، ومما يمكن تسجيله حول تأصيل المحقق لهذه القصيدة ما يلي :

أ - اعتمد المحقق على هذه النسخ الثمان دفعة واحدة، فلم يحدد العلاقة بينها بتوضيح النسخة الأصل أو الأم، والنسخ الفرعية أو الثانوية، على حين إن «عملية تسلسل المخطوطات Filiation de textes هي الأساس الأول لكل نشر علمي صحيح» (23).

ومن الخطإ في التحقيق الاعتماد على النسخ دفعة واحدة. فهذه النسخ لم تستنسخ من أصل واحد حتى تعتمد في إقامة النص، دون تحديد العلاقات بينها، وبرجوعنا إلى الأوصاف التي ذكرها المحقق لهذه النسخ، نقف على تباينها. ومن مظاهر هذا التباين أن بعضها تلوح عليه علامة القدم، وربما يكون كتب في القرن الماضي، كما هو الحال في النسخ : 1، 4، 5، 6. بينما هناك نسخ أخرى، يظهر أنها حديثة، كتبت في أوائل هذا القرن، كما هو الحال بالنسبة للنسخة الثانية والثالثة. من مظاهر التباين أيضا أن من هذه النسخ نسخة ناقصة، هي السادسة، كما أن منها نسخا فيها تسمية القصيدة بأنجم السياسة،

---

(23) محمد مندور : في الميزان الجديد. ط 3. ص 213.

ونسخا أخرى خالية من هذه التسمية، هذا بالإضافة إلى أن بعض هذه النسخ نسب القصيدة إلى صاحبها أبي عبد الله المالقي : النسخ 2 ، 3 ، 4 ، بينما خلت النسخة الخامسة من أية نسبة، على حين نسبت في النسخة السادسة إلى ابن الخطيب. هناك تباين آخر ويتمثل في أن النسخة الثامنة مطبوعة بينما بقية النسخ خطية. إذن فما يمكن أن نخلص إليه، هو أن هذه النسخ متباينة من أوجه كثيرة، ومن ثم فتحديد النسخة الأم والنسخ الفرعية بات أمرا ضروريا ما دامت هذه الفروق قد تتيح بالنسبة للمحقق إمكانية المفاضلة بين هذه النسخ.

ب - بلغت هوامش التأصيل ثمانية هوامس، وقد تضمنت في مجملها بعض الاختلافات بين النسخ، وهذا العدد القليل من الهوامش مؤشر على مستوى الضبط الذي وصل اليه تأصيل النص، فأغلب النصوص التي حققها الأستاذ گنون على نسخ متعددة تقل فيها هوامش التأصيل كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذا ملمح من ملامح تطور منهج التحقيق عنده على مستوى التأصيل.

إن ما يمكن أن نخلص إليه في هذا الفصل المخصص لطريقة الأستاذ گنون في تأصيله للمتن، هو أن هذه الطريقة عرفت تطورا ملحوظا، فبعد أن اعتمد في تحقيقاته الأولى على نسخ فريدة، كما هو الحال في "رسائل سعدية" و"ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث"، نجده في تحقيقاته الأخيرة ينطلق من نسخ متعددة، إضافة إلى المصادر التاريخية والأدبية المساعدة. وقد انعكس هذا التطور على مستوى هوامش التأصيل إذ اختفت أو كادت الإشارات إلى الغموض الحاصل في المتن، والناتج عن البياض والسقط والانكسار في الوزن، فقد مكنته المقابلة بين النسخ، من ضبط النص وإقامة معناه. غير أن هذه الطريقة عرفت نوعا من التذبذب، خصوصا أثناء التعامل مع الأخطاء الواردة في المتن، إذ نجد المحقق يحترم الرواية الخطية تارة ويصحح الخطأ في الهامش، وتارة أخرى يتجرأ على المتن ويصحح ما اعتقد أنه خطأ.

الفصل الثاني

القراءة

2 - القراءة

إذا كانت جهود الأستاذ كنون في تأصيل المتن قد عرفت تطورا ملحوظا كما رأينا في الكتب السالفة الذكر، فإن جهوده على مستوى القراءة لم تسر على نسق واحد، ذلك أنها اختلفت باختلاف موضوعات هذه الكتب، وكانت على العموم ضئيلة بالقياس إلى الجهود التي بذلت في تأصيل المتن وهذا ما سنقف عليه انطلاقا من الكتب ذاتها.

1.2 - إن جهود الأستاذ كنون في قراءته لمتن «رسائل سعدية" ضئيلة إذا ما قيست بجهوده السابقة في التأصيل، ذلك أنه خص تأصيل هذه الرسائل بـ : *112* هامشا، بينما نجد هوامش القراءة لا تتعدى *15* هامشا، وتدور هذه الهوامش القليلة حول :

أ - توضيح بعض التلميحات التي ترد في النص والتي قد لا يقف القارئ على المراد منها، فقد تكون الإشارة إلى حديث، كما هو الحال في هامس الصفحة *125* : «هذه إشارة إلى حديث الترميدي والنسائي عن أبي هريرة : يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة، وقد تأوله الأئمة على مالك». وفي أحيان أخرى يكون التلميح الوارد في المتن إلى بيت شعري، تقرأ في هامش الصفحة : *214* «لعل في هذه الفقرة تصحيفا، وهي على كل حال تلميح لقول الشريف الرضي :

سهم أصاب وراميه بذي سلم
من العراق لقد أبعدت مرماك

وقد يكون التلميح إلى شخص، وذلك ما نجده في ص : *234*.

ب - التعليق على بعض الألفاظ ذات الاستعمال الخاص، خصوصا ما ارتبط منها بالاستعمال المغربي ففي الصفحة : *142* نقرأ في المتن : «ويسرح في رياضه الأريض» ونقرأ في الهامش كذا وهو جري على الاصطلاح العامي في اعتبار الرياض مفردا وهو جمع .

من ذلك أيضا ما نصادفه في الصفحة *169*، إذ نقرأ في المتن : «بوفود

المحلات اليهم» ونقرأ في الهامش : استعمل المحلة هنا، وفيما يلي استعمالها العامي بمعنى الجيش. من هذه التوضيحات أيضا ما نجده في هامش الصفحة 54. من أن السعديين يستعملون كلمة "بب" في مقام التحلية والتحبب، ومعناها أبي .

ج - شرح الألفاظ الغريبة، وهذا ما نجده في هوامش ص : 154 ، 155. ونشير على هامش قراءة المحقق لهذه الرسائل إلى الملاحظات الآتية :

1 - لعل أهم شيء ميز هذه القراءة الضبط التام، إذ نجد المحقق يولي عناية خاصة لشكل الكلمات، ولا ندري هل كانت النسخة الخطية مشكولة، لأنه لم يشر لذلك، أم أنه هو الذي اجتهد في ضبطها بالشكل التام، وقد شمل هذا الشكل أسماء الأعلام، وأسماء البلدان والأماكن، كما شمل الشعر والأحاديث الشريفة، والآيات القرآنية.

2 - مما يمكن أن نواخذ به المحقق في قراءته للمتن، أنه لم يشرح بعض الكلمات الغريبة التي تزخر بها هذه الرسائل، والتي لا يستقيم المعنى بدون فهم معناها، فهذه الرسائل نصوص أدبية من النثر المسجوع، ومن ثم ففائدتها بالنسبة للمتأدب، تعادل الفائدة التي يمكن أن يجنيها منها المؤرخ. فهوامش الشرح لا تتجاوز الأربعة في الكتاب كله، من هذه الكلمات على سبيل المثال : النيب ص: 36 . عشمشم، أيهم ص : 45 طوامير، ص: 48 . الرئبال ص : 56 . الضئضئ ص: 150 ... الخ

من الغريب أيضا الذي نصادفه من حين لآخر في المتن، بعض الأسماء والمصطلحات المرتبطة بالجندية، والتي تدل لا شك على رتب الجند في السلم العسكري وعلى أصنافهم، من ذلك : نقرأ في متن الصفحة 92 : يايا باش لار، بلكباش لار، أطنباش لار، يلظاش. وفي الصفحة 118 : الكواهي الباشوظات، الضباشيات .

3 - لم يكلف المحقق، نفسه عناء تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأشعار التي تزخر بها هذه الرسائل. والصفحات التي وردت فيها هذه الآيات هي : 20-27-32-83-85-97-101-107-130-136-177-181 - 184-203-204.

أما الأحاديث فنجدها في الصفحات : 47-136.

أما الأبيات الشعرية والقصائد ففي الصفحات : 16-33-56-208-214-215-223-227-228-229-230-236.

4 - لم يعرف المحقق ببعض الأعلام، من قواد وساسة وملوك، ولا شك أن التعريف الموجز بهم سيساهم في إضاءة الوقائع التاريخية، والسياق الذي كتبت فيه هذه الرسائل. من هؤلاء الأعلام على سبيل المثال : مردخان، ص : 18. أبو عبد الله محمد الشيخ. ص : 55. محمد باي بن سوري، ص : 116. بدر الدين القرافي، ص : 123. سكية، ص : 128.

بالإضافة الى أسماء الأعلام، فهذه الرسائل غاصة بأسماء البلدان والأماكن التي امتدت إليها فتوحات المنصور الذهبي، أو دخلت مع المغرب في علاقة دبلوماسية، كبلدان جنوب الصحراء وبعض الدول الأوربية. وبعض هذه البلدان يحتاج إلى تعريف موجز شأن أعلام الرجال.

إن ما يمكن أن نخلص اليه هو أن جهود المحقق في القراءة لا ترقى إلى مستوى هذه الرسائل، فلا ريب في أنها تضمنت معلومات تاريخية وجغرافية محتاجة إلى توضيح يخفف ما بها من غموض، ويقرب مضمونها للقارئ، ونحن لا نطالب المحقق بأن يثقل الهوامش بالشروح والتعليقات والتخريجات، وإنما نطالبه بحد أدنى من ذلك، مما يسهل الإفادة من المتن دون إسراف.

2.2 - أما بالنسبة لديوان ملك غرناطة فإن الجهد الذي بذل في قراءته يعد ضئيلا بالمقارنة مع ما بذل في تأصيله. وتظهر لنا هذه الحقيقة جلية في ندرة الهوامش المتعلقة بالشرح والتعليق والتعريف بالأعلام. فهوامش الشرح لم تتجاوز خمسة هوامش، انصب الشرح فيها على بعض الكلمات ذات الاستعمال الخاص عند المغاربة والأندلسيين، والتي ربما استشكل أمرها على القارئ المشرقي، من ذلك ما نجده في الصفحة : 11 من شرح لكلمة النواعر : جمع ناعورة وهي دولاب الماء بلسان المغاربة.

وفي الصفحة 68 نقرأ : الخصة في عرف المغاربة هي ما يعبر عنه المشارقة بالفسقية، شمل الشرح أيضا ألفاظا أجنبية، ففي الصحفة 27 نقرأ :

إفنت، لعل المراد هنا الكلمة الاسبانية Enfante وهي تعني ابن الملك، والشيء نفسه في الصفحة 41 ، حيث نقرأ : خوند، كلمة فارسية معناها المطلوب والمدعو.

أما التعليقات - وهي قليلة أيضا - فقد دأب المحقق في أغلبها على تخريج بعض التراكيب الغامضة الملتبسة نحويا كما هو الحال في هوامش الصفحات : 8-9-163، كما أشار في تعليقات أخرى إلى الضرورات الشعرية التي ركبها الشاعر، حتى لا ينكسر الوزن بعدم مراعاتها، وهذا ما نجده في هوامش الصفحات 13 - 82 - 164. أما أعلام الرجال فرغم كثرتها كما يظهر في الفهرس المخصص لها، فإننا لا نقف على تعريف لبعضها في الهوامش، فالشعر السياسي لصاحب الديوان يزخر بأسماء الرجال. ولن يفهم الفهم الصائب في غياب التعريف بالمهم من هؤلاء الرجال، ولعل غموض هذه المرحلة المتأخرة من تاريخ الاندلس هو الذي منع المحقق من الإقدام على هذه الخطوة المنهجية من خطوات القراءة.

3.2 - أما كتاب "المناهل" فقد اقتصد المحقق في قراءته، فلم يثقله بالشروح والتعليقات الكثيرة، وقد شملت جهوده في القراءة :

أ - شرح الألفاظ ذات الاستعمال المغربي، مع الاتيان أحيانا بنظيرها المشرقي، من ذلك : حوز، ص : 18 مكحلة ص 21. عبرة، ص : 44. أساطح، ص : 111 . السعاية، ص : 116 الملف، ص : 155 : نسيج رفيع من الصوف يقال له في الشرق الجوخ .

المظل، ص : 165 : ما يسمى في المشرق بالشمسية. السويقة، ص : 158، البرطال، ص : 178. الخصة، ص : 181 الخ...

شرح المحقق كذلك بعض الألفاظ الأجنبية التي وردت في المتن، من ذلك ما نجده في الصفحة 22 : البقشيش : كلمة تركية معنها الهبة والعطية والجائزة. كما شمل الشرح بعض الألفاظ البربرية ففي الصفحة 24 نقرأ : أسراك : كلمة بربرية تطلق بمعنى الفناء والساحة والمر.

ب - مما يدخل في القراءة أيضا، التعليق على بعض الإشارات التاريخية الواردة في المتن، ص : 118، ص : 156 والإحالات على بعض المصادر، من ذلك إحالة إلى "درة الحجال" لابن القاضي في هامش الصفحة، 21. وأخرى إلى "الاستقصا" للناصري في الصفحة 118.

ومما يمكن أن نأخذه على المحقق في قراءته - بالمقارنة مع الكتب السابقة - إهماله لضبط المتن بالشكل، فالأشعار، وبعض أسماء الأعلام الأجنبية في حاجة إلى هذا الضبط الذي يعصم القارئ من الخطإ في قراءتها، كما لم يخرج بعض الآيات القرآنية كما هو الحال في الصفحات : 81، 213، وبعض الاحاديث النبوية، في ص : 195. هكذا نخلص إلى أن جهود المحقق في القراءة اتسمت بالاقتصاد وعدم الإسراف بالقياس إلى جهوده في التأصيل.

4.2 - ويتمثل الجهد الذي بذله المحقق في قراءته لمتن كتاب " عجالة المبتدي وفضالة المنتهي" في ضبط الأسماء بالشكل التام، وضبط هذه الأسماء يعتبر من بين الأولويات في عمل محققي كتب الأنساب، وتتجلى أهمية هذا الضبط في كون بعض الأسماء تحتمل أكثر من وجه في النطق، يقول عن هذا الجهد : «لعل ضبط الأسماء في كتب الأنساب أهم ما في عمل محققي هذه الكتب ... وقد بذلت جهد المستطاع في هذا الصدد، وكان الامر يقتضي تحرير أعمدة الأنساب المختلفة، وشكلها بالحركات على الوجه الصحيح الذي نطقت به العرب» (1).

وباستثناء ضبط الأنساب بالشكل، فإن الجهود الأخرى التي بذلها المحقق في القراءة ضئيلة، تنحصر في شرح بعض الألفاظ الغريبة، كما هو الحال في هوامش الصفحات : 49، 54، 57، 59، 62، 72. أو في التعريف ببعض الأعلام، دون الإشارة إلى مصدر التعريف، كما هو الحال في الصفحات : 6، 12، 97. كما انصرفت هذه الجهود في أحيان أخرى، إلى توضيح بعض الرموز التي يستعملها المؤلف، من هذه الرموز : "انا" بمعنى أخبرنا، ص : 12. و"نا" بمعنى حدثنا، ص : 11.

ولعل السبب في عدم اهتمام المحقق بالقراءة يعود إلى أن الطرر التي

(1) - عجالة المبتدي وفضالة المنتهي. ص : و.

أثبتها في الهوامش كفته مؤونة الشرح والتعليق، وتدور هذه الطرر في عمومها حول « ضبط بعض الأسماء وتحقيق بعض الأنساب، وتعريف مختصر ببعض من ذكرهم المؤلف من الأعلام» (2). غير أن بعض الأبيات - رغم ذلك - بقيت دون تخريج كما هو الحال في الصفحات : 7، 19، 25، 79، 97، 102 ... الخ، وكذلك بعض الأحاديث، في الصفحات : 11، 49، 56، 72، 80 ... الخ.

5.2 - انحصرت جهود المحقق في قراءة قصيدة " أنجم السياسة" في التعليقات القصيرة، التي ترمي إلى توضيح المعاني الخفية، والنكت البلاغية الواردة في بعض الأبيات، وشرح بعض الألفاظ الغريبة، وتخريج بعض الإشارات إلى القرآن، أو التضمينات. وقد بلغت هذه الهوامش حوالي تسعة عشر هامشا. والملاحظ أن المحقق لم يرد أن يثقل كاهل المتن بالطرر التي تضمنتها النسخة الثانية، التي قال عنها إنها : «تعاليق مفيدة جدا، ويمكن أن يستخرج منها شرح للقصيدة » (3)، وقد سبق أن أثبت الطرر في تحقيقه "لعجالة المبتدي"، لهذه الغاية.

مما يمكن أن نأخذه على المحقق أيضا أنه لم يضبط القصيدة بالشكل على الرغم من أن بعض النسخ كانت مشكولة. كالنسخة الأولى، ونخلص بعد استعراضنا للخطوات التي سلكها الأستاذ كنون في قراءته لهذه الكتب إلى أن الجهود المبذولة في هذه القراءة ضئيلة نسبيا بالقياس إلى ما بذله في تأصيل المتن، ولعل السبب يعود إلى أنه لم يرد إثقال كاهل المتن بالتعليقات والشروحات والتخريجات التي قد يهتدي القارئ إليها بجهده الخاص. وقد جاءت هذه القراءة مختلفة باختلاف موضوعات هذه الكتب.

---

(2) - المرجع نفسه، ص : ج.

(3) - قصيدة أنجم السياسة. مجلة الثقافة المغربية. ع 9. س 1973. ص 21.

الفصل الثالث

مكملات التحقيق

المقدمة

علامات الترقيم

الفهارس

3 - مكملات التحقيق :

1.1.3 - المقدمة:

بين شوقي ضيف أهمية المقدمة في سياق حديثه عن تتمات التحقيق بقوله : «كل كتاب ينهض بتحقيقه شخص، ينبغي أن يقدم له بترجمة مختصرة عن مؤلفه أو مؤلفيه إن تعددوا، ثم يوضح منهج تأليفه، وخاصة إذا كان معقدا، ثم يتحدث عن مصادره التي حشدت فيه، وأخذت مادته... ثم يتحدث عن قيمته ثم يصف نسخته أو نسخه التي اعتمد عليها في نشره وصفا دقيقا... ويوضح المحقق الطريقة التي اتبعها في تحقيق الكتاب» (1).

هكذا تصبح وظيفة المقدمة تقديم النص بدل أن يقدم نفسه بنفسه، وتبرير الإقدام على تحقيقه، وردم الهوة التي تفصله عن القارئ ثم محاولة كسب ثقة هذا القارئ في التحقيق عن طريق وصف النسخ الخطية للكتاب، والحديث عن المنهج المتبع في تأصيلها، ثم الإشارة إلى موضوع الكتاب وأهميته.

وعلى الرغم من قصر المقدمة التي قدم بها الأستاذ گنون لكتاب :رسائل سعدية" فإنه حاول أن يستوفي بعض هذه الشروط ويمكن أن نجمل ما جاء في هذه المقدمة في النقط الآتية :

1 - وصف نسختي الكتاب وذكر مصدرهما

2 - وصف هذه الرسائل في ذاتها، فعددها : 62 رسالة والرسالة الأخيرة منها غير تامة، وتسميتها رسائل إنما هو من باب التوسع، ذلك أنها تشمل إلى جانب الرسائل ظهائر شريفة.

3 - وصف أسلوب هذه الرسائل، وتوضيح قيمتها الأدبية والتاريخية، وذكر كتابها وعدد الرسائل التي كتبها كل منهم.

4 - ومما تجدر الإشارة إليه أن المحقق لم يذكر شيئا عن عنوان هذه الرسائل، هل يوجد في النسخ الخطية، أم أنه من اقتراحه لهذا المجموع؟ أما منهج التحقيق فلم تتضمن هذه المقدمة حديثا عنه، والسبب يعود إلى أن المحقق

---

(1) - شوقي ضيف : البحث الادبي. ص203 - 204.

انطلق من النسخة الخطية الثانية وقابلها في بعض المواطن على بعض المصادر، ومن ثم فلا داعي للحديث عن المنهج ما دامت النسخة الخطية المعتمدة واحدة.

2.1.3 - علامات الترقيم :

ابتدع الإفرنج حديثا، مع ازدهار الطباعة، علامات للترقيم، وجد بعضها عند العرب قديما، تعين هذه العلامات على فهم المكتوب والمطبوع، وتيسر قراءته، وتوضع للفصل بين الجمل، كما يميز بعضها بين ما يدخل في صميم المتن،، وما هو من الزيادات والاقتباسات .

ومن أشهر هذه العلامات (2) : النقطة والفاصلة، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب، والنقطتان : وتستخدمان للشرح وبعد القول والقوسان المنقوشان :( ) ويستعملان لحصر الآيات القرآنية وعلامات التنصيص « " وتستخدمان لحصر النصوص المنقولة وللأحاديث النبوية. والقوسان الكبيران: ( ) ويستعملان لحصر الأعلام. والقوسان المعقوفان : [ ]، ويستعملان للتكملات والإضافات من خارج النص، حين يكون في الكلام طمس، أو يكون فيه نقص لبعض الألفاظ، وتستكمل من نسخ أخرى، أو من المصادر التي ينقل عنها المؤلف، وكذلك حين تضاف كلمة بما يظن أنه سقط من الناسخ. والحاصرتان المتقابلتان < > وتستعملان لما يضاف تخمينا مكان المفقود في النسخة، أي مكان البياض.

هذه أشهر علامات الترقيم التي نصادفها لدى المحققين المستعربين والعرب، ممن التزموا المنهج العلمي في تحقيق المتن، وضبطه حتى تسهل الإفادة منه، فإلى أي حد التزم الأستاذ كنون بهذه الضوابط ؟ وبعبارة أخرى ما حظ تحقيقه لرسائل سعدية من هذه العلامات ؟

من علامات الترقيم التي حظيت باهتمامه : الفاصلة، وذلك لأهميتها في قراءة هذه الرسائل، إذ أن أغلبها من النثر المسجوع، وقد حرص في هذا السياق على وضع الفاصلة بعد كل سجعة، وإذا استثنينا هذه الفاصلة، فإننا نجد اضطرابا في استعماله للعلامات الأخرى، كالأقواس وعلامات التنصيص.

---

(2) - يرجع في هذه العلامات الى : تحقيق التراث. د. عبد الهادي الفضلي. ص 115 - 116. والبحث الادبي. شوقي ضيف. ص 207. وتحقيق النصوص ونشرها. عبد السلام هارون. ص 37 - 38.

فبالنسبة للآيات القرآنية نجده يحصرها تارة بين القوسين الصغيرين المزدوجين، كما هو الحال في الآيات الواردة في الصفحات : 20، 27، 32، 85، 97. وتارة أخرى نجد هذه الآيات محصورة بين القوسين الكبيرين، كما هو الحال في الصفحات 82، 101، 107، 136، 177، 181، 184.

وتارة ثالثة نجد هذه الآيات بدون أقواس تعزلها عن غيرها من الكلام، فلا نكاد نتبينها إلا بعبارة « قال تعالى، قبلها، وهذه ما نجده في الصفحة : 130. وفي أحيان أخرى ترد هذه الآيات ملتحمة بعبارة الرسالة دون أدنى إشارة، من ذلك قوله في الصفحة 203 : «وقد ألفكم الله وجمعكم، فلا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون (3) ، والله معكم»، وقوله في الصفحة الموالية : «والعمل بما يقتضي رضاه، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» (4). أما الأحاديث النبوية فقد وردت خالية من أية علامة تميزها عن غيرها من الكلام، كما هو الحال في الأحاديث الثلاثة الواردة في الصفحة 47.

نجد اضطرابا مماثلا في استعمال علامات الترقيم المختص بالزيادة، فقد درج المحقق على حصر الزيادة بين القوسين الكبيرين، على حين إن العلامة المتعارف عليها في هذا السياق هي القوسان المعقوفان، للزيادة الحاصلة عن المقابلة، أو الحاصرتان المتقابلتان للزيادة الحاصلة عن التخمين.

ففي الصفحة 31 نقرأ : «... من تجار الأقطار الدانية والنائية بحيث (لا يكون) بين الحاضرتين المراكشية والفاسية...» والأولى أن يستعمل هنا الحاصرتين المتقابلتين، لأن الزيادة من تخمينه، والشيء نفسه نجده في الصفحات : 39، 47، 87. وفي الصفحة 166 نقرأ : «... والمكانة التي [حسن] منها الأخذ لنكاية المشركين» فكلمة حسن من تخمين المحقق لهذا يحسن وضعها بين الحاصرتين المتقابلتين.

وهناك كلمات وردت محصورة بين القوسين الكبيرين، دون إشارة في الهامش إلى دلالة هذا الحصر، كما هو الحال في الصفحات : 22، 126.

(3) - سورة آل عمران. الآية 139.

(4) - سورة الانفال. الآية 47.

3.1.3 - الفهارس

على الرغم من أن الفهارس من مكملات التحقيق، فإن لها «المقام الأول بين هذه المكملات، إذ بدونها تكون دراسة الكتب عسيرة كل العسر، فالفهارس تفتش ما في باطنها من خفيات يصعب التهدي إليها، كما أنها معيار توزن به صحة نصوصها، بمقابلة ما فيها من نظائر قد تكشف عن خطإ المحقق أو سهوه» (5).

فالفهارس تسهل الاستفادة من الكتاب، تجعل القراءة اختيارية لا إلزامية، غير أن ما نلاحظه في تحقيق الأستاذ كنون لهذه الرسائل، أنه لم يصنع لها فهارس تحيط بمادتها المتنوعة، باستثناء فهرس واحد، يبين عمن صدرت هذه الرسائل وموضوعها وكتابها، سماه المحقق : "برنامج هذه الرسائل".

ومادة هذه الرسائل متنوعة، ذلك أننا نصادف في كل صفحة منها، أسماء للأعلام وأخرى للبلدان والأماكن، بعضها من المغرب، وبعضها الآخر من السوادان والمشرق وأوربا، كما نصادف آيات قرآنية، وأبيات شعرية، وتنوع المعلومات في هذه الرسائل انعكاس للعناصر المختلفة المتباينة التي كونت الثقافة المغربية في العصر السعدي، وهي العنصر المغربي، والعنصر الأندلسي، والعنصر الأوربي (6) ولن تتاح إفادة المؤرخ والمتأدب من هذه الرسائل دون تذييلها بالفهارس التفصيلية التي تعكس تنوع مادتها وخصبها.

1.2.3 - تكتسي مقدمة ديوان ملك غرناطة أهمية خاصة، ذلك أنها لم تقتصر على تقديم الديوان للقارئ ووصف نسخته فحسب، بل تضمنت أيضا تحقيقا لاسم صاحب الديوان ولتاريخ وفاته، وبعض أخباره. ويمكن أن نجمل النقط التي تضمنتها هذه المقدمة فيما يلي :

1 - بيان أهمية هذا الديوان، فخروجه الى الوجود يعتبر فتحا جديدا في تاريخ الأدب العربي، و "اكتشافا خطيرا" على حد تعبير المحقق، ذلك أنه ديوان لملك شاعر، ساهم في أغلب أغراض الشعر، في زمن آذن فيه نجم الأندلس بالأفول.

---

(5) - عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها. ص 73.

(6) - الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، ص : 65.

2 - تحقيق اسم صاحب الديوان، فقد ضاعت الصفحة الأولى من مخطوطته، وهي المشتملة على عبارة الحمد، وما يحتمل أن تكون متضمنة له من اسم ناظمه، وقد عمد الأستاذ كنون إلى تحقيق اسم المؤلف عن طريق النقد الداخلي لمحتوى الديوان، والنقد الخارجي باستشارة مصادر الأدب، ففي المرحلة الأولى - أي مرحلة النقد الداخلي - اهتدى إلى أن صاحب الديوان هو يوسف الثالث، انطلاقا من الإشارات الواردة في بعض الأبيات، كما اهتدى انطلاقا من إشارات أخرى إلى أن جده هو الغني بالله، وفي المرحلة الثانية عرض هذه الإشارات الطفيفة على مصادر تاريخ الأدب "كدرة الحجال"، ولقط الفرائد" لابن القاضي، و "أزهار الرياض" و "نفح الطيب" للمقري، والمراجع الأجنبية كـ "تاريخ اسبانيا المسلمة" ل : گونزاليس پلانسيا.

3 - الحديث عن شيوخ صاحب الديوان ونشأته العلمية.

4 - وصف النسخة الخطية الفريدة لهذا الديوان، وقد شمل هذا الوصف عدد أوراقها، وطول كل ورقة وعرضها، ومسطرتها، والخط الذي كتبت به، ومستواها في الضبط، والسقط الذي لحقها.

5 - وصف تحليلي نقدي موسع لموضوعات الديوان.

6 - تحقيق وفاة صاحب الديوان انطلاقا من مناقشة مختلف الروايات الواردة فيها، كما ألحق بالمقدمة صورتين لصفحتين من الديوان توضحان الخط وجماله.

2.2.3 - لم يول الأستاذ كنون لعلامات الترقيم كبير عناية في تحقيقه لهذا الديوان، رغم أهميتها في تيسير قراءة المتن وفهم مضمونه، فالفاصلة نجدها في الجزء المتبقي من المقدمة لأنه من النثر المسجوع. أما العلامات الأخرى كعلامة الاستفهام، والتعجب والعارضتين، فلا أثر لهما في مجمل الديوان. ويبقى القوسان الكبيران هما العلامة الوحيدة التي وظفها المحقق لأغراض شتى، إذ نجده يستعملها تارة لحصر أسماء الأعلام : (صاحب فاس)ص : 50. (عثمانكم) ص : 65. (الينور) ص: 45. ويستعملها تارة أخرى لحصر الأبيات والأشطار المضمنة كما هو الحال في الصفحات : 6، 78، 195.

ويستعملها تارة ثالثة لحصر الزيادة التي يقترحها لملء البياض، وهذا ما نجده في الصفحات : 11، 70، 103، 106 . على حين كان عليه أن يستعمل هنا العلامة المتعارف عليها، وهي الحاصرتان المعقوفتان، وفي أحايين أخرى، نصادف في المتن بعض الكلمات محصورة بين قوسين دون أن نقف في الهامش على إشارة إلى دلالة هذا الحصر، كما هو الحال في الصفحات : 2، 18، 40، 53، 54، 86.

3.2.3 - أولى المحقق اهتماما خاصا للفهرسة في هذا الديوان عكس ما فعل في "رسائل سعدية"، حتى يسهل الاستفادة على القارئ فجاءت الفهارس متنوعة تنوع مادة الديوان، وهذه الفهارس هي :

1 - فهرس للمحتويات.
2 - فهرس أبجدي لتكملتي الديوان.
3 - فهرس الأعلام والقبائل.
4 - فهرس الأماكن والبلدان.
5 - فهرس للتواريخ المذكورة في الديوان.
6 - فهرس الكتب المذكورة في الديوان.
7 - فهرس لما في الديوان من أبيات ليست لصاحبه.

وقد جاء ترتيب مادة هذه الفهارس مختلفا، إذ خضعت الفهارس الأربعة الأولى للنظام الألفبائي، وكذلك الفهرس السادس. ولم يراع المحقق في ترتيب مادة فهرس الأعلام والقبائل كلمة "وابن" و "أبو". أما الفهرس الخامس فقد رتب حسب التواريخ، ورتب الفهرس الأخير حسب أسبقية ورود تلك الأبيات والأشطار في المتن، ولو أضاف المحقق لهذا الديوان فهرسا للبحور الشعرية لأسدى للقارئ فائدة جليلة، خصوصا وإنه كثيرا ما يشير في الهوامش إلى الانكسار الذي عرفته بعض الأبيات وإلى اضطراب بعض الأوزان.

1.3.3 - وضع الأستاذ كنون لمختصر " المناهل" مقدمة قيمة بلغت تسع صفحات قدم فيها هذا الكتاب وبين أهميته، ووصف منهجه في التحقيق وطريقة تعامله مع النسخ الخطية. ويمكن أن نجمل الأفكار الواردة في المقدمة فيما يلي :

1 - ضياع أغلب الكتب المتعلقة بتاريخ الدول التي تعاقبت على حكم المغرب.

2 – وصف النسختين، الاصلية والفرعية، وقد شمل هذا الوصف عدد الاوراق والمسطرة والخط، وقد أدرج المحقق وصف النسخة الفرعية في الهامش، كما أشار من جهة أخرى الى نسخة الخزانة الملكية، وهما لأصل الجزء الثاني.

3 – حديث عن المنهج المتبع في التحقيق.

4 – وصف عمل المختصر الذي تميز بنوع من التصرف، تجلى في حذف بعض التعابير التي فيها غلو ومبالغة في المدح والثناء، وحذف بعض الوثائق كالرسائل والبيعات لطولها.

ومما يمكن أن نأخذه على المحقق في هذه المقدمة، أنه لم يترجم لمؤلف "المناهل" عبد العزيز الفشتالي، إذ اكتفى بالإحالة على الحلقة الأولى من سلسلة ذكريات مشاهير المغرب، كما قصر في وصف محتوى نسخة تونس وما اشتملت عليه من إضافات، خصوصا وأنه اتكأ عليها كثيرا في تأصيله للمتن. وهذه النسخة يفوق حجمها المختصر بأكثر من الضعف، وتختص بزيادات تاريخية وأدبية كثيرة، وكان على المحقق أن يشير إلى ذلك باختصار حتى يطمئن القارئ إلى أن المختصر لن يغنيه بحال عن الرجوع إلى الأصل، كما لم يقف المحقق على اسم المختصر، ورجح أن يكون من كتاب المولى محمد بن عبد الله، لولعه بهذا الكتاب وبسيرة المنصور الذهبي، ولا تخفى قيمة التحديد الدقيق لاسم هذا المختصر، خصوصا وأنه عبر باختصاره عن موقف صريح من المبالغات التي اشتمل عليها الأصل، وإذا كان من اللازم في التحقيق العلمي : «أن تدرس حياة كل ناسخ، والسياق الذي نسخ فيه، بالمقدار الذي تدرس فيه حياة المؤلف، ويتأسس على هذا، أنه من الغفلة النظر إلى النساخ على قدم المساواة» (7)، إذا كان هذا شيئا لازما مع النساخ فإن التعرف على حياة المختصرين وعقائدهم بات شيئا ضروريا.

2.3.3 – من العلامات التي حظيت باهتمام المحقق، النقطة والفاصلة، وباستثناء هاتين العلامتين نجد اضطرابا في توظيف بعض العلامات الأخرى، خصوصا القوسين الكبيرين، فالمعروف أن هذين القوسين يستعملان لحصر

---

(7) – محمد مفتاح، ما وراء التحقيق (تحقيق النصوص الصوفية)، ص : 3. عرض ألقي في ندوة ثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب، 15 – 19 دجنبر 1987.

الأعلام، ولا براز بعض الكلمات وإظهارها، غير أن ما نلاحظه على امتداد المتن هو أن المحقق استعملهما لوظائف شتى، منها :

أ - حصر الزيادة التي استفادها من نسخة تونس، أو من بعض المصادر، وهذا ما نجده في الصفحات : 88، 101، 102، 113، 177، 210، وقد كان عليه أن يستعمل القوسين المعقوفين : [ ] فهما العلامتان المتعارف عليهما في هذا السياق.

غير أن المحقق لم يلتزم هذه القاعدة في سائر المتن، إذ نجد زيادات كثيرة بقيت دون حصر، وتستوي في ذلك الزيادات التي استفادها من المقابلة، والزيادات التخمينية، فمن الزيادات التي استفادها من نسخة تونس، والتي بقيت دون حصر ما نجده في الصفحات الآتية : 91، 110، 145، 169، 173، 181، 175، 176، 179، 183، 184، 186، 195، 202، 222، 223، 244، 246. ومن الزيادات التخمينية التي بقيت دون حصر أيضا ما نجده في الصفحات: 145، 195، 232.

ب - لحصر بعض أسماء الأماكن كما هو الحال في ص : 72، 107، حيث نقرأ (المسرة) و(المشتهى)، وهما بستانان للمنصور.

ج - لحصر بعض الأحاديث النبوية الشريفة، كما هو الحال في الصفحة : 195، وهناك محققون يستعملون القوسين المزدوجين لهذه الغاية. أما الآيات القرآنية فهناك تذبذب أيضا في حصرها، فقد جاءت الآية التالية : (أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، إرجع إليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) (8). جاءت هذه الآية محصورة بين قوسين مزدوجين في الصفحة 81، وجاءت في الصفحة 213 محصورة بين القوسين الكبيرين.

إن ما يمكن أن نخلص إليه هو أن فائدة علامات الترقيم في تقديم النص للقارئ تكمن في كونها تنظم القراءة وتيسرها، وتعزل كلام المؤلف عما دونه،

---

(8) - سورة النمل، الآية 37 - 38.

كما أن ضبطها يغني القارئ عن الرجوع إلى الهامش ليتعرف على النص هل هو حديث أم قرآن، وهل الزيادة ناتجة عن المقابلة أم عن التخمين.

3.3.3 – ذيل الأستاذ كنون تحقيقه لمختصر المناهل، بجملة من الفهارس المفيدة، التي حاولت أن تحيط بمادته المتنوعة والخصبة، وهذه الفهارس هي الآتية :

1 – فهرس أبواب الكتاب.
2 – فهرس الأعلام، وقد شمل الرجال والنساء والقبائل.
3 – فهرس الأماكن.
4 – فهرس الأشعار.
5 – فهرس الكتب.

وندرج فيما يلي بعض الملاحظات حول ترتيب بعض هذه الفهارس :

أ – ففيما يخص ترتيب فهرس الأعلام، فالمنهج المعتاد أن يقدم من الألفاظ التي يتضمنها العلم أشهرها تداولا، دون التزام بطريقة النحاة في تقديم الكنية على الاسم، وهكذا فعوض : أحمد بن عيسى النقسيس، ص : 313، نقول : النقسيس أحمد بن عيسى، فالمفروض أن القارئ يعرف أن هناك عائلة النقسيس أولا، ثم أشخاصا ينتمون إليها ومنهم أحمد هذا، وعوض الحسن بن أحمد المسفيوي ص: 314 نقول : المسفيوي الحسن بن أحمد. فهذا الاديب معروف بالمسفيوي أكثر من اسمه. والقارئ إذا أراد جمع بعض المعلومات عنه لا يحتاج أن يبحث مجموع الفهرس ليعرف أن اسمه أحمد، بل يقصد مباشرة لفظ "المسفيوي" ضمن حرف الميم.

ب – كذلك لتسهيل استعمال الفهرس، تحذف الألفاظ الزائدة أو تؤخر إلى ما بعد ذكر العلم، حتى لا نطيل البحث على القارئ من ذلك :

عوض : القائد عبد المولى بن عيسى، ص : 316، نقول عبد المولي بن عيسى (القائد). والشيء نفسه في القائد عبد المومن بن ملوك، ص : 316، والقائد عزوز بن سعيد بن منصور ص : 317... إلخ. وعوض : السلطان مراد خان الثالث ص : 319، نقول : مراد خان الثالث (السلطان).

وعوض : الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد، ص : 318، نقول « أبو عبد الله محمد بن أحمد (الكاتب)... الخ.

ج – هناك بعض الأعلام التي على الرغم من شهرتها، كان من الأجدى أن يذكر اسمها كاملا مع نسبتها، من ذلك :

الأخطل، ص : 314. السلطان أبو حمو، ص : 315

الثعالبي، ص : 314. المقري (صاحب النفح)، ص : 319

1.4.3 – تعتبر المقدمة التي كتبها الأستاذ كنون لتحقيق كتاب "العجالة" أكمل مقدمات تحقيقاته على الإطلاق، ذلك أنها استوفت شروط المقدمة التامة، لما تضمنته من حديث عن الكتاب، ومؤلفه، ونسخه الخطية، ويمكن أن نجمل ما جاء في هذه المقدمة في النقط الآتية :

1 – توضيح معنى اسم الكتاب، وبيان موضوعه، وطريقة ترتيبه وفائدته.

2 – وصف نسخه الخطية الثلاث، شمل هذا الوصف عدد الأوراق والمسطرة وما على هذه النسخ من سماعات وطرر.

3 – تحديد نساخ هذه النسخ.

4 – حديث عن المنهج المتبع في التعامل مع هذه النسخ.

5 – الترجمة للمؤلف انطلاقا من ثلاثة مصادر، لثلاثة مؤلفين ينتمون لأعصر مختلفة، وهذه المصادر هي : "وفيات الأعيان" لابن خلكان. و "طبقات الشافعية" للتاج السبكي، و"شذرات الذهب" للعماد الأصبهاني. فكل هذه المصادر مجمعة على التنويه بعلم المؤلف وضبطه : «وكل ترجمة منها تزيد على الأخرى ببعض الفوائد أو النقول، فيتألف منها جميعا تعريف واف بأحوال المؤلف، وترجمة تقرب من الكمال» (9).

(9) – عجالة المبتدي وفضالة المنتهي، ص : ج.

3.4.2 – من علامات الترقيم التي نالت اهتمام المحقق : النقطة، والفاصلة، ونقطتا التفسير، أما الأقواس فقد وظف منها القوسين الكبيرين، وذلك لحصر أصول الأنساب.

غير أن الجديد في تعامل المحقق مع علامات الترقيم يكمن في أنه لأول مرة يستعمل القوسين المعقوفين : [ ] في المكان المخصص لهما في عرف المحققين، وهو الزيادة المستفادة من النسخ الأخرى، وهذا ما نقف عليه في الزيادات الموجودة في الصفحات الآتية : 22، 23، 25، 56، 107.فقد حصرها المحقق بين القوسين المعقوفين، غير أنه لم يسر على هذا النهج في مجمل الكتاب إذ نصادف زيادات أخرى دون حصر، وهذا ما نجده في الصفحات : 55، 104، 105، 113، 114. أما الأحاديث الشريفة فد وضعها بين القوسين المزدوجين كما هو الحال في الصفحات : 11، 49، 56، 72.

3.4.3 – صنع الأستاذ گنون أربعة فهارس لكتاب العجالة وهي :

1 – فهرس للأنساب مرتبة باعتبار الحرف الأول والثاني .
2 – فهرس القبائل المنسوب إليها، مرتبة أيضا حسب حروف المعجم.
3 – فهرس الأعلام المترجمة في كل نسب، مرتبة حسب حروف المعجم.
4 – فهرس أبواب الكتاب .

وهذه الفهارس كافية للإحاطة بمادة الكتاب، ولإفادة القارئ في البحث عن ضالته، ولو أضاف المحقق فهرسا للأشعار المذكورة في الكتاب لأسدى للقارئ فائدة أخرى، فقد تجاوزت هذه الأشعار عشرين بيتا، ما بين أشعار وردت في المتن، وأخرى وردت في الهامش.

3.5.1 – لعل أهم شيء يميز تحقيقات الأستاذ گنون للقصائد هو تلك المقدمات الوافية التي وضعها لها، فقد بلغت صفحات مقدمة قصيدة "أنجم السياسة" ست عشرة صفحة، عرض خلالها لجملة من القضايا نجملها فيما يلي :

1 – مكانة قصيدة أنجم السياسة بين أشباهها ونظائرها،

2 – تحقيق اسم صاحب القصيدة، فقد نسبت هذه القصيدة لثلاثة شعراء،

هم : ابن الخطيب، والوزير أبو محمد بن المالقي، وأبو القاسم بن رضوان النجاري، وقد سلك المحقق في تحقيقه لاسم صاحب القصيدة الخطوات المتعارف عليها في المنهج التاريخي، وهي الدراسة الخارجية في المرحلة الأولى، ثم الدراسة الداخلية، أو التحليل الباطن لمضمون النص، في المرحلة الثانية. فوقف عند كل اسم من الأسماء الثلاثة التي نسبت لها القصيدة، ورجع إلى كتب التراجم والتاريخ، ثم انصرف إلى الدراسة الداخلية لمضمون القصيدة، فانتهى إلى أن صاحبها الحقيقي هو أبو عبد الله المالقي.

3 - الترجمة لإبن المالقي صاحب القصيدة، مع الإحالة على المصادر.

4 - وصف واف لنسخ القصيدة الثمان.

2.5.3 - كما اختفت الإشارات إلى التصحيح والزيادة من هوامش هذه القصيدة، اختفت كذلك العلامات الدالة على ذلك، خصوصا الأقواس التي تحصر الزيادات من إحدى النسخ، أو من المصادر المساعدة، وهذا مؤشر على مستوى الضبط الذي بلغه تحقيق هذه القصيدة.

نخلص بعد تعرفنا على ملامح منهج الأستاذ كنون في التحقيق، وبعد وقوفنا على تطوره عبر الزمان، ومن خلال نصوصه المتنوعة في مادتها وموضوعها، إلى النتائج الآتية :

أ - لم يكن تعامل الأستاذ كنون مع التراث تعاملا انتقائيا، ذلك أن اهتمامه شمل نصوصا تنتمي الى حقول معرفية متباينة كما أن بعضها ينتمي إلى المغرب وبعضها إلى الأندلس، وبعضها الآخر إلى المشرق.

ب - يعتبر التحقيق في عرف الأستاذ كنون ممارسة ثقافية تدخل في إطار التاريخ للأدب، ومن ثم فإن التعجيل بنشر النصوص وتحقيقها، ولو على نسخة واحدة - بهدف التعريف بها، وتقريبها للقراء، وإنقاذها من الضياع - يعتبر ضرورة حتمية فرضتها المرحلة وما تميزت به من تحد استعماري وفراغ ثقافي.

ج - عرف منهج التحقيق عند الأستاذ كنون تطورا ملموسا، فبعد أن انطلق في تحقيقاته الأولى من نسخ فريدة، تحول في المرحلة الثانية إلى التحقيق

انطلاقا من المقابلة بين النسخ المتعددة، فتمكن بذلك من تقديم نصوص جيدة على مستوى التأصيل، هذا بالإضافة إلى أنه حتى في المرحلة التي كان يؤصل فيها النص انطلاقا من نسخة واحدة كان لا يهمل الاستعانة بالمصادر المساعدة في إقامة النص وتأصيله. ومما يمكن أن يوخذ عليه في تحقيقاته التي اعتمد فيها على نسخ متعددة، أنه كان يعتمد على النسخ دفعة واحدة دون المفاضلة بينها وتحديد النسخة العالية والنسخ الفرعية الثانوية.

كما عرف هذا المنهج تطورا من نوع آخر، فبعد أن وقع التركيز في البداية على الكتب والدواوين الشعرية، نجده ينصرف في الأخير إلى تحقيق النصوص القصيرة سواء أكانت قصائد شعرية أم نصوصا نثرية. ولقد جاء هذا التحول نتيجة لعدة أسباب منها اليسر المنهجي في التعامل مع هذه النصوص، وتوافر نسخ خطية كثيرة عنها. هذا بالإضافة إلى أهمية هذه النصوص وطرافة موضوعها.

د - أما جهوده في القراءة فإنها ضئيلة بالمقارنة مع ما بذله في التأصيل، وذلك راجع إلى أنه لا يريد إثقال كاهل المتن بالتعليقات والشروحات والتخريجات التي يمكن أن يهتدي إليها القارئ نفسه. وقد انصرفت هذه الجهود على قلتها إلى ما هو مهم كضبط بعض النصوص بالشكل، وشرح بعض الألفاظ ذات الاستعمال المغربي.

هـ - أولى الأستاذ گنون مقدمات تحقيقاته عناية خاصة، فبالإضافة إلى وصف النسخ الخطية، نجده يستضيء أحيانا في بعضها بالمنهج التاريخي، إذ يلجأ إلى النقد الداخلي والخارجي في تحقيق عنوان الكتاب، وفي تحقيق اسم صاحبه.وهذه الملاحظة تجعلنا نعيد النظر في تصنيف المقدمات ضمن مكملات التحقيق، كما هو الحال عند جل المهتمين بهذا المجال، ذلك أن هذا الأمر لا يصح في جميع المقدمات، خصوصا تلك التي تشتمل على تحقيق عنوان الكتاب، وتحقيق اسم المؤلف، وتحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه. فأمثال هذه المقدمات هي جزء أساسي من التحقيق ومقدمة ضرورية يجب الحسم في شأنها قبل البدء في عمليتي التأصيل والقراءة. كما تتميز بعض المقدمات خصوصا تلك التي قدم بها للقصائد بالطابع النقدي، إذ يصح اعتبارها بحوثا مركزة لهذه القصائد.

و - لم يعر الأستاذ كنون كبير اهتمام علامات الترقيم، على امتداد جميع تحقيقاته، على رغم أهمية هذه العلامات في ضبط المتن وتيسير قراءته والإفادة منه، وحتى عندما يوظفها في بعض الأحيان فإن هذا التوظيف يتسم بالإضطراب والتذبذب.

ز - أما الفهارس فقد خضعت شأن باقي تقنيات التحقيق لسنة التطور، فبعد أن انعدمت أو كادت في التحقيقات الأولى، نجدها تتنوع في التحقيقات الأخيرة، تبعا لتنوع مادة الكتب واختلاف موضوعاتها.

خاتمة :

كانت الغاية الرئيسية التي حركت هذا البحث هي تتبع ملامح الدراسة الأدبية عند الأستاذ عبد الله كنون باعتباره من الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأولى لهذه الدراسة وأسسوها على ركائز متينة، وفي هذا الإطار وقفنا وقفة متأنية عند أغلب التوجهات الدراسية التي غلبت على اهتمامه، وهي تاريخ الأدب والمقالة بمختلف أضربها وتحقيق التراث.

وقبل أن نلج هذه المباحث الثلاثة ونفصل الحديث فيها ارتأينا أن نمهد لها بحديث عن اتجاهات الدراسة الأدبية بالمغرب مع بداية هذا القرن. فكان أن وقفنا عند نماذج ثلاثة تمثلت في كتاب المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية لمحمد السايح وبعض المسامرات الأدبية وكتاب الأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن العباس القباج. وقد كانت هذه النماذج إعلانا واضحا عن الحاجة الماسة - في بداية هذا القرن - إلى البحث الأدبي الممنهج والمنظم، وصح عندنا بذلك أن تكون هذه البدايات إرهاصا حقيقيا للدراسة الأدبية التي تبلورت فيما بعد وتأسست مع الأستاذ عبد الله كنون على وجه الخصوص.

وقد خصصنا الباب الأول لمفهوم تاريخ الادب عند الأستاذ عبد الله كنون باعتباره المبحث الذي شغل حيزا كبيرا من مصنفاته الأدبية، وانتهينا إلى أن هذا التاريخ الأدبي يقترب عنده من تاريخ الثقافة والأفكار، ذلك أنه أرخ للأدباء والعلماء والفقهاء وكل المشتغلين بشؤون المعرفة والفكر.

أما مفهومه للأدب فمفهوم عام ينسجم مع تصوره لتاريخ الأدب إذ وجدناه يهتم بالنصوص الدينية واللغوية اهتمامه بالنصوص الأدبية الخالصة، فجميع هذه النصوص تعكس نبوغ المغاربة وعلو كعبهم في مجال الإبداع الثقافي على مر العصور.

إلى جانب هذا التاريخ للنصوص نجد تاريخا ببليوغرافيا انصب فيه الاهتمام على أخبار الكتب ومواصفاتها ورحلتها في الزمان والمكان.

وقد جمع الأستاذ كنون بين مكونات هذا التاريخ الأدبي، وهي تراجم الاعلام والمنتخبات الشعرية والنثرية والبيليوغرافيا، بالإتكاء على منهج اتسم في عمومه بالمرونة وكانت المادة الأدبية هي التي تملي عليه المفاهيم والتصورات المنهجية.

وقد خصصنا الباب الثاني لمجال آخر من مجالات الدراسة الأدبية يأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد تاريخ الأدب، ويتعلق بالمقالة الأدبية، وانتهينا بعد استقراء لأغلب مقالات الأستاذ كنون إلى تصنيفها إلى خمسة أضرب، وهي المقالة النقدية والمقالة السجالية ومقالة التعريف بالكتب ومقالة الدراسة اللغوية والمقالة الإصلاحية. وانتهينا بعد مناقشتنا للقضايا التي تطرحها هذه المقالات إلى جملة ملاحظات منها غلبة الجانب الموضوعي على الجانب الذاتي فيها، فقد كان اهتمامه في هذه المقالات منصبا على جانب الدراسة الأدبية وما تقتضيه من تمحيص وبحث واستقصاء، الشيء الذي جعل شخصيته تتوارى خلف الفكرة المطروحة للنقاش ولا تكاد تظهر إلا لماما. كما لاحظنا اختلاف أسلوبه فيها تبعا لاختلاف موضوعاتها، فقد تميزت المقالة النقدية بتعليل وتفسير الأحكام وأفصحت عن تأثره بمقاييس النقاد القدماء ومعاييرهم، بينما استدعت المقالة السجالية أسلوبا آخر يراوح بين الحجاج والجدل من جهة والتهكم والسخرية من جهة ثانية. أما المقالات اللغوية فتميزت بطابع الدرس والتمحيص والبحث، كما تميزت بوضوح الغاية والهدف. وأسلوب المقالة بمختلف أنواعها عنده يشكل ملمحا ومؤشرا واضحا على تطور الكتابة النثرية في ارتباطها بالصحافة.

وانصرف البحث في الباب الثالث والأخير عند الأستاذ كنون إلى تحقيق التراث، وقد مهدنا لهذا المبحث بحديث مقتضب عن اتجاه المستعربين الفرنسيين في نشر النصوص المغربية باعتباره الاتجاه التأسيسي والمتميز الذي سبق

تحقيقات الأستاذ كنون، وخلصنا بعد معاينتنا لبعض نماذج هذا الاتجاه إلى ملاحظات منهجية منها غلبة الجانب الفيلولوجي على تحقيقات هذا الإتجاه، فقد حرص هؤلاء المحققون على إبراز النص إبرازا فيلولوجيا بالمعنى الضيق وضبطه لغويا ونحويا وعروضيا، كما لاحظنا تركيزهم على المتن أكثر من غيره واعتمادهم على المقابلة بين النسخ الخطية أساسا، وغياب التخمين والحدس في تصويباتهم وتصحيحاتهم، وقلة اهتمامهم بالقراءة واقتصاهم في المقدمات.

وركزنا في الفصول الثلاثة التي تضمنها هذا الباب على الخطوات المنهجية التي سلكها الأستاذ كنون في تحقيقاته وهي التأصيل والقراءة ومكملات التحقيق، ولاحظنا في البداية وبعد معاينتنا لنماذج من تحقيقاته تميزت بالتنوع في مادتها وموضوعها، أن تعامله مع التراث لم يكن تعاملا انتقائيا، فقد شمل اهتمامه نصوصا متباينة ومتنوعة. كما انتهينا إلى أن منهج التحقيق عنده عرف تطورا ملموسا فبعد أن انطلق في تحقيقاته الأولى من نصوص فريدة اعتمد في المرحلة الموالية على المقابلة بين النسخ الخطية المتعددة فتمكن بذلكمن تقديم نصوص جيدة على مستوى التأصيل، كما عرف منهجه في التحقيق تطورا من نوع آخر، فبعد أن وقع التركيز في البداية على الكتب نجده ينصرف في النهاية إلى تحقيق النصوص القصيرة، أما جهوده في القراءة فضئيلة بالقياس إلى ما بذله في تأصيل المتن، أما المقدمات فقد أولاها عناية خاصة إذ نجده يعمد فيها أحيانا إلى النقد التاريخي في تحقيقه لعنوان الكتاب أو لاسم صاحبه، وفي مقابل هذه العناية بالمقدمات نجد ضعفا وتذبذبا في توظيفه لعلامات الترقيم. أما الفهارس فقد خضعت شأن باقي التقنيات لسنة التطور، وجاءت فهارس تحقيقاته الأخيرة متنوعة تبعا لتنوع مادة الكتب المحققة.

وبعد خاتمة البحث أضفنا ثلاثة ملاحق سلطنا الضوء في الأول منها على سيرة حياة الأستاذ كنون وبعض ملامح شاعريته، وتضمن الملحق الثاني لقاء كان لنا معه دار حول قضايا الدراسة الأدبية عنده على وجه الخصوص، بينما تضمن الملحق الثالث بعض المقالات المشتتة في المجلات والجرائد والتي لم يجمعها في كتب خاصة.

هكذا نختم هذا البحث المتواضع ونحن على يقين من أننا لم نقل الكلمة الفصل فيه، وما نظن إلا أننا سنعود إلى أبوابه وفصوله لنعيد النظر في بعضها ونعدل من بعضها الآخر إذا امتد الأجل وواتت الظروف.

والله الموفق إلى الصراط المستقيم.

ملاحق

ملحــق : 1

سيرة حياة الأستاذ عبد الله كنون :

إن معرفة السيرة الذاتية لكاتب من الكتاب، أو شاعر من الشعراء، أو عالم من العلماء، من الأهمية بمكان، ذلك أن مراحل هذه السيرة تلقي كثيرا من الأضواء على صاحبها، كما أنها تبين بجلاء ووضوح الظروف العامة التي تأثر بها صاحب السيرة سلبا أو إيجابا. هذه الظروف العامة يكون لها دور كبير في صياغة فكره وتحديد مواقفه.

انطلاقا من هذه الأهمية التي تكتسيها السيرة الذاتية للعلماء والأدباء، ارتأينا أن نفرد ملحقا لحياة الأستاذ عبد الله كنون وتوخينا من هذا الملحق هدفين : أولهما الوقوف على مراحل حياة هذا العالم الأديب، وعلى الأحداث المتتابعة التي تعرض لها في طفولته وأثناء شبابه وفي كهولته وشيخوخته، وثانيهما رصد المؤثرات الفكرية والثقافية التي صاغته على هذا النحو وليس على نحو آخر.

فالأستاذ عبد الله كنون هو عبد الله بن عبد الصمد بن الشيخ التهامي كنون، ولد بفاس، في أسرة عريقة عالمة، عشية يوم السبت 30 شعبان 1326 هـ (الموافق 1908 م) (1) ونشأ في رعاية والده الذي كان عالما من علماء فاس.

غير أن الأسرة لم يطب لها المقام بفاس بعد الاحتلال الفرنسي للبلاد، وما نتج عنه من اضطهاد علماء القرويين من أجل رفضهم للمشروع الاستعماري (2). فقررت الأسرة مغادرة فاس باتجاه المشرق العربي. وهكذا شدت الرحال نحو مدينة طنجة قصد الإبحار منها باتجاه الشرق، لكن ظروف الحرب العالمية الأولى حالت دون مغادرة الأسرة مدينة طنجة، وألزمتها بالبقاء فيها.

وفي مدينة طنجة سيبدأ الطفل عبد الله رحلته في طلب العلم، وسيبدأ أولا بحفظ القرآن في المسيد، ثم سيتلقى دروسا على يد أبيه وبعض علماء طنجة، يقول الأستاذ كنون عن هذه المرحلة : «وتلقيت دروسي العلمية عليه (يقصد أباه) وعلى جملة من العلماء من أخصهم العلامة أبو الهدى أحمد أبو العيش المعروف بمصباح، والعلامة القاضي أبو محمد عبد السلام بن عبد النبي غازي، والاخوان العلامتان أبو عبد الله محمد وأبو العباس أحمد السميحيان وغيرهم» (3).

---

(1) – أحمد عبد اللطيف الجدع وحسن أدهم جرار : من أدب الدعوة الاسلامية، ص 58.

(2) – "عبد الله كنون، التقليد والتجديد" (حوار) مجلة الكرمل عدد 11 السنة 1948، ص : 134.

(3) – عبد الله الجراري : من أدباء المغرب وشعرائه المعاصرين. نسخة مرقونة، ص : 96.

كان الطفل عبد الله، في هذه المرحلة شغوفا بالمعرفة، لا يكل ولا يمل من النهل من مناهلها، حتى إنه يأخذ حصصا إضافية لتنمية معارفه، وتوسيع مداركه، يقول : «وأنا دون الطلبة كنت آخذ سبعة دروس في اليوم سبع حصص يومية، من بينها ثلاثة يدرسها لي أبي، واحدة في الليل، وحصتان في النهار» (4).وكانت هذه الدروس التي يتلقاها متنوعة، فهي «دروس في الفقه، في الحديث، في التفسير، في اللغة العربية، خصوصا النحو والصرف، وأحيانا تكون البلاغة والبيان والمعاني والبديع ثم هذه الخزرجية»(5).

ولم تكن ثقافة الأستاذ كنون تقتصر على هذه المجالات التراثية، بل حاول أن ينوع من ثقافته وأن يطعمها بالجديد سواء من الشرق أم من الغرب، وهكذا كان يقرأ كل ما تصل إليه يده من مجلات شرقية كان أخوه الأكبر محمد أو أبوه يقتنيانها، وهكذا قرأ :المقتطف: و"اللواء" و "المؤيد" و"الأهرام" وغيرها من الجرائد والمجلات. وكان أيضا يولي اهتماما كبيرا لقراءة الأدب الغربي المترجم، فقرأ "تولستوي" و"دوستويفسكي" و"فكتور هيجو"، و"راسين"، و"غوته" (6).

إذا كانت الحصيلة الثقافية للأستاذ عبد الله كنون متنوعة ومتباينة تشمل التراث العربي القديم، والأدب العربي الحديث، والأدب الغربي، إضافة إلى أنه تعلم الفرنسية، ثم الإسبانية يقول في هذا الصدد : «ولا أقول بأن هذه الدروس وهذه العلوم هي ما شكلت حصيلتي، أو ما حدد تكويني. فقد ذكرت سابقا المطالعة، مطالعة الصحف والمجلات والكتب الوافدة علينا من المشرق ألتهم الكتب، كتابين في اليوم من الحجم المتوسط، من هناك كان التكوين الثقافي العام، كذلك الفرنسية التي أخذت دراستها، أما الإسبانية فقد تعلمتها من الشارع، وأصبحت أتقنها فيما بعد (7).

هذه المناهل المتعددة والمتنوعة التي نهل منها الأستاذ جعلت عبقريته تتفتق، ومواهبه تبدأ في الإزهار منذ سن مبكرة، ومن ثم وجد في نفسه ميلا إلى الشعر. فبدأ يمارس نظمه وهو ابن اثنتي عشرة سنة وقد كانت البداية سيرا على المنوال التقليدي، فقال في المدح والرثاء والغزل ...

وفي سن السادسة عشرة أضاف الأستاذ كنون إلى ممارسة الشعر محاولة

---

(4) - مجلة الكرمل سابقة الذكر، ص : 135.

(5) - منظومة الخزرجية : منظومة في العروض قرأها الأستاذ على الفقيه الغازي بطلب منه.

(6) - مجلة الكرمل، ص : 135.

(7) - مجلة الكرمل العدد : 11، السنة : 1984. ص : 134 - 135.

الكتابة، ومثل الشعر، كانت الكتابة أيضا تسير على الطريقة التقليدية، تأثرا بأبيه وعمه وجده، هؤلاء «الذين يكتبون بالطريقة التقليدية من شرح وتلخيص (8) ثم بدأ الأستاذ ينقح أسلوبه ويتخلى عن الطرائق التقليدية تحت تأثير هذه الكتابات الجديدة الوافدة من المشرق، فحبر الأبحاث، وحرر المقالات وألف الكتب في مختلف مجالات العلم والأدب، حتى أصبحت الكتابة والتأليف من الاهتمامات الغالبة على نشاطه الفكري وإنتاجه، يقول في هذا المضمار : "الشعر أول ما يسبق الاهتمام من عمر المثقفين، ومن ثم فلا تجد عالما، أو فقيها، لم يقل الشعر في مطلع حياته، لكن الاستمرار في هذا الاهتمام يتوقف عند انتقال المثقف لما يغلب عليه من التخصصات، (9)، وهكذا تأخر الشعر ليفسح المجال للاهتمامات الأخرى، يقول الأستاذ مضيفا : "وقد اهتممنا بالدراسات الفقهية والأدبية والتاريخية، والاجتماعية، وما إليها، بحكم مهمة الإصلاح التي كنا نضطلع بها، فبقيت ملكة الشعر من المذخرات التي لا نلجأ إليها إلا عند الاضطرار... فالقضايا التي كانت تشغلنا هي أكثر وأوسع من أن تؤدي بالشعر، وكذلك فإن مقام الدعوة والالتزام لا يتوافق مع الانقطاع للشعر، وقد كان والدي - رحمه الله - يكره لي الاشتغال بالشعر، عوض ما أنا مهتم به من مطالب العلم والمعرفة، بالرغم من كوني كنت أحفظ شعرا كثيرا، حتى قال لي مرة : لو أنك تحفظ من الحديث ما تحفظ من الشعر لكنت محدث زمانك» (10).

تلك كانت أهم الروافد الثقافية والفكرية التي ساهمت في تشكيل فكر أستاذنا الجليل.

ولما أحس الأستاذ بجعبته قد امتلأت، أو كادت، أراد أن يفيد غيره بما عنده، لا سيما وأن المغرب، في تلك الفترة، يمر بأحلك فترات تاريخه : فترة الاستعمار الفرنسي الذي حاول، بكل ما أوتي، من قوة، أن يمسخ الشخصية المغربية، وأن يجتثها من جذورها، ولم تكن النخبة المثقفة، آنئذ، لترضى بتلك الوضعية، ولا لتقبل بالمشروع الاستعماري، فانبرت لصد الفكر الاستعماري، بكل ما توافر لديها من وسائل، وكان التعليم والصحافة قناتين من خلالهما حاول المصلحون أن يعلنوا رفضهم للسياسة الاستعمارية، وأن يبثوا في النفوس روح المقاومة والكفاح.

ومن ثم رأى الأستاذ كنون أن من واجبه أن يضطلع بجزء من هذا العبء

(8) - المصدر نفسه، ص : 136.

(9) - المصدر نفسه، ص : 136.

(10) - حوار مع الأستاذ عبد الله كنون، مجلة الفيصل، ع : 137، السنة 12 يوليوز 1988، ص : 44 - 45

الذي تقاسمه الوطنيون في ذلك الحين، وهكذا «أنشأ عام 1936 م مدرسة حرة للبنين والبنات عملت على تخريج كثير من الشخصيات اللامعة بالمغرب، ثم انشأ المعهد الإسلامي وتولى إدارته وتوجيهه حتى سنة 1953» (11).

إن هذه المدرسة التي أسسها الأستاذ گنون هي واحدة من بين عدد من المدارس الحرة التي أنشأها قادة الحركة الوطنية آنئذ، وكانت تحمل رسالة الوطنية ومقاومة الاستعمار بتربية النشء والشباب على التمسك باللغة العربية وبتعاليم الدين الإسلامي من أجل صيانة الأصالة والهوية المغربية من شرك الإستلاب والتغريب والفرنسة.

ويلج الأستاذ گنون مجال الصحافة بعزيمة ثابتة، ووطنية صادقة، كما ولج ميدان التعليم، وقد كانت الصحافة منبرا لمخاطبة عموم المثقفين، وإثارة حماسهم كما كانت وسيلة لنشر العلوم والمعارف. وانطلاقا من أهمية الصحافة سيصدر الأستاذ گنون مجلة "لسان الدين" التي كان ينشر فيها مقالات متنوعة : علمية، وأدبية، وتاريخية، ولغوية، وغيرها. يقول حسن أدهم وزميله في هذا الصدد : «وفي مجال الصحافة أصدر مجلة شهرية باسم "لسان الدين" استمر صدورها ثماني سنوات حفلت بالمواقف المدافعة عن الدين والمبينة لأهدافه، والداعية لمثله، كما حفلت بالأبحاث العميقة التي قدمها الأستاذ عبد الله گنون على صفحاتها» (12).

وبعد ذلك سيصدر الأستاذ جريدة "الميثاق" التي كانت لسان رابطة علماء المغرب، والتي كان يكتب فيها مقالات مختلفة في شتى المجالات. ولم يكتف الأستاذ بالصحافة الوطنية : كتابة فيها أو إصدارا لها، بل كتب في كثير من الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر خارج المغرب فكتب في "الشهاب" التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس، كما كتب في "الرسالة" التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات، وكتب في "الأهرام" وغيرها.

ولم يقتصر جهاد الأستاذ گنون ضد المستعمر الغاشم على ميداني التعليم والصحافة، بل تعداهما ليشمل الميدان السياسي نفسه، فانخرط في الحركة الوطنية، وأصبح أحد أعضائها اللامعين، هذه الحركة التي تأسست بعد استسلام الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي. يقول الأستاذ متذكرا هذه المرحلة : «حركتنا هي كتلة العمل الوطني التي خلقت مع تسليم ابن عبد الكريم عام

---

(11) - المصدر نفسه، ص : 45.

(12) - من ادب الدعوة الاسلامية، ض : 59 - 60.

1925 م في الريف، كانت حركة وطنية، عملا وطنيا بعد ذلك (13). ولما تأسست بالرباط جمعية تحت اسم : "الرابطة المغربية" يوم 22 محرم 1345 هـ الموافق لـ 2 غشت 1926 م. تأسست لها فروع في بعض المدن المغربية الأخري مثل تطوان وطنجة، وكان الأستاذ أحد الأعضاء اللامعين في فرع طنجة، ثم ترأس بعد ذلك فرع كتلة العمل الوطني بها، بيد أنه جمد عضويته بهذا الفرع لما احتد الخلاف بين أعضائه.

وبقي الأستاذ يمارس نشاطه السياسي بطنجة، إضافة إلى نشاطه التعليمي والصحافي إلى حدود سنة 1953 م لما دبر المستعمرمؤامرة إبعاد السلطان محمد الخامس عن عرشه وبلاده وتنصيب سلطان مزور مكانه هو إبن عرفة. لقد لقيت هذه المؤامرة رفضا قاطعا، وسخطا عارما من كل أفراد الشعب المغربي ومن كل القوى الوطنية آنئذ. ولم يكن الأستاذ كنون ليرضى بهذه المؤامرة، ولم يكن يريد تقديم البيعة للسلطان المزور. وهكذا فر من طنجة والتحق بمدينة تطوان ليصعد مع بقية زملائه، من النضال والمقاومة ضد المستعمر، فعين وزيرا للعدل في حكومة تطوان سنة 1954 م، يقول حسن أدهم وزميله في هذا المضمار : «رحبت تطوان بالعالم القادم إليها من مدينة طنجة، فعمل فيها مدرسا في المعهد العالي، ثم مديرا لمعهد مولاي الحسن للأبحاث، ثم اسندت له وزارة العدل في حكومتها» (14).

وبقي الأستاذ في مدينة تطوان يمارس نشاطه دون كلل أو ملل إلى أن حصل المغرب على استقلاله، وعاد السلطان محمد الخامس إلى عرشه، حينذاك عاد الأستاذ كنون إلى طنجة فأسند إليه السلطان منصب العامل عليها، وعمل في منصبه الجديد بما عرف عنه من جد ونشاط وإخلاص للوطن، وكان همه القضاء على النظام الدولي الذي كانت مدينة طنجة خاضعة له، ثم محاولة ربطها بالوطن الأم (15).

وكان الأستاذ كنون رأى أن دوره، كسياسي، قد انتهى، ولذا يجب عليه أن يعود إلى الميدان العلمي والفكري ليفرغ فيه ما بقي من جهده وقوته، وهكذا تخلى عن منصب العامل ليتفرغ للكتابة والبحث والتأليف.

---

(13) - من أدب الدعوة الاسلامية، ص : 62.

(14) - مجلة الكرمل سالفة الذكر، ص : 139.

(15) - من أدب الدعوة الاسلامية، ص : 60.

لقد وقفنا لحد الآن، على بعض الجوانب من شخصية الاستاذ عبد الله كنون، وبقي لنا أن نلم ببعض الإلمام بمجال آخر من المجالات التي أبدع فيها الأستاذ، هذا المجال هو عالم الشعر .

سبقت الإشارة إلى أن الأستاذ كان الشعر من اهتماماته الأولى، فبدأ يمارس نظم القريض في بداية عقده الثاني. وقد كان مما قاله في هذه البدايات قصيدة يتحدث فيها عن ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي يقول فيها (16) :

لدولة الريف فضل وعزة لا تذل
وكره في الأعادي وثورة لا تزل
عبد الكريم أمير بشعبها مستقل

لقد كان الهم الوطني، إذا، شغل الأستاذ أينما حل وارتحل : في العمل السياسي، وفي النشاط التعليمي، وفي مجال الصحافة، ثم أيضا في الشعر، لكن هذه البدايات لم تقتصر على الوطنيات وحدها، بل شملت جل الأغراض التقليدية التي قال فيها الشعراء العرب القدامى، غير أن هذه البدايات، التي كانت تسير على استحياء، لم تكن بالمستوى الشعري الذي يرضي الأستاذ الشاعر، وبعد أن أمعن النظر في هذا الشعر تبين له أن هذا لا معنى له، فمزق كل ما كتب (17).

ولكي تصقل موهبته الشعرية عكف على دواوين الشعر العربي القديم، قراءة وحفظا. ولم يغفل ما كان يروج في الساحة المشرقية، فقرأ لشوقي، وحافظ وغيرهما من الشعراء، يقول متحدثا عن هذا التأثير : «لا أنكر أني نبذت كثيرا من شعري، الذي نظمته في مرحلة الشباب، لما اطلعت على الشعر الحديث في العالم العربي، وخاصة شعر شوقي، وحافظ، والزهاوي، والرصافي وأمثالهم، واستهواني كذلك شعر العقاد» (18) كما عرف أيضا الأدب المهجري في شخص جبران الذي اعجبه وبدأ يتأثر به (19).

وكما سبقت الإشارة، فإن الأستاذ كنون، لم يكن من محترفي الشعر، بل الشعر يحل في المرتبة الثانية من اهتماماته، وكان لا يتطلبه، بل يدع نفسه وهواها، فإذا مالت الى الشعر، وجده يتدفق على لسانه، وإن لم تمل إليه لم

---

(16) - من أدب الدعوة الاسلامية، ص : 60.

(17) - مجلة الكرمل سالفة الذكر، ص : 136.

(18) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(19) - مجلة الفيصل، سالفة الذكر، ص : 45.

يكرهها على ذلك، يقول : «كنت لا أتطلبه ولا أقوله إلا حين يهجم علي ويحاصرني، فأجدني منقادا له منساقا في حبله» (20).

ونظرا لهذه المرتبة التي يحتلها الشعر ضمن اهتمامات الأستاذ، فإنه لم يعن بجمع شعره وإخراجه للناس في ديوان إلا سنة : 1966، هذه السنة التي أصدر فيها ديوانه الأول تحت عنوان : «لوحات شعرية».

على كل حال، فقد صدر الديوان الأول للاستاذ الشاعر ليكون «قطعة من نفسه، وصورة من كفاحه مع الحياة (21)، وضمنه «تجارب معيشة وعواطف جياشة» (22).

ثم بعد ذلك يصدّر الديوان الثاني تحت عنوان "ايقاعات الهموم" يضم بين دفتيه قصائد قديمة لم يشتمل عليها الديوان الأول، وبجانبها قصائد جديدة نظمها في السنين الأخيرة (23).

ولا بد لنا، قبل إيراد نماذج من شعر الأستاذ الشاعر، أن نقف وقفة قصيرة لدى مفهومه للشعر، يقول : «الشعر هو أن تتعاطف مع قضية انسانية أو فكرة إصلاحية أو تجربة وجدانية، وتحسن التعبير عنها جميعا أو عن إحداها بكلام ذي ايقاع موسيقي متناغم الألفاظ متزن المقاطع» (24) إذن فمجالات الشعر عند الأستاذ الشاعر تنحصر في القضايا الإنسانية، أو الأفكار الإصلاحية، أو التجارب الوجدانية، ومعظم شعر الأستاذ يدور في المجالين الأولين، وقلة منه تدور حول التجارب الوجدانية، فهل هذا يعود إلى شخصية الأستاذ المشبعة بالروح الدينية داخل وسطه الذي نشأ فيه ؟

وليس الشعر هو الأفكار وحدها، بل لا بد له من جمال الصياغة المتمثل في تناغم الألفاظ واتزان المقاطع مع المحافظة على الموسيقى والإيقاع..

بعد أن وقفنا على مفهوم الشعر لدى الأستاذ الشاعر، نرى من الأنسب أن نسوق بعض النماذج الشعرية، لنلمس عن كثب مدى شاعرية الأستاذ.

لقد شغلت القضايا الوطنية حيزا مهما من شعر الأستاذ الشاعر وهذه إحدى القصائد التي نظمها بمناسبة حادثة الدار البيضاء، ولن نسوق القصيدة كلها، بل نكتفي ببعض الأبيات منها (25).

---

(20) - مجلة الكرمل سالفة الذكر، ص : 136.

(21) - عبد الله كنون ديوان إيقاعات الهموم، ص : 6. مطبعة سوريا، طنجة : 1401 هـ.

(22) و (23) - عبد الله كنون : لوحات شعرية، دار كريماديس تطوان، 1966، ص : 8.

(24) - إيقاعات الهموم، ص : 5.

(25) - المصدر نفسه، ص : 9.

يحسن قومنا بالغرب ظنا وأحسبه غدا للشرق ضدا
وأحسبه يرانا من وحوش يباكرها مناوشة وطردا
له فينا مآس ليس تحصى وسل عن بعضها شاما وهندا
أما في حادث البيضاء وعظ لمن يرجو من الأغراب رفدا
أما في حادث البيضاء زجر لداعية لهم ما شام رشدا

وله فيها قصيدة أخرى يندد فيها بالظهير البربري إثر صدوره سنة 1930 يقول فيها (26) :

لما رأونا لا تليـ ن قناتنا للغامزينا
وتمرسوا من خربنا بالضاربين الطاعنينا
المقدمين على غمـا ر الموت غير معردينا
واستيأسوا من خضد شو كتنا بقوة غاصبينا
عمدوا إلى بث السمو م لفرقة المتناصرينا
ولبعث نعرة بربر من بعدما كانت دفينا

ولم يقتصر الأستاذ گنون في شعره على قضايا وطنه المغرب، ولكنه عانق قضايا العروبة والإسلام في كل بقاع المعمور، يقول مخاطبا أبناء فلسطين (27) :

ايه أبناء فلسطين لقد خضتم لج المنيات عيانا
واقتحمتم جاحم الموت فلم تأتلوا فيه ضربا وطعانا
صبرا ليس يبالي واحد بألوف من علوج تتداني
عزلا إلا من العزم الذي رد نيران العدا تحكى الجنانا

وبما أن الأستاذ عبد الله گنون كان فقيها وداعية ورجل دين، فإننا سنجد الجانب الديني في شعره يحتل نصيبا وافرا، ومن قصائده الدينية قصيدة يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم، يقول فيها (28) :

أي قلب لا يعتريه وجيب
عندما يذكر اسمك المحبوب؟
جمع الله للقلوب جميعا
فيك من كل ما تحب القلوب
السنا والسناء والحسن والإحـ

---

(26) – من أدباء المغرب وشعرائه المعاصرين، ص : 110 – 111.
(27) – من أدب الدعوة الاسلامية، ص : 72.
(28) – إيقاعات الهموم، ص : 97 – 98.

سان فيك انتهي بها المنسوب
رحمة أنت للعوالم مهدا
ة بأندى من الغمام تصوب
وأمان لها وفك عقال
وغد افضل وعيش رغيب
أنت جليت أعينا كن منها
في غشاء به الظلام يلوب

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان " الحمى الوسيع" (29) :

إلهي بيتك الحرم المنيع
اليه يلتجئ العبد المروع
وإني قد أتيت إليه راكضا
وبي وجل لتقصيري فظيع
أمانك أبتغي وخلاص نفسي
أروم وإن أكن عملي شنيع
فكعبتك الشريفة ينتحيها
لما يرجوه عاص أو مطيع

وإلى جانب الشعر العمودي، فان الأستاذ قد جرب شعر التفعيلة أيضا.

ونكتفي بهذه الجوانب من حياة الاستاذ كنون ونشاطه، لأن الجوانب الأخرى تعرضنا لها في ثنايا البحث.

إن الأستاذ عبد الله كنون شخصية متميزة في مسيرة الفكر والأدب المغربي، يحتل مكانة مرموقة بين رجالات المغرب في القرن العشرين، ونظرا لهذه المكانة فان شهرته لم تقتصر على بلده المغرب، بل تجاوزته إلى كثير من البلاد العربية، وهذا ما أهله ليتبوأ عدة مناصب مهمة وليوشح بأوسمة مختلفة، وفيما يلي مسرد للمناصب التي شغلها، مما لم نذكره سابقا :

- عين عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1955.
- عين عضوا باللجنة الوطنية المغربية لليونسكو سنة 1960.
- انتخب عضوا عاملا ممثلا للمغرب في مجمع اللغة العربية بمصر سنة 1961.
- انتخب أمينا عاما لرابطة علماء المغرب في السنة نفسها.
- انتخب عضوا في مجمع البحوث الإسلامية بمصر سنة 1963.

(29) - المصدر نفسه، ص : 89.

- عين عضوا بالمجلس العلمي بتطوان سنة 1969.
- عين عضوا في اللجنة الاستشارية لإحياء التراث الاسلامي، سنة 1968.
- انتخب عضوا عاملا بهيأة القدس العلمية سنة 1973.
- عين عضوا بالمجلس التنفيذي لمكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1976.
- عين عضوا بمجمع اللغة العربية الأردني سنة 1978.
- عين عضوا بالمجمع العلمي العراقي سنة 1979.
- عين عضوا بالمجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة سنة 1976.
- عين عضوا بأكاديمية المملكة المغربية سنة 1980.
- عين عضوا في مجلس الوصاية على العرش في السنة نفسها.
- عين عضوا في اللجنة الوطنية للثقافة سنة 1982.
- عين عضوا شرفيا بالجمعية لعلم الفلك سنة 1984. 1.
- أهدى مكتبته الخاصة الى مثقفي مدينة طنجة والى عموم مثقفي المغرب سنة 1985.

أما الأوسمة التي حصل عليها فهي :

- وسام العرش من درجة ضابط سنة 1968.
- وسام الكفاءة الفكرية "درجة ممتازة" سنة 1969.
- وسام الحمالة الكبرى للجمهورية التونسية سنة 1969.
- وسام حسني مبارك رئيس الجمهورية المصرية للعلوم والفنون من الدرجة الأولى سنة 1983.

المغرب ما هو الا قطر واحد من هذه الاقطار ولايمكن أن يكون في مقابل هذه الاقطار، والادب العربي بصفة عامة في العصر الاسلامي وفي العصر العباسي كانت تصب فيه جميع البلاد العربية، وكان المغرب نفسه يصب في هذا الادب، وكان من نتائج هذه الوحدة أن وجد شعراء كبار كالمتنبي وأبي تمام والبحتري وأبي العلاء وأبي حيان والجاحظ. فهذا أدب عربي، ولا يمكن أن نقول إن المتنبي شاعر كوفي أو أن المعري شاعر شامي، هذا غير صحيح. كما هو الحال أيضا في الائمة. فلا يمكن أن نقول إن الامام مالكا هو عالم حجازي وأبا حنيفة عالم عراقي، لكن لما تقطعت تلك الصلة وتفرقت البلاد، أصبحنا أمام شاعر مصري وآخر عراقي... الخ، ولم تبق تلك الفورة التي كانت، لهذا في أول هذا القرن لما بدأت النهضة العربية الاسلامية تبعث من جديد، وكانت الطموحات مائلة نحو توحيد هذه البلاد، نبغ فينا شعراء كبار مثل ما حدث في العصر العباسي الثاني والثالث، فظهر أحمد شوقي وحافظ ابراهيم، وشوقي يمكن أن نضعه أمام أي شاعر من الشعراء القدماء، كما ظهر محمد عبده الذي يمكن أن نضعه أمام واحد من العلماء الكبار القدماء. ولما فشلت الثورة العربية وتفرقت البلاد العربية كل واحدة بقوميتها، أصبحنا لا نجد شاعرا يشبه شوقي أو في مرتبته مهما طبل وزمر هؤلاء الشعراء الجدد، ولا عندنا محمد عبده، هناك الشعراوي وغيره، لكن ليسوا في مرتبة وقيمة محمد عبده، هناك التماعات لكنها لا تكفي، ولا ترقى الى مستوى أولئك العلماء الافذاذ. حتى نعود ونرجع الى الجامعة التي تشمل البلاد العربية والاسلامية كلها.

- س: نستنتج من خلال كتاب "النبوغ" أن مفهوم الادب يتسع ليشمل النصوص الادبية من شعر ونثر بالاضافة الى النصوص الدينية والتاريخية، بم تعللون هذا المفهوم العام للأدب ؟

- ج : يشمل اصطلاح الادب كل معنى جميل في عبارة جميلة يؤثر في القارئ أو السامع، ويهز مشاعرَه. وقد استنكر علي بعض الدارسين إدراج بعض النصوص الدينية في كتاب النبوغ كالصلاة المشيشية، والحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي، ونصوص أخرى في التحميد والصلاة، بدعوى أنها نصوص دينية لا تدخل في المفهوم الصحيح للأدب. غير أن الامر خلاف ذلك في رأيي، فالناس الذين يقرأون هذه

الدعوات والصلوات يتأثرون بها وينفعلون وكذلك الذين يسمعونها، وهذا هو الادب، فالتأثير هو المقياس، أو كما قال الزهاوي :

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس حريا أن يقال له شعر

- س : الى جانب انشغالكم بقضايا الادب المغربي في عصوره المختلفة خصصتم كتابا للادب المغربي الحديث، ترى ما هي أسباب هذا التحول من القديم الذي غلب على اهتماماتكم الى الحديث ؟

- ج : كتاب أحاديث عن الادب المغربي الحديث هو عبارة عن محاضرات ألقيتها في معهد الجامعة العربية، وأود الاشارة في البداية الى أنني امتنعت عن الخوض في الادب المغربي الحديث. فقد اتصل بي شفيق غربال مدير هذا المعهد وطلب مني أن ألقي محاضرات في هذا الموضوع فقلت له أنا لا أشتغل بالادب الحديث إنما اشتغل بالادب القديم وأشرت عليه ببعض الاخوان المهتمين بهذا الموضوع. ولما تولى طه حسين إدارة هذا المعهد، فاتحني في الموضوع وألح علي من جديد فقبلت أخيرا وأنا أشعر بصعوبة البحث في الادب المغربي الحديث، فالكتابة عن الادب الحديث في المشرق سهلة، لان دواوين الشعراء موجودة وفي متناول الباحثين. ومدارسهم معروفة، أما عندنا فالادب الحديث غير مدون ومتفرق في الجرائد والمجلات. وهذه هي الصعوبة، علي أن أجمع الادب من شعر ونثر ثم علي أن أدرسه بعد ذلك وأتخير منه، وأعطي رأيي النقدي فيه، الظاهر والمبطن، وهذه مهمات يجب أن يقوم بها عدد كبير من الدارسين.

- س : تعتبر المنتخبات والاختيارات من أهم الحلقات المكونة لتاريخ الادب في تصوركم، كيف تتم عملية الاختيار ؟ وما هي معايير هذا الاختيار ؟

- ج : من غايات الكتابة في تاريخ الادب المغربي بيان نبوغ المغاربة وعلو كعبهم في الادب عبر العصور المختلفة، ولن تتحقق هذه الغاية دون أن نخضع نصوص هذا الادب لعملية الاختيار والانتقاء، فالمفاخرة لا تحصل

بالشعر الرديئ الساقط، وأنا لما أختار أضع أمامي الناس الذين سيقرأون هذا الشعر من الجزائر الى العراق، وهذا هو المعيار الاول، ثم قياس هذا الشعر على الآثار الادبية التي أعرفها منذ العهد الجاهلي والتي قيلت في الموضوع نفسه لذلك خصصت الجزءين الثاني والثالث من النبوغ للمتتخبات النثرية والشعرية.

- **س** : هل هذه المعايير هي نفسها التي تحكمت في وضع المنتخب من شعر ابن زاكور والمنتخب من شعر اليوسي ؟

- **ج** : في الحقيقة إن اليوسي له روح شعرية وله نفس عال يجاري به كبار الشعراء، وله أشعار مهمة وجيدة لكنها مخلوطة باشعار وتوسلات بعيدة عن الادب إطلاقا ، فاخترت أنا منها ما هو قريب الى روح الادب، وكذلك ابن زاكور الذي هو تلميذه. في أشعاره أشياء تبتعد عن الاسلام الصحيح كالتوسل بالاولياء والصالحين، فالادب يجب أن يبتعد عن هذه البدع ويجب أن يكون أدبا حيا ، لهذا قمت بعملية الانتخاب ويسر الله فطبع المنتخب من شعر ابن زاكور ، أما المنتخب من شعر اليوسي فلم ييسر الله طبعه. وأشعار الشعراء فيها الجيد وفيها الرديئ. والشعراء يتشبثون بأشعارهم كما يتشبث الانسان بأبنائه، على ما فيها من جيد وساقط وفي هذا يقول أبو تمام :

ويسيئ بالاحسان ظنا لاكمن
هو بابنه وبشعره مفتون

فالشاعر عندما يقول بيتا يصير مثل ابنه، لهذا يحرص عليه ويتشبث به فالاول يظن أن لا أحد يملك ابنا كابنه والآخر أن لا أحد يملك شعرا كشعره.

- **س** : الى جانب تاريخ الادب حققتم نصوصا تراثية كثيرة، هل التحقيق من الاوليات التي على الدارسين النهوض بها ؟ والى أي حد يمكن أن نحقق نصا انطلاقا من نسخة واحدة ؟

- ج : نشر التراث، هذه مهمتنا، لكن علينا ألا نقف عند التحقيق فقط، فالتحقيق يهيئ للدراسات وعلينا ألا نتوجه كلنا للتحقيق، أو نتوجه كلنا للدراسة، أما عن النشر انطلاقا من نسخة واحدة، فالظروف قد ترغم الانسان على نشر كتاب بالاعتماد على نسخة فريدة لما يضطر ويتأكد أن هذه النسخة هي الموجودة، وتكون مهمته حينئذ أصعب من الذي ينشر بالاعتماد على نصوص كثيرة، وأنا نشرت نصوصا كثيرة نسبيا بالاعتماد على نسخة واحدة بالمقارنة مع محققين آخرين، كرسائل سعدية، وديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، ولو انتظرت حتى أعثر على نسخ خطية أخرى لضاعت هذه الكتب.

- س : عرفت الساحة الثقافية بالمغرب حديثا مناهج جديدة للدراسة الادبية، ما رأيكم في هذه التوجهات الجديدة في دراسة الادب ؟

- ج : ليس هناك مانع في أن تكون هذه المناهج وسيلة لدراسة الادب بدون مبالغة ولا إزراء، وذلك بإدخال قوالب ومصطلحات تزري بأدبنا، مصطلحات بعيدة عن روح هذا الادب، وقد رأيت بعض الاساتذة والدارسين يحللون بعض الاشعار دون أن يفهموا حتى معناها اللغوي، مثلا أحد الدارسين كتب عن قصيدتي في حوادث الدار البيضاء سنة 1947، التي أقول فيها :

يحسن قومنا بالغرب ظنا
وأحسبه غدا للشرق ضدا
وأحسبه يرانا من وحوش
يباكرها مناوشة وطردا
له فينا مآس ليس تحصى
وسل عن بعضها شاما وهندا

الى أن أقول :

أروني فضله من غير نهب
لأموال كلص ليس يهدا
أروني فضله من غير حرب
لإزهاق النفوس تعد عدا

ملحق : 2

لقاء مع الاستاذ عبد الله كنون (30) :

- سؤال : كيف كانت الدراسة الادبية في المغرب حين فكرتم في كتابة تاريخ للأدب المغربي ؟

- جواب : لم تكن بالمغرب دراسة أدبية بالمعنى العميق والصحيح للكلمة في الوقت الذي فكرت فيه في كتابة تاريخ للادب المغربي، الا ما كان من بعض المحاضرات والمسامرات التي كانت تلقى في الاندية الادبية وفي بيوت بعض الخواص أو تحت اشراف سلطة الحماية، كمسامرة النميشي حول الشعر والشعراء وغيرها. وككتاب الاستاذ السايح "المنتخبات العبقرية"، غير أن هذه المحاضرات لم تكن بدافع وضع تاريخ للأدب المغربي أو الالمام به على الاقل في جملته، فقد طغى عليها الاختصار والايجاز، وكان الناس يكتفون أمام هذا الفراغ بالدراسات الادبية التي ظهرت في بداية هذا القرن في المشرق وخاصة في مصر.

- س : هل يمكن أن نجد جذورا لتاريخ الادب في الدراسات التراثية القديمة ؟

- ج : هذا الفن غربي أجنبي ويقال إن المشارقة اقتبسوه من الاوربيين لاسيما من المؤرخين الالمان والطاليان، ولكن مع ذلك يمكن أن نجد في التراث القديم دراسات تمت بصلة قريبة أو بعيدة لهذا الفن، فهناك المجامع أو المجموعات أو الجمهرات، وكتب الحماسة وما إلى ذلك من الأسماء التي كانت تضم بين دفتيها منتخبات من الشعر العربي ابتداء من المعلقات الى كتب الاختيارات.

- س : كيف بدأ اهتمامكم بهذا الموضوع - تاريخ الادب - وما هي الدوافع التي كانت وراء هذا الاهتمام ؟

---

(30) - تم هذا اللقاء مع الاستاذ كنون في مدينة طنجة بمنزله، وذلك صبيحة يوم الأربعاء 2 دجنبر 1988. ودام حوالي ساعة ونصف.

- ج : لما كنت أطالع الكتب التي ألفها المشارقة في تاريخ الادب العربي، وأنا طالب في الثانوي، ككتاب زيدان وكتاب الرافعي وغيرهما، كنت استشكل ألا يكون للمغرب ذكر في هذه المصنفات، وكنت أشعر بنوع من الغبن نحو هذا القطر العربي الذي ساهم منذ القدم في بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية، فقد يذكر هؤلاء المؤرخون تونس والقيروان والاندلس ولا يذكرون فاس ومراكش بقليل أو بكثير. هذا الاهمال جعلني أهتم بالموضوع أكثر ودفعني الى التفكير في رد الاعتبار لأدب وتاريخ هذا القطر. فبدأت البحث والتنقيب وجمعت المادة من المصادر وأغلبها مخطوط فوجدت نفسي وأنا في المراحل الاولى من البحث أمام أدب جيد لا يقصر في مادته عن الادب العربي في المشرق. ولما جمعت تلك المادة وراجعتها مرارا وتخيرت منها الجيد صح عندي أن تكون خميرة لوضع دراسة على الشكل الذي وضعت عليه الدراسات الادبية في المشرق، وتصبح ذيلا وإلحاقا بتلك الكتب. فكان لابد أن تأخذ شيئا من منهجيتها.

- س : هل هناك مصادر شفوية ؟

- ج : أغلب المصادر مخطوطة أما المصادر الشفوية فهي قليلة جدا، ومتأخرة في الزمن.

- س : هل يمكن أن نتحدث عن عوامل أخرى - إضافة الى إهمال المشارقة - كانت وراء اهتمامكم بتاريخ الادب المغربي ؟

- ج : كان المغرب في الوقت الذي صدر فيه كتاب "النبوغ" يعاني من تسلط سياسة الاستعمار، وكان دور هذه السياسة أن تطمس جميع جهود التقدم والتفتح والتطور الادبي. خصوصا لما تربط هذه الجهود بخدمة اللغة العربية التي سعى الاستعمار الى محاربتها فقد كان الاستعمار ينظر الى المغرب على أنه بلاد بربرية من القمة الى القدم وكنت أحرص على أن أظهر أن هذه البربرية لا تأثير لها في الانتاج الادبي لأبناء هذا القطر ولا تشكل أية عرقلة أمام نبوغهم لاسيما وأن الاندلس بلاد ليست بالعربية ولا بالبربرية ومع ذلك نبغ فيها علماء وأدباء كبار. بل إن نبوغ البربر وتفتق ألسنتهم بلغة الضاد كان مبكرا وهذا برهان على

خطإ ادعاءات الاستعمار، ومن أمثلة ذلك طارق بن زياد وسابق البربري... الخ.

بالاضافة الى الدفاع عن العربية التي أدخلتها في اعتباري وأنا أكتب "النبوغ" هناك محاربة الفرنسة والفكر الالحادي أو العلمانية كما يسمونها. فقد كان التلاميذ في فترة الاستعمار يجلسون في المدارس التي أنشأها، أمام أساتذة ملحدين يبثون الفكر الالحادي، أو لهم موقف من الاسلام. لهذا كنت أحرص على أن أحارب هذه التيارات كلها، أحارب الفرنسة في الوقت الذي لم يشعر فيه الناس بخطرها، بل كانوا يتهافتون على أغلب هذه المدارس ويظنون أن إدخال الولد الى الكتاب القرآني وتلقيه العلوم الدينية لا يكفي لحمايته. وكان الفرنسيون أذكى منا، كانوا لا يتشددون في قضية السن ويقبلون تلاميذ تصل أعمارهم إلى 15 و 18 سنة، وكانت نتيجة هذا التعليم أن أبعدوا بعض التلاميذ عن الناحية الدينية وتركوهم متذبذبين وهذه وصية المبشرين الذين يقولون إن نقل المسلم من الاسلام الى المسيحية مباشرة من الصعوبة بمكان، بل ثم وساطة وهي أن ننقله من الاسلام الى الالحاد. وفي الالحاد لما يشعر بالخواء الروحي وبالعطش الروحي نبث فيه المسيحية، والحمد لله فالمسيحية لم تنتشر الا نادرا جدا، لكن بقي بعض التلاميذ مذبذبين في هذه الناحية. وللأسف فهذه النزعة الفرنسية ما تزال قائمة.

فأنا هذه التيارات كلها كنت أقاومها ويمكن أن يلاحظ القارئ ذلك في كل طبعات الكتاب. ففي الطبعة الاولى للنبوغ كنت أقاوم النزعة البربرية، وفي الطبعة الثانية كنت أقاوم مسألة تجزئة المغرب، فقد كانت قضية موريطانيا مطروحة، وأنا كنت أحضر للفكرة بطريقة غير مباشرة، فأرخت لشعراء موريطانيين، أنا لا أسميهم موريطانيين وإنما أسميهم شنقيطيين.

- س: من الاشياء التي نلاحظها في كتب تاريخ الادب التي سلكت طريقة التحقيب السياسي أن الادب يتأثر بالسياسة، فيزدهر بازدهارها، ويتدهور بتدهورها، ألا يمكن أن نعكس الآية ؟ ثم ألا تقوم العلاقة بين الادب والسياسة على نوع من الجدلية ؟

- ج : لا أعتقد أن الادب مرتبط ارتباطا وثيقا بالسياسة، ولا أن السياسة لها تأثير كبير على الادب إلا في حد محدود. يدل على الامرين معا، أن الادب نهض في عصر الانحطاط السياسي والامثلة على ذلك كثيرة، وهناك انحطاط في الادب في بعض عهود المد السياسي والقوة المادية.

- س : لكن لماذا الالحاح في كتب تاريخ الادب على تلك المقدمات التاريخية ؟

- ج : لابد لتنوير رأي الاخوان في المشرق من إيقافهم على تاريخ المغرب السياسي ليربطوا بينه وبين الانتاج الادبي، بل لابد من تنوير قرائنا في الداخل عن هذه الناحية المتعلقة بالتاريخ السياسي، لان كثيرا من هؤلاء القراء لا يفرق بين المرابطين والموحدين ولا بين السعديين والعلويين، ومنهم من يجعل شخصا من العصر المرابطي في العصر الموحدي، فكان لابد أن نميز هذه الحالة. وقد لجأت الى هذا التحقيب السياسي حتى تتميز هذه العصور تاريخيا قبل أن تتميز أدبيا.
ثم ان المغرب كان يعاني من هزة الاستعمار الذي سعى الى طمس تاريخ المغرب والتشكيك في أمجاده. وهذا ما دفعنا الى الاهتمام بالتاريخ السياسي الى جانب التاريخ الادبي.

- س : الى أي حد يمكن أن ندرج اقتصاركم في النبوغ على الادب المغربي فقط ضمن التوجهات الاقليمية في الدراسة الادبية ؟

- ج : الاقليمية هي الاساس لاني أتكلم على المغرب فقط، لكن لا أميز المغرب بشئ، ولا أقول أن الادب المغربي له خصوصية تميزه عن غيره من الآداب العربية، لانه يرقى الى عهد الفينيقيين كما في لبنان أو الى عهد الأشوريين، أو شئ من هذا القبيل. فالكتاب تتميم للذي نسيه الآخرون.

- س : هل معنى هذا أن هناك بعدا وحدويا لهذه الاقليمية ؟

- ج : نعم، هذه هي الغاية التي يرمي اليها الكتاب. ومن الاخطاء الشنيعة التي يقع فيها بعض الشبان وبعض طلبتنا أنهم يجعلون النبوغ في مقابل تاريخ الادب العربي في الوطن العربي، وهذا غير صحيح، لان

فقد ادعى هذا الناقد أنني لم أجد ما أتمم به البيت الاخير فجئت بجملة (تعد عدا) لاتمامه. كما ادعى أن في هذه العبارات مدحا للمستعمر، بدليل أن الارواح التي أزهقها قليلة حتى أنها تعد عدا إذن فهذا من حسناته. فالناقد لم يفهم معنى البيت لان (تعد عدا) غير راجعة الى النفوس وإنما لكلمة في الشطر الاول من البيت وهي كلمة (حرب)، كما أن (تعد عدا) ليست من العد أي الحساب وإنما من العداد بمعنى التهيؤ والاستعداد، فأمثال هؤلاء لا يفهمون حتى اللغة العربية، وثانيا هذا المعنى ورد في التراث عند واحد من شعراء الجاهلية، يقول هذا الشاعر :

اغنــــى غنــــاء الذاهبيــــن أعــد للاعــداء عــدا

لهذا فالقوالب والمقاييس المقتبسة من الغرب تسيء الى أدبنا أكثر مما تنفعه، وقد قلت هذا الكلام في المحاضرات التي ألقيتها بمعهد الجامعة العربية، فيجب أن نضع مناهجنا النقدية على أساس معطيات أدبنا، ويجب أن تكون هذه المناهج قائمة على روح هذا الادب.

- س : هناك جانب آخر من جوانب الدراسة الادبية شغل حيزا ضيقا من اهتماماتكم بالمقارنة مع الجوانب الاخرى، ويتعلق بالشروحات الادبية، فقد وضعتم شرحا للشمقمقية وآخر لمقصورة المكودي، ترى ما هي الغاية من هذه الشروحات ؟ ولماذا إعادة شرح هذه النصوص ؟

- ج : أين هي مقصورة المكودي ؟، لا توجد عند أحد، يقال إن أحد علماء العصر السعدي شرحها، ربما عبد العزيز الفشتالي، وربما غيره، لكن أنا نفسي لم أعثر على شرح لها. وقفت فقط على نسخة منها كثيرة التصحيف، وعلى النص المطبوع وهو أيضا كثير التصحيف. وكذلك الشمقمقية شرحها العلامة الناصري على أساس الشروح القديمة التي تعتمد المعاني والبديع، والاستطراد في الموضوع لكن الشرح مطبوع طبعة فاسية في مجلدين ولا يمكن أن يعاد طبعه.

- س : هل هناك اختلاف في المنهج ؟

- ج : نعم بالطبع هناك اختلاف، لكن المهم أنني قدمت نصا مفقودا، وشرحت معانيه لان معانيه لا تفهم وحدها، بعبارة مبسطة. وحتى عندما يكون هنا اختلاف مع الناصري فانني لا أصرح به، والدليل على أهمية هذا الشرح أنه طبع خمس طبعات، وفي السنغال طلبوا مني 500 نسخة منه.

- س : الى جانب هذين الشرحين الادبيين وضعتم شرحا للقرآن، ما هي الغايات من هذا الشرح أيضا ؟

- ج : لم أشرح القرآن، وإنما شرحت المفصل، وهو القسم الذي يشكل سبع القرآن. فمن الاشياء التي شغلت بالي دائما أن القرآن يجب أن يفهمه الناس والتفاسير التي وضعت للقرآن كبيرة جدا، حتى الكتب المختصرة مثل تفسير الجلالين، مكتوب بطريقة علمية، فهناك ستة أو سبعة معاني مدمجة في بعضها وهذا شئ لا يفهمه حتى الفقهاء، بحيث لما نقرأ تفسير الجلالين نعود للحواشي التي كتبت عليه. ورجعت الى تفاسير بعض المعاصرين، والى تفسير محمد فريد وجدي وقلت مع نفسي لابد أنه سيحقق ما أطمح له لانه رجل مفكر وفيلسوف وله دائرة معارف، غير أنني وجدت شرحه عبارة عن تشقيق للالفاظ وليس هذا هو المطلوب. فقلت هذا تقصير منا نحن، ويجب أن نضع تفسيرا يكون في حجم القرآن أو القرآن ونصف، بلغة العصر، نبتعد فيه عن العربية والنحو والاعراب وما الى ذلك، ونبتعد عن الاصول والمسائل الفقهية، والمذاهب المختلفة، ونقتصر فقط على المعنى الحقيقي ولاسيما التركيز على مسألة التربية الخلقية والنفسية التي جاء بها القرآن، وثانيا المحافظة على العقيدة كعقيدة للتوحيد وكعقيدة علمية، وثالثا بعث الروح والاعتزاز بالاسلام من جديد، وأخيرا فكرت في أن أبدأ في هذه التجربة بهذه السور لانها صغيرة وهي التي يبتدئ بها الناس، ويصلون بها وقد أتعبني هذ الشرح كثيرا (31).

(31) - نعتذر للأستاذ كنون عن أي خطإ غير متعمد ارتكبناه في حقه، أو اي سهو، فقد التقطنا هذا اللقاء من تسجيل لم يكن كامل الوضوح في بعض مقاطعه.

ملحق : 3

مقالات لم يجمعها الاستاذ كنون في كتب

عنوان المقالة	المجلة أو الجريدة	العدد والسنة
– أثر المغرب في العلم واللغة	– مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة	– ج 21، س 1966 .
– أحمد بن شعيب الجزنائي	– المناهل	– ع 2، س [illegible]، مارس 1975 .
– الادب العربي وحدة	– مجلة الانوار	– ع 42، س 1954 .
– الاغزاز وابن اللونقة	– مجلة المجمع العلمي العربي	– ج 3، م 36، تموز 1958 .
– تائية أبي اسحاق الالبيري	– المناهل	– ع 5، س 3، مارس 1976 .
– تصويب	– مجلة المجمع العلمي العربي	– ج 1، م 37، يناير 1962 .
– ترجمة الواعظ البغدادي	– البحث العلمي .	– ع 7، يناير/ابريل 1966 .
– أبو جعفر بن عطية (1)	– مجلة السلام	– ع 2، س 1، نوفمبر 1933
– أبو جعفر بن عطية (2)	– "	– ع 3، س 1، 1933 .
– الجناس وأنواعه في منظومة ابن الطاهر الهواري قاضي فاس	– مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة	– ج 38، نوفمبر 1976 .
– أبو الحسن المسفر	– مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق	– أكتوبر 1961 .
– الحماسة المغربية	– مجلة الانوار	– ع 7، س 1948 .
– حول خطبة طارق	– دعوة الحق	– ع 7/6، س 11، ماي 1968
– حول ديوان ابن عنين	– مجلة المجمع العلمي العربي	– ج 2، م 35، نيسان 1960 .
– حول رؤية ابن بطوطة لابن تيمية	– مجلة المجمع العلمي العربي	– ج 3، م 40، يوليوز 1965 .
– رد على نقد	– مجلة السلام	– ج 7، س 1، ابريل 1934 .
– ابن رشد الفقيه	– دعوة الحق	– 2 دجنبر 1967 .
– سابق البربري	– دعوة الحق	– ع 4، س 21، يوليوز 1980
– الشاعر الانيق أبو حفص بن عمر	– البينة	– يناير 1963 .

– الشامي	– رسالة المغرب	– ج 5، ع 136، يناير 1952 .
– الشيخ أبو شعيب الدكالي والدعوة الى السنة	– دعوة الحق	– ع 7، س 12، جوان 1969 .
– الصاحب الشرقي	– مجلة السلام	– ج 9، س 1، يونيو 1934 .
– ابن الطيب العلمي	– " "	– ع 8، س 1، ماي 1934 .
– أبو العباس العزفي	– " "	– ع 10، س 1، نوفمبر 1934
– العربية أمس واليوم	– مجلة مجمع اللغة العربية	– ج 41، ماي 1978 .
– عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت	– البحث العلمي	– ع 9، س 3، سبتمبر 1966 .
– الغزل (أحمد المهدي الحميري الفاسي)	– مجلة العدوتان	– م 1، ربيع 2/1، س 1371 .
– ابن الغلة	– رسالة الاديب	– ابريل 1959 .
– أبو القاسم الشريف	– ملحق جريدة المغرب	– ع 1، س 1937 .
– القاضي عياض	– دعوة الحق	– ماي 1981 .
– القاضي عياض أديبا	– المناهل	– ع 19، س 7، 1980 .
– القاضي عياض بين العلم والادب	– دعوة الحق	– نوفمبر 1986 .
– قافية ابن عمر الرباطي	– " "	– اكتوبر 1959 .
– مراجعة في شأن تعريف غير، وجمع معجم على معاجم	– مجلة المجمع العلمي العربي	– ج 1، م 39، يناير 1964 .
– ابن مشيش	– مجلة البحث العلمي	– ع 25، س 13، يونير 1976 .
– مكتبة السلام	– مجلة السلام	– ع 7، س 1933 .
– الملك العبقري سيدي محمد بن عبد الله	– دعوة الحق	– ع 5، س 10، أبريل 1967 .
– من أدبنا الشعبي	– مجلة تطوان	– ع 5، س 1961 .
– ابن منصور المغراوي شخصية مغربية	– دعوة الحق	– يونيو 1960 .
– من أعلام المغرب الامام		

الاصيلي	- الثقافة المغربية	- ع 2، 3 مارس/ دجنبر 1970 .
- نظم مثلث قطرب وشرحه	- المناهل	- ع 3، س 2، يونيو 1975 .
- ابن الونان	- مجلة السلام	- ج 5، س 1، فبراير 1934 .
- يوسف بن تاشفين وابن عباد	- " "	- ع 1، س 1933 .

لائحة المصادر والمراجع

1 - مؤلفات الاستاذ عبد الله كنون :

أ - تاريخ الادب :

- أحاديث عن الادب المغربي الحديث، ط 1، دار الثقافة - البيضاء.
- أدب الفقهاء، طبعة دار الكتاب اللبناني. ب، ت.
- أمراؤنا الشعراء، المطبعة المصرية، تطوان 1361 هـ.
- سابق البربري، مطبعة الترقي، دمشق 1969.
- المنتخب من شعر ابن زاكور، ط 1، دار المعارف المصرية 1966.
- النبوغ المغربي في الادب العربي، ط 1، المطبعة المهدية، تطوان 1938.
- النبوغ المغربي في الادب العربي، ط 2، دار الكتاب اللبناني، 1961.
- النبوغ المغربي في الادب العربي، ط 3، دار الكتاب اللبناني، 1975.

ب - التراجم :

- ابن آجروم : سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ابن أبي زرع : " " " " " " " " "
- أحمد زروق : " " " " " " " " "
- الاصيلي : " " " " " " " " "
- أكنسوس : " " " " " " " " "
- الامام ادريس : " " " " " " " " "
- الامير سليمان الموحدي : " " " " " " " " "
- ابن بطوطة : " " " " " " " " "
- أبو بكر بن شبرين : " " " " " " " " "
- ابن البناء العددي : " " " " " " " " "
- أبو جعفر ابن عطية : " " " " " " " " "
- ابن الحاج الفاسي : " " " " " " " " "
- ابن حبوس الفاسي : " " " " " " " " "
- أبو حفص بن عمر : " " " " " " " " "
- ابن رشيد : " " " " " " " " "
- ابن زاكور : " " " " " " " " "

- ابن زنباع : " " " " " " " " "
- السلطان محمد بن عبد الله : " " " " " " " " "
- الشريف الادريسي : " " " " " " " " "
- ابن الطيب العلمي : " " " " " " " " "
- أبو العباس الجراوي : " " " " " " " " "
- أبو العباس العزفي : " " " " " " " " "
- عبد العزيز الفشتالي : " " " " " " " " "
- عبد العزيز الملزوزي : " " " " " " " " "
- عبد الله بن ياسين : " " " " " " " " "
- عبد المهيمن الحضرمي : " " " " " " " " "
- ابن عبدون المكناسي : " " " " " " " " "
- عثمان السلالجي : " " " " " " " " "
- أبو عمران الفاسي : " " " " " " " " "
- ابن غازي : " " " " " " " " "
- أبو القاسم الزياني : " " " " " " " " "
- أبو القاسم الشريف : " " " " " " " " "
- مالك بن المرحل : " " " " " " " " "
- أبو موسى الجزولي : " " " " " " " " "
- ميمون الخطابي : " " " " " " " " "
- الوزير ابن ادريس : " " " " " " " " "
- ابن الونان : " " " " " " " " "
- ابن الياسمين : " " " " " " " " "
- يوسف بن تاشفين : " " " " " " " " "

ج - المقالة الادبية : (33)

- أزهار برية، مطبعة ديسبريس، تطوان، 1976.
- التعاشيب، المطبعة المصرية، تطوان. ب، ت.
- خل وبقل، المطبعة المصرية، تطوان. ب، ت.
- العصف والريحان، مطبعة كريماديس، تطوان. ب، ت.
- معارك، مطبعة ديسبريس، تطوان. ب، ت.
- واحة الفكر، المطبعة المهدية، تطوان، 1948.

(33) - للأستاذ عبد الله كنون مقالات أدبية أخرى لم يجمعها في كتب، انظر بعضها في الملحق رقم 3.

د - دواوين شعرية :

- أشذاء وأنداء، مطابع البوغاز، طنجة. ب، ت.
- إيقاعات الهموم، مطبعة سوريا، 1401 هـ.
- صنوان وغير صنوان، (معد للطبع).
- لوحات شعرية، دار كريماديس، تطوان، 1966.

هـ - الشروح :

- شرح الشمقمقية، دار الطباعة، تطوان، 1954.
- شرح مقصورة المكودي، مطبعة مصطفى محمد، مصر، 1356 هـ.

و - التحقيق والنشر :

1 - الشعر :

- تائية أبي إسحاق الالبيري، مجلة المناهل، ع 5، س 3، مارس 1976.
- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1958.
- قصيدة أنجم السياسة لابن المالقي، مجلة الثقافة المغربية، ع 9، س 1973.
- قصيدة الواعظ الاندلسي في مناقب عائشة (ض)، مجلة المناهل، ع 6، س 3، يوليوز 1976.
- القصيدة الشقراطيسية في مدح المصطفى.

2 - علوم اللغة العربية :

- رسالة في أحكام الاختصاص للشيخ عبد السلام بن الحاج، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ب، ت.
- شرح جمل المجرادي لميارة.
- شرح البوري على منظومة ابن كيران في الاستعارة.

3 - التاريخ والادب :

- رسالة ابن أبي الخصال التي نال فيها من كرامة المرابطين، مجلة المجمع العلمي العربي، ج 4، م 35، تشرين الاول 1960.
- رسائل سعدية، دار الطباعة المغربية، تطوان 1954.

4 - العلوم الاسلامية :

- الانوار السنية في الالفاظ السنية لابن جزي.
- ترتيب أحاديث الشهاب للخزرجي.

- تلقين الوليد الصغير لعبد الحق الاشبيلي، المطبعة المهدية، تطوان 1952.
- رسالة نصرة القبض في الصلاة للمسناوي.
- كتاب الاربعين الطبية للبغدادي، مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، 1973.
- كشف الشبهات لمحمد بن سليمان الدرعي.

ز - كتب إسلامية :

- الاسلام أهدى، دار الطباعة الحديثة، البيضاء. ب، ت.
- إسلام رائد، دار الكتاب اللبناني، 1979.
- تحركات إسلامية، دار الطباعة الحديثة، البيضاء. ب، ت.
- تفسير سور المفصل من القرآن الكريم، ط 1، دار الثقافة، البيضاء، 1981.
- جولات في الفكر الاسلامي، مطبعة ديسبريس، تطوان، 1980.
- الرد على كتيب "هل يجوز الاعتقاد بالقرآن".
- شؤون إسلامية، دار الطباعة الحديثة. ب، ت.
- على درب الاسلام، مطبعة كريماديس، تطوان، 1972.
- فضيحة المبشرين في احتجاجهم بالقرآن المبين، مطبعة رابطة العالم الاسلامي، مكة المكرمة، 1982.
- القدوة السامية للناشئة الاسلامية، دار النشر للجامعيين. ب، ت.
- محاذي الزقاقية، مطبوعات معهد الابحاث العليا المغربية، 1958.
- مجلة لقمان، المطبعة المهدية، تطوان. ب، ت.
- مفاهيم إسلامية، مكتبة المدرسة، بيروت، 1964.
- منطلقات إسلامية، مطبعة سوريا، طنجة. ب، ت.

ح - مختلفات :

- التيسير في صناعة التسفير للشيخ بكر بن ابراهيم الاشبيلي، فصلة من صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، م 8/7، 1960/1959.
- الجيش المجلب على المدهش المطرب (نسخة مرقونة).
- عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب للحازمي، الهيأة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، 1965.
- لقمان الحكيم، المطبعة المهدية، تطوان. ب، ت.
- مدخل الى تاريخ المغرب، مطبعة الوحدة المغربية، 1944.
- نظرة في منجد الآداب والعلوم، معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة، 1972.

- بقية المصادر والمراجع :

- الادب العربي في المغرب الاقصى، محمد بن العباس القباج، ط 1، س 1929.
- الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، د. عباس الجراري، ط 1، مكتبة المعارف، الرّباط، 1979.
- الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، أحمد الناصري، ت محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، البيضاء، 1955.
- أضواء على مشكل التعليم للمغرب، محمد عابد الجابري، دار النشر المغربية، البيضاء. ب، ت.
- الانتلجانتسيا في المغرب العربي، عروض مجموعة بإشراف عبد القادر جغلول، دار الحداثة، بيروت، 1984.
- الببليوغرافيا، لوزير نويل ماليكس، ترجمة بهيج شعبان، ط 1، منشورات عويدات، بيروت، 1974.
- البحث الادبي : مناهجه، أصوله، مصادره. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1972.
- بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، عبد العزيز الدوري، المطبعة الكاثوليكية، بيروت. ب، ت.
- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ط 1، جامعة بغداد. ب، ت.
- البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، تحقيق ليفي بروفنسال و ج.س. كولان، ليدن، 1947.
- تاريخ الادب العربي، أحمد حسن الزيات، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1925.
- تاريخ الادب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحميد النجار، ط 4، دار المعارف، القاهرة، 1977.
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط 4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974.
- تاريخ الشعر والشعراء بفاس، أحمد النميشي، مطبعة أندري، فاس، 1924.
- التاريخ والسير، حسن فوزي النجار، دار القلم، القاهرة، 1964.
- التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين (1900 - 1972)، عبد الله الجراري، مكتبة المعارف، الرباط، 1985.
- تحقيق التراث، د. عبد الهادي الفضلي، ط 1، مكتبة العالم، جدة، 1982.
- تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، ط 1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1954.

- التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، ط 2، دار المعارف. ب، ت.
- التشوف الى رجال التصوف، ابن الزيات، تحقيق أدولف فور، مطبوعات معهد الابحاث العليا المغربية، ج 12، الرباط، 1958.
- التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ابراهيم حركات، ط 1، مطبعة الدار البيضاء، 1985.
- الحافظ الواعية محمد المدني بن الحسني، عبد الله الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1977.
- الحركة الفكرية على عهد السعديين، محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.
- الحياة الادبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد الاخضر، ط 1، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، 1977.
- الخطاب النقدي بالمغرب حول الشعر (1930 - 1980)، ناظم عبد الجليل، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1987.
- الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب، د. أحمد الطريسي، ط 1، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، البيضاء، 1987.
- السلفية والوطنية، عبد القادر الشاوي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1985.
- سعيد حجي، دراسة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي، أبو بكر القادري، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1979.
- شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمان البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980.
- الشعر الاندلسي بحث في تطوره وخصائصه، إمليو غرسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس، ط 2، مكتبة نهضة مصر، القاهرة. ب،ت.
- الشيخ المبدع محمد بن عبد السلام السايح، عبد الله الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1979.
- الصحافة الادبية وجهة جديدة في دراسة الادب المعاصر وتاريخه، شكري فيصل، القاهرة، 1960.
- الصحافة المغربية نشأتها وتطورها، زين العابدين الكتاني، نشرة وزارة الانباء. ب، ت.
- الضحك بحث في دلالة المضحك، هنري برگسون، ترجمة سامي الدروبي ود. عبد الله الدايم، ط 2، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1964.
- طه حسين نقده الادبي ومصادره الفرنسية، الطاهر مفتاح، الدار العربية للكتاب، تونس، 1976.
- عروض في تاريخ الأدب وفي التحقيق، أنجزت تحت إشراف الأستاذ المرحوم محمد الكنوني،في سلك الشهادة الدراسات الجامعية العليا، في موسمي (1984 - 1985) و(1985 - 1986).

- علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روزنتال، ترجمة د صلاح أحمد العلي، بغداد، 1963.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي، محمد الحجوي الثعالبي، ط 1، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، 1396.
- الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، ط 2، دار النهار للنشر، بيروت، 1977.
- فن السيرة، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1956.
- فن المقالة، د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت. ب، ت.
- في تاريخ الادب مفاهيم ومناهج، حسين الواد، دار المعرفة للنشر، تونس، 1980.
- في بلاغة الخطاب الاقناعي، محمد العمري، ط 1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986.
- في الميزان الجديد، محمد مندور، ط 3، مكتبة نهضة مصر. ب، ت.
- قواعد فهرسة المخطوطات العربية، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1973.
- اللغة العربية بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، دار الثقافة، البيضاء، 1980.
- لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب، أحمد زياد، ط 1، دار الكتاب، البيضاء، 1973.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مجمع الامثال، أحمد الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1955.
- محاضرات عن فن المقالة الادبية، محمد عوض محمد، معهد الدراسات العالية التابع لجامعة الدول العربية، 1959.
- المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي، عبد الله الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1976.
- المخطوط العربي منذ نشأته الى أواخر القرن الرابع الهجري، د. عبد الستار الحلوجي، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، الرياض، 1978.
- المدخل الى علم الفهرسة، د. محمد فتحي عبد الوهاب، دار الثقافة، القاهرة. ب، ت.
- مسامرة الشعر والشعراء، عبد الله القباج، المطبعة الرسمية، 1928.
- المستشرقون، نجيب العقيقي، ج 4، ط 4، دار المعارف. ب، ت.
- مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الادب العربي في العصر المريني، د. محمد بن شقرون، دار الثقافة، البيضاء، 1985.
- معجم الخطأ والصواب، د. إميل يعقوب، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.
- المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- مفاهيم نقدية، رينه ويليك، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، فبراير 1987.

- المقالة الادبية في المغرب من سنة 1930 الى 1950، محمد بلشهاب، رسالة لنيل د.د.ع.، كلية الآداب، الرباط، 1981.
- المقالة الادبية ووظيفتها في العصر الحديث، د. عطاء كفافي، ط 1، هجر للطباعة والنشر، 1985.
- مقدمة في المنهج، د. عائشة عبد الرحمن، معهد البحوث والدراسات العربية، 1971.
- من أعلام الفكر المعاصر في العدوتين، عبد الله الجرازي، مطبعة الامنية، الرباط، 1974.
- من وحي التواث، عباس الجراري، مطبعة الامنية الرباط، يناير 1971.
- مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، ط 3، وكالة المطبوعات، 1977.
- مناهج التأليف عند العلماء العرب، مصطفى الشكعة، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.
- مناهج الدراسة الادبية في الادب العربي، د. شكري فيصل، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.
- مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، فرانز روزنتال، ترجمة أنيس فريحة، مراجعة وليد عرفات، دار الثقافة، بيروت، 1961.
- المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية، محمد السايح، المطبعة الرسمية، 1920.
- من التراث الى الثورة، د. طيب تزيني، ط 3، دار دمشق، 1979.
- المنتقى من دراسات المستشرقين، د. صلاح الدين المنجد، لجنة التأليف والترجمة والنشر. ب، ت.
- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، السجلماسي، تحقيق د. علال الغازي، ط 1، مكتبة المعارف، الرباط، 1980.
- منهج البحث الادبي، د. علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1975.
- منهج البحث الادبي عند ابن خلكان، محمد يوسف عامر، رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، ليبيا، مارس 1984.
- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب، د. أمجد الطرابلسي، ط 5، دار قرطبة، البيضاء، 1986.
- نظرية الادب، رينه ويليك وأوستين وارين، ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، ط 3، مطبعة خالد الطرابيشي. ب، ت.
- نظرية المنهج الشكلي، ترجمة ابراهيم الخطيب، ط 1، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1982.
- النقد الادبي الحديث في المغرب العربي، محمد الصادق عفيفي، ط 2، دار الفكر، 1971.

- النقد التاريخي، سنيوبوس ولانكلوا، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضه العربية، 1963.
- الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى، محمد بن تاويت، ط 1، دار الثقافة، البيضاء، 1982.
- وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب، محمد بن عزوز حكيم، مطابع الشويخ ديسبريس، تطوان، 1980.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ومحمد البجاوي، ط 4، القاهرة، 1966.
- وفيات الاعيان، ابن خلكان، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968.
- يتيمة الدهر، الثعالبي، ط 1، دار الكتب العلمية، 1979.

3 - المجلات والجرائد :

- الانباء، ع 2175، 10 فبراير 1971.
- الانوار، ع 7، س 1948. ع 42، س 1954.
- البحث العلمي، ع 1، س 1964. ع 7، س 1966. ع 9، س 1966. ع 12/11، س 1967. ع 16، س 1970. ع 25، س 1976.
- البينة، يناير 1963.
- تطوان، ع 5، س 1961.
- الثقافة المغربية، ع 1، يناير/ فبراير 1970.
- دعوة الحق، فبراير/ اكتوبر 1959. يونيو 1960. يوليوز 1960. فبراير 1963. ابريل 1967. غشت 1967. دجنبر/ ماي 1968. نونبر 1968. يوليوز 1969. مارس 1972. يوليوز 1980. ماي 1981. نونبر 1986.
- رسالة الاديب، أبريل 1959.
- رسالة المغرب، ع 136، يناير 1952.
- السلام، ع 1، 1933. ع 2، نوفمبر 1933. ع 3، 1933. ع 5، فبراير 1934. ع 7، ابريل 1934. ع 8، ماي 1934. ع 9، يونيو 1934. ع 10، نوفمبر 1934.
- العدوتان، م 1، ربيع 2/1، 1371.
- العلم، الاعداد : 52 - 58 - 64 بتاريخ 10 - 18 - 24 نوفمبر 1946. الاعداد :100 - 103 - 106 - 112 - 115 - 122، س 1947.
- اللسان العربي، ع 4، غشت 1966.
- مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ج 3، م 33، تموز 1958. ج 2، م 35، نيسان 1960. ج 4، م 35، تشرين 1، 1960. ج 1، م 35، كانون 2، 1960. ج 1، م 37، يناير 1962.

ج 3، يوليوز 1962. ج 1، م 38، يناير 1963. ج 2، م 38، ابريل 63. ج 4، م 38،
اكتوبر 1963. ج 1، م 39، يناير 1964. م 40، يناير 1965. م 40، يوليوز 1965.
- مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج 2/1، س 1966. ج 38، نوفمبر 1976. ج 41،
ماي 1978.
- مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، ع 2/1، م 6، س 1958.
- ملحق جريدة المغرب، ع 1، 1937.
- المناهل، ع 2، س 2، مارس 1975. ع 3، س 2، يونيو 1975. ع 5، س 3، مارس 1976.
ع 19، س 7، 1980.

4 -. مراجع بالفرنسية :

- BLACHERE (R.) ET SAUVAGET, Règles pour édition et traduction de textes arabes, Paris, Les Belles Lettres, 1958.
- DUBOIS (J.) et Cº, Analyse de la Périodisation littéraire (Colloque), Textes réunis par Ch. BOUAZIS, Editions Universitaires, 1972.
- DUCROT (O.) et TODOROV (T.), Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed. du Seuil, 1972.
- DUPRIEZ (B.), Gradus, Les procédés littéraires (Dictionnaire), coll. 10/18, 1980.
- ESCARPIT (R.), "Histoire de l'histoire de la littérature", in Encyclopédie de la Pleiade, T. III.
- LANSON (G.), Essais de méthode et de critique et d'histoire littéraire, Hachette 1965.
- OLBRECHT-TETYCA (L.), Le Comique du discours, Ed. de l'Université de Bruxelles, 1974.
- OLERON (P.), L'argumentation, P.U.F., 1983, coll. "Que sais-je ?", n° 2087.
- RUDLER (G.), Technique de la critique et de l'histoire littéraires, coll. Ressources, Paris-Genève, 1979.
- TODOROV (T.), "Histoire de la littérature", in Langue Française n° 7, sept. 1970.

فهرس الموضوعات

مطبعة سبارطيل
9 زنقة محمد بن أحمد البقال البوغاز - طنجة

رقم الإيداع القانوني
901/91

يعتبر المرحوم الأستاذ عبد الله كنون من أبرز القمم الشامخة في دنيا الثقافة المغربية الحديثة، وسيبقى علامة مضيئة عبر تاريخ هذه الثقافة على امتداد العصور.

فالأستاذ عبد الله كنون معلم أجيال وداعية ومصلح ديني وعالم فقيه وأديب لغوي ناقد . وكتاباته الغزيرة تجمع بين الهم الثقافي والهم السياسي ولا تكاد تنفصل بينهما، لقد كان بحق ضمير عصره. فدراساته الأدبية الأولى جاءت تحديا للاستعمار الذي أنكر على المغرب أن يكون له كيان علمي وأدبي مستقل، كما كانت مواجهة لكثير من مؤرخي الأدب العربي المشارقة الذين تجاهلوا المغرب في مصنفاتهم.

وهذا الكتاب الذي يصدر اليوم بعد رحيل الفقيد إلى دار البقاء، هو أولا وأخيرا بادرة وفاء وتقدير، لذكرى رجل عظيم، قدم للأمة العربية والإسلامية تراثا فكريا ضخما، ووسم تاريخ الثقافة المغربية بميسمه.

والمؤلف يسعى من خلال هذه البادرة إلى تسليط الضوء على المباحث الرئيسية التي تقاسمت الدراسة الأدبية عنده وهي : تاريخ الأدب والمقالة الأدبية وتحقيق التراث. وأملنا أن يسد هذا العمل المتواضع بعض الفراغ الذي تركه الرجل، وأن يلفت أعين الدارسين إلى غنى انتاجه وتنوعه.

مطبعة سبارطيل
9 زنقة محمد بن أحمد البقال البوغاز - طنجة

رقم الإيداع القانوني
901/91